

تمهيد للمؤلف

ان العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ، قد تغلغت فيه عوامل الانقلاب أبعد منغلغل ، وانبثت في عروقه فواعل التبدل أوسع مُنبث ، حتى كمل اختباره وتم استعداده ، فراح يجتاز هذا الدور الخطير في التحول ، ثوار القوى الى مالا حد له . فاذا ما سرحت ببصرك نحو العالم الاسلامي رقعة رقعة ، من مراکش حتى الصين ، ومن تركستان الى الكونغو رأيت ال ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ من المسلمين ، قد ثارت نفوسهم مشددة الحركة والانفعال ، نازعة الى كل ضرب جديد من ضروب الآراء والافكار ، والمطامح والآمال . وان عقبي هذا الانقلاب الشامل لعظيمة جداً ، وستأثر بنتائجها العميمة أمم الارض جمعاء ، والله الامر من قبل ومن بعد .

على ان العامل الاكبر في هذا الانقلاب هو الحرب العامة . ولكن منشؤه ليراه المستقصى اقدم عهداً وأبعد أصلاً ، اذ ان بذوره قد القيت في تراب العالم الاسلامي قبل الحرب الكبرى بمئة سنة بل أكثر ، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البذور تنمو مزداة الاستعداد والقوة الحيوية ، نمواً مستسراً المنهج ، بطيء الحركة في أول العهد ، ثم على التوالي أوضح سبيلاً وأوسع انتشاراً ، وما زال الانقلاب الاسلامي على مسراه هذا حتى أدركته الحرب العامة التي قد تضعع منها الكيان ، فكانت عامل الثورة فجأة في العمور الاسلامي ، فطفق يشور ويهتاج منتقلاً من حال الى حال ، مربداً الجو بقاتم السحب ، لا يسمع فيه السامع الا القواصف .

وان وصف هذا الانقلاب العجيب ، ودور التحول العظيم ، وما اليهما من مختلف الاسباب والعلل والنتائج ، هو غرضنا الذي قد ابتغيناه من اخراج هذا الكتاب للناس . وقد كنا في ذلك من الذين يصورون الشيء كاملاً تاماً فأتينا على بيان كل صور الانقلاب من دينية ، وتهذيبية ، وسياسية ، واقتصادية واجتماعية وفي كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكوينها ، ونشوءها وترقيتها ، وعمومها وانتشارها ، وصفاتها وحالاتها ، وما فيها من قوة السياق وعامل . أضف الى هذا أننا لم نغفل ايضاح ما في بعض المواضع من الاختلاف

دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر مشدود ، وعلى شدة هذه المسكاره فقد نُصر الاسلام نصراً مبيناً عجيباً ، اذ لم يكد يمضى على ظهوره أكثر من قرنين ، حتى باتت راية الاسلام خفاقة من ﴿ البرانس ﴾ حتى ﴿ حلايا ﴾ ، ومن صحارى أواسط أسية حتى صحارى أواسط أفريقية .

كان لنصر الاسلام هذا النصر الخارق ، عوامل ساعدت عليه ؛ أكبرها أخلاق العرب ، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته ، والحالة العامة التي كان عليها المشرق المعاصر في ذلك العهد . ان العرب ، وان كان ماضيهم مابرح منذ عهد متناول في القدم حتى عصر الرسالة ماضياً غير مشرق باهر ، فقد كانوا أمة استودعت فيها قوة عجيبة ، تلك القوة الكامنة التي بدأت منذ نشوء الاسلام تظهر جليلة الى عالم الوجود . فقد ظلت بلاد العرب أجيالاً طوالاً من قبل محمد صلوات الله عليه وآله مباءة يشد فيها زخار القوى الحيوية ، وجيشان العوامل الروحانية . كيف لا وكان العرب قد فاقوا آباءهم وأجدادهم ايغالاً في الشرك والوثنية . واتفقوا عليهم وهم على هذه الحالة عهد ليس بالقليل حتى استحات عناصر أمرجتهم من شدة ذلك كله فصاروا تواقين بفعل غرائزهم وأخلاقهم الى تبديل حالهم وتحسين شأنهم . هكذا كانت حالهم العقلية والنفسانية ، حالة الاستحاة الكبرى ، والانقلاب العظيم ، والاستجداد الكبير ، لما صاح فيهم نفير الاسلام . ان محمد وهو عربي من العرب ، الا روح قومه متجسدة ، ونفسهم متجسمة ، استطاع محمد ، وهو يبشر بالوحدانية تبشيراً عالياً عن زخارف الطقوس والأباطيل ، أن يستثير حق الاستشارة من نفوس العرب الغيرة الدينية ، وهي الغيرة الكامنة متمكنة على الدوام في كل شعب من الشعوب السامية . واذهب العرب انصرة دعوة ابن عبدالله ، من بعد ما ذهبت من صدورهم الاحن المزمنة ، والعداوات الشديدة التي كان من شأنها من قبل الذهاب بحولهم وقوتهم ، وانضم بعضهم الى بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة في رأسه نور للناس وهدى للعالمين ، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحاريهم في شبه الجزيرة ، ليفتحوا بلاد الاله الأحد الفرد الصمد .

أجل ، هب الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزعزع ، فلاقي في سبيله جواً روحانياً خالياً ، في ذلك العهد كانت كلتا مملكتي فارس وبوزنطيه باديتين للعيان كأنهما اللحاء الجاف فارق عوده ، لانمو فيه ولا حياة ، وكان الدين في كل من هاتين المملكتين صار

ذينا يزرى عليه ويسخر منه . أما في فارس فقد كان دين « المزدكية » القديم قد انحط انحطاطاً كبيراً حتى أصبح مجوسية باطلة وصناعة خداعة بين أيدي الموابذة يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قسوة ، فكره الناس ذلك الدين في الباطن كرها شديداً ومقتوه مقتاً عظيماً .

وأما في القسم الشرقى من المملكة الرومانية، وهو مملكة بيزنطية فقد ألبس الدين فيها لباساً غير لباسه الأول فاستحال الى الأباطيل الشركية وانتشرت فيه الأوهام والخزعبلات التي كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذوو العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، فعدت النصرانية عبثاً وسخرية . وعلى الجملة فقد كانت البدع والضلالات قد مزقت « المزدكية » الفارسية والنصرانية البيزنطية شرمزق ، وبذرت في كل منها بذور الاضطهادات الهمجية والعداوات الوحشية ، فتمت تلك البذور نمواً هائلاً . ولا يغربن عن البال انه كان على رأس كل من بوزنطية وفارس سلطان مستبد قاهر ، وملك عات أرقق الرعية ارهاقاً لا قبل لأمة باحتمال مثله ، فأتت كل عاطفة من عواطف حب الوطن والاخلاص للدولة . زد على جميع ذلك ان هاتين المملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بعيد حرب طاحنة التظت نيرانها بينهما خرجت كلاهما منها مفتوتاً في عضدها ، منهوكة قواها .

هكذا كانت حالة العالم لما غشيه طوفان الاسلام ، وعلى هذا الاعتبار ترى أن العاقبة التي رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لا بد منه ولا منتدح عنه ، وجميع ما في الأمر ان كتائب المملكة الرومانية الشرقية، ومترعة فارس ، كانت من قبل خوضاً حربية فتاكاً ، لم تقو الآن على صد حملة الحاملين عليهما من أمة الصحراء المتعصبة ، فسقطت أمام الفاتحين العرب سقوط الثلاثي والاعياء ، فلهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم جسداً أبطلاً ، بل ان هذه الأمم التي كانت حتى الفتح الاسلامي مدقوقة العنق من جانب ملوكها ، قبلت الفاتحين مستسلمة ، فقام عديد أرباب البدع يتהלلون فرحاً وسروراً لنجاتهم من نير المضطهدين الممقوتين . ولم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل في دين النبي العربي أفواجاً ، ايثاراً له بجدته وسذاجته على دينك الدينين اللذين صارا غاية في الانحطاط والتدننى . وقد عرف العرب بدورهم كيف يستندى الحكم ويوثق سلطانهم . انت لهم أمور الملك واستقرت نقطة دائرتها في أيديهم . فالعرب لم يكونوا

قط أمة تحب اراقة الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا ، على الضد من ذلك ، أمةً موهوبة جليل الاخلاق والسجايا ، توافقه الى ارتشاف العلوم ، محسنةً في اعتبار رعم التهذيب ، تلك النعم التي قد انتهت اليها من الحضارات السالفة . واذ شاع بين الغالين والمغلو بين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة - الحضارة العربية ، وهي جاع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي ، ذلك الجاع الذي نفخ فيه العرب روحاً جديدةً ، فنصر وأزهر ، وألقوا بين عناصره ومواده بالعبقريّة العربيّة والروح الاسلاميّة ، فاتحد وتماسك بعضه ببعض ، فأشرق وعلا علواً كبيراً . وقد سارت الممالك الاسلاميّة القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (٦٥٠ — ١٠٠٠ م) أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارةً ورقياً ، وتقدماً وعمراً ، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والجواضر العامرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العامية المنظمة ، وفيها مجموع حكمه القدماء ومختزن علومهم ، يشعان اشعاعاً باهراً . طول هذه القرون الثلاثة ما انفك الشرق الاسلامي يضيء على الغرب النصراني نوراً ، ثم غابت كواكبه ، وأفلت أنجمه ، حتى أدركته ليايله السوداء وأجياله المظلمة .

لم يكد يستهل القرن العاشر حتى تبدت الظواهر الواضحة تدل على حينونة العهد الذي أخذت فيه الحضارة العربيّة في الانحطاط ، وما كانت تلك الظواهر انكذب فيما دلت عليه ، غير ان تلك الحضارة انما كانت في أوائل عهد الانحطاط تهبط دركةً دركةً ، وعلى هذه الحال المستمرة ، وانقضاء العصر العربي منذ القرن العاشر ، فقد دامت الحضارة العربيّة جلدة تنزع حياتها من مخالب الفناء انتزاعاً ، وسابقة للغرب النصراني ، حتى حلول النازلة الكبرى التي حلت بساحتها في القرن الثالث عشر . وكانت الأسباب في انحطاط الحضارة الاسلاميّة جمةً ، أشدها أن روح الشقاق القديمة الأصل ، تلك الروح التي كانت على الدوام آفة سياسيةً تنخر في جسم الدولة ، عادت فظهرت اذ نشأ التنازع على امارة المؤمنين ، وهذا التنازع قد أفضى الى قن دموية ، وهذه القن وما فيها من حوادث الاغتيال وسلب الأرواح قد أفنت تلك الحرارة التي عرفت في صدر الاسلام ؛ فقام مقام الأبطال الأول ، مثل أبي بكر وعمر حاملي لواء الاسلام الأولين ؛ أمراء دنيويون اتخذوا الخلافة وسيلة للجبور والظلم ، والتباهي بمتاع الدنيا وأعراضها . وكانت الخلافة في المدينة في الحجاز ؛ ثم نقلت الى دمشق في سورية ،

ثم الى بغداد في العراق . أما في الحجاز فلم يكن البغي ولا الاستبداد هناك مستطاعاً ، لأن
عرب الصحراء الأشداء ، أهل الاستقلال والحرية ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر ولا
الانقياد لأمر مرهق ، وقد أوصاهم النبي بالحرية والشورى ؛ فقال لهم قولاً مبيناً : (انما
المؤمنون اخوة)^(١) وقد كانت الخلافة في الحجاز شوروية قائمة على قواعد الاسلام الصحيحة
وأركانها . فالأمة هي التي اختارت أبا بكر وعمر وولت كلا منهما عليها خليفة ، وكلاهما كان
ينزل على رأى الأمة وحكمها ، وذلك على مقتضى الشريعة التي أوحى الله بها الى نبيه محمد
وهي القرآن الكريم

وأما في دمشق ، ولا سيما في بغداد، فقد تحولت الأحوال وتبدلت الأمور، ولا يعجب
من ذلك والعرب الصحراء الاقحاح، الجارى في عروقهم الدم العربى البحت، الدم المتحدّر
اليهم من أصلاب أبناء الجزيرة ، انما كانوا فئة قليلة في أفواج الناس وطوائف الخلق الذين
لا عداد لهم من أهل الشام وفارس وغيرهم من سائر المغلوبين المنتحلين الاسلام حديثاً ؛
فامتزج دم الغالب بدم المغلوب ؛ وجع الاسلام بين الأجناس المختلفة والنحل المتنوعة . ولما
كانت هذه الشعوب المغلوبة قد سئمت كلّها الذلّ من ملوكها السابقين فعادت بسبب ذلك
لا تقوى على احتمال الارهاق والصبر على المحنة ، لحدثان مادانت خاضعة مصادفة للخلفاء
المسلمين الذين أخذوا على التوالى يصطنعون ويستكفون من هذه الرعايا عمالاً وحاشية ؛
وبالتالى جنّداً لحراسة سياج الملك والذب عن حياض الدولة . وما زال الأمر هكذا حتى عرا
الملك العربى ماعراه من النوائب ، فأخذ ظل سلطان العرب ، وقد ولت غرر أيامهم ، يتقاص
الى الصحراء ، وأنشأت حكومتهم تنقلب الى مطية من مطايا الاستبداد الشرقى . ولما نقلت
الخلافة الى بغداد بقيام دولة بنى العباس (٧٥٠ م) ازدادت كلفة الفرس نفوذاً وامتد شأنهم
وسلطانهم الى كل زاوية من زوايا الدولة ، وما اخلiffe الأعظم هرون الرشيد^(٢) ، بطل « الف

(١) هذه آية قرآنية وليست حديثاً نبوياً — العرب

(٢) نعم كان هارون الرشيد جباراً سفاكاً للدماء على نمط غيره من ملوك الشرق المستبدين . وقد كاد
يبطش بالامام الشافعى تهمة أنه يميل الى أولاد علي . كما ان ولده المتصم أمر بضرب الامام احمد بن حنبل
لانكاره القول بخاق القرآن . وكما ان مالك بن انس امام دار الهجرة ضرب في أيام المنصور لقوله ليس لمكره
يعين . فاذا كان هذا هو العمل مع مثل اولئك الأئمة العظام؛ مصايح الاسلام الذين أناروا براهينه وشرعوا
قوانينه ، وكانوا من العلم والزهّد والتقوى بالمكان الذى لا يخفى ؛ فاطنك بحالة غيرهم من الامة . والحقيقة

لية ولية»^(١) الا الملك العربي على شاكلة ملوك الفرس مثل قياكسرو وكسرى أنوشروان، خلافاً كل الخلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر. وفي بغداد كما في غيرها من سائر حواضر المملكة الاسلامية كان الاستبداد مقوضاً لأركان الدولة أيما تقويض، فغدا خلفاء النبي وهم على هذه الحال طغاة موسوسين، والأعيب بين أيدي الخطايا، لا يستطيعون القيام بعد بعبء من أعباء السلطان ولا القيادة بزمام من أزمة المملكة الاسلامية

ما انفكت المملكة تهبط وتتقهقر حتى تقطعت أوصالها، وتفككت أجزاؤها، وسُلبت منتهاها، فصارت الوحدة السياسية مما لا استطاع دوامه لافتقار الدولة الى قواد محنكين، ولعفاء ذلك المزاج الاسلامي الصافي الجامع لسجاياء عرب الصحراء الأول. وقبيل ظهور الاسلام كان أهل كل مصر من الأمصار التي انتشر فيها ظلم أكلسة الفرس وقياصرة الروم، ينزعون منزعاً قومياً ويحاولون نهضة وطنية، فجاء الفتح الاسلامي طامياً، قاضياً على جميع هذه المنازع، أما الآن، والمملكة الاسلامية محتضرة في النزاع، فأني استطاع المجيء بمثل ما جئ به في صدر الاسلام؟ استطاع الاسلام أن يجعل الملايين من الخلق على اختلاف عناصرهم وأمزجتهم ومعتقداتهم، ينتحلون الرسالة المحمدية ديناً، ولكنه لم استطع أن يحيل هذه الملايين الى صورة اسلامية متماسكة البنيان ثابتة الصبغة، فاعترض الازدراء شجاً، وساء الهضم فسادت نتيجته. دعا محمد العرب فلبوا دعوته حقاً، لأنه أتاهاهم بكتاب وآيات وآراء بما كانت عقولهم وطبائعهم مستعدة بالفطرة لقبوله أحسن قبول، وناداهم مستفزاً نهرتهم وحجبتهم، وهم اخوان نخوة سجية وخلقاً، فاستجابوا نداءه طائعين. فلما دخلت شعوب مختلفة غير عربية في الاسلام، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يفسر بموجي غريزته رسالة النبي، على ما يلائم منازعه الشعبية وميوله التقليدية الخاصة، ويوافق روح التهذيب الذي كان عليه، فنتج عن جميع ذلك ان الاسلام الحقيقي الذي شاهده العالم في أول منشأه قد

ان الخلافة لم يستقم أمرها على مراد الشارع إلا مدة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم ثم عادت بعد أن صارت بالارث ملكاً عضواً «ش»

(١) كتاب «الف ليلة وليلة» الوارد فيه ذكر هرون الرشيد مراراً عديدة قد ترجم الى أكثر اللغات الفرية وله عند الفريين مقام أدبي رفيع لما حواه من وصف العيشة العريضة وعادات العرب الصرفة أيام العصر الذهبي في بغداد، ورجال الأدب من الفرنجة على الجملة يصدونه ذخراً من علم الأدب الحالد في العالم.

«العرب»

اعوج والتوى . ولنا أجلى دليل على هذا ماحدث فى بلاد فارس حيث استتحات الوجدانية التى نادى بها محمد ، الى مذهب الشيعة ، فبات أهل فارس الشيعة على صلات واهية تكاد لا تربطهم بعالم السنة الاسلامى واستتحات الوجدانية أيضاً عند البربر سكان البلاد المغربية الأفريقية وغيرهم الى حال عبت معها الأولياء ، وحدث مثل هذا عند المسلمين فى الهند . على ان جميع ذلك لما شدد النبي فى تحريمه والنهى عنه نهياً قاطعاً .

وما كفى ماحدث من الاختلافات الدينية، وما أصاب صورة الرسالة النبوية، حتى عمت البلوى بان مئى الاسلام بتمزق الوحدة السياسية والانشقاقات الزمنية. فأول ماحدث من هذا النوع كان فى أوائل عهد الدولة اذ فر أحد المضطهدين من بنى أمية الى الاندلس حيث انشأ فى قرطبة خلافة (١) منافسة لتلك التى فى بغداد ، فأعترف مسلمو الاندلس قاطبة بهذه الخلافة حتى وبرابرة شمال افريقية . ومن بعد ذلك بعهد أنشئت خلافة أخرى فى مصر، هى الخلافة الفاطمية، وخلفاؤها منحرون على مازعموا من فاطمة بنت الرسول. أما الخلفاء العباسيون فى بغداد فما برحوا يهبطون دركات الانحطاط ، ويفقدون من دولتهم وسلطانهم حتى صاروا بعد مدة من الزمن عبيداً مطاوع بين أيدي الترك — العنصر الغريب الداخلى عليهم .

وقبل أن نشرع فى بيان كيفية انتقال الدولة من أيدي العرب المهجناء، ذوى الدم المزيج ، الى أيدي الترك ، وخطورة ذلك عظيمة فى تاريخ الاسلام ، نؤثر أن نقول كلمة فى أسباب انحطاط التهذيب والمدارك العقلية عند العرب ، ذلك الانحطاط الذى افقه تمزق الوحدة السياسية فى جميع الأدوار الأخيرة من العصر العربى .

كان العرب فى عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الأخلاق ، سليمة الطباع ، نيرة السجاياء ، مقاديرهم يركبون كل صعب ، تحركهم روح الرسالة بغاية غاياتها ، وتبعث فيهم عزماً شديداً

(١) الحقيقة هي ان عبد الرحمن الأموى الذى فر من وجه بنى العباس الى الغرب ، ولحق بالاندلس وأسس ملكاً ودولة مستقلاً بها عن بنى العباس ولقبه المنصور العباسى بصقر قریش ؟ اقتصر فى دولته على الامارة ولم ينافس العباسيين فى الخلافة العامة بل كانت تتلى الخطبة فى مساجد الاندلس باسم خلفاء بغداد امام الملوك من بنى أمية الى أيام عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر الذى استفحل شأنه ، واتسع سلطانه ، واستولى على بدوتى الاندلس وأفريقية؛ واوغلت جهوشه فى بلاد الافرنجة ، وصار أعظم ملوك زمانه؛ فهو أول من تلقب من الأمويين فى الاندلس بالخليفة وبايعه مسلمو المغرب بالخلافة

« ش »

وغيره متوقدة . كانوا أشداء العصبية الدينية ، وهي العصبية المعروفة في كل جيل من الأجيال السامية ، وعلى شدة هذه العصبية ، فانهم لم يكونوا فيها على غير هدى ، بل كانوا مستبصرين يستنيرون بنور العقل وهدايتيه ، و متمسكين تمسكاً شديداً بمعتقدات دينهم وأركانها وأصوله ، غير ان دينهم هذا انما كان ديناً سهلاً الاكتناء والمأخذ ، واضحاً جلياً ، كان جوهر تعاليم محمد الوحداية مع السنة المعلومة . فالاعتقاد كل الاعتقاد بأن لا الله الا الله ، وبأن محمداً رسوله ^(١) من لدنه كما أنزل في القرآن ، والقيام بالفرائض المسنونة المعينة ، كالصلاة ، والصوم ، والحج ، انما هذا فحسب هو جملة الأركان التي تألف منها الاسلام الذي كان عليه العرب يوم أصدعوا في الأرض يفتحون العالم الشرقي

فلاسلام ، وهو هذا الدين البين الصريح ما كان ليقيد عقل العربي ويلقي عليه سجوفاً فوق سجوف . والعربي كان قد أدرك حالاً ثار فيه جده ، واشتعلت غيرته ، فبات تواقاً الى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها ، والتبسط في شؤون الحياة وتوفير أحوالها ، والتكيف على حديث مقتضياتها ، والخروج بها عما ألفه أزماناً في فيافي الصحراء وكشبانها . لهذا لما نشر العرب فتوحهم ومدتوا سلطانهم على الاقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التمتع بالنعم المادية واستلذاذ الترف ورخاء العيش فحسب ، بل عكفوا جادين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة . فنشأ عن جميع هذا الجد والترقيات ان أخرج للناس تهذيب عربي سام . فاضاء العقول وازدهرت ازدهاراً كان نغز الحضارة العربية ، وواسطة قلاذتها ودرة تاجها . وكان ربح من الزمن كانت فيه هذه الحضارة مشرقة الشمس ، يانعة الثمار ، وارقة الظلال . فسادت الحرية العقلية ، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية ، ووضعت القواعد والأصول ، واستنبطت الأحكام . بيد ان هذا لم يكن من صنيع العرب وحدهم ، بل شاركهم فيه كثير ممن كانوا متظللين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا في عهد ملوكهم قبل الفتح الاسلامي ينوقون الأمريين ، ويسامون خسفاً شديداً في سبيل آرائهم ومعتقداتهم الدينية التي كانوا يخالفون فيها النصرانية البوزنطية والمجوسية الفارسية

(١) الرسالة النبوية هي من عند الله . وهي غير الالهية إذ لم يقل محمد انه إله نفسه بل كان يتحاشى قولاً مثل هذا ؛ فقال انه آخر الانبياء والمرسلين ؛ أولهم آدم ثم قبي على أثره بموسى ثم عيسى ؛ ثم بمحمد خاتم المرسلين كافة .

على أنه كان لهذا العصر الزاهر حد وقف عنده، ثم عرا شمس كسوف فظلام مطبق، فظهرت فرق رجعية، فابرحت تستقوى وتناهض غيرها من الفرق الحرة حتى تغلبت عليها، ثم أنشأت تسود سيادة شديدة ممتدة . وانقضت الأيام التى قامت فيها الفرق الحرة المعروفة على العموم بالمعتزلة^(١) مستمسكة بلباب الاسلام وجوهره الصحيح، وذاهبة الى أن العقل انما هو مقياس كل شئ . وقامت الآن الفرق الخلافية المحافظة من بعدها ذاهبة الى ان النقل والسنة انما هما مقياس كل شئ . وأخذ من هم على هذا المذهب، وفيهم كثير من النصارى الذين دخلوا فى الاسلام وكانت أمزجتهم مابرحت مشربة روح دينهم البزنطى القديم، يفسرون القرآن الكريم ويؤولونه، ثم يؤولفون بين هذا التفسير والتأويل وبين السنة التى نقلتها الصحابة عن النبي، وأوغلوا فى ذلك ايغالا بعيداً . فنتج عن ذلك أن أصيب الاسلام بمثل ما أصيبت به النصرانية فى الأجيال المظلمة، من تلبيس الدين عقائد غير عقائده، ونسبة الآراء الدينية الجافة اليه وهو براء منها . فلا غرو اذا اشتد الخلاف واتسعت شقته وطال عهده بين الذين اغتصموا بالسنة والنقل فقاوسوا عليهما، وبين الذين جعلوا العقل نفسه مقياساً لكل^(٢) شئ . واذا قد انتهى الحال بالاسلام الى مثل هذا، فالغلبة الأخيرة انما باتت متوقعة وهى غلبة عقيدة السنة والنقل على العقل . وفى الواقع ان تاريخ السنة والتقاليد^(٣) فى كل بلد من بلاد الشرق انما هو تاريخ السير نحو أدوار الاستبداد وعواقبه المشؤومة . كانت قد تلبت فى سماء الشرق سحب سوداء قائمة، فلما أشرقت عليها شمس الاسلام الأولى من الصحراء حقبة من الزمن، مزقتها وبددتها، وكيف لا تضمحل تلك

(١) يقصد المؤلف بالمعتزلة جميع الفرق الحرة التى نشأت فى الاسلام — « العرب »

(٢) لا شك فى ان الكثيرين من علماء السنة غالوا فى التقليد والمحافظة على النقل، ولكن مما لا شبهة فيه أن مرجع الايمان عند الجميع هو العقل، وهو مصرق الدين؛ ومناطق اليقين؛ وبدونه لا يقوم اسلام ولا يعتد بايمان، والقرآن العظيم من أوله الى آخره يناشد بالعقل، ويحكم الى العقل؛ ويهيب بالخلق الى التأمل والنظر؛ وقد رأينا كثيرين من الأئمة مثل حجة الاسلام الغزالي وغيره ممن ليسوا بمعتزلة يقولون اذا تعارض العقل والنقل أول النقل حتى يطابق العقل « ش »

(٣) ان لعقائد السنة والنقل والتقليد عوامل وراثية عنصرية؛ ومكانية اقليمية، والبيئة والوراثة تأثير شديد فى نشوء الانسان وتحوله فى الشرق على الخصوص . وليس هنا موضع الاتيان على بيان هذه العوامل انما يمكن مريد الاطلاع أن يقف على ذلك حق الوقوف فى مؤلفات العلامة (ألبسورث هنتنغتون)

السبب وقد سادت الحرية العقلية والفكرية ، غير أنه بعد انقضاء هذا الدور دور النور والحرية ، عادت الغباوة والعقائد والأوهام تملأ فضاء الشرق وتستولى على عقول أبنائه . ومما ساعد على ذلك استحالة الخلافة الاسلامية من الشورى السياسية الصحيحة الى الاستبداد فلاستبداد .

فلما رسخ الاستبداد في الدولة ، وجاوز أفقها بعيداً ، أخذت آثار ذلك تبدو جلية في موضع موضع ، والاستبداد بطبائعه هو عدو الحرية وقتلها أينما وجدت ، سواء كانت حرية العقل والفكر أم حرية العمل . وكان بعض الخلفاء من بنى أمية في دمشق ، وقد استهوهم مذهب المعتزلة في بدء الأمر ، يوسعون في حرية الفكر ويرتاحون اليها ، ولكن لما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة ، اجفلوا منها أيما اجفال وأضمرؤا لها القضاء عليها فالمعتزلة حقاً لم تقصر أمرها على الآراء الفلسفية فحسب بل تخطت ذلك فأنشأت ترفع عقيرتها منادية بالرجوع الى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين ، يوم كان أمير المؤمنين يُنتخب للإمارة انتخاباً ولا يرثها وراثته وهو منقاد لرأي الأمة ونازل على حكمها وشوراها . وقام الخوارج وهم من قلب شبه الجزيرة ومن أشد العرب عصبية يؤيدون تراثهم من حرية الصحراء ويدودون عنه وينادون بتوسيع نطاقه ، غير معترفين بسلطة الخليفة ، ولما بالين بهيبة أمير المؤمنين^(١) وذاهبين في السلطة الى أبعد من الحكم الجمهوري نفسه

(١) أول من خرج على الامام بل على الأمامة من حيث هي؛ فائين لا حكم إلا لله ولا لزوم لنصب الخليفة هم الفرقة التي قاتلت سيدنا علياً رضى الله عنه ، ومن هناك بدأ تاريخ الخوارج الذين لعبوا دوراً عظيماً في الاسلام وكانوا فرقا متعددة ، يختلف بعضها عن بعض بمبادئ معلومة ، ولما طال النزاع بين علي ومعاوية على الخلافة ، نهض من هؤلاء الخوارج من قالوا قد تبادت هذه الفتنة التي فجرت جداول من الدماء بين المسلمين وما السبب فيها سوى علي ومعاوية ، ثم هناك عمرو بن العاص الذي هو من موقدي نارها ، فلنقتل هؤلاء الثلاثة ولنرج الاسلام منهم . فانتدب لذلك منهم ثلاثة قصدوا اغتيال الثلاثة أما معاوية فنجا بكونه يوم أزيد قتله لم يأت الى المسجد للصلاة وبعد ذلك جعل لنفسه مقصورة ليكون بمنجاة من المكيدة ، وأما عمرو فاشتبه على القاتل برجل اسمه خارجه فقتل خارجه خطأ بدلا عنه ؛ وأما أمير المؤمنين فاصابه القاتل وفدحت به المصيبة كما هو معلوم وقال الشاعر :

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بمن شاءت من البشر

وكان قد رسخت روح القوضوية في الخوارج الى أن صاروا يقتلون الملوك وأرباب السلطة مفادين

فنشأ عن ذلك ان الخلفاء أخذوا يستندون اتباع الفرق المحافظة ويقرّبونهم منهم ، ويعتضدون بهم ، ويقصون عنهم الفرق الحرة كالمعتزلة ويشدّون عليها النكير ، ويستعينون بالمشايخين لهم من العرب المهجناء ويشدّون بهم أزرهم ، مؤثرينهم على العرب الصّرحاء من شبه الجزيرة ، حتى باتت الحكومة فى الدولة العباسية حكومة دينية مستبدة ، فرسخت عقائد الدين ملبسة لباس التقاليد وقُرّرت حدودها ، واضطهد أتباع مذاهب المعتزلة وقتلوا تقشّلا . وما كاد يكون القرن الثانى عشر من التاريخ المسيحى حتى اعمت كل معالم الحضارة العربية ، وقوّضت أركانها ، وجف كل عنصر من عناصر الحياة فيها ، وقضى على كل فكر مبتكر ، ورأى مبتدع . وعاد لا يسمع صوت من أصوات المعتزلة ، ولا يرى لأحد منهم أثر ، وهجم العقل الاسلامى هجمته الطويلة ، وما زال مغرقاً فيها حتى استفاق اليوم استفاقته الكبرى منعوراً .

فى أوائل القرن الحادى عشر م . تجسّم انحطاط الحضارة العربية تجسّماً تاماً . وبعد ان اختفت الروح العربية الأولى التى هبت من الصحراء هبوبها العجيب ، أخذ العرب المهجناء يرون ملكهم السياسى يذهب من أيديهم الى أيدي غيرهم من الدخلاء ، وكان هؤلاء الدخلاء الوارثون للدولة العربية هم الترك . والترك هم العرق الغربى من الجيل الطوراني ، جيل القبائل الرحالة التى كانت منذ عهد لا يعرف أوله تجوب أنجاد أواسط آسية وشرقيها ، ولما كان العرب يفتحون فارس ، تحاكّت قوادهم وجنودهم بالترك الرحالة ، وهؤلاء عهدتد يعوجون المفاوز محاولين جواز حدود فارس الشبالية الشرقية ، غير أن العرب وهم فى ابان سلطنتهم ، ويخشع غالب قطين الأرض لذكر خلفائهم ، ما كانوا يرهبوا الترك أو يحسبوا

بأنفسهم متباهين بنبيلتهم مترقيين الأجر على عملهم حتى قال بعضهم فى عبيد الرحمن بن ملجم قاتل على كرم الله وجهه :

لله در الراى الذى اخترمت يده مهجة شر الخلق النساء
ياضربة من مريد ما أراد بها إلا ليبلغ من فها العرش وضوانا

ولا أحسب هذا القول إلا من شدة ولهم بناهضة السلطة ، ولجورد ظلم فى السكك الأمانة الى كان على مثالها ، والا فقل ان وجد فى التاريخ البصرى مثل طى بن أبى طالب فى كمال صفاته ، وكثرة فضائله ، وعلو مزاياه ، ومن كان يقدر أن يقول فى أعلى شيئاً ، فأنت ترى ان هذه المنازع الفوضوية وروح مغالبة السلطة التى نراها فى الغرب الاوروبى اليوم قد عرفها العرق أيضا (ش)

لهم حساباً ، بل رأوا في الترك نفعاً لهم ، والترك قوم عرفوا بالجفاء والقسوة ، لا يحسنون شيئاً أكثر من طاعة آمهم والقتال كالمجانين ، فلهذا ما كان الخلفاء لينفروا منهم في أول الأمر بل أخذوا يستأجرون منهم جنداً من الطراز الأول لاعزاز الجيش والذود عن دمار الدولة ، ويستكثرون منهم بطانة وحرساً .

قلنا ان العرب ما كانوا يرهبوا الترك في أول الأمر ، ولكن لما وهن عظم الخلافة وذهبت ريحها تحولت الحال فآلت غير مال ، اذ تمكن الترك المستأجرون من الحلول في كل موضع قوى من مواضع الدولة ، ولا سيما في الجيش العربي ، فانشأوا يتصرفون تصرف السيد الأمر والحاكم المطاع ، ففتحوا أبواب التخوم العربية الشرقية ، ومهدوا السبيل تمهيداً لآبناء جنسهم ، فأخذ هؤلاء يتدفقون كاللوج وعلى رؤس طوائفهم قواد أمراء ، وطفقوا يعيشون في البلاد أحراراً أتى شاءوا ، وقيمون حيث طاب لهم المقام ، ويجوسون خلال الديار ، ويسلبون وينهبون ، ويفجعون ويفتكون .

ولما شرع الترك يدخلون في الدولة كانوا يقبلون سريعاً على الدخول في الاسلام أيضاً ، بيد أن الاسلام لم يدمت من جفائهم ولم يقوّم من أودهم كثيراً ، ومتى ماجئنا نعتبر شأن هؤلاء الترك الدخلاء يجب علينا أن نفرق بينهم وبين الترك العثمانيين المعاصرين ، سكان القسطنطينية وآسية الصغرى . فان الترك العثمانيين اليوم ، انما يجري في عروقهم دم مزيج ، بعضه أوروبى وبعضه الآخر اسيوى غربى ، ويخالط مزاجهم عنصر غربى ، وعنصر شرقى عربى ، فهم والحالة هذه ، يختلفون اختلافاً كبيراً ، تهذيباً وخلقاً ، عن آبائهم وأجدادهم الأولين . وعلى هذا كله فان العثمانيين المتأخرين ما برحت فيهم السيم الطورانية الخشنة التي يتميز بها ترك قفقاسيا المعروفين بالتركان عمن سواهم من الترك المقيمين في غربى آسية

فكيف كان التركي القديم بطباعه وسجاياه ياترى ؟ انما كان في المقام الأول جندياً مجرباً ومقاتلاً باسلاً ، وهو لم يكن في ذلك العهد ذا فكر ثاقب وعقل مبتكر ، بل كان فيه شيء من حب الاطلاع والاستشفاف ، فلم يقتبس غير القليل من الآراء العسكرية في شؤون القتال ، فالطاعة العمياء ثم الطاعة العمياء وقاتل الاستبسال خصب ، هما جميع ما كان عليه التركي يوم تقدم ليتناول قيادة الاسلام من الخليفة العربى الضعضع ، الواهن العظم .

حقاً ، مآدهى الاسلام وسائر العالم معاً ، مثل هذه الداهية ، وما نزل بالحضارة العربية

مثل هذه النازلة ، وكفى الاسلام انه دان لحكم أمة متعصبة مغالية جافة جاسية، لم يكن الرقي مستطاباً في ظن دوانها^(١)، فبات ضرباً من ضروب المستحيل . أجل ، لا ينكر أن الاسلام قد اعتز بقوة حربية ، كبيرة جديدة ، ولكن قد ساء التصرف بهذه القوة حتى جنت على الاسلام جنائيات هائلة ، وجرحته جروحاً كبيرة فبات نزيهاً يتقهقر سريعاً . وأول عمل قام به الترك الزاحفون هو اكتساحهم آسية الصغرى ، واستيلائهم على بيت المقدس في أواخر القرن الحادى عشر م^(٢) . غير أن جانباً من آسية الصغرى مابرح حتى اليوم قسماً من العالم النصرانى . ولما أخذ سيل الفتح العربى يتدفق فى القرن السابع م من شبه الجزيرة ، فما يزال يطمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس ، فصدمه الروم هناك ، اذا استجمعت الامبراطورية الرومانية الشرقية من قواها ما استجمعت واستطاعت أن تقف الفتح العربى عند حد ، عند تلك الجبال ، على عناء وتعب شديدين . أما الآن فاجتاز الترك الحدود البوزنطية ودوخوا آسية الصغرى تدويحاً ، وأخذوا يهددون القسطنطينية وهى الحصن الشرقى الحريز للنصرانية^(٣) . وكانت بيت المقدس فى أيدي المسلمين منذ الفتح العربى (٦٣٧ م) وكان الخليفة عمر يرمى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيام رعايته^(٤) ، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره ، فلا ضيقوا على النصرى ولا نالوا بمساء طوائف الحجاج

(١) كما أن المؤلف وغيره من كتاب الافرنجة يجعلون انحطاط الاسلام نتيجة استيلاء الاتراك عليه ، كذلك بعض الاتراك الجدد يجعلون سبب انحطاط تركيا هو صبغتها الاسلامية ، وعلى الاخص صبغتها الاسلامية العربية ، ويقولون اذا وجب أن نبى مسلمين وجب أن نزع من اسلامنا ديباجته العربية . وعلى هذا بدأوا فى هذه الايام بقراءة الخطب فى صلوات الجمع بالتركية . ولنا الآن فى مقام تفنيد مزاعم هذه الفئة .

(٢) اكتسح الترك آسية الصغرى بعد انتصارهم على الجيش البوزنطى ، فسحقوه سحقاً فى معركة « منزيكيت » سنة ١٠٧١ م . واستولى الترك السلجوقيون على بيت المقدس سنة ١٠٧٦ .

(٣) وقد كان العرب حصروا القسطنطينية ست مرات ، واستشهد أبو أيوب الانصارى فى حصارها . ومقامه معروف فيها « سلطان أيوب » وأسس لعهد العرب جامع غلطة «ش»

(٤) لما فتح المسلمون القدس جاءها عمر رضى الله عنه وطاف فى معاهدها المقدسة . ولما كان فى كنيسة القيامة جاء وقت الصلاة ، فابتغى محلاً ليصلى فدعاه البطريرك صفرونيوس الى مكان يصلى فيه داخل الكنيسة فقال له : لا ، يأتى المسلمون بعدى فيقولون هنا صلى عمر فيدعون بالكنيسة وخرج عمر من كنيسة وصلى فى مكان بنى فيه جامع فيما بعد . «ش»

الوافدين كل عام الى بيت المقدس من كل فج من أجاج العالم النصراني ، بيد أن الترك بعد فتحهم البلاد ، لم يجروا على مثل ما جرى عليه العرب من قبلهم ، فأنترك لما كانوا لا يرون لذة في غير السلب وكره غير المسلمين ، أخذوا يستلبون الأماكن المقدسة ، ويمتهنون حرمة النصرى ، ويحولون دون الحج ، فبات الحج مستحيلاً

فاكتساح آسية الصغرى والاستيلاء على بيت المقدس معاً ، انما نزلا نزول الصاعقة على النصرانية ، فقامت لهذا الخطب وقعت ، وطفقت أوربة تمد من أقصاها الى أقصاها مشتعلة بغضا دينياً ومخدمة غضباً وحنفاً ، وقام ألوف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور ناراً دينية ويحضون على حاية بيت المقدس وقبر المسيح ، حتى جن الغرب النصراني جنونه الكبير ، والتهبت الغيرة الدينية في كل جارحة من جوارحه وعرق من عروقه ، وغشى التعصب على أبصاره ، فهب يبعث البعوث الصليبية ، والجحافل الجاررة داركاً ، لقتال الشرق الاسلامى في سبيل الصليب .

فداهية الترك ، ونازلة الحروب المقدسة الصليبية ، كانتا شر طعنة طعن بها صدر العالم ، وسبباً دائماً في سوء العلاقات بين الشرق والغرب ^(١) . ففي سنة ١٠٠٠ م . كانت العلاقات النصرانية الاسلامية أخذت تستقيم وتسير سيراً منبثاً بالكف عن العداء ، ومبشراً بازدياد تحسن الحال وخير المصير . وكانت الأحقاد ، التي نازت على أثر تدفق الاسلام ، على حال التلاشى والاضمحلال ، وظهر عهدئذ ان الحدود الجغرافية بين عالم الاسلام وعالم النصرانية كادت تستقر ، فليس أى الفريقين يطمع بعد في الخروج على الآخر ، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطير وكبير غير الاندلس ، حيث كان هناك مصطلم الاسلام والنصرانية المصطلم الأخير ، بل على كل كانت الاندلس اذ ذاك قد باتت تعدّ جداً فاصلاً بين العالمين ، وعلى الجملة فقد كانت علائم ازدياد الوئام والطمأنينة بين الاسلام والنصرانية متجلية واضحة ، وناحية منحى جيداً ، فلو قدر هذه الحال أن تستمر وتسير بحيث يسكن كل عالم الى أخيه ، لكانت أتت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والانسانية . فالعالم الاسلامى كان مابرح حتى ذلك الأوان سابقاً لأوربة الغربية سبقاً بعيداً ، وفائقاً عليها علماً وتهذيباً ،

(١) لم تكن أوروبا في وقت من الاوقات أقل تعصباً من الترك وان ، ظن بعضهم خلاف ذلك (ش)

بيد أن الحضارة العربية كان قد أخذ الكمد والكلف يبدوان عليها ، فى الحين الذى طفقت فيه نفس الغرب النصرانى تجيش ، ونهمته تشتد ، للافلات من ربق جهله ، والخروج من ظلمته وبربريته . فأى خير كان أعظم من ذلك الخير الذى كان يرجى من الود الوليد الذى ظهر فى القرن الحادى عشرم . بين الشرق والغرب فيما لو قىض له النمو أمداً بعيداً ؟ بل ياترى أى نفع كان أجل من تقارض العالمين بعضهما البعض العون واقتسام السراء والضراء ؟

أجل ، لو كان ذلك لكان به نجاة كبيرة ، ولكانت الحضارة العربية الاندلسية ، وفيها علوم اليونان والرومان ، قد أيقظت مهنتنا من مرقدتها قبل استيقاظها بعهد طويل ، ولكانت روح الغرب التى تمشت فى جوارحه فى الأجيال الوسطى ، تلك الروح الجبارة ، هبت فتناولات الشرق وتغلغلت فى أحشائه متغلغلها فى الغرب ، فنجت الحضارة الاسلامية من متخطبها ومتعثرها فى ذلك الحالك الداجى الذى طال عهده .

غير ان القدر جرى بغير ذلك . فقد اختفى العربى الدمث الخلق ، اللين العريكة ، وجاء من بعده التركى المتعصب الحشن القاسى ، فعاد الاسلام يئب ويهتاج ، ولكن شتان بين اهتياجه الأول بالأمس ، واهتياجه اليوم ! أما بالأمس فقد كانت تحرك العرب روح الرسالة وفضائلها ومثلها العليا ، وأما اليوم فما يحرك الترك انما هو روح الطمع والفتك وحافز الاستيلاء والغصب . ومن ذلك الحين بدأ العراق يشتد ، وناره تنقد بين الدولة التركية ، والحضارة الغربية التى كان نشوءها مرجواً لها عهدئذ ، ودام هذا العراق قروناً . وما كانت الحروب الصليبية سوى رد الغارة على الترك الذين أخذوا منذ ذلك العهد يوالون غاراتهم على النصرانية برهة ستمائة سنة ، حتى صدموا الصدمة الكبرى عند أسوار « فينا » سنة ١٦٨٣ م وقد كان من الطبيعى أن تأصل العداة ، واستحكمت الشنأة ، واستقر التعصب بين الاسلام والنصرانية ، مما مابرحت جرائمه حية ، وسوموم ثماره نامية حتى الآن . وهذا النضال الذى تتلو أنباءه فى صحف الأخبار اليوم ، النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتلته الوطنيين ، وبين اليونان فى آسية الصغرى ، انما هو حلقة من سلسلة حروب بين الاسلام والنصرانية ، حلقتها الاولى كانت فى فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة ، وحلقتها الأخيرة الى اليوم هى هذه الحروب بين الترك واليونان فى أغوار الاناضول وانجادها .

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نبحث في تاريخ الحروب التي قامت بين الترك والنصرانية ، ولكن ما يجب حفظه في البال هو ان تلك الحروب ظلت الى اليوم عداً زمنياً ، وعلة دائمة بين الشرق والغرب

أما الشرق الاسلامي فقد قدر له بعد أن دارت الأيام بحضارته العربية ، وحناءه عنقه للنير التركي الثقيل ، أن يلاقى فوق ذلك أهوالاً أشد وأفدح ، منهلةً عليه كغيرها من الجيل الطوراني . ففي أواخر القرن الثاني عشر ، هبت العروق الشرقية من الجيل الطوراني ، ملتفة ملتزمة حول بعضها بعضاً ، مكونة وحدة دامت مدةً ، وعلى رأسها زعيم جبار عات هو جنكيزخان . اتخذ هذا الطاغية « الطاغية الذي لا يغلب » لقباً له ، وطفق يزحف ناهباً العالم نهباً . فاكتمح في أول أمره الصين الشمالية وأنزل بها هولاً شديداً ، ثم اتجه غرباً ، زاحقاً مدمراً ، وناهباً مخرباً ، فرأى العالم من بلائه ما لم ير مثله من عات قبله . هذا هو النهوض الذي نهضه المغول في ذلك العهد ، وهذا اسمهم ما برح حتى اليوم اذا ماجرى على الألسنة ، وجفت له القلوب واقتشرت منه الأبدان .

زحف جنكيزخان بكتائب من الجند لا تحصى ، مستنصباً مهرة المهندسين الصينيين لصنع البارود في تخريب المدن والحصون فكان وفرسانه سيلاً جلفاً وناراً آكلةً ، وأعظم بلاء حل بالبشرية لم تكن غاية المغول الفتح والاستيطان ، حتى لا الغنم ولا الاستلاب حسب ، بل هراقة السماء ، وتعذيب الأرواح ، ودرس البلاد وملاشاة العمران . فذبخوا الشعوب تذيباً ودكوا المدن دكاً بحيث لم تنج بلاد حل فيها المغول من الهول ، وكان شأنهم في قطر شأنهم في سائر الأقطار .

ومات جنكيزخان بعد بضع سنوات من زحفه هذا ، فقام خلفاؤه من بعده واتتهجوا نهجه في الزحف وتعميم النازلة . فالمغول حقاً طعنوا الاسلام والنصرانية معاً طعنة خارقة ، اذ حاق بأقطار شرقي أوربة مثل ملاحق بغيرها من الأقطار الآسيوية ، وتلك آثار الهول المغولي في روسية بابرحت شاهدة على بربرية المغول ومهيجتهم . غير أن الهول الذي نزل بالعالم الاسلامي كان أشد منه في العالم النصراني ، فالمغول بزحفهم على روسية لم يجاوزوا تخوم بولندية قط ، فنجت بذلك أوربة الغربية ؛ لكن ما أريد لأوربة الغربية من النجاة لم يرد مثله لجانب من العالم الاسلامي . ان العاصفة المغولية بهبوبها من الشمال الشرقي في آسية

استطاعت أن تطبق العالم طراً ، من الهند حتى مصر ، مقتلعة جارقة كل شيء في سبيلها . وقد كانت فارس ، وهي اذ ذاك مابرحت منهب الكتائب التركية ، تحاول النجاة بحضارتها الواليدة فدهمتها الجوارف المغولية غاشية ماحقة ، فتلاشت قوة فارس وتضعف كيائها أيما تضعف ، ثم تقدم المغول نحو العراق ليعطوا بغداد ، مدينة الحضارة والتهذيب ، نصيبها من الهول . وكانت بغداد عهدئذ قد ذهب الكثير الزاهر من عزها ومجدها ، فذوت نضارتها من بعد هارون الرشيد ، وتنكر الدهر لذلك المليون من السكان ، بيد أن بغداد ، على كل هذا ، كانت مابرحت مدينة عظيمة وعاصمة كبيرة ، فيها كرسى الخلافة ومركز الحضارة العربية ، فانقض عليها المغول سنة ١٢٥٨ م وأعملوا فيها أيدي التخريب والتدمير فذبحوا أهلها تذييحاً . وكادوا يحسونها محواً من على وجه الأرض . على أن هذا لم يكن جميع البلاء . كانت بغداد عاصمة العراق ، وكانت مابرحت في العراق سدود الري العجيبة من فجر التاريخ ^(١) ، تمثل مهارة بناتها الأولين وقدرتهم ، وتقي البلاد من مهاب أعاصير الصحراء . فكان العراق على الدوام وفيه هذه السدود الكبرى جنة الأرض وهوى العالم . وقد تعاقب الفاتحون الكثار في البلاد دوراً بعد دور وعصراً بعد عصر فكان من شأن كل فاتح أن يبقى على هذه السدود ، لا بل يعظم شأنها وشأن بناتها ، ويعتبر كل الاعتبار قدر نفعتها وخيرها للبلاد . فلما غشى المغول العراق سرعان ما قوضوا هذه السدود تقويضاً بحيث لم يبقوا منها حجراً على آخر . ففقت أقدم حضارة عرفها العالم ، وخرب مهد التهذيب البشري ، ومحييت آثار أعمال جدت في سبيلها البشرية ثمانية آلاف سنة على الأقل ، فحوى العراق خواءه هذا المشهود حتى اليوم ، وبات مرتدياً حلة من الجفاف المحرق ومنشأ لأوبئة الحمى المنتشرة متى ما كان فيضان ، يسكن قراه الحقيرة أقوام من الفلاحين ، ويجوب رحابه رحالة من البدو ، يرعون ماشيتهم أرضاً كانت من قبل منابت الحضارة والتهذيب .

فالنزلة التي حلت ببغداد إنما كانت ضربة قاضية على الحضارة العربية ولا سيما في الشرق . وكانت هذه الحضارة قد أصيبت ، من قبل نازلة المغول ، بضربة أخرى في الغرب

(١) يوجد في العراق ترعة دارسة منسوبة الى الرشيد . حدثنا بعض مهندسي الالمان الذين زاروا تلك البقاع أيام الحرب أنها مما تعجز الحكومات الحديثة عن القيام بعمل مثله في العمق والطول والعرض «ش»
« م ٢ - اول »

وهي نازلة الأندلس العربية. وموجز ذلك أن الإسلام بعد انتشاره في جميع افريقية الشمالية، جاز البحر وطبق اسبانية من أقصاها الى أقصاها ، خفقت فيها أعلامه وأشرقت شموسه وازدهرت الحضارة العربية الاسلامية الاندلسية ازدهاراً كاد لا يُرى مثله في أى قطر آخر من الأقطار الاسلامية الشرقية. وكانت قرطبة عاصمة الأندلس. وفيها كرسى الخلافة الغربية . فبلغت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبلغاً كبيراً ، حتى نعلها كانت تفوق بغداد عيناها رقياً وحضارة . وقد عاش مُلك العرب في الأندلس قرونًا عديدة ملكاً زاهراً آمناً ، والعرب حاصرون للنصارى في الكور الجبلية الشمالية من البلاد . فلما بدأ سلطان العرب يضعف ويونى ، وقوتهم تهين ، أخذ النصارى يدفعون المسلمين جنوباً مستردين منهم البلاد كورة فكورة . وكانت معركة « تولوز » سنة ١٢١٣ م خضدت فيها شوكة العرب ، وفَت في عضدهم فتناً كبيراً . ثم من بعد ذلك صارت تتوالى انتصارات النصارى على غير عياء حتى سقطت قرطبة في أيدي المستردين من نصارى اسبانية المتعصبين ، فبادر هؤلاء الى استئصال شأفة الحضارة العربية الاندلسية ، على نحو ما كان يقوم به المغول عندئذ في الشرق . فنهب الأندلس من أيدي المسلمين ، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذى كان زاهراً سوى رقعة صغيرة واقعة في الطرف الجنوبي من البلاد وهي غرناطة ، التى بقيت في حوزة المسلمين حتى استكشاف كولب بلاد اماركة ، ثم بعيد ذلك طردوا منها ، فاختفت على الأثر معالم الحضارة العربية في الغرب .

وكان الشرق الاسلامى مازال يشقى وتتوالى عليه فجائع المغول وأهوالهم وأماننا الآن آخر داهية من دواهيهم ، وهى زحف تيمورلنك في أوائل القرن الخامس عشر م . ففي هذا العهد كان المغول الأول الغربيون قد صاروا مسلمين ، غير أن الاسلام لم يذهب بالكثير من وحشيتهم وبربريتهم واقتنى تيمورلنك آثار جنكيزخان في تذيبح الخلائق وتدمير البلاد ، فما كانت نفسه تغتبط بشيء اغتباطها بمنظر الاهرام من جاجم البشر ، وأى هرم أكبر من ذلك الذى شيده تيمورلنك من سبعين الف ججمة بعد تخريبه مدينة أصبهان في بلاد فارس وانقضى عهد المغول الهائل في الشرق الاسلامى ، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين . الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية العديدة التى جاءت آسية الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البوزنطية . وغالب الفضل في تشييد المجد الذى شيده وعزهم الذى

بنوه انما هو عائد الى عديد سلاطينهم الذين كانت لهم الغلبة على سائر القبائل المجاورة ، فاستطاعوا بذلك أن يوحّدوا جميع القوى التركية العظيمة ، ثم طفقت فتوحاتهم تمتد شرقاً وغرباً . وفي سنة ١٤٥٣ م . ذلك الترك صرح الامبراطورية البوزنطية دكاً ، وفتحوا القسطنطينية ، وخلال قرن تال فتحوا الشرق الاسلامي من فارس حتى مرا كش (١) ، ودوخوا شبه جزيرة البلقان من أقصاها الى أقصاها ، وتغلغلوا في أحشاء هنغارية (٢) حتى بلغوا أسوار « فينا » . واستطاع الترك العثمانيون ما لم يستطعه أبناء عمهم المغول من قبلهم فبنوا مملكة منيعة الأركان ، غير أن ملكهم هذا كان فيه جلف وبربرية وذلك لبعدهم عن روح التهذيب والتثقيف ، فانهم لم يبرعوا في شيء براعتهم في فنون القتال ، بل كانوا فيها من أشهر الأمم وأشدّها قوة وبأساً ومراساً ، ولما كانوا في ابان مجدهم وسلطانهم كانت خيالتهم ورجالتهم من أفضل طراز الجيوش التي شهدتها العالم ، فارعبوا بها أوروبا رعباً شديداً .

وفي هذا العهد كانت أوروبا قد بدأت تستيقظ وتسير سير التقدم الصحيح ، وتنشئ حضارةً متدرجة مدارج الرقي والنبات ، وبينما كان الشرق الاسلامي يئن من الأهوال المغولية والفتوح التركية ، كان الغرب النصراني يشعل مصاييح النهضة ، ويعد أسباب استكشاف أماركة وطريق الهند ، ذلك الاستكشاف الخطير الشأن ، العظيم النتائج مما لا يخفى على أحد ومما يزيده خطورة هي الحالة التي كانت عليها أوروبا في ذلك العهد ، فانه لما كان كولب وفاسكود وغاما يقومان بأسفارهما البحرية قبيل ختام القرن الخامس عشر ، كانت الحضارة الغربية محاصرة في نطاق ضيق لا تجوز دائرته القسم الغربي من أوروبا الوسطى ، وهي اذ ذاك في أكره يوم من أيام نضالها وجلادها مع البربرية الطورانية . كانت روسية تمزقها سنابك خيول التتر المغول (٣) وكان الترك ، وهم ثملون بشوكتهم الحربية يغيرون منتصرين

(١) استولت الدولة العثمانية علي جميع شمالي أفريقيا من بوغاز السويس الذي صار اليوم ترعة الى آخر حدود ولاية وهران من المغرب الأوسط ولكن المغرب الاقصى بقي في حوزة أصحابه «ش»

(٢) بقيت بلاد الحجار في حوزتهم ١٥٠ سنة وفيها حمامات معدنية من بنائهم الى يومنا هذا وقبور بعض المجاهدين «ش»

(٣) كانت الروسية هذه التي صارت فيما بعد أعظم دول الأرض تدفع الجزية للمغول وملوكها يذهبون صاغرين الى حضرة ملوك المغول لأجل تقديم ملكهم . وقد أوغل المغول بعد اسلامهم في بلاد الروسية

من الجنوب الشرقى مهددين قلب أوروبا شر تهديد^(١). هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة آسية وشمالى أفريقيا وشرق أوروبا يوم كانت الحضارة الغربية وهى طفلة فى المهد تستقبل حكم القضاء النازل فيما لها وأما عليها. وعلى الجلة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع فى سبيل بقائها أشد منازعة، مولية ظهرها السور العظيم - سور الاقيانوس. فلذلك لانكاد نستطيع أن نتصور حق التصور كيف واجه أجدادنا الاقيانوس، وشرعوا بمخرون عبا به فى تلك الليلة الظاماء والفترة العصبية من الأجيال الوسطى. لا جرم، كانت أوروبا فى تلك الحقبة انما تذود عن بقائها بجميع ما كان فيها من قوة وبأس، وترد عنها غاشية البربرية الاسيوية، وما هى الا ليلة وضحاها، فاذا بليل الخطر الاسيوى وقد انجلى، وبالاقيانوس بات طريقاً آمنة، فصارت أوروبا من بعد ذلك سيدة البحار، ثم سيدة العالم بأسره.

قضى الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الانسان، فبعد أن ركبت أوروبا متن البحار، سارت تستهزئ بجبايرة آسية وعُتاتها، وكانت من قبل برّوح من الزمن ترى النصر عليهم أبعد منالا من الجوزاء. ثم أخذت موارد الثروة تفيض على أوروبا من وراء البحار، فأتقد نشاط القارة واشتعلت قوتها. ولا يعجب من ذلك وأوروبا قد كشفت القناع عن أبكار بلدان فأخذت تستورد منها خيرات لا نفاذ لها، غذاء طيباً لحياتها وصناعاتها، فباتت والشرق شتان ماها. فأى موارد كانت للشرق الاسلامى الحرب المهشم، ازاء أماركة الجنوبية والشمالية وجزائر الهند؟ هكذا دبت الحياة ديبها الهائل فى الحضارة الغربية، فانتفضت وهبت من مرقدها، وأخذت تخطو الى الأمام خطوات الجبايرة، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطيماً، وقابضة على طلاسـم العالوم، جادة نحو العصور الحديثة وعلى كل هذا، فقد ظل الشرق الاسلامى جامداً ساكناً، ملتفاً بنخلقان الحضارة

الى الغرب حتى وصلوا الى بولونيا وليتوانيا، ولا يزال الى يومنا هذا بضع عشرة قرية فى ليتوانيا أهلها مسلمون يبلغون بضعة عشر ألف نسمة، وأكثر منهم باق فى بولونيا، وقد سألت بعض أدبائهم عن أصلهم فقالوا انهم من بقايا الفارات المغولية

(١) لما نزلت بحرية الترك فى طولون ونيس نجدة لفرنسيس الأول ملك فرنسا الذى دخل فى ذمة سليمان القانوني، أمسك أهل تلك الديار عن قرع أجراس كنائسهم احتراماً للترك وبقيت القوة البحرية العثمانية أعظم قوة فى البحر المتوسط متصرفه بزمام هذا البحر وأوروبا كلها ترعد منها فرقا الى واقعة ليبانت فى زمان سليم الثاني، وهى الواقعة التى اجتمعت فيها أساطيل النصرانية على الأسطول العثمانى فدمرنه. ولم ينج منه إلا القليل مع أنه كان أقوى منها بأجمعها وكان النصر متوقفاً له لا لها

«ش»

العربية التي طال على خوائها الأمد، ومتسكعاً في ديجور الظلام، ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعفت قوته الحربية وبلغت حد التلاشي، فوهن عظم الترك بعد الشدة، واستغرقوا في انخطاطهم، فصاروا لا يستطيعون مجارة أوروبا اختراعاً وارتقاء، ولا تحسين فن من فنون القتال. وقد كرت حقب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضاً قتالاً عنيفاً فلم يستطع الحلة على الشرق، فعلت منزلة اسم العثمانيين علواً كبيراً، بيد أنه لما أغار الترك على أسوار « فينا » سنة ١٦٨٣ م. ردوا على أعقابهم خاسرين، أيقنت أوروبا حينئذ أن هناك كان منقلب قوة المملكة العثمانية، فأخذ جند العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل. ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكرث على المملكة العثمانية الكرة بعد الأخرى، منتاشاً منها ما استطاع، ولولم تشب نار الحسد بين الدول الغربية، فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها، أعنى لو لم تختلف هذه الدول في اقتسام الغنيمة، لمزقت الامبراطورية العثمانية شرمزق، منذ عهد عهيد.

ثم توات الأيام على العالم الاسلامي وهو هاجع لا يستيقظ، حتى كان القرن التاسع عشر فتامل في مهجعه مستقلاً وطأة الغرب، وفي خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الاسلامي، وتخضع لها الأقطار، في شرق أوروبا وجزائر الهند، وأما جل العالم الاسلامي ومعظمه، من مرا كش حتى أواسط آسية، فقد ترك وشأنه، فما كان ليعتبر قدر هذه الفترة السانحة، بل ظل مستغرقاً في هجعته، مستهزئاً « بكفرة » أوروبا، راضياً مسالماً أن شقائه إنما هو بمشيئة من الله، لا يقيم لرق أوروبا وزناً ولا يحسب لمستبظاتها حساباً (١).

هكذا كانت حالة العالم الاسلامي لما استيقظ استيقاظه في مطلع القرن التاسع عشر فاذا بأوروبا تقف بازائه مجنونة بشورتها الصناعية، مدججة بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع، وبين يديها الغاشمتين الطبيعة مسخرة، مفضوحة أسرارها، وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل.

فكانت النتيجة المتوقعة، اذ لما شرعت جلات أوروبا تغشى الشرق الاسلامي، أخذت

(١) نعم كانوا يعللون انخطاطهم الذي هو نتيجة كسلهم وفساد أخلاقهم بكونه قدراً مقدوراً لا حيلة فيه اعتذاراً عما هم فيه من التهاون والغفلة وسوء الادارة (ش)

أقطاره يسقط الواحد منها تلو الآخر في أيدي الحاملين عليه ، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبة الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الاسلامي ، فاستولت بريطانيا على الهند ومصر ، وعبرت روسيا القوقاس وبسطت سلطانها على أواسط آسية ، وفتحت فرنسا شمالى أفريقيا ، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الاسلامية ، وما زالت الحالة هكذا ، حتى جاءت الحرب الكونية العظمى فكان شاهداً على آخر دور من أدوار اذلال الشرق الغرب . ولما وضعت شروط المعاهدات بعيداً أن وضعت الحرب العامة أوزارها ، قضى على كيان الدولة العثمانية ، فلم تبقى من بعد ذلك دولة اسلامية مستقلة استقلالاً صحيحاً ، فتم إخضاع العالم الاسلامي - ولكن على القرطاس !!

اجل ، تم ذلك على القرطاس فحسب . والسبب في ذلك أنه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر ، لسرعان ما هبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمنلها من قبل . كان الشرق الاسلامي طول هذه المئات من السنين التي كرت عليه وهو حان عنقه للغرب ، تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيماً وينفعل بعضها ببعض انفعالا كبيراً ، حتى آن الأوان فانفجر البركان فكان منفجره هائلاً .

وهذا المد ، مد بحر المطامع الغربية الطامى ، قد غالى في ايلام الشرق مغلاة شديدة ، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيراً !! ودار الشرق الاسلامي حول نفسه فرأى تعاسة حاله وما هو حال بساحته . فاخذت نفسه تيجش وتضطرب ، ومشاعره تهتاج وتنبعث ، وقواه تنور ثوراناً عجباً بلغ أقصى أعماقه ، واستيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي ، فهب الـ ٢٥٠.٠٠٠.٠٠٠ من اتباع النبي محمد ﷺ^(١) من مراكش حتى الصين ، ومن تركستان حتى الكونغو ، هبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مستقرها .

(١) المسلمون اليوم عددهم يزيد على ٣٠٠ مليون . والسبب في كون صاحب هذا الكتاب اعتبرهم ٢٥٠ مليوناً هو متابعتة لغيره من المؤلفين الاوربيين الذين لا يزالون يحسبون المسلمين اليوم على معدل احصاءات جرت منذ عشرات من السنين مع أن عدد المسلمين ازداد بهذه الاثناء كثيراً فالعلامة نانسن الالماني كان يحزر مسلمي أفريقيا وحدهم بنحو ٧٦ مليوناً ، وهذا منذ ٣٠ سنة ثم كثيرون من الجغرافيين لا يزالون يحصون مسلمي الجاوى وسومطرة ٢٥ مليوناً والحال أنهم ٣٥ مليوناً وكذلك مسلمو الصين هم من ١٠ الى ٢٠ مليوناً ومسلمو الروسية هم ٣٥ مليوناً وكثيراً ما يحصونهم ٢٠ مليوناً وهلم جراً . «ش»

قدح الزناد فى صحراء شبه الجزيرة ، مهد الاسلام ، ثم أخذ الشرر يتطاير الى كل جانب من جوانب العالم الاسلامى ، اذ فى الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية فى مطلع القرن التاسع عشر ، وهى دعوة الاصلاح الاسلامى ، ثم كان من أمرها ان ترقى واتسعت حتى بلغت فى نطاقها دور النهضة الاسلامية ، ثم عرفت بالتالى بالجامعة الاسلامية .

ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحوّلات فى العالم الاسلامى مقصورة على تلك العوامل الداخلية المنبعثة عنه فحسب ، بل ان هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تتدفق من الغرب على الشرق ، وجميعها يث فى الشرق الاسلامى روح الاستيقاظ والثوران ، من ذلك عقائد الحكومة النيابية ، والعصبية الجنسية ، والعلوم العملية ، وحقوق العمال ، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة ، والاشتراكية والبلشفية .

فثوران العالم الاسلامى هذا الثوران ، وشدة التضيق الاوروبى الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولا حد ، يزيدان فى هيجانه فيشعلان فيه روح الحركة والعمل . ان الحرب الكونية العظمى قد أتت بعجائب عظيمة ، وأرت مالم ير من قبل ، فانشأ الاسلام يئيد ويضطرب ، ويتمخض تمخضاً شديداً منتقلا من حال حاضر الى آخر مقبل ، ومجتازاً دوراً غاية تجدد عالم اسلامى حديث .

ولبيان كيفية هذا الانتقال والتجدد اللذين سترى ثمارهما فى عالم اسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب .

الفتح العربي

للامير شكيب

حدث الفتح الاسلامي بهذه السرعة التي اتسق بها ، لم يسبق له مثيل في التاريخ ، حتى قال الكثيرون ان العرب فتحوا في ثمانين سنة أكثر مما فتح الرومان في ثمانمائة سنة . وكان نابليون يقول : ان العرب فتحوا نصف الدنيا في نصف قرن . وقد تحير المؤرخون والاجتماعيون الاوربيون في تعليل سرعة هذه الفتوحات ، فذهبوا فيها مذاهب شتى وأخطأوا وأصابوا ، وليس من الممكن حصر تعليلاتهم في هذا الشأن نظراً لكثرتها ، وانما يمكننا أن نشير ولو بطريق الايماء الى بعضها . فنابليون الذي كان ينظر الى الحوادث من الوجهة العسكرية التي هو عبقرئها الأكبر ، كان يذهب الى ان العرب قبل الاسلام كانوا ذوي بصائر بالحرب ، أكثر مما يظن الناس ، وان حروب القبائل العربية بعضها مع بعض كانت قد نجذتها^(١) في القتال الى الحد الذي صيرها أمة محاربة من الدرجة الاولى ، كما انه كان يظن ان الامم التي تغلب عليها العرب بهذه السرعة العجيبة ، كانت مصابة بعلل اجتماعية كثيرة ، لم يحققها جميعها المؤرخون ، وان ثمة أسراراً لاتزال خافية عنهم . على ان نابليون كان يوفر القسط الأعظم من الحرمة الشخصية لمحمد ﷺ وعمر رضي الله عنه ويرى انه ما انتشر الاسلام الا بفضلهما ولقد بلغ من اعجابه بمحمد ﷺ ان نوى وهو في مصر ان يدين بالاسلام ، وان يحمل عليه جيشه . ولقد سأل عن ذلك المؤرخ « لاكاز » الذي رافقه الى جزيرة « سنت هيلان » وقيد جميع ماسمعه من أحاديثه ، فاعترف له بأنه كان عزم على الدخول في الاسلام ، وحمل جيشه عليه ، ولكنه لم يكن يريد أن يفعل ذلك الا بعد أن يصل بجيشه الى الفرات ، بحيث يتمكن باسلامه من الاستيلاء على الشرق . ثم ان

المسيو « اتيان دينه » المسلم الفرنسى الذى له المقامات العالية فى النضال عن الاسلام، والذى أددى فريضة الحج رحمه الله سنة ١٣٤٧ هو وتلميذه الحاج سليمان بن ابراهيم باعمر ، قد نقل فى كتابه الذى ألفه عن الحج ، ووصف به الحرمين ، وثنائق رسمية عن قضية اسلام نابليون ، منها وثيقة مؤرخة فى ٩ فروكيتدور سنة ٧ أى ٢٦ اغسطس سنة ١٧٩٨ وهى مكتوب نصه : « انى أشكرك على ماقت به من تعظيم نبينا . الامضاء : بونابرت . نقلها دينه عن كريستيان شرفيلد : Bonaparte et l'Islam ونقل عنه خطاباً الى الشيخ المسيرى عن المقر العام فى القاهرة تاريخه وفق ٢٨ اغسطس سنة ١٧٩٨ ونصه : « انى أرجوأن لايطول الوقت حتى أجمع جميع عقلاء البلاد ومهذبىها واطرر معهم نظام حكم مبنياً على مبادئ القرآن التى هى وحدها المبادئ الحقيقة والتى هى وحدها الكفيلة بسعادة البشر . الامضاء : بونابرت »

ونقل مجلة عن كتاب « جورنال غيرمطبوع » Journal inédit الجزء الاول الصفحة ٣٤٨ وهى « كان المشايخ يقولون لى دائماً انى ان أردت أن أكون اماماً فلا بد من أن يدخل الجيش فى الاسلام وأن يلبسوا العمام . ولقد كانت هذه نيتى . الامضاء : بونابرت » ونقل عن نقولا من الصفحة ١٢٢ من كتابه النسخة العربية وذلك قول نابليون : « حقاً قد قلت لكم مراراً وأعلنت مراراً فى خطبى انى أنا مسلم موحداً بمجد النبى محمداً وأحب المساميين . الامضاء : بونابرت »

فالذى يعلم تاريخ بونابرت حق العلم يفهم ان رجلاً كهذا أوتى من القدرة العقلية ، ومن العزيمة أقصى ما قدر لابطال العالم ، لايعجب بالاسلام هذا الاعجاب كله الا بعد اقتناعه بأن هذه الفتوحات المادية والمعنوية التى قام بها الاسلام فى ذلك الوقت القصير ، كانت حادثا غير مسبوق المثال فى التاريخ العام ، وبأن فضائل الاسلام ونبىه وأصحابه كانت باهرة . ولننقل لك الآن بعض ما قيل فى هذا الموضوع فى التأليف التى ظهرت حديثاً لأنها نخلت المسئلة نخلأً دقيقاً فمنها كتاب « مدنيت الشرق » للمسيو غروسه الفرنسى

Les civilisation de l'Orient par René Grousset

جاء فيه فى القسم المتعلق بمدنية العرب ما يلى :

« معركتان فى أجنادين واليرموك فتحنا للعرب سورية وفلسطين من مملكة البيزنطيين

ثم تبعتهما مصر. ومعركتان أخريان في القادسية ونهاوند مهدتا لهم فارس بأسرها. فالسلطنة الرومانية بعد أن انتزعت منها سورية ومصر وأفريقية، بقيت لها لذلك العهد آسية الصغرى (الأناضول) بالأقل، ولكن السلطنة الفارسية الساسانية سقطت في أيدي الفاتحين بتمامها. وهكذا امتد سلطان العرب في بضعة سنوات من أفريقية ومن جبال طوروس إلى سيجون وجيحون، ولم يلبث أن قطع بعد قليل إلى ما وراء النهر، وفتح بلاد الدول التركية الإيرانية التي كانت تابعة للصين. وقد كان الخلفاء الأربعة الذين في أيامهم اتسقت هذه الفتوحات المدهشة، متمسكين بمبدأ محمد وباوإد قومهم. كانوا عرباً وبقوا عرباً شيوخاً في الصحراء بدون ترف، ولا زخرف، ولا قصور ملوكية، ولا احتياجات. بل كانوا أشداء على أنفسهم كما على الآخرين عائشين في المضارب كسائر القبائل الخ.»

وظهر تاريخ في هذه السنة اسمه «تاريخ العالم» Histoire du monde للعلامة غودفروا دموفين Gaudefroy Demombynes الاستاذ بمدرسة اللسان الشرقية بباريز، والعلامة بلاتونوف من أعضاء أكاديمية العلوم الروسية، تحرى فيه مؤلفاه إلى أقصى آماذ التحرى، وذهبوا إلى أن تاريخ الفتوحات الإسلامية لم يبدأ بالاشراق على ناشديه إلا في هذه السنين الأخيرة، فقد كان مهّد طريق معرفته المستشرقون الذين سبقوا مثل دساي De Saey وكاترمار Quatremère وكوسين دوبرسفال Caussing de Perceval ورينو Reinaud ودوسلان De Slane الخ واقفني أثرهم عاماء مشتغلون، وفوا التمهيص حقه منهم من جاء بأراء خاصة وجبهة استقلّوا بها، ومنهم من تقدم كثيراً لكن في الطريق التي كانت مفتوحة أمامه، وربما أدّى جزمه بما اعتقده، وغلوّه فيما ذهب إليه إلى مناقشات ممتعة. وقد عدّ المؤلفان المذكوران من هذه الحلبة دوزى Dozy ونولدكه Noldke وفيلهاوزن Wellhausen ودوغويه De Goeje وغولدسيهر Goldziher وسنوك هركرونيه Snouck Hurgronje الخ

وبما ذهب إليه أصحاب هذا التأليف الجديد أنه يجب العدول عن فكرة كون انتشار الإسلام حصل على أيدي الأعراب أو البدو الدافقين من الصحارى لأجل الغزو. قالوا: إن الأولى بأن يقال هو أن الحركة حركة مدرّ لا حركة وبر. وذلك أن طائفة من الناس اجتمعت حول النبي في المدينة من بعد الهجرة وتشبعت بمبادئه، وصرفت جميع همها إلى الدين،

وعاهدت الله ورسوله على نشر عقيدة الاسلام . وهؤلاء هم المسلمون . ثم انضمت اليهم طبقات أخرى في زمان الخلفاء الراشدين ، وتقوت بهم عصاة هؤلاء المتدينين العاكفين على تلاوة القرآن ، الذين بثبتهم المتواصل بنوا الاسلام الاول الذي لم تطرأ عليه المؤثرات الخارجية ، والمجاذلات الكلامية ، وهو الاسلام القرآني الصرف »

(انظر صفحة ١٤٠ من الجزء السابع من هذا التاريخ القيم) ثم قالوا :

فهذه العصاة المتدينة التي نشأت في المدينة ، جعلت من المسجد النبوي في المدينة مركز حياةٍ « دينيةٍ » ، أخذ ينمو ويتسع الى أن انبثقت منه أنوار المعارف الكلامية والفقهية في القرن الثامن (القرن الثامن للمسيح هو مبدأ القرن الثاني للهجرة) . وظهر اولئك الأئمة في علم الشريعة . فالمدينة كانت في القرن السابع (للمسيح) هي قاب الاسلام ومنها كان مبدأ نموه

ولكن كانت خلية الاسلام تعسل أيضاً في أثناء الفتوحات بين الجيوش وفي الخيَّات وذلك ان من الجند من كانوا حفاظاً للقرآن فاهمين لمعانيه فتألفت منهم في وسط الجهاد حلقات عبادة وعصابات زهد وتقوى ، محضت الاسلام خلوصاً لا حد له ، وصرفت معظم حياتها الى العمل لاستحقاق الثواب الاخرى . فكانت هذه العصابات تبث العقيدة ، وتبحث على التقوى وتجاهد في طلب سعادة العقبى . وكانت مواعيد الله تتأييد بالانفعل في هذه الدار الدنيا قبل الآخرة ، فكان المسلمون يعلون في الأرض ويعزّون ، وكان غير المؤمنين يسفلون ويذلّون ، وانقلبت غزاة البدوى حرباً مقدسة قد أمر بها الله لاعلاء كلمته . وقد كانت تلك النفوس الممثلة بالحياة الدينية لا تتبع الاما معتقده ، وما يختلج في صدورهما من فهم القرآن الى حد أن عمر ثم عثمان كانا يخشيان الخلاف بين المؤمنين من أجل القراءة (هذا صحيح فقد روى عن ابن عباس انه نهى عن أن يتسارع الناس في القرآن فساء كلامه هذا الخليفة عمر فسأله : لماذا قلت هذا ؟ فاجابه ابن عباس : يا أمير المؤمنين متى سارعوا اختلفوا ومتى اختلفوا اقتتلوا . فقال له عمر : لله أبوك لقد كنت اكنتمها للناس) . فقد كان اذا رأى عامٌ دينيٌ يدير حياة المجتمع الاسلامي ، بل سياسة الأمة الاسلامية . ولقد رأينا في وقعة صفين كيف اتفق أناس من جيش على مع آخرين من جيش معاوية على طلب التحكيم . ثم لما هدأت ريح الفتوحات وسكن الناس عادت حلقات قراء القرآن الى مساكنها وعاداتها

الحضرية ، وتألف منها حول الخليفة وحول ولاية الأمصار مجالس الشورى التى يعتمد عليها الامام ، والتى كانت مركز الرأى العام » انتهى

وهذا الرأى هو ما نراه نحن . وهو أن الاسلام لم ينتشر الا بالقرآن وعمارة الصدور به الى أن بلغ قراءه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التى مكنتهم من نواصى الامم . وهذه القوة المعنوية هى الأصل ، وهى التى بدونها لا تنهض أمة . وما القوة المادية ، مهما دقت أو غلظت ، الا تبع لها ، وهى بالنسبة لها كالبدن بالنسبة الى الروح . فكل ما يقال من أن سبب الفتوحات الاسلامية الباهرة هو مراس العرب للقتال أو حب البدو للغزو ، وغرامهم بالغنائم ، أو ملل الأمم المجاورة من ملكة حكامها ، وغير ذلك ، فهذا تضييع للمعنى الحقيقى ، وزيف عن شاكلة الرميّة ، وانما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل هو خارق للعادة ، وبقوة معنوية أحدثها فى النفوس ، خارقة للعادة . ولقد كان العرب أهل حرب من قديم الزمان ، وكان الأعراب مغرمين بالنهب والكسب من أعلى أيام الجاهلية ، فلماذا لم يفتحوا البلدان الا بعد بعثة محمد ؟ ولقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يرى فتوحات أمته من بعده ، ورؤى عنه حديث : « زويت لى مشارق الأرض ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها » .

وقد قال امام المستشرقين غولد سيهر فى كتابه « عقيدة الاسلام وشريعته » فى الفصل الأوّل منه ، قولاً فصلًا فى قضية : هل كان النّبى نبياً قاصراً دعوته على العرب كما يذهب اليه بعض من يريدون تنقّض الاسلام ، أو كان معتقداً برسائنه الى العالمين كافة من الأجر والأسود وأورد الأدلة التى تفصح كل مجادل ، على كون محمد رأى نفسه مبعوثاً الى البشر عامة ، وأنه فى آخر حياته جعل يرأسل الملوك الذين خارج الجزيرة بما لا يبق معه شك فى نيته دعوة جميع الخلق الى الاسلام . قال : ولقد لحظ « نولدكه » أن محمداً كان قد رسم خططاً لم يكن يرتاب فى أن يجد الرومان على طريقه فيها أعداء محاربين ، فان آخر غزاة أغزاها كانت الى أراضي الدولة البيزنطية . ثم ان الغزوات التى غزاها من بعده خلفاؤه وأدرى الناس بمقاصده تنبى بكونهم علموا أن بعثته كانت عامة لا محصورة فى الجزيرة

ولقد قرأت فى تواريخ كثيرة ما يدل على حيرة المؤلفين فى هذا الحادث العجيب ، الا وهو سرعة نمو الاسلام وتبسطه ، ومنها تأليف حديث العهد اسمه « العالم الاسلامى » لكتاب

اسمه «ماكس مايرهوف» قال فيه :

« يكاد يكون مستحيلاً أن نفهم كيف ان أعراباً منقسمين الى عشائر، ليست عندهم العدد والاعتدة اللازمة ، يهزمون في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً في الاعداد والعتاد ، وكانوا يقاتلونهم وهم كتاب منظمة »
والجواب ان هذا المستحيل بزعمه ليس في الحقيقة بمستحيل اذا نظر الى القوة المعنوية التي أوجدها القرآن في اتباعه .

وقد جاء في الفصل الرابع من الجزء السابع من « تاريخ العالم » المتقدم الذكر للاستاذين «غودفروا دمونيي» و « بلاتونوف » أن العرب الذين أفاضوا من الجزيرة لفتح الأمصار، لم يكونوا عصاب لا تحصى ولا تعد تدفقت على الشرق المتمدن. فقد أحصى مؤرخو العرب الجيش الأول المسلمين في اليرموك بثلاثة آلاف ، ثم أرسل اليهم الخليفة بنجدة أبلغتهم ٧٥٠٠ مقاتل ، وأخيراً تمام عددهم ٢٤ ألفاً . وأما عدد الروم فقال العرب انه كان مائة الف وقيل ١٢٠ ألفاً ، وقيل ٢٠٠ الف مقاتل . ولم يزد مؤرخو بيزنطية على ٤٠ ألفاً . وعلى كل حال كان العدد الاكبر لأعداء العرب . وهكذا في حروب فارس . فالسبب في ظفر العرب برغم قلة عدد جيوشهم ، بالقياس الى أعدائهم ، هو ما جاء في الفصل الثالث من ذلك الجزء . وهو أن قوة الايمان ونهضة التحمس الديني كانتا متصلتين بحب الغنائم الذي يحجب الى هؤلاء القوم الغزوات والغارات . ولكن العرب في هذه الفتوحات التي علمتهم أشياء جديدة لا تحصى ، أثبتوا لأنفسهم مزايا ناشئة عن طبيعة حياتهم الاجتماعية ، من الصبر والقناعة والحق وحسن التخلص وشدة الحاسة في حال النصر الى أن يعلوا على درجات أنفسهم . ولئن لم يكن زال من بينهم حب المنافسات الشخصية التي هي معروفة بشدهتها بينهم ، فقد كان دخل بينهم عنصر وحدة لم يكن معهوداً من قبل ، ألا وهو عامل الوحدة الدينية ، وطاعة الرسول ، فأصبح البدو الذين لم يعرفوا الطاعة لخلق يمتثلون أوامر قوادهم . وكان العرب بطبيعتهم أهل باؤ وخيلاء ، يبدلون النفوس والنفائس لأجل الفخر ، فانضم الى خلقهم هذا اعتقادهم الجديد بانهم شعب الله الخاص الذي بعث الله منه خاتم رسله انتهى

وقال « ولز » الفيلسوف الكاتب الانكليزي الشهير الذي لا يزال حيا وذلك في الصفحة ٣٠٣ من كتابه « مختصر التاريخ العام » :

«إذا كان القارئ يتخيّل أن موجة الاسلام قد غمرت بهذا الفيض الذي فاضته بعض مدنيّات شريفة فارسية أو رومانية أو يونانية أو مصرية ، فيجب أن يرجع عن خياله هذا حالاً . فإنّ الاسلام قد ساد لانه كان أفضل نظام اجتماعي وسياسي تمخّضت به الأعصر . وأنّ الاسلام قد ساد لانه في كل مكان وجد أمماً استولى عليها الخول ، وكان فاشياً فيها الظلم والنهب والعسف ، وكانت بدون تهذيب ولا ترتيب ، فلما جاءها الاسلام لم يجد الا حكومات مستبدّة مستأثرة ، منقطعة الرابطة بينها وبين رعاياها . فأدخل الاسلام في أعمال الخلق أوسع فكرة سياسية وأحيى فكرة سياسية عرفها البشر ، ومدّ الى البشرية يد المعونة . وقد كان لدن ظهور الاسلام نظام رأس المال في السلطنة الرومانية مبنياً على الاسترقاق ، وكانت الآداب والثقافة والأوابد الاجتماعية آخذة بالانحلال . ولم يبدأ الاسلام بالانحطاط الا عند ما بدأت البشرية تشكّ في صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة »

يريد ولز أن يقول أن الاسلام يرى لا ممّا عمله المسلمون الذين لم يحسنوا تمثيله .
ففي هذا القدر مقنع لمن أراد أن يخوض هذا البحث بقطع النظر عن العقيدة الاسلامية ، بل بالوقوف موقفاً متحيّداً لا للاسلام ولا عليه . فاذا وقف القارئ ههنا الموقف من الحيدة كان لا بدّ له من أن يحكم للاسلام وأن يحكم بتحمّل أعدائه عليه بغضا وعدواناً .

البعثة المحمدية

وأقوال جبهة من العلماء والفلاسفة والمؤرخين الأوربيين

فى النبى صلى الله عليه وسلم

المنصف منهم والمعرض

للشكيبى

منهم : —	
Grousset	غروسه
Montet	موتته
Dinet	اتيان دينه الفرنسى المسلم
Dozy	دوزى
Noldeke	نولدكه
De Goeje	دوغويه
Sprenger	شبرنغر
Snouck- Hurgronje	سنوك هركرونه
Grimme	غريم
Margoliouth	مارجليوث
Huart	هوار
Goldziher	غولد سيهر
Gaudefroy Demombynes	غودفروا دمومبين
Wells	ولز
Voltaire	فولتير
وسواهم : —	

قال غروسه صاحب «مدينت الشرق» : «كان محمدٌ لمّا قام بهذه الدعوة شاباً كريماً نجداً ، ملآن حساسة لكلّ قضية شريفة ، وكان أرفع جداً من الوسط الذين كان يعيش فيه . وقد كان العرب يوم دعاهم الى الله منغمسين في الوثنية وعبادة الحجارة ، فعزم على نقلهم من تلك الوثنية الى التوحيد الخالص البحت ، وكانوا يقنون في الفوضى وقتال بعضهم بعضاً ، فاراد أن يؤسّس لهم حكومة ديمقراطية موحّدة . وكانت لهم عادات وأوابد وحشية تقرب من الهمجية ، فاراد أن يلطّف أخلاقهم ويهذب من خشوتهم الخ »

وقال الاستاذ « موته » Montel استاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف في كتابه « محمد والقرآن » مايلى : « أمّا محمدٌ فكان كريم الاخلاق حسن العشرة ، عذب الحديث ، صحيح الحكم صادق اللفظ ، وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحة الحكم وصرامة اللفظ ، والاعتناء التام بما يعمل به ويقول »

وقال الاستاذ موته في كتابه المذكور صفحة ١٨ مايلى بالحرف : —

« ان طبيعة محمد الدينية تدّش كل باحث مدقق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الاخلاص . فقد كان محمد مصلحاً دينياً ذا عقيدة راسخة ، ولم يقدّر الا بعد أن تأمل كثيراً وبلغ سن الكمال بهاتيك الدعوة العظيمة التي جعلته من أسطع أنوار الانسانية في الدين وهو في قتاله الشرك والعادات القبيحة التي كانت عند أبناء زمنه كان في بلاد العرب أشبه بنبي من أنبياء بني اسرائيل الذين نراهم كباراً جداً في تاريخ قومهم .

ولقد جهل كثير من الناس محمداً ونحسوه حقّه وذلك لانه من المصلحين النادرين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها »

وقال في صفحة ٢٢ مايلى :

« ان الديانة الاسلامية كعقيدة توحيد ، ليس فيها شيء مجهول في ديانات التوحيد الاخرى الا ان ظهورها في جزيرة العرب بروح عربية عالية جعل لها طابعاً جديداً باهراً وقد سماها محمد « الاسلام » إشارة الى تمام الانقياد لارادة الباري تعالى وهي في هذه العقيدة مشابهة للمسيحية الا ان عقيدة هذا الانقياد لارادة الله تتجلى من القرآن بقوة لا تعرفها النصرانية .

وقد بقي في الاسلام من عادات العرب القديمة تعدد الزوجات والرق الا ان الاسلام جعل

للاولى حذاً ، ولثانية شروطاً من حسن المعاملة ، وقد بلغ من محمد التزام هذا التلطيف من معاملة الرقيقين ان قال : ما خلق الله شيئاً أحب اليه من تحرير الرقيق وإحلال شيئاً أكره اليه من الطلاق

ولقد منع القرآن الذبائح البشرية ، ووأد البنات والجر والميسر ، وكان لهذه الاصلاحات تأثير غير متناه في الخلق بحيث ينبغي أن يعدّ محمد في صف أعظم المحسنين للبشرية . ثم ذكر موته أركان الاسلام كاصلاة والزكاة والصيام والحج وقال ان حكمة الصلاة خمس مرات في اليوم هي ابقاء الانسان من الصباح الى المساء تحت تأثير الديانة — ليكون دائماً بعيداً عن الشر — وحكمة الصيام تعويد المؤمن غلبة شهوات الجسم وزيادة القوة الروحية في الانسان ، وحكمة الحج هي توطيد الاخاء بين المؤمنين وتمكين الوحدة العربية . قال موته : « فهذا هو البناء العظيم الذي وضع محمد أساسه ، وثبت ولا يزال ثابتاً بازاء عواصف الدهور الدهاري »

ولا يزال الاستاذ موته حياً يرزق وهو من علماء جليل ومن كبار أساتيد جامعتها ومن أكابر المستشرقين وله ترجمة بديعة للقرآن . ومن أطف الكتب في السيرة النبوية كتاب للمسيو « اتيان دينه » الافرنسي الذي أسلم وحج وألف كتاباً عن حجته الى البيت الحرام من أبداع ما كتب في هذا العصر كما ان كتابه عن حياة النبي ﷺ لا يقل عن كتابه في الحج في سلاسة عبارته ، ودقة معانيه ، وقوة حجته ، مع التزام خطة الاعتدال والجدال بالتي هي أحسن . ومن بدائع تأليف « دينه » Dient كتابه في الرد على لامنس اليسوعي ومؤلفين آخرين ممن تنقصوا الاسلام والرسول عليه السلام وهو المسمى « انك لفي واد وانا لفي واد »

فالمسيو دينه يبين فساد طريقة هؤلاء الاوربيين الذين حاولوا أن يحلوا السيرة المحمدية ، وتلدخ ظهور الاسلام بحسب العقلية الاوربية ، فضلوا بذلك ضللاً بعيداً لان هذا غير هذا ولأن المنطق الاوربي لا يمكن أن يأتي بنتائج صحيحة في تاريخ الانبياء الشرقيين قال « دينه » ان هؤلاء المستشرقين الذين حاولوا نقد سيرة النبي بهذا الاسلوب الاوربي البحت لبثوا ثلاثة أرباع قرن يدققون ويمحصون بزعمهم ، حتى يهدموا ما اتفق عليه الجمهور من المساميين من سيرة نبهم وكان ينبغي لهم بعد هذه التدقيقات الطويلة العريضة العميقة أن يتمكنوا من

هدم الآراء المقررة ، والروايات المشهورة من السيرة النبوية ، فهل تسنى لهم شيء من ذلك ؟
الجواب : لم يتمكنوا من اثبات أقل شيء جديد .

بل اذا أمعنا النظر في الآراء الجديدة التي أتت بها هؤلاء المستشرقون ، من فرنسيس وانكليز وألمان وبلجيكيين وهولنديين الخ . لانجد الا خطأ وخطأ ، وانك لترى كل واحد منهم يقرر ما تقضه غيره من هؤلاء المدققين بزعمهم أو ينقض ما قرره .

ثم أخذ « دينه » يورد الأمثال على هذه التناقضات فمنها أن المستشرق دوزي الهولاندى قال ان محمداً لم يكن يشبه قومه ، فقد كان ذا تصور قوى ولم يكن عند العرب مثل هذا التصور ، وكان ديناً بطبيعته ولم يكن العرب دينيين .

وان لامنس قال بازاء ذلك ان محمداً كان شبيهاً بقومه وان هذه المشابهة هي التي كانت سر نجاحه بينهم .

وقال دوزي ان محمداً كان ميالاً الى الصمت والكآبة يحب العزلة والهيام في الأودية البعيدة ، ويطيل التأمل في الليالي .

وعارض لامنس في هذا الرأي وقال انه لا ينطبق على المعهود من كراهية محمد للعزلة ومن شهرة نفوره من النسك .

وقال « نولدكه » ان سبب الوحي النازل على محمد والدعوة التي قام بها هو ما كان ينتابه من داء الصرع .

• وقال الاستاذ « غويه » De Coeje ان هذا الافتراض ليس بصحيح لأن الذاكرة عند المصابين بالصرع تكون معطلة ، والحال هي بالعكس عند محمد الذي كان يتذكر كل ما يسمعه في أثناء هذه النوبات .

ويقول الاستاذ « شبرنغر » Sprenger انها نوبات هستيرية . ويرد عليه الاستاذ سنوك هركرونه Snouck Hurgronje بقوله انها ليست من هذا النوع .

ويقول الاستاذ غريم Grimme ان مبادئ محمد اشتراكية لادينية . وانما جعل لها صبغة دينية لأجل تمكينها .

ويرد عليه سنوك هركرونه قائلاً بان مدار نبوة محمد هو البعث واليوم الآخر .
ويزعم « مارغليوث » Margoliouht وهو أخص المستشرقين وأشدهم بغضا لمحمد وهو

الذي اعتمد عليه الدكتور طه حسين في النظرية الساقطة بان شعر الجاهلية موضوع بعد الاسلام - ان محمداً كان يمارس الشعوذة وكانت له مجالس سرية أشبه بمحافل الماسونية وعلامات يتعارف بها مع أصحابه وكانوا يرخون عذبة العامة فوق مناكبهم الخ وقد رد على مرغليوث هذا جون باركنسون Parkinson في المجلة الاسلامية Islamic review سنة ١٩١٥

ونسب لامنس اليسوعي الى محمد الاكل من الطعام ، والشره ، والاسترسال في اللذات البدنية وقال انه مات بالبطنة . وزعم « بينه سانغله » Binet Sanglé انه كان سيء الغذاء صابراً على الجوع متقشفاً ومات من الضعف . كتب هذا في كتابه المسمى « بنجون يسوع » في الجزء الثاني من هذا الكتاب (هذا الكتاب أربعة أجزاء) وقال « هوار » Huart انه توفي بذات الجنب . وقال الأب دو زعيم مبشرى الصحراء انه مات مسموماً سمته امرأة يهودية .

قال « اتيان دنيه » وان أردنا استقصاء هذه التناقضات التي نجدها بين تمحيصات هؤلاء المحصنين بزعمهم يطول بنا الأمر ولا نقدر أن نعرف أية حقيقة ولا يبق أماننا الا أن نرجع الى السير النبوية التي كتبها العرب . نعم انهم كتبوها بأسلوب شرقي ساذج . وأودعوها تفاصيل قد تكون من أثر الحب والتحمس الا أن الذي يفهم أسلوبها يعلم ما بها من الحقائق المدهشة . فأما المؤلفون الذين زعموا أنهم يريدون ترجمة محمد بصورة علمية ، شديدة التدقيق ، فلم يتفقوا منها ولا على نقطة مهمة ، ورغم جميع ما نقبوه ونقروه ، وحاولوا كشفه بزعمهم ، فلم يصلوا وان يصلوا الا الى تمثيل أشخاص في تلك السيرة ليسوا أعرق في الحقيقة الواقعية من أبطال أقاصيص فالترسكوت واسكندر دوماس . فهؤلاء القصاصون تخيلوا أشخاصاً من أبناء جنسهم يقدر أن يفهمهم ولم يلاحظوا الاختلاف الأدوار بينهم . أما أولئك المستشرقون ففسوا أنه كان عليهم قبل كل شيء أن يسدوا الهوة السحيقة التي تفصل بين عقليتهم الغربية والأشخاص الشرقيين الذين يترجمونهم وانهم بدون هذه الملاحظة جديرون بأن يقعوا في الوهم في كل نقطة .

هل يتوقفون عند هذه الملاحظة ويعلمون أن طريقتهم هذه لا تنفذ الى حقيقة ؟
الجواب : لا نظن ذلك . وهو لأنهم مولعون بحب الطريف يحاولون الاتيان ببعد غير مسبوق .

ثم نقل « دينه » قول « سنوك هركرونه » عن كتاب « غريم » في ترجمة الرسول وهو أن غريم أراد الابداع والاطراف فجاء بصورة غير صحيحة .

ثم ذكر « دينه » كيف ان الأب لامنس اليسوعي في أول كتابه عن محمد صاحب متأوها من كون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الانجيل التي كانوا بدأوا يذوقونها ، ولم يقدر أن يغفر للقرآن ذنب ادخاله في الاسلام ثلاثمائة مليون نسمة من جميع أجناس البشر واستتبابه الى يوم الناس هذا ينمو وينتشر في افريقية وآسية بمرأى ومسمع من المبشرين المسيحيين . فلذلك زعم الأب لامنس أن يشنّها على الاسلام غارة شعواء ويحمل عليه حجة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن يصرع الاسلام ! الا أن حالة عقلية كهذه يقول « دينه » انها لا تلتئم مع بحث علمي مبني على تجرد محض من الهوى وتنزه عن البغض . ثم جاء « دينه » رحمه الله بالأدلة القاطعة على سفسفات لامنس وسردها مع ردها واحدة واحدة مما لا يتسع له هذا المكان الذي لا تتوخى فيه الا الاشارة والدلالة محملين من شاء التوسع في هذا البحث على الكتب نفسها .

ان الكتابات في أوروبة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ودينه ، وشرعه ، والملة الاسلامية ببحر لا ساحل له وفيها الغث والسمين ، والحالى والعاطل ، والحق والباطل ، ومن مؤلفيها الحب والقالى ، والمنصف والمتعسف ، والناصح والكاشح كما هو الشأن في كل أمر . ولكن العصر الأخير في أوربة أنصف الرسول ﷺ كثيراً بالقياس الى الأعصر التي سبقت كما يظهر من الشواهد التي أتينا بها من قبيل انمودجات . ولو كان المسلمون استيقظوا من سباتهم وتعلموا من الاوربيين روح « التضحية » كما يقال ونشروا للاسلام دعاية منظمة وأنفقوا عليها عن سعة لا مكنهم أن يصححوا أباطيل كثيرة وبدّدوا أوهاماً كثيفة تتعلق بهم وبدينهم وبنبيهم ، ولاهتدى في أوربة الى الاسلام خلق كثير أثروا تأثيراً محسوساً في مجرى السياسة العلمة

ولكننا مع الأسف لا نزال بعيدين عن درجة هذا الانتباه ولا يزال أعداء الاسلام يناصبونه القتال في كل سهل وجبل وفي كل بر وبحر ولا تبرح مكافخة الاسلام لهم هي في نسبة الخردل الى الجنادل . فحتى ينشط الاسلام من عقاله ويستأنف همته الأولى ؟ هذا مالا يجابوب عليه غير المستقبل . انتهى

وقال المؤرخ الفرنسى الشهير « لافيس » « انه كان مشهوراً بالصدق منذ صباه حتى كان يلقب بالأمين الخ » .

وقال « غولد سيهر » سيد المدققين ، وحجة المستشرقين ، فى كتابه « عقيدة الاسلام وشريعته » فى الصفحة الثالثة من هذا الكتاب الجليل ما يلى :

« ان دعوة النبي العربى كان فيها نخبة مبادئ دينية اعتقدها هو بالاختلاط مع اليهود والنصارى وغيرهم ، واقتنع بها ، ورآها جديرة باحياء الشعور الدينى بين قومه . ولقد كانت هذه المبادئ المقتبسة من الأديان الأخرى فى نظره ضرورة لثبوت سير الانسان بحسب الارادة الالهية ، فتلقّاها هو بصدق وأمانة ، وبمقتضى الهام أيدته فيه المؤثرات الخارجية وجاءه وحياً الهياً كان هو مقتنعاً بكونه وحياً الهياً نازلاً على لسانه »

اننا ننبّه قراء هذا الكتاب الى أن هؤلاء الذين نحن نستشهد بكلامهم فى حق محمد ﷺ ليس فيهم واحد مسلم ، وذلك اننا لانرى حاجة الى الاستشهاد على صدق الرسول عليه السلام بكلام المسلمين المؤمنين بالله ورسوله . وانما نريد أن نقيم الأدلة من أقوال علماء الأوربيين الذين ليسوا بمسلمين يقال فيهم انهم قالوا ما قالوه متأثرين بعقيدتهم التى نشأوا عليها ، وانما هم من العلماء المنصفين الذين نشدوا الحق ، وبغوا التحرى جهد طاقتهم . وقد كانت خلاصة آرائهم وزبدة أقوالهم أن محمداً كان صادقاً ، وكان أميناً ، وكان معتقداً بأن الله ابتعنه هداية قومه ، وارشاد سائر البشر الى الدين القيم ، وكان مقتنعاً بأن الله تعالى يوحى اليه ، وأنه لم يقل شيئاً الا وهو مقتنع به . وهذا هو رأى السائد الآن بين العلماء المحققين من أهل أوربة ، ولم يبق فيهم من يقيم وزناً لتلك المطاعن التى كان أحبارهم ورهبانهم وأعداء الدين الاسلامى منهم يوجهونها الى شخص النبي صلى الله عليه وسلم ، ويطبعون بها ناشئتهم ويجعلونها مداراً لدعايتهم .

وأما قول « غولد سيهر » ان الاسلام فيه نخبة مبادئ أصلها من اليهودية والمسيحية فليس فيه شئ يدعو الى الانكار ، وما جاء القرآن الا مصداقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل ، والاسلام انما هو ملة ابراهيم حنيفاً ، وقد جاء محمد بتأييد تلك الملة لا بنقضها كما لا يخفى .

وقال « ماكس مايرهوف » فى كتابه « العالم الاسلامى » الصفحة العاشرة : « ان محمداً فى سنة ٦١٠ للمسيح كان كثير التفكير ، والانفراد ، وكان يقصد الى البداية ويخلو بنفسه فى

جبل حراء بقرب مكة . فرأى ذات يوم رؤيا ، هي أن الملك جبريل تجلى له وناوله كتاباً ، وقرأ عليه هذه الآيات التي هي السورة السادسة والتسعون من القرآن : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) فنزل عليه هذا الكلام وحياً وجاء فأخبر امرأته بما وقع له . ثم جاءه وحى آخر فيما بعد ، فلما شعر به تغطى بثوب وسمع هذه الكلمات : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَتِيَابِكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ) ومذ ذاك الوقت اقتنع بان الله اختاره مبشراً بعقيدة جديدة ، وتسمى برسول الله ، ليدعو الى الله بلسان عربى مبين . الى أن يقول : « أراد بعضهم أن يرى في محمد رجلاً مصاباً بمرض عصبي ، أو بدء الصرع ، ولكن تاريخ حياته من أوله الى آخره ليس فيه شئ يدل على هذا ، كما ان ما قام به فيما بعد من التشريع والادارة يناقض هذا القول »

وأما « غودفروا دمبومين » و« بلاتونوف » في « تاريخ العالم » فقد وصلا من التدقيق والتمحيص الى حد لا أعرفه لمؤرخ وبلغ منهما ذلك أن قالا : « ان النصرانية لا يزال أصلها مجهولاً » كما انى رأيتهما في كثير من الأمور المجمع عليها في الاسلام لا يرحان متوقفين في الصفحة ١٣٢ من الجزء السابع من تاريخهما نجدهما يقولان : « انه غير ممكن الجزم بصورة حقيقية لمحمد ، ولا بصورة حقيقية لأحد من كبار رجال العالم . وكل ما هناك انما هو الروح التي تتجلى لهم في تواريخهم التقليدية وفي كيفية تمثيل الخلف لصورهم . ولا شك في أنه يكون من باب الفلسفة العليا أن تميز الحقائق الراهنة عن الاعتقادات ولكننا نجد أنفسنا عاجزين عن ذلك هنا . وغاية ما نقدر أن نجزم به هنا هو تبرئة محمد من الكذب ومن المرض . وانما كان محمد رجلاً ذا مواهب الهية عليا ، ساد بها أبناء عصره ، وهي رابطة الجأش ، وطهارة القلب ، وجاذبية الشبائل ، ونفوذ الكلمة . وأنه كان عبداً عظيماً ، وأنه نظير جميع العباد العظام كان يجمع بين حرارة الاعتقاد بالرسالة التي هو مأمور بها من جانب الحق تعالى ، وبين ملكة الأعمال الدنيوية ومعرفة استخدام الوسائل اللازمة لنجاح تلك الرسالة »

وجميع هؤلاء - تقريباً ، وولز الانكليزي أيضاً ، وهو ممن تناول النبي ﷺ بشئ

من النقد ، قد أجمعوا على أن من أنصع الأدلة على صدقه كون أهله وأقرب الناس اليه هم أول من آمنوا به . فقد كانوا مطلعين على جميع سرائره ، ولو ارتابوا في صدقه ما آمنوا .

وبرغم انتقادات « ولز » التي حادفها عن الصواب ، لم يستطع أن ينكر كثيراً من الحقائق مثل قوله : « ان ديانة محمد كان فيها روح حقيقية من العطف ، والكرم ، والاخاء ، وكانت بسيطة ، مفهومة ، سائغة ، وكانت ملائمة بمكارم الأخلاق ، وعلو النفس ، والمعالى التي يشغف بها أهل البادية »

وقال العلامة هوار « Huort » أستاذ الألسن الشرقية بباريز وصاحب « تاريخ العرب » المتداول بين الأيدي وذلك في الصفحة ٩٤ من الجزء الأول :

« كيف تعرف محمد الى خديجة وكيف أمكنه أن يحصل على ثقها ويتزوج بها ؟ الجواب على الشق الأول لا يزال غير معروف عندنا . وأما على الثاني فقد اتفقت الأخبار على أن محمداً كان في الدرجة العليا من شرف النفس ، وكان يلقب بالأمين ، أى بالرجل الثقة المعتمد عليه الى أقصى درجة ، أى كان المثل الأعلى في الاستقامة » ثم انك لا تجد في « تاريخ العرب » للامير شكيب « هوار » كلمة واحدة تدل على أن محمداً كان مرآئياً أو مداجياً ، أو كان يقول مالا يعتقد أو يعتقد مالا يقول .

وقد ذكر « كارادوفو » المستشرق الافرنسي الفاضل صاحب كتاب « مفكرى الاسلام » les penseurs de l'islam في الجزء الثالث من هذا الكتاب حياة صاحب الرسالة ﷺ وتحري فيهما مزيد التحري ، ودقق أشد التدقيق ، وانتهى الى القول « بان محمداً من سن الخامسة والعشرين الى الأربعين . كان كثير التفكير ، هادئاً ، ساكناً ، وكان حليماً ، تقياً ، حسن الأخلاق ، وأنه عند ما بلغ الأربعين توجهت جميع قواه العقلية الى جهة التأمل في جوهر الألوهية ، والبحث عن الحقيقة الدينية ، ومنذ ذاك الوقت أخذ يعتزل الناس ويخلو بنفسه في غار بقرب مكة اسمه حراء . وكان محمداً أميناً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يكن فيلسوفاً ولكنه لم يزل يفكر في هذا الأمر الى أن تكونت في نفسه بطريق الكشف التدريجي المستمر عقيدة كان يراها الكفيلة بالفناء على الوثنية »

فهذا أيضاً من المستشرقين المتبحرين الذين لم يدينوا بالاسلام ، ولم يعتقدوا بالوحي

المتنزل على محمد ﷺ لكنه ذهب الى أنه عرف الحق بطريق التأمل ، والقنف في الروح ، مما لا يبعد كثيراً عن العقيدة التي عليها المسلمون .

ولقد تعرض « كلرادوفو » الى خرافة الراهب بحيرا التي يزعم بعض المسيحيين أنه هو الذي كان علم مجداً العقيدة وهو الذي ألف القرآن ، وقال ان هذه الأسطورة موجودة ، وأنها مكتوبة بالعربي ، وأنه كان نشر عنها فصلاً في مجلة « الشرق المسيحي » ولم يرفها شيئاً يستحق الاعتبار ، ولكنه لا يزال في سورية قسيسون من الفئة التابعة لرومة يعتقدون بأن بحيرا كان معلماً لمحمد ، وأنه هو الذي ألفه القرآن وقد ذكر « كلرادوفو » ما قيل عن بحيرا انه كان راهباً من انطاكية ، ذهب سائحاً الى جنوبي سورية ، وتوغل في صحراء سيناء ، ثم ذهب الى بلاد العرب يعلمهم دين جدهم اسماعيل الخ الا أنه ينعت هذه القصة كلها بقوله « خرافة » .

وكيف لا تكون خرافة القصة التي تجعل مثل بحيرا الراهب الاعجمي ينطق بمثل القرآن الذي عجزت عنه مصافح خطباء العرب ، وغفل شعرائهم أفصح وأبلغ ما كانوا ، ولعل أصل هذه الخرافة التي لا ينجح بعض الناس من روايتها أو الإشارة اليها ، ما يرويه المؤرخون من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد ذهب مع عمه أبي طالب الى الشام في قافلة ، وكان في الثانية عشرة من العمر ، وأنه لما مر أبو طالب والقافلة ببصرى دعاهم الى الطعام راهب اسمه بحيرا . فلما صاروا حول الخوان قال الراهب انه معكم صبي لا يزال غائباً فلماذا لا يحضر ؟ فاستدعوه فحضر . وطفق الراهب يساله أسئلة ويستحلفه بالللات والعزى أن يجابها فأجاب الصبي بما يشعر اقشعرار بدنه من ذكر اللات والعزى ، ووجد الراهب من أجوابه ومن سيماه أنه هو النبي الذي رأى صفته في الكتب ، والذي سيكون خاتم الرسل . وأوصى الراهب أبا طالب بان يحضر على ابن أخيه من اليهود .

قد نقل هذا الخبر ابن هشام في السيرة النبوية . ونقلها أصحاب « الانسيكلو بديا » الاسلامية عن ابن هشام . وقالوا ان بعضهم يزعم أن أبا بكر كان في هذه الواقعة . ثم قالوا ان المسعودي ذكر ان اسم الراهب كان سرجيوس وأنه كان من عبد القيس . وذكر الحلبي أن اسمه كان سرجيوس أو جرجيوس .

وقرأت في تاريخ أبي الفرج الملقب . الأسقف المسيحي ، ان الراهب لما رأى محمد ﷺ مع عمه تفرس فيه وقال : سيكون لهذا الصبي شأن عظيم ويذيع شكره في المشارق والمغرب

وجاء في « الانسيكلو بيديا الاسلامية » أن اسم « بحيرا » الذى كان الراهب يعرف به هو اسم آراى معناه « المنتخب » وقد تواردت هذه القصة فى السير الاسلامية لاثبات ان رهبان النصرى كانت عندهم علامات على ظهور النبى ﷺ قال أصحاب « الانسيكلو بيديا » المذكورة فى ترجمة الراهب بحيراً ان مؤرخى بيزنطية قد ذكروا هذا الراهب من قديم وقالوا ان بحيراً كان اسمه سرجيوس وفقاً لما ورد فى كتب المسلمين .

الا ان هناك اختلافاً فى سرد الخبر :

وذلك ان تيوفانس وجيورجيوس فرانتس ، يقولان فى تاريخيهما انه لما خيل لمحمد ظهور الملك جبريل لأول مرة ، وأصابته تلك الرعدة ، خافت عليه زوجته خديجة ، وذهبت الى راهب مبتدع كانت قد طردته الكنيسة اسمه سرجيوس ، فروت له ما حصل لزوجها ، فقال لها انه لا يظهر الملك جبريل الا للانباء .

وأما قصة بحيرا التى ينعنها « كارادوقو » وجميع المحققين بلفظة « خرافة » ويقول أصحاب « الانسيكلو بيديا الاسلامية » أنفسهم — وهم غير مسلمين ولا مدافعين عن الاسلام — ان مقصد من كتبوها هو اثبات عدم صحة النبوة المحمدية لاغير فهى قد ظهرت فى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر للمسيح ، ولها نسخة بالعربى ونسخة بالسرمانى ، وقد ذكر أصحاب « الانسيكلو بيديا » ان اسم مؤلفها « ايشوياب » وانها تنقسم الى ثلاثة أقسام : الاول ذكر الدول الممالك الاسلامية التى كوشف بها الراهب بحيرا وهو على جبل سيناء . الثانى ملاقاته سرجيوس مع محمد فى بادية يثرب وتعليمه اياه العقائد والشرعة ، والقسم الذى ألفه له من القرآن . الثالث كهانات سرجيوس وما حكاه من أمور الغيب التى تحققت على نحو ما جاء فى القسم الأول .

وبالاختصار اخترعوا هذه الكاذب اختراعاً على أمل ادخال الريب والشبهات فى نبوة محمد ﷺ ، وفى نزول الوحى عليه ، وفى كيفية دعوته الى الاسلام ، وفى نشوء ملته وشريعته ، ولكنه لم يخف افتراءهم هذا على قومهم ، فردّوه بالاجاع تقريباً ، وسلموا ان أصل القصة قد يكون هذه الكلمة التى قالها هذا الراهب عن محمد لما جاء صديقاً مع عمه الى الشام ، وراهما الراهب فى بصرى . وهى كلمة تزيد الدلالة على صحة رسالته ﷺ

(وَيَأْتِيُ اللَّهُ الْآلَانَ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)

ولو أردنا أن نورد كل ما جاء في كتب المحققين من الاوربيين من الشهادات بصدق محمد ﷺ لما أمكننا أن ننهي بها وأما أوردنا بعض هذه الانعوجات مثلاً نكتفي به عن غيره .
ويقال ان « كارليك » الكاتب الانكليزي الشهير قد كان من الاوربيين الأوائل الذين شددوا التكبر على المطاعن الاثيمة والأكاذيب التي كان رجال الكنيسة قد ألصقوها بأذهان الاوربيين في حق الرسول العربي الكريم .

وسأختم هذه الحاشية بنقل مقاله « فولتير » رأى ملاحدة اوربة بحق محمد ﷺ وذلك ان « البرنس تسينسندروف » النمسوى الذى تولى حكومة النمسا في أواخر أيامه كان في أيام شبابه جاء الى سويسرة ، وزار كلاً من « فولتير » و « جان جاك روسو » ، وذلك في شهرى سبتمبر و اكتوبر سنة ١٧٦٤ ، وله مذكرات عن هذه الزيارات غير مطبوعة ، محفوظة في دار الآثار الوطنية في ثينا ، قد اطلع عليها المسيو « لوئال » الفرنسى ، وأرسل عنها مقالة الى جريدة الطان مؤرخة في ١٤ اكتوبر ١٩٢٤ . وقد نقلت أنا هذه المقالة تلخيصاً ونشرت ذلك في مجلة « الزهراء » عددها المؤرخ في ١٥ صفر سنة ١٣٤٤ والمهم منها ان فولتير في أحد مجالسه مع البرنس « تسينسندروف Zinzendorf » أجرى ذكر « لوتير » و « كلفين » فقال للبرنس : « انهما لا يستحقان أن يكونا صانعى أحذية عند محمد » ومن المعلوم ان الاوربيين لاسيما الامم البروتستانتية منهم ، يعتقدون انه لولا الاصلاح الدينى الذى قام به « لوتير » و « كلفين » لما انشق فجر الحرية في اوربة ، ولكانت القرون الوسطى قد امتدت الى عصرنا هذا . فأما « فولتير » فقد رآهم مقصرين رجعيين ناكسين على الاعقاب ، لأنهما لم يتجاسرا على اعلان الحقائق التي أعلنها محمد ، مع انه قد تقدمهما في الزمن . وهذه شهادة ملحد لم يقرن به أحد في ملاحدة الدهر ، ولا تمارى أحد في كونه العامل الأعظم في الثورة الفرنسية .

ولقد ذكرت في مقدمة مقالتي هذه في « الزهراء » أسباب اهتمامي لهذه الجلة التي قالها « فولتير » عن مقايضة « لوتير » و « كلفين » الى محدوهي : ان بعض النشء الجديد لا يعتقدون بشيء ولا يحفلون بأسر مالم ترو لهم فيه كلاماً عن فيلسوف اوربى عظيم ، لاسيما اذا كان من كبار الملاحدة .

وأى فيلسوف لعمري أعظم الخادأ ، وأى ملحد أشهر فلسفة ، من « فولتير » الذى لم يتقدمه ولا تأخر عنه في هذا الباب مثله ، ولقد انطلق الحق بما نطق به كما رأيت .

السيرة النبوية

وكتاب

« حياة محمد » لأميل درمنغهم

Emile Dermenghem

للأمير شكيب

— * —

- الحديث والتحديث .

- تفاوت الأئمة المجتهدين في الأكتار والاقلال منهما .

- درمنغهم يصف أول ما أنزل على النبي ﷺ من الوحي .

- قضية صلب المسيح واختلاف الاسلام والنصرانية في كونهما .

- مقارنات بين عقائد اسلامية ومسيحية في عيسى عليه السلام .

- جمع القرآن وكيفية ثبوت مصحف عثمان .

هياة محمد لأميل درمنغهم .

قد أثار الانتباه لهذا الكتاب المؤلف بالفرنسية مانشره الدكتور حسين بك هيكل تحت عنوان « حياة محمد لدرمنجهم نقد وتعليق » في ملاحق جريدة السياسة الغراء الذي يوالى نشر مقالاته في أعدادها الأدبية ورده على درمنغهم مما جعل كل من يقرأ مقالات الدكتور هيكل في اشتياق الى معرفة ما كتبه درمنغهم لأنه لم يأت بشئ مما قال درمنغهم بل علق ونقد بدون أن يترجم مقاله بخلاف الأمير أبقاه الله (الناشر)

ومن كتب في هذه السنين الأخيرة في موضوع السيرة النبوية المحمدية الميوراميل درمنغهم Emile Dermenghem من كتاب الفرنسيين ومن أقام ببلاد المغرب وخالط المسلمين وهو وان كان مسيحياً كاثوليكياً ، فمن المسيحيين ذوى الوجدان والميل الى الانصاف . ولما أقدمت الحكومة الفرنسية في المغرب على إلغاء الشريعة الاسلامية ، من بين البربر ، وأخذت تنشب بالوسائل المتعددة لأجل اخراجهم من الاسلام وتريتهم في النصرانية ، كان هذا الكاتب ممن أقاموا التكبر على هذه السياسة ورآها مخالفة لمصلحة فرنسا وماسة بكرامتها في العالم ، وقد نشر رأيه هذا بدون محاباة في الجرائد .

فأما كتابه في السيرة النبوية فقد أسماه « حياة محمد » وهو من أهم الكتب وقد صدره بمقدمة يقول فيها : « انه لا يوجد واحد في الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد ، ولكن وجد من ينكرون بعض ما جاء في ترجمة محمد في الكتب العربية . ومن الناس من يتجاوز الحد في النقد والاعتراض حتى يقع في الظلم ، أما أنا فقد جعلت كتابي سيرة حقيقية مبنية على منابع العربية الأصلية بدون ايهال جميع ما وصلت اليه تدقيقات المتخصصين في هذا الموضوع في الأزمنة الأخيرة . وقد أردت أن أمثل لمحمد صورة مطابقة له بقدر الاستطاعة كما فهمته من الكتب التي قرأتها وأنعمت النظر فيها ومن مشافهة الأحياء من المؤمنين به . فاذا كانت كل حياة بشرية تنطوي على تعليم ، وكانت كل حادثة تشتمل على مشهد يمثل حقيقة من الحقائق ، فكذلك يكون مؤثراً ومفيداً التلاقى مع رجل من الرجال الذين يقتدى بهم جانب عظيم من الانسانية » . وقال : « ان من منابع الاولى لسيرة محمد القرآن والسنة . فالقرآن هو أوثقها سنداً ، ولكنه غير شامل الشمول الكافي في هذا الموضوع ، وأما الحديث فبرغم جميع ما تحراه المحدثون ، لاسيما البخارى ، في جمع أقوال الرسول والاحاطة بأقل اشارة من شاراته وترجمة الرجال الذين روى عنهم الحديث سلسلاً ومُعْتَمَناً ، لا يزال فيه كثير مما هو محل للشبهة ، وما هو موضوع ، ومن الجلة انهم نسبوا الى النبي معجزات كانت نسبتها اليه بعد موته . والحال انه معروف كون النبي نفسه ما ادعى المعجزات . وليس بالسهل تمحيص جميع الأحاديث ومعرفة الصحيح فيها من غيره ، ولكنه ليس من المستحيل معرفة ذلك لمن كان قد وقف على علل التحريف والوضع . وما لاشك فيه انه بعد الغربة التامة يبقى عدد كبير من الأحاديث محققاً تحقيقاً رياضياً وذلك بمقارنته بشواهد أخرى

و بتطبيقه على المكان والزمان والبيئة والاضاع التى كانت . كما ان منها ما يرجع صحته .
وقد قال المستشرق سنوك هركرونه Snouck Hurgronje انه ليس من السداد فى شىء
انكار حديث لا يمكن تبين السبب الذى يقال انه وضع لاجله ولا توجد علة تاريخية
تنقضه . أمّا السير النبوية كسيرة ابن هشام عن ابن اسحاق وهى أهمها ، وكتاب الواقدي ،
وطبقات ابن سعد ، والسيرة الحلبية ، وتاريخ أبى الفداء ، والطبرى ، والمسعودى الخ ففيها
بأجمعها أحاديث ضعيفة . الا انه لا ينكر أصلاً وجود روايات فيها هى غاية فى الصراحة
والثقة . وانما كثرت المبالغات فى الأعصر الأخيرة . ثم جاء اناس مثل ابن خلدون فأثروا
بآراء خاصة بهم . ثم جاء المحدثون مثل الشيخ عبده فى مصر ، وتلاميذه والسيد أمير على
الهندي ، وأصحاب مجلة « اسلاميك ريفيو » فجعلوا للنبي صورة اجتهدوا فى تقريبها من
ذوق هذا العصر . وربما تكلموا عن عيسى بما لا يرضاه محمد نفسه . أما من الجهة الاوربية
فقد كانت الأوهام والعداوات الدينية تحول دون درس حقيق علمى لنفزية منشأ الاسلام
الى أن نبغ فى القرن التاسع عشر رجال أزاحوا هذه العلة مثل كوسين دورسيغال
Coussin de Perceval وموير Muir وفابل Weil ومرجوليرث Margoliouth
ونولدكه Noldcke وشبرنجر Sprenger وسنوك هركرونه Snouck Hurgronje ودوزى
Dozy ومن بعدهم كاتانى Catani ولانسن Lamens وماسينيون Massignon ومونيه
Montel وكازانوفا Casanova وبييل Bell وهوارت Huart وهوداس Houdas ولارسييه
Marçais وارنولد Arnold وغريم Grinune وغولدرزهر Goldziher وغود فروا
دمومبين Gaudefroy Demombynes وغيرهم .

الا أن بعضهم تجاوز الحد فى التمحيص الى أن سقط فى النفي المطلق ، فانقلب الأمر الى
ضده وصار هداماً بدلاً من أن يكون بناء . أما أنا فقد جئت وسطاً بين الروايات العربية
المأثورة التى يمثلها المسيو دينيه Dinet وسليمان بن ابراهيم ، والطريقة العصرية التى جرى
عليها بعض المستشرقين المحدثين ، فكنت دائماً أنظر الى هذه الجهة والى هذه الجهة . وقد
وجدت مع الأسف نتائج تدقيقات المحدثين ناقصة الى الآن . وكثيراً ما وجدت سلبية محضة
ومتناقضة بعضها مع بعض . فالمستشرق الفلانى يحكم بأن محمداً كان أعلى من أبناء عصره ،
والآخر يقول انه كان شبيهاً بهم من كل وجه . وهذا يقول انه توفى على أثر تخمة ، وآخر

يقول انه أصابته خمى منشؤها كثرة الصوم ، وقال « لامارتين » انه لم يكن الهاولسكنه كان أكثر من رجل أى كان نبياً . وزعم « سبرنغر » هناك وجود هستيريا شديدة . ولكن « باينسكى » هدم هذه النظرية تماماً . و « ماسينيون » نفسه صرح بأن محمداً كان على تمام الاعتدال فى مزاجه . وأما الاب لامنس وهو وان كان من أحدث المستشرقين العصريين وأكثرهم اطلاعاً فلا ينكر أنه من أشدهم تعصباً . وقد ذهبت بهجة كثير من تحقيقاته بشدة تحامله على الاسلام ونبية . وقد استعمل لامنس فى تاريخه للاسلام عين التعتن والطرق الاتقادية التى استعملها كثير من النقاد العصريين للنصرانية . فلامنس اذا مر بجديث مطابق لما فى القرآن . يزعم انه انما هو نسخة عن الآية التى فى القرآن ، ومن الغريب أن يكون تطابق شهادتين ، موجباً لتساقطهما بدلا من أن يكون موجباً لزيادة الثقة فيهما ، وانضرب مثالا على ذلك : يقولون ان الحديث المنسوب للنبي فى فضل العسل انما وضعه المحدثون تأييداً للقرآن الذى فيه كلام على فوائد العسل فنجيب لماذا ياليت شعرى لا يجوز أن يكون القرآن قد نوه بفوائد العسل وأن يكون محمد أيضاً أحب العسل ووجده صحياً وأوصى به ؟ وهو فى الحقيقة شراب صحى لاشبهة فيه وما يجب أن يوصى به . فهل تكون رواية شئ كهذا عن النبي ، مع عدم وجود أى شئ منطقي أو تاريخي أو مختص بالموضوع نفسه يمنع صدوره عنه ، من الروايات التى تتضمن ما يوجب الشبهة ؟ اتنا لانفهم هذا وان كنا لاننكر الفوائد الكثيرة التى فى كتب لامنس لاسيما كتابه « مهد الاسلام » الذى فيه معلومات كثيرة عن حالة مكة زمان البعثة . فلذلك قد حذفت كل ما رأيت غير ثابت من الروايات وكذلك المعجزات التى وُضعت أخبارها بعد الرسول بقرنين . وبقيت أشياء لم أستطع الجزم بصحتها ولا بعدمها فأشرت الى ما فيها من احتمال أحد الامرين « انتهى

قد نقلنا كلام هذا الكاتب الكاثوليكي على علاته ، حتى لا ينسب الينا الاستشهاد باقوال رجل ذى ضلع مع الاسلام ، فها نحن أولاء نتقل عنه ما ذكره فى الصفحة ٥٢ عن النبي ﷺ من أنه كان بعد أن تزوج بخديجة ، قد أصبح معروفاً فى قومه وكان الناس يحلون أوصافه ، ويحمدون سيرته ، ويلقبونه بالأمين أى الصادق الذى يُعتمد عليه ، وتنتقل فى صفحة ٥٦ أنه لما اختلفت قريش فى قضية بناء الكعبة وأى فخذ منها يجب أن يعهد اليه

بوضع الحجر الاسود في مكانه وكادوا يقتتلون . اتفق الجميع على أن يعهدوا بذلك الى محمد ابن عبد الله الهاشمي قائلين : هذا هو الأمين . ثم ذكر مبدأ البعثة ولم يقل شيئاً يشتم منه أدنى شبهة في صدق محمد ﷺ . ففي صفحة ٦٢ يقول هكذا : « كان محمد في حالة بخران فكان ينشد السكون في تلك الجبال التي كان يذهب فيخلو فيها بنفسه متأملاً في السماء ذات الكواكب مُصتاً الى ما كان يسمعه من أعماق قلبه وهو الرجل الامي الفطري الصادق وذلك الصوت هو صوت الحقيقة الأبدية الخارج من قلب الأشياء نفسها . انه كان يرى تلك الأشياء الجارية في عصره على غير استقامة وقد كان هو لا يطبق غير الحق والحق الذي لا جدال فيه . وكان لا يقدر أن يعيش الا في علم الحقيقة وكان يرى أن كل ما حوله من الأحوال لم يكن بحق . فالحياة التي عليها قريش لم تكن حياة صحيحة : متمولون يبعثون بقوافل للتجارة ويربحون أرباحاً فاحشة ، وبوادٍ يشنون الغارات ولا يعرفون الا الفوضى ، وأفئاقون يفعلون كل ما يخطر ببالهم ، وكل هؤلاء لا يحيون حياة صحيحة ، وينسون أن الأصنام المصفوفة في الكعبة ليست الا معبودات باطلة وان الهبل ذا اللحية الكبيرة لم يكن الا باطلاً » .

ثم قال في صفحة ٨٠ : « لم يكن محمد من لا يعرف العالم الباطني نعم لم يكن متصوفاً بالمعنى المعروف ، الا أنه كان ممن يرى أن الأمور التي في الغيب أعظم من الأمور التي تحت الحس وان المشهود أدنى درجة من المحجوب . فالنظام الروحي في نظره هو الأهم وهو الوجود الحقيقي ، فمحمد قد قبض على هذه الحقيقة بيده ونادى الخلق ليمسكوا بها . جاء بقلب خالٍ من كل كذب ، ومن كل ثقافة باطلة ، ومن كل خفخة فارغة وأمسك بكلمات يديه بالعروة الوثقى ، ولا يمنع هذا من أنه كان عملياً تاماً المعرفة بأحوال العالم المادي بل كان ذلك التجرد الروحي أعون له على ادارة أمور الدنيا وهكذا كان كبار الروحيين في العالم يتغلبون على العالم المشهود بالعالم غير المشهود . » اهـ

فأنت ترى أن هذا الرجل الكاثوليكي لم يتهم محمدًا بربية ، ولا جل دعائته الى الله على مارب دنيوى ، ولا رماه بشيء من الأكاذيب التي طالما رماه بها كثير من الاوربيين عن بغض وعماية قلب أو جهل ونقص اطلاع . نعم هو غير معتقد بصحة كثير من الأحاديث حتى الوارد منها في الصحيحين . وهذا مشرب من المشارب الفكرية لا نقدر أن نؤاخذه.

عليه لا سيما ان كثيرين من المسلمين ومن ذوى الحمية الاسلامية ومن لا ينقصهم شئ من الإيمان والايقان يشاركون المسيو « درمنغم » فى هذا رأى ، ولا يجعلون المعجزات شرطاً فى التصديق بنبوته محمد ﷺ الذى معجزته الكبرى القرآن . وكذلك لا يرون من الواجب الدينى الإيمان بكل ما جاء فى الصحيحين وغيرهما من الأحاديث لاحتمال أن يكون تطرق اليها التبديل والتغيير أو دخلها الزيادة والنقصان ، اذ من المعلوم أنهم كانوا يروون الأحاديث بالمعنى . واذا روى الحديث بالمعنى لم يخل الأمر من أن تتطرق اليه زيادات كثيرة قد يتغير بها المعنى أو يبعد عن أصله . واذا قلنا ان رجال الحديث الذى يروى عنهم البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، كانوا ممن يوثق بروايتهن ومن لا يخالج الناس الشك فى صدقهم وان المحدثين غربلوا الأحاديث كلها وليتوا منها ما رأوه ضعيفاً ، وقوّوا ما رأوا أساسيده مستوفية لشروط الصحة ، وعوّكوا على هذا الضرب من الحديث ، وجاء الفقهاء فأخذوا منه الشريعة ، وجعلوه مرجعاً للاجتهاد ، وانهم كانوا أبصر بأحاديث الرسول من أن يبنوا على غير أساس متين . فالجواب على ذلك أنه ليس كلام هذه الفئة هو اطلاق القول على جميع الأحاديث ولا مقصدهم الاشتباه فيها بأسرها بل هناك أحاديث متواترة يستحيل التواطؤ على وضعها وأحاديث مشهورة وصلت من توثيق الرواة وتصحيح العلماء وقيام الأدلة والقرائن من الأحاديث الأخرى والأحوال الجارية يومئذ على صحة وقوعها الى حد أن أصبحت كالحقائق الرياضية مما لا خلاف فيه . ولكن الأدلة التى تستظهر بها هذه الفئة على وجوب عدم القطع بأكثر الأحاديث ولزوم التوقف فى كثير مما يسارع الناس فيه ، هى ما يلى :

أولاً — عدم امكان رواية الأحاديث الا النادر الأندر بدون زيادة أو نقصان مما يعرفه كل انسان من نفسه وذلك أنه ان أراد أن يعيد كلاماً سمعه ولو بعد سماعه اياه بساعة من الزمن تعثر عليه سرده بحرفه .

ثانياً — كونهم يقولون ان ما لا يكاد يحصى من الأحاديث مروى بالمعنى . فيتغير فيه كثير من اللفظ .

ثالثاً — جواز السهو والنسيان مما لا يخلو منه انسان ولا يمكن الجدل فيه أصلاً .

رابعاً — كون النبي ﷺ نفسه أشار الى وضع الأحاديث عليه فى أيامه وانه من أوثق

الأحاديث قوله : لقد كثرت على الكذابة ، فمن كذب على فليتبوأ مقعده من النار .
 خامساً — مما رواه عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : قلت للزبير مالك لا تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان قال : أما انى لم أفارقه منذ أسامت ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : من كذب على فليتبوأ مقعده من النار . والقرينة قائمة على صحة رواية عبد الله بن الزبير هذه لأن الزبير كان من أكابر الصحابة ومن العشرة ولم يحدث . وعن السائب بن يزيد أنه سب سعد بن أبي وقاص من المدينة الى مكة قال : فما سمعته يحدث عن النبي ﷺ حديثاً حتى رجع . وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد : أنهم دخلوا على سعد بن أبي وقاص فسئل عن شيء فاستعجم فقال : انى أخاف أن أحدثكم واحداً فزيدوا عليه المائة . وسعد أيضاً من العشرة ومن أكابر الصحابة ولم يحدث . فالقرينة اذاً تؤيد هذه الرواية عنه . وروى عمرو بن ميمون قال : اختلفت الى عبد الله بن مسعود سنة ما سمعته يحدث فيها عن رسول الله ﷺ ولا يقول فيها : قال رسول الله ﷺ . الا أنه حدث ذات يوم بحديث جفرى على لسانه : قال رسول الله ﷺ فعلاه الكرب حتى رأيت العرق يتحدر عن جبهته ثم قال : ان شاء الله اما فوق ذلك واما قريب من ذلك واما دون ذلك . وعن علقمة بن قيس : أن عبد الله بن مسعود كان يقوم قائماً كل عشية خيس فما سمعته فى عشية منها يقول : قال رسول الله غير مرة واحدة قال : فنظرت اليه وهو معتمد على عصا فنظرت الى العصا تزعزع . وجاء فى طبقات ابن سعد رواية عن مسروق : أنه حدث يوماً حديثاً فقال سمعت رسول الله ﷺ ثم أرعد وأرعدت ثيابه ثم قال : أو نحو ذا أو شبه ذا . قلت وكل هذا ناشئ عما يعلمونه من كثرة طرق التغير الى الأحاديث وعن تورعهم عن الزيادة فيها أو النقصان منها مهما كان الزائد أو الناقص قليلاً .
 سادساً — جاء فى طبقات ابن سعد عن معمر عن الزهرى : أراد عمر أن يكتب السنن فاستخار الله شهراً ثم أصبح وقد عزم له فقال : ذكرت قوماً كتبوا كتاباً فأقبلوا عليه وتركوا كتاب الله . وورد فى الطبقات خبر آخر : سئل عمر عن شيء فقال : لولا أنى أكره أن أزيد فى الحديث أو أتقص منه لحديثكم به .

ورى الامام السيوطى فى تاريخ الخلفاء نقلاً عن الامام النووى أن كل ما رواه أبو بكر

الصديق عن رسول الله ﷺ من الأحاديث مائة حديث واثنتان وأربعون حديثاً . قال وقد روى عن أبي بكر أكبر الصحابة عمر وعثمان وعلي وابن عوف وابن مسعود وحذيفة وابن عمر وابن الزبير وابن عمرو وابن عباس وأنس وزيد بن ثابت والبراء بن عازب وأبو هريرة وعقبة بن الحارث وعبد الرحمن ابنه وزيد بن أرقم وعبد الله بن مغفل وعقبة ابن عامر الجهني وعمران بن حصين وأبو برزة الأسلمي وأبو سعيد الخدري وأبو موسى الأشعري الخ

قلت وهو شيخ أصحاب رسول الله وأكثرهم له ملازمة وليس فيهم من يفوته في الثقة والأمانة وكان رضى الله عنه نسابة عصره وأخبر الناس بأموال القبائل وكل هذا يقتضى قوة الحفظ . فان كان الصديق لم يحدث كثيراً فلا شك في أن ذلك لم يكن الا من خوفه من الزيادة والنقصان . ثم نقل السيوطي في تاريخ الخلفاء الأحاديث المائة والاثنتين والأربعين التي رواها أبو بكر بعينها .

وقال ابن خلدون في المقدمة ان الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الاكثار والاقلال من الحديث فأبو حنيفة رضى الله تعالى عنه يقال بلغت روايته الى سبعة عشر حديثاً أو نحوها ومالك رحمه الله انما صح عنده ما في الموطأ وغايتها ثلاثمائة حديث أو نحوها وأحمد بن حنبل رحمه الله في مسنده خمسون ألف حديث ولكل ما أداه اليه اجتهاده في ذلك . قال : وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين أن منهم كان قليل البضاعة في الحديث فلماذا قللت روايته . قال : ولا سبيل الى هذا المعتقد في كبار الأئمة لأن الشريعة انما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الدين عن أصول صحيحة ويتلقى الأحكام عن صاحبها المبلغ لها وانما قلل منهم من قلل الرواية لأجل المطاعن التي تعترض فيها والعلل التي تعرض في طرقها سيما والجرح مقدم في الأكثر فيؤديه الاجتهاد الى ترك الأخذ بما يعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الأسانيد ويكثر ذلك فتقل روايته (الى أن قال) : والامام أبو حنيفة انما قللت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقيني اذا عارضها الفعل النفسي وقللت من أجلها روايته فقل حديثه لا أنه ترك رواية الحديث متعمداً لحاشاه من ذلك ويدل على أنه

من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره رداً وقبولاً. اهـ

و بعض الجهلاء أو المتعنتين من غير الجهلاء يعيبون على علماء الاسلام كثرة الاعتناء بأسانيد حديث الرسول وغيره ، والاستقصاء في العنونة والعزو الى فلان عن فلان والمبالغة في البحث عن رجال الحديث الذين وصل الى الناس من طرقهم وغير ذلك مما يمل منه القارئ بزعمهم وكان بعضه يجزى عن كله . وهذا القول مردود بتمامه لما في الحديث من الأهمية من حيث انه منسوب الى النبي ﷺ أو الى أصحابه الكرام ، ومن حيث انه هو مناط التشريع والمرجع بعد القرآن في الأحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام ، فهما بالغ العلماء في التحري للوصول الى الحقيقة من جهة صحة صدور الحديث عن صاحب الرسالة عليه السلام فلا يكون كثيراً . بل قد رأينا أن العلماء قالوا في الحديث انه « علم انطبخ ، حتى احترق » وانه لم يشتغل طلبة العلم في الاسلام بشيء أكثر من اشتغالهم بالحديث وان التحري واستيفاء شروط الثقة قد بلغا فيه الدرجة التي ليس وراءها مطمع لمزيد ، ولا يزال مع ذلك الشك يحوم حول أحاديث كثيرة واردة في الصحاح . وهذا الشك ليس من جهة عدم الأمانة في النقل . وقد احتاط لها أصحاب هذه الكتب لاسيما البخاري ومسلم ، بما ينفي كل شبهة ، وانما من جهة عدم استطاعة البشر الا ما ندر من رواية كل يسمعون بحرفه أو من وصف كل حادثة كانوا فيها كما وقعت بلا زيادة ولا نقصان . وقد يكون اثنان في حادثة من الحوادث ويرويها كل واحد منهما بشكل يختلف قليلاً أو كثيراً عن الآخر .

ولما كان التحري معروفاً أيضاً عند الاوربيين ، وكانوا مولعين بما يسمونه « التمهيص » critique وكانوا يذهبون من هذا التمهيص كل مذهب حتى في المسائل التي لا تتعاقبها عقائد ولا أحكام ولا معرفة حلال ولا حرام كان من العجب أن يعترض المعترضون وأكثرتهم من المتفرنجة على مبالغة المسلمين في نخل الأحاديث .

واقعد اطلعنا منذ سنتين على مبحث لعالم أوربي في جريدة « جورنال دو جنيف » يذكر فيه كتاباً اسمه « شهود » Témoins من تأليف عالم افرنسي اسمه المسيو « جان نورتون كرو » Jean Norton Cru ألفه على وقائع الحرب العامة وتحري فيه الى أقصى درجات التحري

وانتهى بعد التنقيب الطويل الى تقسيم الروايات الى ما قسمها علماء المسلمين من ثابت وحسن وضعيف وساقط وكان تأليف هذا الرجل نتيحة نخله ثلاثمائة مجلد لمائتين وخسين مؤلفاً من أمم وطبقات مختلفة . وفي هذه المؤلفات جرائد وكتب تذكارية وكتب ملاحظات ورسائل وأقاصيص وكلها من أقلام أناس شهدوا بالعيان من جنود وضباط وقواد

فالمسيو « كرو » لم يحكم على هذه التأليف بمجرد الاطلاع عليها بل راجع تراجم أصحابها وسيرهم الشخصية واجتهد أن يعرف مقدار مدة إقامتهم بساحة الحرب وأن يعلم صفتهم المدنية أو العسكرية . وهذا فيه شبه من علم الرجال الذي هو من العلوم اللازمة للحديث في الاسلام . ثم لم يقتصر على هذا بل قارن بين الروايات وتحركى في معرفة المواقع يرى هل تنطبق عليها أم لا ؟ وما درجة انطباقها ؟ وهل هذه المقارنات والمعارضات بكل ما فيها من التدقيق تنتهى الى القول بنفي الحوادث المستثناة التي جاءت على خلاف القاعدة . وعد كل ما لم ينحل بهذا المنخل غير واقع ؟ فالجواب على ذلك ان هذا أيضاً محل للسؤال

وانغد عن المسيو « كرو » في مقدمة كتابه بنى الأخبار الواهية والتصورات الباطلة التي

انتشرت عن حوادث كثيرة من الحرب

وبعد ان نحل جميع الروايات نخلاً دقيقاً استخلص قواعد مقررة طبّقها على الحوادث تطبيقاً جازماً — أشبه بالشروط التي يضعها رجال الحديث للحديث فاذا استكملت فيه جزموا بصحته — وكانت خلاصة تدقيقاته أن قسم المائتين والخسين مؤلفاً الى ست درجات . فالدرجة السادسة هي التي ليست لها أدنى قيمة تاريخية — أشبه بدرجة الحديث الموضوع — والدرجة الخامسة هي التي لها قيمة ضئيلة جداً — أشبه بالحديث الواهي المتناهي في اللين والدرجة الرابعة هي الضعيفة . ومن هذه الدرجة أكثر الواصفين لحوادث الحرب وهم نحو ٢٦ في المائة من أولئك الذين غر بل المسيو كرو كتاباتهم . أما الدرجة الثالثة فهي التي يقال انها حسنة — كالحديث الحسن — وأما الدرجة الثانية فهي التي تضاهي درجة الصحيح في علم الحديث . وأما الدرجة الأولى فهي التي تقابل الحديث المشهور . والثانية منها ١٩ في المائة والأولى ١٢ في المائة . وهو يعبر بالفرنسية عن الدرجة السادسة بقوله aucune valeur وعن Médiocre الدرجة الرابعة وعن Très faible الخامسة وعن Assez bon الدرجة الثانية وعن bon الدرجة الأولى excellent

ولا يوجد مانع من أن يكون اطلع «كرو» على تقسيم المسامين للحديث فنسج على منوالهم وان كان هو لم يذكر ذلك .

قال «كرو» ان رواج الكتاب وشهرته وبراعة كتابته لادمخل لها في درجة صحته . ولهذا عنده كتاب مشاهير كتبوا عن الحرب مثل «رينه بنيامين» في الدرجة السادسة لانه ليس المقصود هو سحر البيان بل صحة الرواية . وقد وضع «باربوس» و«دوهاميل» و«دورجليس» في الدرجة الرابعة . وبعكس ذلك عنده من الدرجة الأولى ٢٩ مؤلفاً أسماؤهم مجهولة عند الجمهور بل مجهولة عند المتخصصين . وكلام كرو هذا صحيح لا غبار عليه

قال صاحب مقالة «جورنال دو جنيف» على هذا الكتاب : انه وان كان المسيو كرو قد استخلص من تدقيقاته وجوب الحذر ومزيد التثبت في نقل الأخبار فقد دلنا على الطريقة الوحيدة الموثوق بها في الأخبار

قلت : وهذه الطريقة هي الطريقة الاسلامية ليس في أحاديث الرسول والصحابة فقط بل في جميع أحاديثهم ، وأخبارهم ، وتواريخهم وانما أتقنها المسلمون الى حد أن أصبح الناس يملونها ملهم من العمليات الحسائية ولم يبلغ منها الا فرنج شيئاً من درجة الاتقان التي عند المسامين فيها .

وربما كان تأليف المسيو كرو هذا فذاً في بابه .

فن هذا لا يكون عجباً أن لا يتلقى رجلٌ أجنبى عن الاسلام جميع ماورد في الصحاح بالقبول . ولنعد الى سيرة الرسول عليه السلام حسبما وصفها هذا المفكر المسيحي الذي مذهبه التقريب بين الاسلام والنصرانية ، واثبات ما بينهما من الصلات الكثيرة . وهو مذهب حسن ومشرب محمود ، وان كان هو فيه يركب بعض الأوقات مركباً صعباً . قال في صفحة ٦٥ ماملخصه : —

«في نواحي سنة ٦١٠ للمسيح بلغ البهران النفسى بمحمد أشده ، فكان لا يقدر أن يتصور بدون أن يتألم حالة قومه وكان يرى ان أمراً ضرورياً جداً ينقذه وينقص قومه . وكان يرى العرب كل قبيلة منهم عاكفة على صنمها وكانوا يقولون بالجن ، والاشباح ، والغيلان ، ولكنهم ينون عن الحقيقة الواحدة وهي الحقيقة الالهية . ربما لم يكونوا ينكرون هذه الحقيقة وهم كانوا في غفلة عنها ، وكانت هذه الغفلة هي الموت الروحي .

فكان قلب محمد قد خلا من كل فكر غير الفكر في الله . وكان قد تجرد من كل قوة غير هذه القوة . وكان قد نفى جميع الكائنات التي ليست في نظره بظل للواجب الوجود الأحـد الصمد . وكان هو قد عرف الله وعرف العقيدة بالله عند نصارى سورية أو مكة ، وعرف ان هناك كتباً سماوية وأن رسلاً موحى اليهم كانوا يكلمون أقوامهم بلسان الحق تعالى ، وانه كلما ضل الناس عن الصراط المستقيم كانت تأتي رسل فتهدى بهم اليه وتذكرهم بالحقيقة السرمدية . فالديانة التي كان يبعث الله بها الرسل لم تزل واحدة وانما كان البشر يحرفونها عن مواضعها فيعود المرسلون ويردونها الى أصلها . فالأمة العربية كانت لذلك العهد في أبان ضلالها أفلم يكن هذا هو الوقت الذي حانت فيه رحمة البارئ تعالى أن تتدارك هذه الأمة ؟

وأحب محمد في تلك الفترة العزلة ، فكان يشعر في خلوته بجبل حراء بسرور عميق يتزايد يوماً فيوماً ، فكان يقضى هناك الأسابيع وليس معه الا قليل من الغذاء لأن نفسه كانت تلتذ بالصوم والتهجد ، وترتاح الى التأمل والتبحر ، وأصبح سوءاً عند الليل والنهار والحلم واليقظة . وكان يقضى ساعات طوالاً جاثياً على ركبته في جوف الليل أو مضطجعا في عين الشمس ، وأحياناً يمشي في شعاب تلك الجبال وبينما كان يسير كان يسمع أصواتاً خارجة من تلك الصخور وكانت تلك الصخور تناديه « يا رسول الله »

وعندما كان يعود الى بيته كانت خديجة تغم لما تراه عليه من حالة الاضطراب والصمت . وكان يغيب أحياناً عن حسه ويصيبه سكات وينقطع نفسه ولا يزال حتى يأخذه الوسن فيهجع ثم يعود وقد تصاعدت أنفاسه فيرى فيها يرى النائم شخصاً ملاً الأفق فوق رأسه ، ودنا منه وفتح له ذراعيه يريد أن يمسكه فيستيقظ محمد مذعوراً والعرق يتصب منه . فتأخذ خديجة بمسح جبينه وتسأله عن حاله بصوت هادئ ثلاثاً تذعده فلا يجيبها أو يجيبها بكلمات لا تفهمها .

وبقي نحواً من ستة أشهر على هذه الحالة الى أن ضنى جسمه ، وصار يتخلج في مشيه ، وانتشر شعره ، وتغير نظره ومنظره ، فاستولى عليه الجزع . وخشى أن يكون أصابه مس ، وصارت تجرى على لسانه كلمات بدون اختيار كان يخشى أن تكون من الشعر الذي يوسوس به الجن وكان هو بفطرته يكره الشعراء الذين في كل واد يهيمون

ويقولون مالا يفعلون. وأخيراً قال لخديجة : انى أخاف أن يكون بى مس ، وقد صرت لا أقدر أن أحمل هذا العبء ، وانى أرى نفسى كأني لَمَأْ وَمِنْ كَان يظن انى سأصبح شاعراً أو يستولى على الجن . لا تقولى هذا لأحد أصلاً .

وكانت خديجة تنتظر هذه النجوى بأمل وبوجل . وما كانت تقدر أن تطمئن قلقه وهى نفسها فى قلق عليه . ولكن هذه المرأة كانت كأنها قد خلقت لتؤيده ، ولتسرّى عنه من همومه ، وكانت فيها متانة الحلائل الفاضلات والأمهات الملائى بالحنان ، فقد كان هذا الرجل أفتى منها سناً فعطفت عليه بكل مافى قلبها من الحب والرحمة ، وازداد حنوّها عليه لأنها رآته بهذه الحالة من الضعف والهزال ، بعد أن كان ذلك الرجل القوى وذلك الزوج الحبيب . فكيف يمكنها أن تتأخر عن تثبيت فؤاده بكل مايمكنها فقالت له :

يا أبا القاسم ! أأنت أنت الأمين كما سماك الناس ؟ أأنت بالرجل الصادق المخلص المعتمد عليه . انك أنت الذى لم تغش أحداً فلا يمكن ان الله يتخلى عنك . أفلم تكن أنت الرجل الصالح الصابر البرّ الكريم . أفلم تكن رؤوفاً بأهلك ؟ أفلم تطعم المسكين ؟ وتكسّ العريان وتؤمن ابن السبيل وتحم الضعيف ؟ انه لن يدعك الله عرضة لوساوس الشياطين الكاذبين ولا للجن اللعين . فقال لها : اذن من هذا المخلوق الذى جاءنى ولا يزال يظهر لى ، من ذا الذى لا يقول لى اسمه ولا أقدر أن أتوارى منه ؟

وبينا كان يقول لها هذه الكلمات اشتد به البحران وارتجف ، وعلت وجهه الحرة ، ثم عقبته الصفرة وسمع بأذانه دويّا واتسعت أحداقه وقال : هذا هو قد جاء وكان حينئذ مستيقظاً ولم يكن نائماً ليقال ان ذلك رحل من الأحلام . فجاءت خديجة وغطته بكساءها وضمت اليها وسألته أفلا تزال ترى ؟ فقال لها : لم أعد أرى اذن هو ليس هذا من الجن الخبيث ولا من الشياطين . أفلا تراه احتشم طهارة النساء وذهب . اذن ليس إلا ملكاً من ملائكة الله

ثم جاء شهر رمضان وتكامل الهلال وتآلق ثم أخذ يتراجع . ففى احدى الليالى بينا كان نحمد نائماً فى أحد كهوف حراء ، عاد فتجلى عليه ذلك الشبح وفى يده قطعة من الحرير عليها كتاتية ، وقال له ذلك الشخص : اقرأ . فأجابه : لست بقارئ فالتى الشبح نفسه عليه ووضع له قطعة الحرير حول عنقه ثم أعاد عليه القول : اقرأ . فأجابه لست بقارئ ، فأعادها

عليه ثلاثة أقرأ : « أقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علقٍ اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » .

فردد محمد هذه الكلمات وأحس بالنور قد أشرق على قلبه ورأى قطعة الحرير المغطاة بالإشارات أمام عينيه ، وبرغم أنه كان أمياً رأى نفسه يفهم تلك الكتابة وقذف في روعه مجموع كتاب ملائكة بالأسرار الالهية . وكان هذا الملك قد نبأ كل ما كان يحول في أفكاره منذ أشهر فأنه تعالى قد خلق الانسان وأوحى اليه حقائق تتجاوز مسافة عقله الطبيعى . لذلك الله قد علم الانسان بالقلم وعلمه ما لم يعلم . هذا هو سرّ الوحي وهذا هو سرّ الكلمة المكتوبة الذى كان شديد التأثير فى الرجل الأعمى ، لا سيما وقد كانت الكلمة المكتوبة وحياً إلهياً اذن العرب سيكون لهم بعد اليهود والنصارى كتاب مقدس يقرأونه ، ترتيلاً وسريعة الالهية تهديهم الى طريق النجاح

ثم ذهب ذلك الشبح الذى تجلى على محمد فاستيقظ وهو موقن بان كتابا قد كتب فى قلبه فخرج من الغار يجرى بين الشعب ، ووصل الى ذروة الجبل فسمع صوتاً من السماء يقول له : « أنت رسول الله » فرفع محمد عينيه فاذا الملك فى الأفق بصورة بشرية وهو يتلأأ نوراً فخول وجهه فبقى يرى النظر نفسه وكان كيف توجه يرى الملك أمامه مائلاً مُتلاًئناً الى حد أنه أصبح يرى الملك أمامه دائماً ينظر اليه ويحدق فيه ببصره . فوقع الرعب فى قلب محمد وجثا على الأرض ووضع يديه على رأسه وغاب عن حواسه . وكانت خديجة قد استبطأت رجوع زوجها الذى كان ذهب وما معه الا زاد قليل فأرسلت فى أثره أحد عبيدها فبحث فى الجبل ونادى هنا وهناك ولم يجد أحداً وعاد فأخبرها فازدادت قلقاً . وبينما هى على تلك الحالة اذ دخل محمد وعلى وجهه علامة الاعياء ، ونظره غريب وأثوابه متشعبة ، وبدون أن يتكلم بكلمة واحدة رمى نفسه فى حجر خديجة واضطجع على ركبتيها أشبه بالولد الذى يمس الجهد فسأته خديجة : أين كنت يا أبا القاسم فقد أرسلت فى أثرك ووصلوا الى الجبل فلم يجدوك . فأخبرها بكل ما وقع معه وأفضى اليها برُعبه واضطرابه وشكوكه . فقالت له : قسماً بمن نفس خديجة بيده انى لأرجو ان تكون أنت رسول الله . فأنه لا يسمح بان تكون أنت على ضلال . أفلم تكن برأ وفياً صادقاً تقياً واصلاً للرحم ، مؤثلاً للضعفاء ، محسناً للفقراء ، قارياً للضيوف ؟ كلا ان الله لن يخذلك . فأصاب محمد رعدة وعأوده

الرب . وقال لها : بادري بتغطيتي وكرري عليها القول فألقت عليه كساء من الصوف غطى جميع جسمه . وما زالت بجانبه الى أن أخذته النوم . فعند ذلك ذهبت خديجة الى ابن عمها ورقة ، وكان يعرف كتب اليهود والنصارى ويعلم الحكمة ويمكنه أن يزِيل من حيرتها . وكانت خديجة تحب بعلمها حباً جاً وتؤمن به : ولكنها شأهت هذه المرة شيئاً عجباً حير عقلها . فلما أخبرت ورقة هتف قائلاً : ان كان ما قلته صدقاً فحمد سيكون نبى هذه الأمة . وهو لا شك الرسول المنتظر ، وان الملك الذى تجلى عليه هو الناموس الأكبر ، وهو الذى كان يبعثه الله الى موسى وهو الذى بواسطته يوحى الله الى الأنبياء . ثم قال ورقة لخديجة : ثم ماذا قال الملك لحمد ؟ أأمره بان يبلغ دعوته ، أشار اليه بتبليغ رسالة مبيّنة ؟ ألقى اليه أن يدعوا الناس الى الله ؟ فانتى أود أن أعرف ذلك حتى أكون أول من آمن بمحمد . اذهبي الى زوجك وسكني فؤاده وأزيلي مخاوفه

فرجعت خديجة الى بيتها فرأت محمداً لا يزال هاجعاً فتركته على حاله واذا به يرتجف عوداً على بدء والعرق يتصبب منه ثم جلس وهو يضطرب ، وكان الملك قد جاءه ثانية فقال له : قم . فقال محمد : قت فأصنع ماذا ؟ قال الملك : « يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَتَوَّابِكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

فقات له خديجة لماذا لاتضطجع وتستريح ؟ فقال لها محمد : قد ذهب النوم وذهبت الراحة وقد عاد الملك وهو يأمرنى أن أدعو البشر الى الله وأن أعبده . فن أدعو ياترى ومن يؤمن بى ؟ ثم حتى رأسه حزينا وسكت . فقات له خديجة : ان لم يؤمن بك أحد آمنت بك وحدى

وبعد ذلك بمدة ذهب محمد الى السكعة فصادف ورقة يطوف فسأله ورقة عما جرى معه فأخبره بالقصة كلها فما أتمها حتى هتف ورقة قائلاً : « والذى نفسى بيده أنت رسول هذه الامة وما جاءك الا الناموس الذى جاء من قبل الى موسى ، انتى سأكون معك وأخذ بيدك فيما سيحل بك من النوائب وسأنصرك على قومك »

فقال له محمد : وماذا تريد أن تقول بهذا ؟ فقال له ورقة : نعم لم يأت أحد بما أتيت به الا عودى ، فسقاتلونك قتلاً شديداً ، وسيغزبونك ، وسيقولون انك مجنون وانك

كذاب . آه لو كنت في ذلك الوقت شاباً أو لو كنت أحياناً الى ذلك الحين ! ثم أخذ برأس محمد وقبله وسكن من روعه .

وكان محمد محتاجاً الى جع قواه ، وكان يجاهد نفسه قبل أن يحتاج الى مجاهدة الناس . وكان الوحي قد انقطع ولم تتجدد معه تلك الرؤية التي رآها فوقع في حيرة عظيمة ، وصار يحدث نفسه : أفتراني كنت في حلم ! ونقلت عليه هذه الحالة جداً فرجع الى جبل حراء يريد أن يعلم هل تعاوده تلك الرؤية التي رآها قبلاً أم لا ! واشتد عليه الأمر جداً وصار يرى نفسه خلاء بعد أن كانت ملاء . فأخذ يهيم في الجبال وجعلت تتقاذفه أمواج الريب وهو لا يرى منفذاً مما كان فيه الى أن تمنى الموت . ولكن بينما هو في أقصى درجات الشدة يكاد يقذف بنفسه في مهاوى الجبل ، اذ سمع صوتاً يقول له : أنت رسول الله حقاً ، فالنفت فاذا بالملك يمسكه أن يقع وقد تكرر عليه هذا الصوت مراراً فعاد الى بيته فأخبر خديجة بما رآه وسمعه . فأخنت خديجة ثبّت فؤاده . ثم بعد ذلك بمدة جاءه الملك فتلاً عليه « وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » فما كان أعظم تلك البشرية لتلك النفس التي لم تكن تستطيع أن تعيش الا في اليقين . فلم تكن حلاوة تلك التّغزية بما نزل عليه من لطف الوحي هي المؤثر الأكبر فيه وانما كان زوال الحيرة وتحقيق المصير . لقد أمر بأن يحدث بالنعمة فهو سيحدث بها . ولقد أوحى اليه الملك الصلاة والعبادة وأفهمه أن الانسان لأجل أن يصلي لله تعالى يجب أن يكون طاهراً الخ

وأكل « درمنغم » قصة مبدأ الاسلام على الوجه الذي يعلم منه القارئ أنه لم يشك في أن محمداً كان صادقاً وانه لم يخالجه عارض من شك في آخر الأمر بنزول الملك عليه والوحي اليه .

ولنقابل مقاله بروايات أصحاب السير ، فنجد ابن سعد في الطبقات الكبرى يذكر أنه نزل الملك على رسول الله عليه السلام بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان

ورسول الله يومئذ ابن أربعين سنة . وكان أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح . فكث على ذلك ما شاء الله وحبب اليه الخلوة فلم يكن شيء أحب اليه منها . وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع الى أهله ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى يجاءه الحق وهو في غار حراء . وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان باجساد اذ رأى ملكاً واضعاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء يصيح يا محمد أنا جبريل يا محمد أنا جبريل . فذعر رسول الله من ذلك وجعل يراه كلما رفع رأسه الى السماء ، فزجع الى خديجة فأخبرها خبره وقال : يا خديجة والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيء قط ولا الكهان ، واني لأخشى أن أكون كاهناً . قالت : كلا يا ابن عم لا تقل ذلك فان الله لا يفعل ذلك بك أبداً انك تصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وان خلقك الكريم . ثم انطلقت الى ورقة بن نوفل وهي أول مرة أتته فأخبرته ما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة : والله ان ابن عمك صادق وان هذا لبدء نبوة وانه لياتيه الناموس الأكبر فر به أن لا يجعل في نفسه الا خيراً . وقالوا ان رسول الله قال : يا خديجة اني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن أكون كاهناً . فقالت : ان الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله انك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم . وبسند آخر عن ابن عباس : يا خديجة اني أسمع صوتاً وأرى ضوءاً واني أخشى أن يكون في جن . فقالت : لم يكن الله يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله . ثم أتت ورقة بن نوفل فذكرت له ذلك فقال : ان يك صادقاً فهذا ناموس مثل ناموس موسى . فان بيعت وأنا حي فساء عززه وأنصره وأومن به .

وقالوا ان أول ما أنزل على النبي عليه السلام : « اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . قالوا : وانه لما نزل عليه الوحي بحراء مكث أياماً لا يرى جبريل فحزن حزناً شديداً حتى كان يغدو الى ثبير مرة والى حراء أخرى ، يريد أن يلقي نفسه منه ، فبينما رسول الله كذلك عامداً لبعض تلك الجبال اذ سمع صوتاً من السماء فوقه صمقاً للصوت ، ثم رفع رأسه فاذا جبريل على كرسي بين السماء والأرض متربعا عليه يقول : يا محمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل . فانصرف رسول الله وقد أقر الله عينه وربط جاشه ثم تنابع الوحي وحجى . وقالوا انه سمع :

يا محمد لَتَمَّ عَيْنِكَ وَلِتَمَّ أُذُنُكَ وَلِتَمَّ قَلْبُكَ . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : فَنَامَت عَيْنِي وَوَعَى قَلْبِي وَسَمِعْتُ أُذُنِي . وَكَانَ النَّبِيُّ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ كَرَبَ لَهُ وَتَرَبَّدَ وَجْهَهُ . وَقِيلَ : كَانَ إِذَا أَوْحِيَ إِلَيْهِ وَقَدْ لَذَكَ سَاعَةً كَهَيْئَةِ السَّكَرَانِ وَرَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : كَانَ الْوَحْيُ يَأْتِينِي عَلَى نَحْوِينِ يَأْتِينِي بِهِ جَبْرِيلُ فَيُلْقِيهِ عَلَيَّ كَمَا يُلْقِي الرَّجُلُ عَلَى الرَّجُلِ فَذَلِكَ يَتَفَلَّتْ مِنِّي وَيَأْتِينِي فِي شَيْءٍ مِثْلَ صَوْتِ الْجَرَسِ حَتَّى يَخَالَطَ قَلْبِي فَذَلِكَ الَّذِي لَا يَتَفَلَّتْ مِنِّي . وَسَأَلَهُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ ؟ فَقَالَ : أحياناً يَأْتِينِي فِي مِثْلِ صَلَافَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ وَأحياناً يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ فَيُكَلِّمُنِي فَأَعْيَ مَا يَقُولُ . قَالَتْ عَائِشَةُ : لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينُهُ لَيَتَفَصَّدُ عِرْقاً . وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَ أَوَّلُ مَا ابْتَدَأَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ كَانَتْ تَجِيءُ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبِبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ فَكَانَ بَغَارَ حَرٍّ يَتَعَبَّدُ فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَمِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى يَجُودَ الْحَقُّ فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : جُنُوتٌ لِرَكْبَتِي ثُمَّ رَجَعْتُ تَرْجِفُ بَوَادِرِي فَدَخَلْتُ عَلَى خَدِيجَةَ فَقُلْتُ : زَمَلُونِي زَمَلُونِي . ثُمَّ ذَهَبَ عَنِّي الرُّوعُ . ثُمَّ أَتَانِي فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَطْرَحَ نَفْسِي مِنْ حَاقِقِ قَتَبَدَيْ لِي حِينَ هَمَمْتُ بِذَلِكَ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَنَا جَبْرِيلُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ . قَالَ : اقْرَأْ . قُلْتُ : وَمَا أَقْرَأُ . قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَتَّنِي ^(١) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ قَالَ : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . فَقَرَأْتُ فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فَقُلْتُ : لَقَدْ أَشْفَقْتُ عَلَى نَفْسِي وَأَخْبَرْتُهَا خَبْرِي فَقَالَتْ : أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يَخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَنْصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتُؤَدِّي الْأَمَانَةَ وَتَحْمِلُ الْكُلَّ وَتَقْرَى الضَّيْفَ وَتَعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . ثُمَّ انْطَلَقْتُ بِي إِلَى وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّهَا وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ وَقَرَأَ الْكِتَابَ وَسَمِعَ مِنْ أَهْلِ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ فَقَالَتْ : اسْمِعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ . فَسَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ خَبْرِي فَقَالَ : هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى ابْنِ عِمْرَانَ لَيْتَنِي كُنْتُ حَيًّا حِينَ يَخْرُجُكَ قَوْمُكَ قُلْتُ : أَخْرَجَنِي هُمْ ؟ قَالَ : نَعَمْ إِنَّهُ لَمْ يَجِئْ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ الْإِعْوَدِي وَلَئِنْ أَذْرَكْنِي يَوْمَكَ لَأَنْصُرَنَّكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا . ثُمَّ إِنْ أَوَّلَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ بَعْدَ اقْرَأْ ، نَ وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ، وَيَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، وَالضُّحَى . وَقَالَتْ خَدِيجَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ نُبُوته : يَا ابْنَ عَمِّ أَتَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْبِرَنِي

(١) غَتَّه ضَمًّا شَدِيدًا حَتَّى يَكَادُ يَخْتَفِيهِ

بصاحبك هذا الذي يأتيك اذا جاءك؟ قال : نعم . فجاءه جبريل فأعلمها . فقالت : قم فاجلس على نخدي اليسرى فقام ﷺ . فجلس عليها فقالت : هل تراه؟ قال : نعم . قالت : فتحوّل فاقعد على نخدي اليمنى . فجلس عليها فقالت : هل تراه؟ قال : نعم . فتحسرت فأثقت خارجها ورسول الله ﷺ في حجرها . قالت : هل تراه؟ قال : لا . قالت : يا ابن عم ائبت وأبشر فوالله انه ملك وما هو بشيطان اه

ايتأمل القارئ في شهادة خديجة لرسول الله بصدق الحديث وتأدية الامانة وسائر مكارم الأخلاق وتواتر ذلك عنها وهي أعلم الناس به وأقربهم اليه وطلما اعترف مؤرخوا الافرنج المنصفون بأن هذا من أوضح الدلائل على صدق محمد وأمانته .

ثم نعود الى كلام « درمنهم » فهو يقول ان محمداً لم يعتمد في نبوته على المعجزات وكانوا يقولون له : ان كنت نبياً فاعمل لنا من خوارق العادات ما هو كذا وكذا ، فكان يجيبهم ان رسلا كثيرين جاءوا بالمعجزات وكذبهم البشر ، وأنامهما جثتكم بالمعجزات فلن تؤمنوا مادامت قلوبكم قاسية ، وما معجزتي الا القرآن الذي هو موحى الى رجل أمي وما تقدر الانس ولا الجن أن تأتي بمثله .

ثم هاجم محمد الأصنام التي كان يعبدها العرب كاهليل، ومناة، واللات والعزى ، وهزأ بها وبمن يعتقد بها وبصنم العجين التي كانت تعبده بنو حنيفة وتأكله اذا جاعت، وبالأنصاب والأزلام ، ونهى عنها وعن الفسق والفجور والقسوة والطمع والربا وأحدث انقلاباً في المجتمع الجاهلي الى آخر ما ذكره عن مبادئ الاسلام .

وانا لذا كرون بعض ما جاء به هذا الكاتب المسيحي الكاثوليكي من الملاحظات التي تستحق الاعتبار وتدل على انصاف صاحبها للاسلام . فقد ذكر ما جاء في القرآن من وصف النعيم وما في الجنة من الأشجار والمياه الصافية والفاكهة ، وأنهار العسل واللبن ، والخور العين قاصرات الطرف اللاتي لم يطمسهن انس ولا جان الى غير ذلك فعقب على هذا بقوله : ان الناس يأخذون هذه الأوصاف على ظاهرها وعلماء الاسلام ، عدا بعض المتصوفة ، لا يفرقون بين جنة آدم والجنة التي وعد الله بها الأبرار . ولا يزال هذا الأمر أيضاً غير موضح في المسيحية نفسها . ولا يجب أن يؤخذ من هذا أنه لا يوجد في الاسلام من يعتقد بكون هذه

الأوصاف إنما هي اشارات ورموز ، وكذلك لا يؤخذ منه أن جميع ملاذ الآخرة هي حسيّة فقد جاء في القرآن ما يفيد أن أفضل النعيم هو مغفرة الله لآثام البشر ثم سلام الله وصلواته على المتقين والوجود في الحضرة الالهية . وقد قال محمد كما قال القديس بولس : ان الله قد أعدّ لعباده ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقد جاء في القرآن :

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا)

ذكرنا هذه الملاحظة من ملاحظات هذا الرجل المسيحي لأن كثيراً من قومه يعيبن القرآن في الوعد الذي فيه للمتقين بالذات الحسية ، وينسون أن الخلق لا يفهمون غيرها وان أمور الآخرة مع ذلك ليست من أمور هذه الدنيا . وينسون ما في القرآن من الآيات الدالة على أن أعظم النعيم هو رضا الله (ورضوان من الله أكبر) وان رؤية الحق تعالى هي مما وعد به أهل الجنة .

وقد ذكر ملاحظة أخرى وهي أن القرآن أذن المسلمين في الزواج بالمسيحيات وان هذا كما قال الشيخ عبده من علامات الإلحاد ، وان في الاسلام مبادئ كثيرة قد اعتقدت بها النصرانية منها خروج آدم من الجنة لكونه عصى أمر ربه في الأكل من الثمرة الممنوعة . وكذلك قضية سقوط ابليس الذي استكبر أن يسجد لآدم في عقيدة الاسلام يماثلها في النصرانية سقوط الشيطان الذي أبى أن يعتقد بالكلمة المتجسدة . وبما اتفقت فيه العقيدتان رسالة نوح وإبراهيم وموسى والأنبياء والكتب المقدسة والملائكة والمسيح والدجال واليوم الآخر والبعث والحشر والحساب . وترى الاسلام في هذه كلها أقرب الى النصرانية منه الى اليهودية .

قال وبين المسلمين الأولين والمسيحيين الأولين مشابهة شديدة في تحمّل الاضطهاد وفي حب الموت لاجل الدين أى الاستشهاد .

قال : أما القول بأن الاسلام يتضمن كالنصرانية عقيدة التجسّد والفداء والحبل بلا دنس إلخ . فهذا فيه نظر . الا أنه مما لامشاحة فيه أن القرآن يقول بمسيحية عيسى وولادة من بطن عذراء بدون أب ورسالاته ومعجزاته وصعوده الى السماء والانفراستيا أى سر القربان المقدس اذ فيه سورة المائدة .

قلنا ليس التشابه واقعاً بين ما يقوله النصارى — الا البوتاتات — في سر القربان

المقدس واستحالة الخبز بمجرد التقديس الذي يقده القسيس الى جسد الرب ، واستحالة
الخر الى دمه فعلاً لا رمزاً ، وبين قول القرآن في المائدة . والذي قاله تعالى في المائدة هو
هذا : « إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا
مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ
قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيَّهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ
رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا
وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنَّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ
عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ » فأنت ترى أن استحالة الخبز والخر الى جسد الرب
ودمه ليس لها أثر هنا . وان كان المقام مقام مائدة . ولعل بعض الصوفية ينظرون الى هذه
المائدة لا بمعناها الظاهر بل بالمعنى المجازي .

ثم يقول « درمنعهم » ان القرآن يطهر مريم تطهيراً عظيماً من كل دنس . قلت : نعم قال
الله تعالى « وَاذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ » .
ويقول ان لعيسى عليه السلام مكاناً مستثنى في القرآن ذلك بأنه مولود على غير الأحوال
البشرية المعتادة ، وانه رسول الله الوحيد الذي في القرآن يخاطب الحق ويجاوبه ، وانه
كلمة الله الحية وليس بمجرد واسطة للرسالة . قلنا : ان حكم عيسى بن مريم عليه السلام
في القرآن ظاهر لا يحتمل التأويل ، وهو أنه خلقه الله مباشرة على غير المعتاد من ولادة
البشر ولكنه رسول الله وعبد من عبيد الله لا يزيد على ذلك وكونه كلمة الله وروحاً من
الله غير ناف عبوديته لله الواحد الذي لا اله غيره قال الله تعالى « يَا هَلْ السِّكِّتَابِ
لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا
خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْنَنَكَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ
الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْنَنَكَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا »

ثم يقول « در منغم » ان تأييد روح القدس لعيسى عليه السلام ليس مجرد تأييد ظاهر قاصر على تبليغ الشريعة مؤيدة بالمعجزات كما جرى لموسى عليه السلام ، ولا بالتجليات العليا والعلوم الدنيّة كما جرى لمحمد عليه السلام ، وانما هو تأييد تام تنزّه به عيسى عن الخطأ على حين ان محمداً لم يدّع لنفسه العصمة

والذى نعلمه ان الاسلام يعصم الأنبياء جميعاً عن الكبرائر وهذا لا يمنعهم من ان يستغفروا الله بكرة وأصيلا . وقد كان محمد ﷺ من أكثرهم عبادة واستغفاراً وكان يصلى حتى ترم رجلاه .

ثم يقول « در منغم » ان القرآن يقول في المسيح ماتقول الكنيسة ، أى انه كلمة الله وروح الله نزل في بطن مريم كما أنه بشر تام البشرية . وانما ينتقد التجسد والتثليث على ما كانوا يعتقدون يومئذ بهما ! وبحسبنا كان يقول المبتدعة — وفي الأصل الهرطقة — ولا يستطيع المسيحي الا أن يوافق على ما يقول القرآن من أنه كبر مقتاً عند الله القول بثلاثة مؤلف منها الاله ، مريم والمسيح والله : (واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله) فلقد كانت في الشرق تحلّ عبادة مريم عبادة حقيقية وقد روى القديس ايفانوس ان الكولوريديين Collyridiennes كانوا يقدمون خبزاً لمريم على سبيل العبادة ثم يأكلونه

اتنا ذكرنا قول « در منغم » هذا لا لنوافق فيه جميعه بل لنبين ان القرآن لم يخطئ فيما جاء فيه من الاشارة الى عبادة مريم بل الذين خطأوا القرآن في ذلك مخطئون . فقد وجدت نحلّ تعبدها في القديم ولا تزال في أيامنا هذه يصلى لها بصلوات خاصة بها وكيف تكون العبادة غير هذا ؟ والاله هو المعبود . هذا معناه بالعربية . فقلوه تعالى : (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين) معناه : أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي معبودين

ثم يزعم « در منغم » أن قول المسلمين بان القرآن غير مخلوق هو كقول المسيحيين ان المسيح كلمة الله موجود من الأزل ، قال وقد كان القديس يوحنا الدمشقي يقول : اذا قلتم ان الكلمة وروح الله هما غير مخلوقين فنحن معكم على وفاق . وان قلتم انهما مخلوقان أفتريدان أن تقولاً انه كان وقت من الأوقات كان الله فيه بدون كلمة وبدون روح ؟ وهنا بدون أن ندخل في هذا البحث الطويل العريض الذى ربما لا ينتهى وبدون

أن نذكر قول المسامين ما خلا المعتزلة بعدم خلق القرآن ، وقول النصارى بكون الكلمة هي من الأزل وأنها هي المسيح ، نكتفي بأن نقول ان قوله تعالى ان عيسى عليه السلام هو من روح الله معناه أنه آية من آيات الله وان الله أوجده رأساً بلا أب وان قوله « كلمة الله » معناه انه وجد بكلمة التكوين « كن » وفي هذا فرق كبير عما يعتقده المسيحيون من أزلية الكلمة ومن ثمة بأزلية المسيح ^(١) وكيف نطبق أزلية المسيح على قوله تعالى : « قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا » وقوله تعالى : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقد حاول « در منغم » أن يوفق بين الدياتين في عقائد كثيرة الى أن وصل الى قضية الصلب فقال انها أشدها اشكالا ، وذلك أن الاسلام التاريخي لا يعرف سر الفداء . وربما لم يجد حاجة للكلام على الفداء لانه موجود في الانجيل والانجيل مصدق بالقرآن .

وعلى كل حال لا ينظر الاسلام الى المسيح كخخلص للبشر بدمه ولا يعرف قضية الحب الالهى خلقه الى حد أن يبعث الله ابنه الوحيد خلاصهم فان الاسلام يريد أن ينزه الالهية تنزيهاً عظيماً ويجعل الله بائناً عن خلقه الا أنه بهذا وقع في التجريد التام وفاته ذلك المبدأ العظيم في النصرانية وهو « ان الله محبة »

فالمسامون لا يقدرّون أن يعتقدوا ان الله الذي يحب المسيح يتركه يُصلب ، كما ان اليهود لا يقدرّون ان يفهموا المسيح الا ملكاً أرضياً فاتحاً . على ان القرآن يقول ان من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً وهذا فيه ما يشير الى قول بولس الرسول وهو « انه بخطيئة واحد قد عمّ الذنب الجميع كذلك بكفارة واحد يتطهر الجميع وتحصل الطهارة التي هي مصدر الحياة »

نقول ان كل هذه المباحث اذا أخذ بها الانسان لا تنتهى وكتابتنا هذا كتاب تاريخ لا مشار جدل وحسبنا أن نسرد أقوال الفرق المختلفة مع الملاحظات الضرورية فقط فلا نستطيع هنا أن نستخرج من قوله تعالى : « أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا » الدليل

(١) راجع في هذا المبحث كتب التكميلين والمفسرين ولا سيما تفسير المنار لحجة الاسلام وأستاذ العصر السيد رشيد رضا

الذى حاول «درمنغهم» استخراجهم . بل معنى هذه الآية صريح وهو مبدأ العدل التام الشامل فقتل نفس بغير حق هو قتل لجميع العالم بغير حق . وهذا امرٌ بديهي لا جدال فيه لأن النفس هنا تمثل النوع الانسانى . وكذلك من أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس جميعاً لأنه يكون قرر الحياة لا للفرد بل للجمع ، وهذا الاحياء هو باجراء العدل التام الشامل وهو من باب (ولكم فى القصاص حياة) وليست هذه المسئلة فى شئ مما قاله بولس الرسول الذى يقول بما يسميه المسيحيون بالخطيئة الأصلية أى معصية آدم الشامل وزرها لجميع أبنائهم ، مما استلزم ارسال الله ابنه الى الأرض وصلبه فداء لأبناء آدم ، وتخليصاً لهم من تبعة معصية ارتكبتها أبوهم . نعم هذا ركن العقيدة المسيحية ، لكنه لا يلتزم أصلاً مع عقيدة الاسلام التى لا يؤاخذ فيها انسان الا بذنبه ، ولا يسرى وزره لا من والد الى ولد ولا من ولد الى والد ولا من أخ الى أخ (ولا تزروا زرة وزر أخرى) فالعقيدتان متباينتان أشد التباين

ثم يقول «درمنغهم» ان الاسلام ينفى موت المسيح مصلوباً مهيناً بل يقول ان الله قد رفعه اليه ولم يبق فى أيدي اليهود الا شبحاً أو شخصاً آخر شبه بالمسيح . يقول : فهذه العقيدة التى هى مستغربة عقلاً وتاريخاً ، وهادمة لأجل قصة معروفة فى العالم ، والتى بحسبها تكون النصرانية مبنية على وهم من الأوهام ، مستفادة من آية قرآنية متشابهة هى هذه :

« وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »

قال : فالمعنى الحقيقى الوحيد لهذه الآية التى تثبت قيامة المسيح أكثر مما تنكر موته ، وتعنى برفعه اليه ، وفاته هو ان الله قد ضلّل كيد اليهود وان عيسى لم يقع فى أيديهم بل خرج منها مؤيداً منصوراً . وهذا هو عين ما تقوله النصرانية فان اليهود بحسب قول النصارى ، قد أرادوا قتل المسيح وهدم عمله ، وبينما يظنون أنفسهم قضا عليه اذا به قد عاد فعاش ، وما كان عملهم الا انفاذاً لمشية الله وما قصدوا الا الشر فكان من عملهم هذا نجاة العالم .

قال «درمنغهم» : فقول القرآن « ولكن شبه لهم » يذكّرنا بأقوال العهد الجديد

وبولس الرسول عن حمل الله المكفر عن سيآت البشر وعن آدم الجديد الذي جاء بدل القديم . فاذا فكرنا في أن المصحف الحالي تاريخه من زمن عثمان والحجاج ، وان سائر المصاحف قد أبطلت ، وان المصحف نفسه لم يكن فيه شكل ولا نقط ، فيقرأ منه كثير على وجهين أمكننا أن نتساءل هل هذه الآية القرآنية المنقوضة بآيات أخرى والتي تؤكد موت المسيح وقيامته وصعوده الى السماء بدون تصريح بعدم وقوع الموت والقيامة الى الآن ومع تعليق ذلك باليوم الآخر هي كافية لحفر هذه الهوة العميقة بين ملتين كل شيء ما عدا هذه العقيدة جامع موحد بينهما ؟ ان « درمنغهم » لا يراها كافية

ثم قال : بل اتنا لو فرضنا وجوب أخذ هذه الآية على ظاهرها ، فلا مانع من ذلك بحسب عقيدة الكنيسة نفسها ، لأن آباء الكنيسة ما زالوا يقولون انه ليس ابن الله هو الذي صلبه اليهود وأماتوه على الصليب ، وانما الطبيعة البشرية التي في المسيح . وهكذا لا يكون اليهود قتلوا كلمة الله الأبدية ، ولكن يكونون قتلوا الرجل الذي يشبهها واللحم والدم المتجسدين في بطن مريم .

قال فلا يكون القرآن فيما قاله بشأن الصلب الا مؤيداً عقيدة الكنيسة الكبرى ، وهي أن في المسيح طبيعتين الهية وبشرية ، وان القتل وقع على الطبيعة البشرية فقط وان المسيح سينزل عند قرب الساعة وغير ذلك ، وما كان رد القرآن هذا الاعلى أقوال الهراطقة مبتدعة النصارى الذين كانت مذاهبهم منتشرة وأقوالهم شائعة حتى في جزيرة العرب ، الى (أن يقول) : ان أحد آباء الكنيسة من أهل القرن الخامس قال : ان جزيرة العرب كانت مجمعا للبدع المسيحية فكان فيها السابليون Sabellians والدوسيتيون Docetes الذين كانوا ينكرون الطبيعة البشرية في المسيح ويقولون ان جسده لم يكن الا شبحاً محضاً ، والاروسيون الذين كانوا ينكرون ألوهيته ، والايثوخيون واليعاقبة الذين كانوا ينكرون وجود الطبيعتين فيه ، والنساطرة الذين كانوا يرون فيه شخصين ، والمريميون والكويليريديون Collyridians الذين كانوا يعبدون مريم العذراء وأضداد المريميين الذين كانوا ينكرون بكارتها الدائمة الخ . وكانت جميع هذه الفرق في نزاع دائم وكما يقول المثل الحبشي : « لم يتفق النصارى على شيء الا على ولادة المسيح » .

ولا نريد أن نفرغ من هذه المسئلة بدون أن نعلق بعض الملاحظات على ما قاله «درمنغهم» فيها فإمّا ذهابه الى أن مراد القرآن بالآية الكريمة (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) انما هو وقوع القتل على الجسد فقط، وان الله بعد ذلك رفعه اليه، فان له وجهاً وجيهاً لا سيما وان آية أخرى (اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعتك اليّ ومطهرتك من الذين كفروا) تعزّز هذا الرأي وان كان جمهور أهل الاسلام على أن القتل لم يقع لا على الروح ولا على الجسد وان الذي قتل انما هو رجل آخر وان قوله تعالى (اني متوفيك) هو من توفاه الله أى استوفى مدة أجله في الدنيا.

ومن الناس من يرى أن الصلب وقع، ولكن الموت على الصليب لم يقع، وان المسيح قد أُنزل عن الصليب وهو حي ودفن في المغارة، على أنه مات وهو لم يكن مات، فلذلك عند ما جن الليل خرج من المغارة وذهب، ثم بعد أيام جاء وتلاقى مع الحواريين. ولكن الذين يرون هذا الرأي يخالفون الاسلام والنصرانية معاً. أما الاسلام فلكون القرآن لم ينف القتل فقط بل نفى الصلب أيضاً، ولأن الاسلام يثبت أن الله رفع المسيح اليه ونجّاه من اليهود. وأما النصرانية فلائن مدارها كلها على موت المسيح مصلوباً فداءً عن البشر. فان لم يكن مات مصلوباً انهدمت العقيدة المسيحية كلها. وجواب من يرى هذا الرأي أن آية (وما قتلوه وما صلبوه) لا تنفي الصلب نفسه بل تنفي الموت على الصليب، وان قوله تعالى (وما صلبوه) أشبه بأن تكون تأكيداً لقوله تعالى (وما قتلوه) لأن المقصود ليس نفي رفعه على الخشبة وانما نفي موته عليها، وان الأظهر أن يكون رفع على الخشبة ساعات، ثم أُنزل عنها وهو حي، وأخذ الى المغارة ووضع فيها، وذلك على هيئة أنه مات وانه دفن. والحقيقة أنه لما أُنزل عن الخشبة لم يكن مات وانما شبه الموت لليهود وشبه لهم الدفن وان المسيح بعد أن جن الليل خرج في جوف الليل ومضى الى حيث توارى مدة من الزمن ثم عاد فظهر للتلاميذ وتعثّى معهم العشاء السرى.

والذين يرجحون هذا الرأي يخالفون عقيدة النصرانية ورواية الأنجيل لكنهم لا يرون رأيهم مخالفاً للاسلام. وذلك لأنهم يقولون ان قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه) معناه وما قتلوه مصلوباً. وليس بنافي أن يكون رفع على الصليب مؤقتاً تشبيهاً على اليهود

الذين كانوا يطلبون جزماً قتل المسيح . وكذلك خروجه من المغارة ليلاً واختفاؤه عن العيان ليسا مما ينفي رفعه الى السماء بعد ذلك .

وأدلة هؤلاء على هذا الرأي هي :

أولاً ان بيلاطس البنطي كان قد حاول انقاذ المسيح بكل جهده هو وامرأته وانه أخذتهما عليه شفقة زائدة ، ولكن لما اشتد صخب اليهود طالبين قتله اضطر أن يأمر بصلبه وهو مكره ، فيجوز أن يكون أوصى قائد المائة بأن يعلق عيسى عليه السلام على الصليب الى أن يكون أظلم الوقت فينزله ويجعله في المغارة على أنه ميت ويشير اليه بأن يفر من المغارة ليلاً ، ويذهب الى حيث لا يعلم به اليهود . وهكذا يكون أنقذه من الموت ولكن مع إيهام اليهود أنه قتله .

ثانياً — ان الصلب وقع نهار الجمعة بحيث انه في مساء ذلك النهار يدخل السبت ويقر اليهود في بيوتهم فيسهل على الذي تولى قضية الصلب أن يوارى عيسى في المغارة ويسهل له النجاة بدون أن يشعر اليهود .

ثالثاً — ان من العادة في المصلوبين أن تكسر أرجلهم تعجيلاً لموتهم اذا طال نزعهم وقد ثبت أن القائد الذي عهد اليه بصلب عيسى لم يكسر له رجله مع أنه كسر أرجل المصلوبين الآخرين الذين صلب عيسى عليه السلام بينهما . فعدم تكسير رجل عيسى عليه السلام دليل على نية استحيائه .

رابعاً — ان الصلب كان سبة كبيرة عند اليهود يفدون بها بكل ممكن ولذلك جاء أناس من محبي عيسى وبذلوا كل جهدهم لدى بيلاطس لمنع صلبه مثل يوسف حارميتحايم ومثل نيقوديموس ومن هؤلاء من رافقوه الى مكان الصلب وهم الذين أنزلوا الجثة بحسب رواية الصلب فلو لم يكن لهم أمل في انقاذه لم يرافقوه الى هناك .

خامساً — انهم لما جاءوا الى المغارة نهار الأحد وجدوا الحجر مدرجاً ولم يجدوا جثة المسيح بل وجدوا ثيابه . فان قيل ان تدرج الحجر وخروج المسيح من القبر لا ينفيان كون المسيح قد مات لأن المسيح عليه الصلاة والسلام قد قام من الموت بعد أن صلب ومات ودفن وهذه هي العقيدة المسيحية وعند ما قام في اليوم الثالث خرج من القبر وتدرج

الحجر، فيرد على هذا أن الذي يقوم من الموت بمعجزة يمكنه أن يخرج من القبر بدون فتح القبر ولا دحرجة الحجر، ولا سيما إذا كان قد صعد إلى السماء، والصعود هنا بالروح لا بالجسد.

سادساً — إن وجود الثياب في القبر دليل على أنه قد نزع ثياب الدم التي كانت عليه عند الصلب، وأنه جئ إليه بثياب نظيفة وخرج بها عندما خرج، والا فما معنى وجود الثياب الملتصقة بالدم في القبر بعد فقد الجثة، فإن قيل يصعد بها إلى السماء فيجواب بأن الصعود إلى السماء إنما هو بالروح فليس يحتاج إلى تبديل ثياب وما وجود الثياب إلا علامة على تبديلها، وما تبديلها إلا علامة على أن المسيح خرج من القبر ليلاً بجسده وتوارى عن أعين اليهود، وذلك بصورة ليس فيها معجزات ولا خوارق عادات

سابعاً — إن وضع المسيح عليه السلام في مغارة، بدلاً من دفنه في ضريح تحت الأرض، وهيل التراب عليه هو من جملة الأدلة على إرادة بيلاطس عدم قتله لأنهم لو كانوا دفنوه في لحد تحت الأرض لما أمكن بقاؤه في الحياة، وأما دفنه في غار فليس إلا تخبة إلى أن يكون أظلم الليل

ثامناً — إن اجتماعه بالتلاميذ بعد الصلب دليل على أنه لم يكن مات وإن قيل إنه مات ثم عاش كما هي العقيدة المسيحية فنحن إنما نتكلم الآن عن رأى فئة لا تريد أن تتابع العقيدة بما يصحبها من المعجزات وإنما تنظر في الحادثة إلى المعقول والطبيعي بدون معجزات ولا خوارق عادات. فهذه الفئة ترى أن المسيح صلوات الله عليه قد اجتمع بالتلاميذ بعد حادثة الصلب وأنه أكل معهم وإن توما اشتبه فيه وطلب منه علامة على كونه هو المسيح الذي صلب ولما كان يعلم أنه كانت في صدره طعنة حربة سأله عنها فأطلعه المسيح عليها ووضع توما فيها أصبعه حتى تحققها. وهذه الفئة ترى من هذا الاجتماع أن الموت على الصليب لم يقع وإن «التشبيه» الذي في القرآن في آية (ولكن شبه لهم) لم يكن بقتل شخص آخر يشبه المسيح وإنما هو تشبيه الصلب الذي جرى بالموت بحيث يسكت اليهود الذين حكم مجلسهم الروماني على عيسى بالقتل صلباً وكانوا يأبون إلا انفاذ هذا الحكم. فخيّل لهم الرومانيون أنهم قتلوه والحقيقة أنهم لم يقتلوه بل رفعوه على الخشبة وعند الساعة الرابعة بعد الظهر أنزلوه عنها وأدخلوه المغارة حياً. وكان اليهود دخلوا في السبت فلم يعلموا بشيء

وبعد أن بدّل المسيح في المغارة ثيابه خرج منها ليلاً وذهب متوارياً ويوم الأحد وجد الناس المغارة خالية وجسد المسيح عليه السلام مفقوداً ، والحجر متدحرجاً ، وليس هناك غير الثياب الملطخة بالدم . فذهب جماعة من اليهود الى بيلاطس وشكوا اليه الاهمال الذي وقع في هذا الأمر وقالوا له ان الشائع هو كون النصارى جماعة عيسى قد أخذوا جسده ليلاً ومنهم من قال له : بل الشائع كون قصة موته على الصليب غير صحيحة وانه أنزل عن الصليب حياً^(١) ووضع في القبر على صورة مدفون ، ثم في جوف الليل فرّ من المغارة . ومن جملة الروايات أنه بعد أن ظهر للتلاميذ وأكل معهم فارقهم الى حيث لم يرجع الى فلسطين ، وذلك خوفاً من أن تقبض عليه السلطة مرة ثانية وتصلبه وتقتله هذه المرة فعلاً لا تشبيهاً ومن فلسطين ذهب الى الهند أبعد ما يمكنه أن يبعد وانتهت حياته في الهند ودفن في شمالي الهند حيث له الآن هناك قبر يزار . وهذا القبر معروف من قديم الزمان وهذه الروايات هي مجرد حدس وتخمين يعززه قرائن وأدلة في نظر من لا يعتقد بالمعجزات أو من يظن أن هذه الحادثة جرت مجرّئ طبيعياً لا معجزة فيه . فأما الذين يعتقدون بالمعجزات فانهم يحلون اشكالات هذه القصة كلها بالقدرة الالهية . والنصارى يقولون انها حادثة مقدرة مقررة منذ الأزل وان النصرانية مبنية عليها .

وأما الذين كتبوا حياة يسوع مثل « رنان » وأمثاله ولم يكونوا يقولون بالوهيته ولا بمعجزاته ولا بتقرّر الفداء من الأزل فقد ذهبوا الى أن الصلب والموت على الصليب وقعا فعلاً واسكن القيامة من القبر لم تقع ووجود شاب لابس ملابس بيضاء في القبر يقول ان المسيح قام من الموت هذا لم يقع وانما زعم التلاميذ ذلك من شدة تخيلهم وهيامهم في حب المسيح الى حد أنهم ظنوه نزل عليهم . وأكل معهم ، وان كل ما ورد من ذلك في الأناجيل لم يقع وانما هو خيال في خيال حلمهم عليه الحب . وبالاختصار النصارى يقولون ان المسيح مات مصلوباً ودفن في المغارة وفي اليوم الثالث قام وصعد الى السماء ، وانه بعد قيامه . تجلّى للتلاميذ وتعلّش معهم وأمرهم بنشر دينه وودّعهم والمسلمون يقولون انه لم يكن هو المصلوب وانما ضلب شخص آخر عوضاً عنه ، وان الله رفعه اليه . وهناك رأي من الآراء هو أنه في قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه) لا يقصد نفى القتل والصلب عن الجسد وانما يقصد أنهم ان

(١) اقرأ عن هذه المسئلة كتاب اميل لودفيغ الألماني المشهور في علم تراجم الرجال وذلك في آخر كتابه عن المسيح

كانوا قتلوا الجسد فلم يقدروا أن يقتلوا الروح وان الله رفع تلك الروح اليه . ورأى آخر انه رُفِعَ . على الصليب الى أن أقبل الظلام فأنزل الى القبر حيا ولكن بصورة ميت . وبعد أن أدخل المغارة جئ اليه بثياب فلبسها وترك الثياب الملطخة بالدم . وكانت مريم أم عيسى ومريم المجدلية وبعض نساء وبعض رجال لم يفارقوا يسوع منذ صلب الى أن خرج من المغارة فالأرجح أنهم هم الذين أتوه بالثياب لبيدها ثم ان عيسى بعد ذلك بمدة قصيرة جاء واجتمع بتلاميذه وتعشى معهم ثم فارقهم وأبعد في الأرض خوفاً من الوقوع في يد الحكومة مرة ثانية وقيل انه ذهب الى الهند وتوفاه الله هناك. وهذا الرأي الأخير مخالف لرواية الاسلام والنصرانية معاً كما أن الرأي الذي قبله وهو الذي معناه أن قول القرآن (وما قتلوه وما صلبوه) لا ينفي موت جسد المسيح على الصليب وانما يعنى روحه ويعنى عمله في الأرض هو الرأي الوحيد الذي يمكن به التوفيق بين غيقتي الاسلام والمسيحية . وهو الرأي الذي يحاول تأييده « درمنهم » لأنه رأى فيه التوفيق بين الديانتين في أهم ما اختلفتا فيه . وأحسن ما كتبه المسلمون في مسألة الصلب رسالة للعلامة السيد رشيد رضا صاحب المنار فن شاء فليرجع اليها .

وقد ظهر في السنة الماضية كتاب عنوانه « لأجل فهم حياة يسوع » وفيه بحث تحليلي لانجيل مرقس ألّفه الاستاذ بروسبر الفاريك Prosper Alfariق المدرس بجامعة استراسبورغ ذهب فيه الاستاذ المذكور مذهب من يرى ان أكثر ما ورد في الانجيل المذكور مطبّق عمداً على نبوءات سابقة في العهد القديم ، سواء كانت الحوادث المروية صحيحة أو غير صحيحة ، وذلك من قبيل الدعاية لا التاريخ . وقد اجتهد هذا المؤلف أن يظهر كل ما هناك من التناقضات تارةً ومن الأخبار المخالفة للطبيعة طوراً وذلك مثل ان الدنيا كلها أظلمت من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة أثناء احتضار السيد المسيح على الصليب . وانه انشق حجاب الهيكل وغير ذلك من الاخبار . ولكن هذا المؤلف هو ممن لا يشتبهون في موت المسيح على الصليب

وفي هذه السنة ظهر كتاب جديد اسمه « حياة يسوع » لـ لاسيو موريس غوغويل Goguel من علماء فرنسة توخى فيه الرد على الدكتور كوشو Couchoud الافرني

وغيره من العامة الامان والانكليز والهولانديين الذين لم يجدوا في الاناجيل حقائق تاريخية قابلة للتحقيق ، بل وجدوا فيها دعاية دينية محضة ، وانهوا الى القول بان المسيح لم يوجد أصلاً وانما كان رمزاً . فالمسيو غوغويل يبين في كتابه مافى هذه الاقاويل من المبالغات ، ويذهب الى أن وجود عيسى محقق ، وان الأخبار الواردة في الاناجيل يمكن ربط بعضها ببعض وأخذ نتيجة تاريخية صحيحة منها . وهو يرى ان ادعاء ان المسيح رمز فيه من المشكلات التاريخية أكثر من القول بأنه وجد بالفعل . نعم المسيو موريس غوغويل يعتقد ان كثيراً من روايات الاناجيل غير واقعية بل هي مطبقة على التقاليد النصرانية تطبيقاً مجرد الدعاية أو بحسب الاعتقاد وان هذا في واد والتاريخ في واد . ورنان في كتابه الشهير « حياة يسوع » يعترف بتطبيق بعض الروايات عمداً على النبوءات السابقة الا أنه يعتقد موت المسيح على الصليب كما يموت سائر الناس .

ثم لنا ملاحظة أخرى على قول « درمنهم » بشأن المصحف . وظننه ان هناك مصاحف غير المصحف العثماني قد أبطلت ! فان كلاماً كهذا يدور كثيراً في كتب الأوربيين ومنهم من يزعم ان المصحف تعاوره الحذف والتبديل ، وأن الخلفاء الراشدين زادوا فيه ونقصوا كما أرادوا . وهم مطلقون العنان لخيالاتهم في هذا الموضوع بحسب عاداتهم ويحبطون خبطاً كثيراً كما هو دأبهم اذا تكلموا عن الشرق والاسلام . وإيس بشي مما يظنونه بصحيح . وكل هذا امّا جهل بتاريخ القرآن وامّا تجاهل مقصود منهم فالقرآن كان محفوظاً في صدور ألوف من الرجال وفي صدور عدد كبير جداً من الصحابة ممن يستحيل تواطؤهم على الكذب . ولما جرت حرب الردة في اليمامة استحرّ القتل في الصحابة ، رضوان الله عليهم ، فجاء عمر الى أبي بكر وقال له ، ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، واني لأخشى أن يستحر بالفراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن الا أن يجمعوه واني لأرى ان يجمع القرآن . فقال أبو بكر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ فقال عمر : هو والله خير . قال أبو بكر : فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدرى ، فزأيت الذي رأى عمر . قال زيد بن ثابت : وعمر عنده جالس لا يتكلم ، فقال أبو بكر : انك شاب عاقل ، ولا تهملك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتنبّع القرآن فاجعه ، قال

زيد : فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن
فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ . فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل
أراجعه حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتبعت القرآن اجمعه من
الرقاع ، والاكتاف ، والعُسْبُ وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع
خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى آخرها فكانت
الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند
حفصة بنت عمر رضى الله عنها ، نقل هذا جلال الدين السيوطي في تاريخ الخلفاء ثم أردف
ذلك بقوله : واخرج أبو يعلى عن عليّ قال : أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ان
ثابا بكر كان أول من جمع القرآن بين اللوحين
وذكر أبو الفداء هذه القصة كما يأتي :

« ثم دخلت سنة ثلاثين وفيها بلغ عثمان ما وقع في أمر القرآن من أهل العراق ، فانهم
يقولون قرأنا أصح من قرآن أهل الشام ، لانا قرأنا على أبي موسى الأشعري وأهل الشام
يقولون قرأنا أصح لانا قرأنا على المقداد بن الأسود ، وكذلك غيرهم من الأنصار . فأجمع
رأيه ورأى الصحابة على أن يحمل الناس على المصحف الذي كتب في خلافة أبي بكر رضى
الله عنه . وكان مودعاً عند حفصة زوج النبي ﷺ ، وتحرق ماسواه من المصاحف التي
بأيدى الناس ، ففعل ذلك ونسخ من ذلك المصحف مصاحف وجل كلاً منها الى مصر من
الأمصار ، وكان الذي تولى نسخ المصاحف العثمانية بأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله
ابن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي ، وقال عثمان :
ان اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم »

ولقد رأينا أجمع ما كتب في هذا المقام كلام الاستاذ الكبير مفتخرة العرب ، وحنة
الأواخر على الاوائل في علو طبقة الانشاء ووفرة الأدب ، السيد مصطفى صادق الرافعي في
كتابه « اعجاز القرآن » فانه جمع فأوعى وأصاب الحز وطبق المفصل وهاهو ذا مقال
بجاحظي بيانه نأثره بحرفه قال :

« وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداءً من أنفسهم أو بأمر من
النبي ﷺ ، فيخطونه على ما اتفق لهم يومئذ من العسب ^(١) والكرانيف ^(٢) واللخاف ^(٣) »

(١) جمع عسيب جريدة النخل كانوا يكشطون الخوص عنه ويكتبون في الطرف المريض

(٢) جمع كرافة بالكسر وبالضم وهي أصول السعف الغلاظ (٣) جمع لينة وهي صفائح الحجارة

والرقاع ، وقطع الاديم ، وعظام الإكتاف والاضلاع من الشاة والابل ، وكل ما أصابوا من مثلها مما يصلح لغرضهم يكتب كلٌّ منهم ما يَسَّر له أو يَسَّرته أحواله . ولكن مما ليس فيه ريب ان منهم قوماً جمعوا القرآن كله لذلك العهد، وقد اختلفوا في تعيينهم بيد انهم أجمعوا على نفر : منهم على بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود . وهؤلاء كانوا مادة هذا الأمر من بعد . فان المصاحف التي اختصت بالثقة كانت ثلاثة : مصحف ابن مسعود ، ومصحف أبي ، ومصحف زيد ، وكلهم قرأ القرآن وعرضه على النبي ﷺ . فأما ابن مسعود فقرأ بمكة وعرض هناك . وأما أبي فانه قرأ بعد الهجرة وعرض في ذلك الوقت . وأما زيد فقرأ بعدهما وكان عرضه متأخراً عن الجميع وهو آخر العرض اذا كان في سنة وفاته ﷺ ، وبقراءته كان يقرأ عليه الصلاة والسلام وكان يصل الى أن لحق بر به . ولذلك اختار المسلمون ما كان آخراً كما ستعرفه .

وأما على بن أبي طالب ، فقد ذكروا ان له مصحفاً جمعه لما رأى من الناس طيرة عند وفاة النبي ﷺ . وفي الفهرست لابن النديم انه رأى عند أبي يعلى حزة الحسيني مصحفاً بخط على يتوارثه بنو حسن . ونحن نحسب ذلك خبراً شيعياً لأنه غير شائع . . .

وقبض رسول الله ﷺ والقرآن في الصدور وفيما كرمه عليه ، ثم نهض أبو بكر بأمر الاسلام وكانت في مدته حروب أهل الردة ، ومنها هزيمة أهل اليمامة ، والمحاربون أكثرهم من الصحابة ومن القراء . فقتل في هذه الغزوة وحدها سبعون قارئاً من الصحابة (ويقال سبعمائة) وكان قد قتل منهم مثل هذا العدد بئر معونة (موضع قرب المدينة) في عهد النبي ﷺ فهال ذلك عمر بن الخطاب ، فدخل على أبي بكر رحمه الله فقال : ان أصحاب رسول الله ﷺ باليمامة يتهافتون تهافت الفرائش في النار ، واني أخشى أن لا يشهدوا موطناً الا فعلوا ذلك حتى يقتلوا وهم حملة القرآن ، فيضيع القرآن ويُنسى ولو جعلته وكتبته . فنفر منها أبو بكر ، وقال أفعَلُ ما لم يفعل رسول الله ﷺ ، فتراجعا في ذلك . ثم أرسل أبو بكر الى زيد بن ثابت . قال زيد : فدخلت عليه وعمر مسر بل فقال لي أبو بكر : ان هذا قد دعاني الى أمر فأبيت عليه وأنت كاتب الوحي فان تكن معه اتبعكما وان توافقني لا أفعَل . فقال أبو بكر قول عمر وعمر ساكت ، فنفرت من ذلك وقلت يفعل

مالم يفعل رسول الله ﷺ الى أن قال عمر كُتِبَ : وما عليكما لو فعلتما ذلك . فذهبنا ننظر فقلنا : لاشئ والله ما علينا في ذلك شئ . قال زيد : فأمرني أبو بكر فكتبته في قطع الأدم وكسر الاكتاف والعُصْب .

وهذا الذي فعله أبو بكر كأنما استحيا به طائفة من القراء الذين استحروا بهم القتل بعد ذلك في المواطن التي شهدوها لم يعد به ما وصفنا . ولذا بقي ما اكتتبه زيد نسخة واحدة وهو قد تتبع ما فيها من الرقاع والعصب واللخاف ومن صدور الرجال وإنما ائتمنه أبو بكر لأنه حافظ ، ولأنه من كتبة الوحي ، ثم لأنه صاحب العرصة الأخيرة ، وربما كان قد أعانه بغيره في الجمع والتتبع ، فإن في بعض الروايات أن سالم مولى أبي حذيفة كان أحد الجامعين بأمر أبي بكر . أما الكتابة فهي لزيد بالاجماع .

وبقيت تلك الصحف عند أبي بكر ينتظر بها وقتها أن يحين حتى اذا توفى سنة ١٣ صارت بعده الى عمر فكانت عنده حتى مات ، ثم كانت عند حفصة ابنته صدراتاً من ولاية عثمان . ويومئذ اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في مصر فأخذ أهل مصر عن رجل من بقية القراء

فأهل دمشق وحصن أخذوا عن المقداد بن الاسود . وأهل الكوفة عن ابن مسعود . وأهل البصرة عن أبي موسى الاشعري — وكانوا يسمون مصحفه لباب القلوب — وقرأ كثير من أهل الشام بقراءة أبي بن كعب ، وكانت وجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الاحرف التي نزل عليها كما سيمر بك ، فكان الذي يسمع هذا الاختلاف من أهل تلك الامصار اذا احتوتهم المجامع أو التقوا في المواطن على جهاد أعدائهم يعجب من ذلك أن تكون هذه الوجوه كلها على اختلاف ما بينها في كلام واحد . فاذا علم ان جميع القرآت مسندة الى رسول الله ﷺ وانه أجازها ، لا يمتنع أن يحيك في صدره بعض الشك ، وان ينطوى منها على شئ اذا هو كان قد نشأ بعد زمن الدعوة وبعد أن اجتمع العرب على كلمة واحدة ، فلا يلبث أن يجري ذلك الاختلاف مجرى مثله من سائر الكلام فيرى بعضه خيراً من بعضه ويظن منه الصريح ، والمدخول ، والعالي ، والنازل ، والافصح

والفصيح ، وأشبه ذلك ويعتد ما يراد في القرآن من القرآن . وهذا أمرٌ ان هو استفاض فيهم ثم مردوا عليه خرجوا منه ولا ريب الى المناقضة والملاحاة والى أن يرد بعضهم على بعض هذا يقول : قراءتى وما أخذت به . وذلك يقول : بل قراءتى وما أنا عليه . وليس من وراء هذا اللجاج الالتفكير والتأثير ولا جرم انها الفتنة لاتفتأ بعد ذلك من دم .

ولقد نجمت هذه الناشئة يومئذٍ فاما كانت غزوة ارمينية وغزوة أذربيجان ، كان فيمن غزاها مع أهل العراق حذيفة بن اليمان فرأى كثرة اختلاف المسلمين في وجوه القراءة وانهم لايجرون من ذلك على أصل في الفطرة اللغوية كما كان العرب يقرأون بلحونهم ورأى ما يبدر على ألسنتهم حين يأتى كل فريق منهم بما لم يسمع من غيره اذ يتأرون فيه حتى يكفر بعضهم بعضاً ، ولم ير عندهم نكيراً لذلك ولا اكباراً له بل كانوا قد ألفوه بين أنفسهم ، وصار من عادتهم وأمرهم . ففرغ الى عثمان (بن عفان رضى الله عنه) فأخبره بالذى رأى . وكان عثمان قد رفع اليه ان شيئاً من ذلك يكون بين المسلمين الذين يقرئون الصبئية يأخذونهم بحفظ القرآن ، فينشأون وبهم من الخلاف بعضهم على بعض . فأعظم ، رحمه الله ، أمر هذه الفتنة وأكبره الصحابة جينعاً ، لأن الاختلاف في كتاب الله مدرجة الى مخالفة ما فيه ، ومتى اهتملوا بعض معانيه لم يكن بد أن يتصرفوا ببعض ألفاظه ، وانما هو اجترأ واحد فيوشك أن يكون من ذلك مساغ للتحريف والتبديل . فاجعوا أمرهم أن ينتسخوا الصحف الاولى التى كانت عند أبى بكر وان يأخذوا الناس بها ويجمعوهم عليها حذار تلك الردة المشتبهة ، واشفاقاً على الناس أن يصيروا ككفار دؤا الى الفتنة أركسوا فيها . فأرسل عثمان الى حفصة فبعثت اليه بتلك الصحف ، ثم ارسل الى زيد بن ثابت ، والى عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام . فأمرهم أن ينسخوها فى المصاحف . ثم قال للرهط القرشيين الثلاثة : ما اختلفتم فيه أتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش فانه نزل بلسانهم .

وفى رواية أخرى عن زيد بن ثابت ان عثمان أمره أن يكتب له مصحفاً بعد أن رفع اليه أمر الاختلاف وقال : انى مدخل معك رجلاً ليبدأ فصيحاً فاكتباه وما اختلفتما فيه فارفعاه الى جعل مع ابان بن سعيد بن العاص . فلما بلغا فى الكتابة قوله تعالى : (ان آية ملكه أن يأتىكم التابوت) قال زيد : فقلت : التابوه . وقال ابان بن سعيد : التابوت .

فرفعنا ذلك الى عثمان فكتب : التابوت .

وفي رواية ثالثة لابن عساكر ان عثمان خطب في الناس يومئذٍ وعزم على كل رجل عنده شئ من كتاب الله لما جاء به فكان الرجل يجيء بالورقة والاديم فيه القرآن حتى جمع من ذلك كثرة ثم دعاهم رجلاً رجلاً فناشدهم : أسمعت رسول الله ﷺ وهو أملاء عليك فيقول : نعم . فلما فرغ من ذلك عثمان قال : من أكتب الناس ؟ قالوا : كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت . قال : فأئى الناس أعرب ؟ قالوا : سعيد بن العاص . قال : فليمل سعيد . وليكتب زيد .

ونحسب أن اختلاف هذه الرواية وما جاء بمعناها من وجوه أخرى انما بعث عليه تصور الرواة لابلغ ما يكون من صور الثقة في هذا الأمر حتى يحكموه من نواحيه كلها فانك لا ترى منها رواية الا وفيها مبالغة في التحري ليست في الاخرى . والذي يخبر بمثل ذلك الخبر عن القرآن انما يخبر بأمر شديد اذا هو لم يمكن فيه لموضع الثقة ولم يحصنه أشد التحصين حتى لا تجد الشبهة اليه سبيلاً . وظاهره ان تكون كل هذه الروايات هي الواقع قال زيد (في بعض الروايات عنه) : فلما فرغت عرضته عرضة فلم أجد فيه هذه الآية « **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا** » قال فاستعرضت المهاجرين أسألم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم ، ثم استعرضت الأنصار أسألم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم حتى وجدتھا عند خزيمه يعنى ابن ثابت فكتبتها . ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه هاتين الآيتين : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم** » الى آخر السورة فاستعرضت المهاجرين فلم أجدها عند أحدٍ منهم ثم استعرضت الأنصار أسألم عنها فلم أجدها عند أحدٍ منهم حتى وجدتھا مع رجل آخر يدعى خزيمه أيضاً فأثبتها في آخر « **براءة** » . ولو تمت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة . ثم عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه شيئاً . ثم أرسل عثمان الى حفصة يسأها أن تعطيه الصحيفة وحلف لها ليزدنها اليها فأعطته فعرض المصحف عليها فلم يختلف في شئ فردھا اليها وطابت نفسه وأمر الناس أن يكتبوا مصاحف فلما ماتت حفصة أرسل الى عبد الله بن عمر في الصحيفة بعزته فأعطاها فغسلت غسلًا .

قلنا وكلام زيد نص قاطع في أنه كان يحفظ القرآن كله لم يذهب عنه شيء منه اذ كان يعرض ما في المصحف على ما ربط في صدره وثبت في حفظه ، ثم هو نص كذلك على أن زيدا كان لا يكتفي في نفسه بل يذهب يستعرض الناس حتى يجد من يؤدي اليه كيلا ينفرد هو بالحفظ خشية أن يكون موضع ظنة وان كان الصحابة رضي الله عنهم قد اجتمعوا على الثقة به فلم يثبت ما أثبتته الا بشاهدين أحدهما من حفظ غيره والآخر من حفظه

ثم بعث عثمان في كل أفق بمصحف من تلك المصاحف، وكانت سبعة في قول مشهور ، فأرسل منها الى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة ، وجلس بالمدينة واحداً وهو مصحفه الذي يسمى الأمام — الأصل في هذه التسمية ما جاء في بعض الروايات من أن عثمان لما بلغه اختلاف المعلمين في القرآن كما أوردناه آنفاً قال : عندي تكذبون به وتلحنون فيه فن نأى عني كان أشد تكديباً وأكثر لحناً . يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس اماماً — ثم أمر بما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف أن يحرق ولم يجعل في عزيته تلك رخصة سائغة لأحد وكان جمع عثمان في سنة ٢٥ للهجرة ، وانما أراد عثمان بذلك ختم مادة الاختلاف لأنه أمر يمد مع الزمن وتنشعب الأيام به وهو ان أمن في عصره لم يدر ما يكون بعد عصره . وقد أدرك ان العرب لا يستمرون عربا على الاختلاط والفتوح وان الألسنة تنتقل واللغات تختلف ثم هو رأى ما وقع في الشعر وروايته وان الاختلاف كان باباً الى الزيادة والابتداع فلم يفعل شيئاً أكثر من أنه حصن القرآن وأحكم الأسوار حوله ومنع الزمن أن يتطرق اليه بشيء وجعله بذلك فوق الزمن .

ولم تكن المصاحف التي كتبت قبل مصحف عثمان على هذا الترتيب المعروف في السور الى اليوم فانما هو ترتيب عثمان — وكان تقسيم المصحف ثلاثين جزءاً زمن الحجاج — أما في ما وراء ذلك فقد رووا أن رسول الله ﷺ كان اذا نزلت سورة دعا بعض من يكتب فقال ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا ، فكان القرآن مرتب الآيات غير أنه لم يكن مجموعاً بين دفتين ، فلا يؤمن أن يضطرب نسق مجموعه في أيدي الناس باضطراب القطع التي كتب فيها تقديماً وتأخيراً . ولم يلزم الناس القراءة يومئذ بتوالي السور وذلك ان الواحد منهم اذا حفظ سورة أو كتبها ثم خرج في سريته — هي عندهم من حصة أنفس الى ثلاثمائة — أو أربع مائة — فنزلت سورة أخرى فانه كان اذا رجع ياخذ في حفظ ما ينزل بعد

رجوعه وكتابه ويتبع مافاته على حسب ما تسهل له أ كثره أو أقله فمن ثم يقع في ما يكتبه
 تأخير المقدم وتقديم المؤخر . فلما جمعه أبو بكر برأى غمركتبه على ما وقفهم عليه رسول
 الله ﷺ ثم كانوا في أيام عمر يكتبون بعض المصاحف منتسقة السور على ترتيب ابن مسعود
 وترتيب أبي بن كعب وكلاهما قد سرده ابن النديم في كتابه الفهرست . وقال ابن فارس ان
 السور في مصحف علي كانت مرتبة على النزول فكان أوله سورة اقرأ باسم ربك ثم المدثر
 ثم نون ثم المتدمر ثم تبت ثم التكوير وهكذا الى آخر المكي والمدني ولا حاجة بنا أن نتسع
 في استقصاء هذا الخلاف

أما ترتيب مصحف عثمان فهو نسق زيد بن ثابت وهو صاحب العرضة الأخيرة ولعله
 كان ترتيب مصحف أبي بكر أيضاً لما مر في الرواية عن زيد من أنه قابل بين الاثنين معارضته
 والله أعلم . ويرجح أن ترتيب زيد الذي نقرأ به اليوم هو ما رضيه رسول الله ﷺ ما روى
 عن عوف بن مالك وعن حذيفة من أنه عليه الصلاة والسلام تهجد ذات ليلة فاستفتح فقرأ
 في نافذته البقرة وآل عمران والنساء والمائدة في أربع ركعات سورة سورة على هذا النسق
 وهو الذي عليه ترتيب زيد . وهذا الخبر يظهر ما ورد في معناه وانعقد به التصديق من أن
 ترتيب الآي إنما كان توقيفاً منه صلى الله عليه وسلم ومن قصص زيد عن نفسه في ذلك
 الرواية تعلم انه كان يحفظ القرآن على ترتيبه آية فآية وسورة فسورة — ولم يكن بعد انتشار
 المصاحف العثمانية وانتساخها على هيئتها الا أن استوثقت الأمة على ذلك بالطاعة وأحرق كل
 امرئ ما كان عنده مما يخالفها ترتيباً أو قراءة وأطبق المسلمون على ذلك النسق وذلك الحرف
 ثم أقبلوا يجدون في اخراجها وانتساخها . ولقد روى المسعودي انه رفع من عسكر معاوية
 في واقعة صفين نحو من خمسمائة مصحف وهي الخدعة المشهورة التي أشار بها عمرو بن العاص
 في تلك الواقعة ولم يكن بين جمع عثمان الى يوم صفين الا سبع سنوات

وهنا أمر لا مذهب لنا دون التنبيه عليه وذلك أن جمع القرآن كان استقصاء لما كتب
 واستيعاباً لما في الصدور فكانوا لا يقبلون الا بشهادة قد امتحنوها أو حلف قد وثقوا من
 صاحبه والا بعد العرض على من جمعوا وعرضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن
 الصحابة كانوا لا يحسنون التهجي ، وقد يكتبون غير ما يقرأون على وجه من وجوه الكتابة
 أو يكتبون بحرف من القراءات كالذي رواه ابن فارس بسنده عن هاني قال : كنت عند

عثمان رضى الله تعالى عنه وهم يعرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شاة الى أبى بن كعب فيها « لم يثن » و « أمهل الكافرين » و « لا تبديل فى الخلق » قال فدعى بالدواة فمضى احدى اللامين وكتب « خلق الله » ومضى فأمهل وكتب « فهل » وكتب « لم يتسنه » ألحق فيها هاء والقراءة على هذا الرسم

فذهب بعض أهل الكلام ممن لا صناعة لهم الا الظن والتأويل واستخراج الأساليب الجدلية من كل حكم وكل قول الى جواز أن يكون قد سقط عنهم من القرآن شئٌ جلاً على ماوصفوا من كيفية جمعه وهو باطل من الظن لما علمته من أنباء حفظته الذين جمعوه وعرضوه ثم لما رأيت من تثبتهم فى ذلك حتى جعلت لهم الصحة من أطرافها ثم لاجماع الجم الغفير من الصحابة على أن ما بين دفتي المصحف هو الذى تلقوه عن رسول الله ﷺ لم يأت به الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا اقتطع منه الباطل شيئاً

ونحن لما رأينا روايات تختلف فى شئ من الأشياء فضل اختلاف وتنسجم فى الرد والتأويل كل طريق وعركا رأينا من أمرها فيما عدا نصوص الفاظ القرآن فان هذه الألفاظ متواترة اجماعاً لا يتدارأ فيها الرواة من علا منهم ومن نزل وانما كان ذلك لأن القرآن أصل هذا الدين وما اختلفوا فيه الا من بعد اتساع الفتن وتألب الأحداث وحين رجع بعض الناس من النفاق الى أشد من الأعرابية الأولى وراغ أكثرهم عن موقع اليقين من نفسه فاجترأوا على حدود الله وضربتهم الفتن والشبهات مقبلاً بمدبر ومدبراً بمقبل فصار كل من نزع الى الخلاف يريد أن يجد من القرآن ما يختلف معه أو يختلف به وهيهات ذلك الا أن يتدسس فى الرواية بمكروه يكون معه التأويل والأباطيل والا أن يفتح الكلمة السيئة ويبالغ فى الحل على ذمته والعنف بها فى أشياء لا ترد الى الله ولا الى الرسول ولا يعرفها الذين يستنبطون من الحق بل لا يعرفون لها فى الحق وجهاً . ونحسب ان أكثر ذلك مما افترته الملحدة وتزيدت به الفئة الغالية وهم فرق كثيرة يختلفون فيه بغياً بينهم وكلهم يرجع الى القرآن بزعمه ويرى فيه حجته على مذهبه وينته على دعواه . ثم أهل الزيغ والعصبية لآرائهم فى الحق والباطل . ثم ضعاف الرواة ممن لا يميزون أو ممن تعارضهم الغفلة فى التمييز وذلك سواد كله ظلمات بعضها فوق بعض ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور . وقد وردت روايات قليلة فى أشياء زعموا أنها كانت قرآناً ورفعت على أن رسول الله ﷺ كان

يقرر الأحكام عن ربه اذا لم ينزل بها قرآن لأن السنة كانت تأتي متأهة ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « أوتيت الكتاب ومثله معه » يعنى السنن

وعلى هذا الحديث يخرج في رأينا كل ما روه مما حسبه كان قرآناً ورفع وبطلت تلاوته على قلة ذلك ان صح لانه يكون حياً وإيس كل وحى بقرآن . على أن ما ورد من ذلك ورد معه اضطرابهم فيه وضعف وزنه فى الرواية وأكبر ظننا أنها روايات متأخرة من محدثات الأمور وان فى هذه المحدثات لما هو أشد منها وأجدى بشأنه . ولو كان من تلك شئ فى العهد الأول لرويت معها أقوال أخرى للأئمة الأئبات الذين كان اليهم المفرع من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا يومئذ متوافرين وكلهم مُقرن لذلك قوى عليه وكانوا يعلمون أن المراء فى القرآن كفر وردة وانكار بعضه انكاره بالجملة . وقد أجمعوا على ما فى مصحف عثمان وأعطوه بذل السنتهم فى الشهادة أى قوتها وما استطاعت من تصديق . ونحن من جهتنا نمنع كل المنع ولا نعبأ أن يقال انه ذهب من القرآن شئ وان تأولوا لذلك وتمحلوا وان أسندوا الرواية الى جبريل وميكائيل ونعتد ذلك من السوء الصلعاء التى لا يرحضها من جاء بها ولا يغسلها عن رأسه بعد قول الله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ولا يتوهم أحد أن نسبة بعض القول الى الصحابة نص فى أن ذلك المقول صحيح البتة فان الصحابة غير معصومين وقد جاءت روايات صحيحة بما اخطأ فيه بعضهم من فهم أشياء من القرآن على عهد رسول الله ﷺ وذلك العهد هو ما هو ثم بما وهل عنه بعضهم مما تحدثوه من أحاديثه الشريفة فاخطأوا فى فهم ماسمعوا ونقلنا فى باب الرواية من تاريخ آداب العرب (١) أن بعضهم كان يرد على بعض فيما يشبه لهم انه الصواب خوف أن يكونوا قد وهموا . وثبت أن عمر رضى الله عنه شك فى حديث فاطمة بنت قيس بل شك فى حديث عمار بن ياسر فى التميم لخوف الوهم مع أن عماراً ممن لا يهتم بتعمد الكذب ولا بالكذب وهلة اصحبته وسابقتهم مع رسول الله ﷺ ولذلك أذن له عمر فى رواية هذا الحديث مع شكه هو فى صحته .

على أن تلك الروايات القليلة فى مازعموه كان قرآناً وبطلت تلاوته ان صحت أسانيدها

(١) هو كتاب لم يصنف فى باب نظيره من تأليف الاستاذ الرافعى الذى تنقل عنه هذا الفصل

أو لم تصح فهي على ضعفها وقتلها مما لاحفل به مادام الى جانبها اجماع الأمة وتظاهر الروايات الصحيحة وتواتر النقل والأداء على التوثيق . انتهى

وخلاصة القول انهم جمعوا القرآن من الادم والعسب والكرانيف واللخاف وعرضوه على مافي صدور الرجال لا عرضة واحدة بل عرضات متعددة وكان ذلك بين مئات وألوف يستحيل تواطئهم على الكذب أو على زيادة أو على نقصان ولذلك اطمأنت النفوس وثلجت القلوب واقتنعت العقول بان هذا هو القرآن كما أنزل وأصبح ما يروى خلاف ذلك لا يعبأ به وأما الاختلاف في وجوه القراءات فهو شيء آخر لا يتعلق بالكلام الالهي نفسه بل بكيفية قراءته وقد كانت لهجات العرب تختلف بعض الشيء كما لا يخفى

ثم نعود الى «درمنغم» الذي يحاول في جميع كتابه التألف بين الاسلام والمسيحية فهو يقول في صفحة ١٣٤ : « ان نفساً قوية طاهرة نظير نفس محمد في اتصال مع الحقائق التي وجدها هذا الرجل في نفسه في أثناء خلواته العظيمة في الصحراء والجبال كانت تشعر بأن الديانة ليست عبارة عن تأمل مجرد وعن محاضرة ملقاة بل هي حقيقة يراها الانسان من نفسه وكل من البشريتمثل الله تعالى كما يقدر ولكن المهم أن يكون ملائ شعوراً بالحقيقة الالهية وأن يسلم نفسه لله وهذا هو الاسلام»

ثم قال : ان الهوة التي قد احتفرها المسيحيون والمسلمون فيما بينهم لم تكن في الحقيقة بين الاسلام والنصرانية وانما كانت نتيجة المنازعات المبنية على سوء التفاهم . فأهل الكتاب كانوا بادي ذي بدء أنصاراً لمحمد ثم لم يفتنوا أن أبوا الاعتراف بنبوته وأن هزأوا به كما أن الساميين هم أيضاً من جهتهم تباعدوا ما أمكنهم عن النصرانية . مفسري القرآن بدلاً من أن يظهروا ما بين الديانتين من الموافقات اجتهدوا في اثبات ما بينهما من المفارقات . فالقرآن اقرب كثيراً الى النصرانية من السنة المروية وعلى كل حال الأحاديث المنسوبة الى الرسول هي التي حفرت هذه الهوة بين الديانتين وفي هذه الأحاديث من الروايات المدخولة والموضوعات ما هو معلوم (هكذا زعم درمنغم)

ثم قال : ولما نشبت الحروب مدة قرون متطاولة بين المسلمين والمسيحيين ازداد بينهم سوء التفاهم واشتدت البغضاء كثيراً ، ومما يجب أن نعترف به أن أكثر البغضاء كان من

جهة المسيحيين فقد كان البيزنطيون يحترقون الاسلام بلا تأمل ولا بحث وجيعهم ما عدا يُوحناَ الدمشقي لم يحملوا أنفسهم على درس عقيدة الاسلام وانما حلوا عليه بالطعن والقذف بلا فحص وأخذوا يصوّرون محمداً بصور غريبة جداً ويشوهون من هذه الصورة ما أمكنهم. (وذكر هنا المطاعن التي كانوا يُوجّهونها الى النبي ﷺ بما أيننا نقله نظراً لسُخفه وسفاهته وسقوطه من نفسه حتى ان درمنغهم نفسه هزأ كثيراً بهذه المطاعن بالرغم من كونه مسيحياً معتقداً) فالتناقض الذي بين الملتين كانت قواعده الأساسية أخباراً واهية مثل أن محمداً كان صنماً من ذهب وأن مساجد المسلمين هي هياكل ملاءى بالتمثيل ! وقد ورد في أغنية اسمها « أغنية أنطاكية » ما يفيد أن ناظم تلك الأغنية قد رأى في تلك الهياكل محمداً بشكل صنم من ذهب وفضة ، راكباً على فيل ، وهذا الفيل على قاعدة من الفسيفساء ، ثم ان الأغنية المسماة بأغنية « رولان » والتي تمثل فرسان شرلمان وهم يحطمون أصنام المسلمين فيها ان المسلمين يعبدون ثلاثاً مؤلفاً من ترفاغانت Tervagant ومحمد وأبولون (كل شيء خطر في البال الا نسبة عبادة الثلاث الى المسلمين) ثم ان قصصاً يسمى قصص محمد Roman du Mohamet ورد فيه ما يفيد أن الاسلام يحيز اشتراك جلة رجال في زوجة واحدة !

وافقد طال أمد هذه البغضاء وهذه الأباطيل كثيراً منذ أيام «رودلف دولودهم»

Rudolph de Ludheim الى أيامنا هذه أيام « نيقولا دو كوز Nicolas de Cuse » و « فيفيس Vives » و « مراشي Maracci » و « هوتنجر Hottinger » و « بيبليندر Bibliander » و « بریدو Prideaux » فقد مثل هؤلاء محمداً كرجل كاذب ، والاسلام كعمل من أعمال الشيطان ، والمسلمين كقوم همج ، والقرآن ككتاب منسوج من أوله الى آخره بالمحالات . وكانوا يزعمهم لا يجدون حاجة الى الأخذ والرد في هذه كهذا . ثم ان « بيير لوفنيير ابل Pierre Le Vénérable » مؤلف أول كتاب في أوروبا ضد الاسلام ترجم مع ذلك في القرن الثاني عشر القرآن الى اللاتينية. ثم في القرن الرابع عشر ظهر « بيير باسكال » فعلم عن الاسلام أكثر من غيره . ثم ان « البابا اينوشانيوس الثالث » قال عن محمد انه المسيح الدجال . ولكن في القرون الوسطى بدأوا ينظرون اليه كرجل مبتدع ممن يقال لهم الهرطقة . ثم ظهر « ريموند لول Raymond Lulle » في القرن الرابع عشر

و« غليوم بوستل » Postel في القرن السادس عشر و« رولان » و« غانييه » Roland & Ganier في القرن الثامن عشر والأب « دوبروغلي » de Brogli و« رنان » Renan في القرن التاسع عشر وكانت أحكامهم في هذا الموضوع متفاوتة ليست على وتيرة واحدة . أما فولتير فقد كان كتب الرواية المسماة برواية محمد وبنائها على غير تحقيق . ثم عاد فصَحَّحَ قسماً كثيراً مما وهن فيه ، وقد ارتكب « مونتسكيو » Montesquieu بعد « باسكال » و« مالبرانش » أغلاطاً كثيرة فيما يتعلق بالاسلام نفسه الا أنه كانت له آراء سديدة وأحياناً عادلة فيما يتعلق بعبادات المسلمين ثم ظهر الكونت « دوبلانفيليه » De Boulainvilliers و« شول » Scholl و« كوسين دوبرسفال » Caussin de Perceval و« دوزي » Dozy و« سبرنجر » Sprenger و« بارثليمي سانتيلير » Barthelemy Saint-Hilaire ^(١) و« دوكا ستري » de Castries و« كارليل » Carlyle وهؤلاء كانوا على وجه الاجال موافقين للاسلام ولنبى الاسلام ، وربما أثنوا عليهما غير أن « دروتى » Droughty في سنة ١٨٧٦ و« فوستر » Foster سنة ١٨٢٢ قد أخننا في الطعن في الاسلام وفي محمد . ولا يزال للاسلام الى يومنا هذا أعداء شديداً والعصية

أما المسلمون فانهم وان كانوا من جهتهم قد درسوا في دور ازدهار المعارف عندهم الديانة النصرانية درساً أشبه بدرس فولتير معتمداً على الأدلة السطحية فقد كانوا هم أيضاً يرمون الى التباعد لا الى التقارب . وكانوا لا يريدون أن يبحثوا في النصرانية من شدة ازدرائهم بها . وقد صاروا يلقبون « بالكافرين » أهل الكتاب وتلاميذ عيسى الذين جاء في القرآن أنهم أقرب الناس مودة الى الذين آمنوا . وحتى هذه الساعة يفضل المسلمون أن يروا أولادهم أمواتاً على أن يروهم مسيحيين

فهذه الحواجز الصنعية غير الطبيعية كان علينا نحن أن نهدمها بأيدينا بازالة الأوهام لأن النور يكفى لازالة الأشباح . ويجب علينا أن نفهم أن العبرة انما هي بروح الموضوع فقط . فالعلاقات النسبية لا تزال الحقيقة المطلقة ، والوحى الالهى يخرج من الأفواه البشرية على حسب الأمكنة والأزمنة . فلا يمكن أن تأتينا الحقيقة دفعة واحدة أو أن تهبط علينا كلها كلمة وانما يحبسها ويكممها فينا استعدادنا النفسى . قال : ولكل من الديانات المنزلة

(١) هذا الرجل قال ان محمداً من أعظم العبقريين الذين أنجبتهم البشرية

خاصة تمتاز بها . فالاسلام مظهره التوحيد وهيمنة الخالق ، وجبروته ورحمته ، والمسيحية خاصتها المحبة ، والوثنية نفسها لا تنكر الالهية ولكنها تراها تحت أشكال أخرى مُبَعَثة مشوهة ، منحرفة عن الصراط المستقيم ، وبالجملة فالنصرانية تتضمن الاسلام وتزيد عليه بعض أشياء ولكن كلتا الديانتين غيرُ منافضة الاخرى كما يُظَنُّ . وكان يجب على أتباعهما بدلاً من أن يتصارعوا ويتقاتلوا أن يتنافسوا في العبادة والفضيلة ونحن نراهم على العكس من ذلك ، لا يشتغلون بمجيد الباري تعالى ، كما يشتغلون بمعادة بعضهم بعضاً

وقد جاء في القرآن شيء من التساؤل عما اذا كان الله نفسه لم يشأ تقسيم البشر مللاً ونحلاً الى حد محدود لكن بدون تعصب وشنآن . فقد قال : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً . وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ) ثم يقول : (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) . وقال : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْذِبُ) . والناس حتى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

ثم أخذ درمنغهم يذكر ما في الاختلاف أحياناً من الفائدة وقال ان المبادئ قد تختلف بالضرورة بحسب الزمان والمكان فيكون اختلافها موافقاً للرقى البشرى . وقد كان الأنبياء بحسب التوراة يتزوجون بزوجات متعدّدات . وكان المسيحيون الأولون يقتاتلون الوثنية والأوثان أشد قتال الا أنهم بعد أن زال خطر الوثنية رجعوا يقدمون للقديسين شيئاً من العبادة وهذا ان بقي ضمن حدود الاعتدال ، لا يخلو مما يفيد الحياة الروحية . ولقد منع الاسلام التماثيل والتصاویر فامتدّت صناعة الاسلام في النقش الى ما لا نهاية له في تمثيل المخلوقات غير الحيّة كما أن النصرانية أخذت بالصناعة اليونانية في تمثيل الأجسام البشرية . وكل من الفريقين أتقن الصناعة التي اعتمد عليها ، فكان من ذلك نتيجة سعيدة جداً في باب المدنية ولم تكن كذلك لو بقيت الصناعة منحصرة في طرز واحد

ثم قال درمنغهم ان الفتوحات الاسلامية كانت جزاء وفاقاً للمسيحية الشرقية التي استرسلت الى المجادلات الدينية وطالما كان في العقاب فوائد ، فان ظهور المسلمين في الشرق أهاب بالمسيحيين في أوروبا الى الاتحاد لأنهم وجدوا أنفسهم تحت الخطر ان لم يصلحوا أنفسهم وان لم ينهضوا عن المستوى الذي كانوا فيه

ثم قال ان القرآن يؤيد دائماً التوراة والانجيل فلا يمكنه أن يناقضهما وقد جاء فيه

خطاباً للنبي : (فان كنت في شك مما أنزلنا اليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك
لفد جاءك الحق فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون
من الخاسرين) ثم ذكر درمنغهم قول القرآن في ابراهيم : (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا
وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) وعلل ذلك بقوله ،
ان ملة ابراهيم هي ملة جميع المؤمنين بالله

ولغد آثرنا تلخيص هذا الفصل من كلام درمنغهم وان كنا لا نوافق على كل ما فيه بتمامه
وذلك لأن فيه معلومات كثيرة جلية يجدر بالمسامين أن يطلعوا عليها ومن جلتها الأكاذيب
التي بقى الافرنج قروناً متطاولة يروجونها في حق محمد ﷺ ليصرفوا أنظار شعوبهم عن الاسلام
ومن جلتها اعتراف المؤلف المذكور برغم كونه مسيحياً كاثوليكياً مؤمناً بدينه ان أكثر
العداوة بين المسيحيين والمسامين انما جاء من قبل المسيحيين . وكأنه يرى ذلك غريباً جداً
من قوم ، يأمرهم متبوعهم الديني بأن يحبوا أعداءهم . ولم يكن درمنغهم الفرنسي هو
الأوربي الوحيد الذي اعترف بأن المسيحيين هم أشد الفريقين عداوةً وشنائاً وان
المسامين أقرب الى التسامح . فقد قرأت هذا في مواضع كثيرة من تآليف الاوربيين ومن
جلتها تأليف اسمه « مائة مشروع تقسيم لتركيا من سنة ١٢٨١ الى سنة ١٩١٣ » للسيو
« دجوفارا » Cent projets de partage de la Turquie (1281-1913) Djuvara
من وزراء دولة رومانيا مصدر بمقدمة بقلم المسيو لويس رينولت Renault من علماء
الحقوق بفرنسة . وقد جاءت في المقدمة وفي الكتاب معلومات هي في الدرجة
القصوى من الأهمية قد نلّم ببعضها في المظان اللازمة . وانما نذكر الآن قول « دجوفارا »
في الصفحة الثالثة من كتابه وهو : « ان أردنا أن نعدل ونقول الحق وجب علينا أن نعرف
بأن هناك عداوة قد نزل بها القضاء بين المسيحيين والمسامين وأثقلت دائماً العلاقات التي بين
الفريقين وانه برغم روح التسامح الديني في العصر الحديث لا يزال خير هذه العداوة بين
هذه الأمم ولا سيما من جهة المسيحيين » وهذا يخالف ما لا يزال يردده بعضهم من ذكر
« التعصب الاسلامي » وضربهم به المثل .

ومن أحسن ما في كلام درمنغهم حسن النية وخلوص الطوية وكون هذا الرجل

عمل بكل ما في قدرته لازالة شدة هذا التنافر الذي بين المسلمين والمسيحيين . ومن يقدر أن لايمجد عملاً كهذا لأن عبادات الأديان بما خالطها من مفساد السياسة ومن مطامع الرئاسة كانت من أعظم المصائب على البشرية . وقد تقل درمنغهم السيرة النبوية عن كتب المسلمين بدون أدنى تحامل ولا تحريف ولا مكابرة ولا محاولة تعمية أو تغطية للحقائق وكان يستنتج ما يريد استنتاجه بحسب ما يؤديه اليه اجتهاده ولكن بدون غرض ولا خبث وفي صفحة ١٨٣ ذكر أنه وان كان بعضهم يعيب محمداً بشدة ميله الى النساء فانه مما لا مشاحة فيه ان محمداً لم يكن شرهاً ولا غفوراً ولا متعصباً ولا منقاداً للطامع ، بل كان حليماً رقيق القلب عظيم الانسانية وأحياناً متردداً اذا لم يكن ثمة عنده ما يعتقدوه وحياً الهياً اليه . وكان بشوشاً دمث الأخلاق حسن العشرة ساذج المعيشة يكنس غرفته بيده ويصلح ثيابه ، ويخفف نعله ، ويحلب شياهه ويضطجع في أرض المسجد وينهض ويفتح الباب لأجل هرّة تريد أن تدخل ، ويعالج ديكاً مريضاً ، ويمسح ببردته عرق جواده ويوزع الصدقات بمجرد ما يدخل في يده شيء من المال ويتجنب كل شيء يظهر فيه بمظهر ملك دنيوى . وكان يمنع الناس أن يجعلوه سيداً ولم يكن عنده لا بلاط ولا وزراء ولا شيء من أهبة الملوك وانما كان عنده بعض أعوان يستشيرهم وبعض كتبة يكتبون له وخاتم من فضة منقوش عليه محمد رسول الله

وقال أيضاً ان محمداً كان يقضى أكثر أوقاته في الصلاة سواء في الخلوات أو الجلوات وفي الوعظ وفي الشغل ويقضى نصيباً من وقته مع نسائه ولم يكن يكره التسلّي والتفريج عن القلب ، وفي ذات يوم عرض على عائشة أن تذهب وتشاهد أناساً من السودان يلعبون بالسيف والترس فذهبت عائشة بجانبه وتسلت بهذا المشهد وكان عمر أراد أن يطرد هؤلاء اللاعبين فانتهره محمد وقال له : دعهم فلكل أمة أعياد وملاهي وهذا هو عيادنا اليوم . وكان أبو بكر أراد منع جاريّتين من جواري المدينة من الغناء أمام عائشة لقصائد فيها ذكر الحروب الماضية الا أن محمداً خالفه في ذلك وسمح بالغناء . وكان محمد يحب الأطفال كثيراً ويلعب معهم ويترك أولاد بنته يركبون على ظهره حتى في الصلاة ويلعبون على المنبر وهو يخطب . وكانت مرة فتاة صغيرة لابسة قميصاً أصفر تلعب بين يديه وهو يداعبها ويمدح لها ذلك القميص ويستحسنه فالت اصبعها الى ما بين منكبيه ولمست الشامة

التي يقال لها خاتم النبوة قاتهرتها والدتها فقال لها محمد دعيتها . وكذلك كان يحب أن يضع الحلى للبنات الصغار وقد وضع مرة عقوداً وأسورة ليتيمين من المدينة وتأسف أن لا يكون أسامة بن زيد الحب فتاة فكان يغطيه في الحلى من رأسه الى قدمه وكان يعجب من كون أهل البادية لا يقبلون أولادهم وكان يقول ان البنات يقين والدهن من نيران جهنم . وكان أنس خادم محمد مدة عشر سنوت ملازماً له وكان يذكر عجيب صبره ويقول انه ما وبخه ولا مرة وكان حسن العشرة مع الجميع حتى مع الذين لم يكن رأيهم فيه حسناً ولم يكن ينطق بكلمة غليظة أصلاً . وكان بابه مفتوحاً للجميع الا أنه كان يحب أن يحافظ على خلواته وقد نهى القرآن عن الدخول على الرسول بدون اذن وعن مناداته من وراء الجدران . (يشير

درمنهم الى ماورد في سورة الحجرات : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْعُضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَلِتَتَّقُوا لَهُمْ مَعْفِرَةً وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

ومما قاله وهو بحث جليل أشار اليه ابن خلدون في مقدمته وهو ان سلطة النبي برغم علو منزلته عند العرب لم يكن من السهل اجراؤها دائماً على تلك الأقوام التي هي بفطرتها صعبة القيادة . قال انه قل أن يوجد في البشر رجل مطاع كما كان مطاعاً محمد . ولكن العرب المعتادين الفوضى لم يكونوا يعلمون شيئاً من النظام وكان يصعب عليهم جداً الانقياد فكان من معجزات محمد أن جمعهم جميعاً في دائرة الاسلام . وكان في المدينة المنافقون الذين كانوا في الباطن أعداء للرسول وكان الأنصار الذين لم يكونوا يتفقون دائماً مع المهاجرين وسواء كان الأنصار أو المهاجرون فكان الجميع لا يأتلفون مع الأعراب أهل الوبر وكانت المنافسات والمفاخرات والنخوة سبباً للمخاصمات المستمرة وكذلك كانت تقع المخاصمات من أجل الدعاوى المالية ومن أجل تقسيم الغنائم وكان محمد يصلح جميع هذه الأمور اما بالوحي واما بحسن السياسة . وكانت نزاهته الشخصية مثلاً يقتدون به . وكان محمد شديد الاهتمام بالأعراب وكثيراً ما عني بايطانهم المدينة وكان يطالبهم بأن يسكنوا في المدينة ولا يعودوا للبادية واقتنى أثره في ذلك الخلفاء الراشدون فكانوا يشدون على البوادي واذا سكن

أحدهم في المدينة لم يسمحوا له أن يرحلها حتى قيل ان بدوياً انتحر من شدة حنينه الى نجره . وكان النبي يخشى على امته ما يقال له « اللبن » أى عيشة الرعاة وبعبارة أخرى البداوة . فأنت ترى كم ظلم بعضهم الاسلام في اتهمهم اياه بالميل الى البداوة . وطالما أطرى الرسول معيشة المدينة برغم الحنى التى كانت فيها والتي اشتكى منها المهاجرون كثيراً . وطالما تحمل النبي من غلظة البدوى وصبر عليها وقيل ان أحد البدو بال في المسجد فأرادوا أن يضربوه فنهاهم الرسول وقال لهم دعوه وصبوا سطل ماء حيث بال . وجذبه مرة اعرابى^١ جذبة شديدة آذاه بها قائلاً له قل لهم يعطونى نصيباً من مال الله الذى بيدك فالتفت نحوه الرسول باسماً وقال لهم ليعطوه نصيباً . ولا شك في أن البوادي من أبعد الناس عن الديانة وقد ورد هذا المعنى في القرآن كثيراً ولذلك سكان الحواضر أقرب الى الاسلام من سكان البوادي .

ومما قاله درمنغهم : قال محمد ان الشهيد هو الذى يبذل نفسه في غير امور الدنيا وقال أيضاً : الجنة تحت ظلال السيوف . وقال بولس ان الموت هو العدو الأخير الذى سيهدم ولا شك ان الأديان انما تركو وتنمو بدماء الشهداء فالاسلام في آخر الأمر اختار الجهاد بالسيف لأجل نشر دعوة الحق ولم يكن محمد من الكويكر^(١) بل كان يرى ان من الأشياء مالا مناص فيه عن الجهاد والقتال وانه في هذه الدنيا الملائى بالشرور لا يكون استعمال القوة القاهرة غير جائز الا اذا كان مبنياً على الظلم والبغضاء وليس من الممكن أن يقف الانسان مكتوف الأيدي أمام الشر الصائل . وقد بقى المسلمون مدة عشر سنوات يتحملون ألوان الانتقام في مكة وأخيراً اضطروا الى هجرة وطنهم وسكنوا المدينة . وكانت قريش تأتمر بمحمد لتقتله وتتحدث بمهاجة المدينة للقضاء عليه وعلى الاسلام فمن ذلك الوقت وجب على المسلمين أن يقتلوا ويقتلوا وصار القتال في سبيل الله من أفضل القربات ومن طرق الشهادة (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فيقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون) ولا يخالو الأمر من مشابهة بين المسلمين الأولين والمسيحيين الأولين في الاستباق الى الشهادة ولا شك في ان الشهيد المسيحى الأول القديس اتيانوس الذى كان يدعو لغاتليه يستحق من الاعجاب أكثر من الشهيد المسلم الأول خبيب

(١) طائفة انكليزية تريد الوصول الى الحق بسلام

الذى كان يدعو على أعدائه (ان الرسول طالما دعا أيضاً لأعدائه أن يهديهم ويردهم الى الصواب) ولكن الفريقين كانوا يموتون في سبيل ايمانهم معتقدين بأنهم سيكونون شهداء فالمبدأ واحد ولكن الأحوال مختلفة . ففي السلطنة الرومانية كان المسيحيون الأوائل في بلاد متمدنة ذات ادارة منتظمة رعايا لفيصر الذى أوصاهم المسيح بأن يعطوه ماله فكان لابد لهم من أن ينقادوا لأحكام الدولة كما انقاد سقراط نفسه لحكم دولته . فأما في بلاد العرب التى كانت فوضى وكانت كلها قبائل فى قتال دائم ولم يكن الواحد يخرج الا متقلداً سيفه أو متكباً قوسه فكان لابد بضرورة الحال من أن يلجأ المسلمون الى القتال اذ لم يكن أمامهم غير الأسنة مركباً . وهنا نقل درمنغهم كلاماً عن الميسو ماريتين Maritain فى كتابه « أولية التأثير الروحى » وهو ان المسيحيين فى القرون الأولى من النصرانية لم يكونوا يفكرون فى هدم السلطنة الرومانية لأنهم كانوا عاجزين عن اقامة سلطنة مسيحية مكانها . فلذلك لم يكونوا يفكرون الا فى الحياة الأبدية وفى مصالح الآخرة فكانت ثورتهم عقيمة لاثمرة لها الا مجرد الاضطراب الداخلى فلم يبق أمامهم الا نيل الشهادة وهو فى الواقع أحسن حل للسألة فى مثل تلك الحال التى كانوا فيها .

وكان محمد يقول يجب أن يتم هذا الأمر حتى يقدر الفارس أن يسير من صنعاء الى حضرموت بدون أن يخشى شيئاً سوى الله على نفسه والذئب على غنمه . ولم تكن قضية الجهاد ترمى الى هداية البشر تحت التهديد بالسيف كلا بل جاء فى القرآن : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) . وجاء فى القرآن النهى عن الاعتداء . وكل ماورد فيه مما يتعلق بالجهاد فى آيات متعددة متفرقة هو موقوف على حوادث خاصة معينة وقعت مع النبى وأصحابه . ولا يكون موافقاً للواقع أن يتخذ منها قاعدة عامة يجب تطبيق أحكامها على جميع الأحوال . وبما لا ينكر أن الجهاد قد دخل فيه مطامع فى غير الجهة الروحية واتخذ بعض المسلمين وسيلة لكسب حظوظ الدنيا ولكن القرآن يقيم التنكير على هذه الأمور وان كان يسمح بمقابلة الشدة بمنها . وكثيراً ما حلم محمد وعطف وتجاوز عن السيئات . وفى ظفره الأخير قد أظهر من علو النفس ما يندر نظيره فى التاريخ وكان يأمر جنده بأن يتجنبوا الضعفاء والأطفال والشيخوخ والنساء ويحظر عليهم أن يهدموا البيوت أو أن ينتهبوا الغلات أو ان يقطعوا الأشجار المثمرة وكان يأمرهم بأن لا يسولوا السيوف الا عند الضرورة المطلقة

وكثيراً ما أنكر أعمال بعض أتباعه وجبر مما كسروه وكان يقول لأن يهدي الله نفساً واحداً خير من جميع مكاسب الدنيا (لأن يَهْدِيَ بِكَ اللهُ رَجُلًا وَاحِدًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ). وكانت الغنائم في ذلك الوقت هي نتيجة الحرب الطبيعية وكانت هي والتجارة ورعاية المواشي جميع منابع رزق العرب فبديهي أن يكون محمد أباح الغنائم للمسلمين في حال ضعفهم ولكنه قد جعل للغنائم قواعد وخصص جانباً عظيماً منها بالصدقات وبميرة الجيش وحظر في تقسيم السبي فصل الاولاد عن امهاتهم ولم يكن في وسعه أن ينقل العرب عن طباعهم التي فطروا عليها دفعة واحدة وانما كان يهذب منها بقدر امكانه وثيراً ما كان يحض على العفو عند المقدرة وقد روى عنه حديث ان الذي يغفر السيئات يقرب من درجة النبوة . ولا ينكر أن كثيراً من الصحابة أصبحوا أغنياء وافرين مما غنموه من كنوز الاكاسرة وفتح مصر وغيرها وكان أناس من البدو قد أصبحوا بتلك الفتوحات يلعبون بحلى الملوك الساسانيين وقيل ان الزبير بن العوام مات عن تركة تبلغ نحواً من خمسين مليوناً^(١) وكان الرسول يقول لأصحابه وهو يفكر في المستقبل ما أخشى عليكم من شيء مثل مكاسب الدنيا الفانية . ولما قتل مصعب بن عمير في وقعة أحد كان من الفقر بحيث لم يجدوا ما يكفونونه به الا خرقه قصيرة لم تكن لتواري من بدنه الا القسم الأعلى ففطوا سائر بدنه بالعشب . وذكر عند عبد الرحمن بن عوف فقال ، كان خيراً منا نحن الذين أقاض الله علينا من خيرات هذه الدنيا افتراه تعالى اكتفى لنا بها عن الآخرة ؟ وأخذ يبيكي

ثم ذكر درمنغهم في صفحة ٢٧٣ قول « غوته » أكبر شعراء الالمان وهو « ان كان هذا هو الاسلام أفلسنا كلنا مسلمين ؟ »

(١) الصحيح أن الزبير رضى الله عنه لم يترك الا أراضى أمر ولده عبد الله بأن يطرحها للبيع لا يفاء ديونه وكان عبد الله ابن الزبير يظن أن ثمن هذه الأراضى لا يكفي لا يفاء الديون التي كانت علي أبيه الا أنه عند بيع الأراضى كانت أثمانها قد ارتفعت كثيراً فتمكنوا من ايفاء جميع الديون وبقي شيء من الأراضى لورثة الزبير . وكان عثمان ابن عفان وطلحة وعبد الرحمن ابن عوف وغيرهم من الصحابة أصحاب يسار تام وكانت لهم عقارات وأموال ومواش تجعلهم في صف الأغنياء حتى في هذا العصر ولكنهم برغم هذه الثروة كلها لم يكونوا يعيشون معيشة التمتع المعروفة للمتزين بل كانوا ينفقون أموالهم في الدين والبروة والرصد وقضاء مغارم التضعضاء

ثم قال : لا جرم ان محمداً قد نهض داعياً العرب الى الدين الوحيد اللائق بالاله الواحد ليوقظ بدينه هذا جانبا من آسية وافريقية وليحطم قيود التقليد ولينبّه فارس التي كانت نائمة ونصرانية الشرق التي كانت ممزقة بالمجادلات الدينية . ولا جدال في ان الأنبياء في العالم هم أشبه بالقوى الطبيعية العظيمة المحسنة الهائلة التي هي من قبيل الشمس والمطر والزوابع التي تهز الأرض ثم تعطيها خضرة ونضرة . فيجب على الناس أن يعرفوهم بشمرات أعمالهم وأصدق الشهود عليها هي الصدور الناجحة باليقين والقلوب المطمئنة والعزائم الناهضة والنفوس الصابرة على البلاء والاسقام الأدبية الزائلة والصلوات الطاهرة الصاعدة الى السماء .

وهؤلاء الأنبياء منفردين بدون قوة مادة وبدون أيدٍ — سوى الأيدِ الإلهي — وبرغم مقاومة الكبر البشري لم تجد لهم يأتون بكشف سر الحرية في أسمى معانيها يقولون بطاعة الخالق لا الخلق وبالمساواة التامة امام الخالق تعالى وبتقديم المعنى على اللفظ . وهكذا ظهر محمد لا يعرف شيئاً من العلوم غير العلم الأعلى أمياً طاهراً ساذج الطبيعة طليقاً من قيود الأوهام ، فدعا العلماء أن يفهموا ما يقولون ونبه الذين يقال انهم حكماء الى سلوك السبل المستقيمة وكان الناس اذا سمعوا ما ينطق به مثل : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا) يعودون فيلمسون سر الحياة الذي يحيط بهم متواضعين لله تعالى متوجهين اليه ويعلمون هناك قاعدة تفرق بين الطاعة والمعصية مما يعجز عن الأتيان بمثله الفلاسفة ومدبرو الممالك .

قال درمنغهم : ان محمداً جاء في أشدّ الأعصر ظلمات حينما كانت المدينيات باجعتها قد تداعت الى الخراب من بلاد الغال الميروفنجية الى بلاد الهند وكان الاضطراب شاملاً قسمي محمداً^(١) وتلقب بالنبي الأمي . وكان يرى نفسه أداة للوحى ومبلغاً واعياً يسمع ما يلقي اليه من فم الشخص النوراني الذي يشاهده ومن الصوت الذي يسمعه فيلقيه الى الناس (ما على الرسول الا البلاغ) وهذا الوحى هو الكلمة الالهية القديمة التي هي « أم الكتاب » المحفوظة في السماء السابعة تحرسها الملائكة المسبحون وانما اتخنت بالقرآن قالباً أرضياً — الى أن يقول : اتنا نرى القرآن نازلًا بحسب الوقائع موحى به يوماً فيوماً وشيئاً فشيئاً وفقاً

(١) اشارة الى ما ورد في التوراة من مجيء البارقليط الذي اسمه أحد

للضرورات المتجددة ولمصلحة الأمة وكثيراً ما نسخ منه الآخر الأول بحسب ضعف البشر واجابةً لرغائبهم وعلى كل حال فكانت الرسالة في نظر محمد أسمى من الرسول وكانت سورة واحدة من كلام الله أفضل من النبي وعترته . ولما كان لكل نبي معجزة كانت معجزة محمد القرآن .

وما لا يقبل المرء ان في القرآن من سحر البيان مالا يوجد في كلام غيره على الاطلاق وان فيه من قوة التأثير والعمل في القلوب مالا يبرح الى اليوم سرّاً مغلفاً حتى انه يقنف بالخشوع في قلب أقل الناس خشية وأبعدهم عن التقوى . وكان محمد يتحدى عبقرية العرب أن يأتوا بسورةٍ من مثله . ولم يكن اعجاز القرآن في مزيته اللغوية من جهة ما يسمى اليوم بالأدب بل كان هذا الضرب مما يحتقره محمد وكان يكره الشعراء ويبرأ أن يكون منهم وانما كان اعجاز القرآن في شدة التأثير وعجز الناس عن الاتيان بمثله

قال درمنغهم : انه لم يبق أدنى شك في صدق محمد . فان جميع حياته برغم بعض أغلاط قد اعترف هو بها تدل على كونه معتقداً بكلية الرسالة التي عهد بها اليه وأنه وجد من الواجب عليه أن يقوم بهذه الرسالة مهما آده من حلقها . وأن جميع ماظهر من هذا الرجل من قوة ايجاد وتناهي عبقرية وحدة ذكاء ومواجهة تامة للحقائق وضبط نفس وشدة ارادة وحسن تدبير واتقان عمل وبالجملة جميع حياته تمنع من أن ينظر الى هذا الملهم الصافي الذهن كرجل مصاب بصرع . اهـ

يشير درمنغهم بهذا الى مايزعمه أعداء الاسلام من كون حركة الوحي التي كانت تحصل للنبي ﷺ انما هي من علة جسمانية فيه قال بعضهم انها مرض الصرع . ولكن أكثر الاور بين اليوم رجعوا عن هذه الفكرة وعلموا أن ﷺ لم يكن مصاباً بمرض الصرع ولا بمرض عصبي آخر وأنه كان معتدل المزاج كامل الخلقة لاشائبة فيه ومن جملة من صرح بهذا القول المستشرق ماسينيون الافرنسي الذي هو كاثوليكي النزعة مثل درمنغهم . أما ما ذكره درمنغهم من أن للنبي أغلاطاً كان هو يعترف بها فالمسلمون يقررون العصمة للنبي وجميع الانبياء صلوات الله عليهم وذلك في الامور الدينية وهم ينزهونهم عن الكبائر . فوجب ايضاح العقيدة الاسلامية في هذا الشأن . وأما الكاثوليك فيجعلون العصمة للبابا في الامور الدينية شرطاً من شروط دياتهم

ثم قال درمنفهم : ان محمداً لم يكن يلتزم أن يجذب قومه الى عقيدته بجميع الطرق ولم يكن همه أن يسهل عليهم الامور ليتبعوا دعوته وانما كان يبلغهم رسالته لامة كالسيف القاطع وكان يفرق بينها وبين آرائه الشخصية . ويقول بعضهم انه لم يكن في المدينة النبي الخاشع الصابر الذي كان بمكة . وجواب هذا ان الاحوال قد تتغير وانه كان حتماً عليه أن يغير من خطته لاجل تثبيت دعوته . وربما يكون أخطأ في بعض أعماله لأن العمل غير النظر واسكنه على كل حال بقي صادقاً في دعوته ثابتاً متيناً وان كان قد أخطأ فانه لم يكذب قط . وكيف يكون قد كذب ورسالته كانت تتأيد كل يوم وتثمر ثمرات لا تكون الا للحقائق .

قال وكانت عظمة محمد الحقيقية هي العظمة الآتية له من الله بالا الهام الالهي الذي كان يقذف في روعه . وأما فيما عدا ذلك فكان يشعر بضغفه وعجزه . وكان يتهدج الليل ويستغيث بالله ويسأله تعالى دائماً أن لا يخذله . وقالت له زوجته أم سامة مرة : لماذا لا تقتل تقول هذا والله قد غفر لك ما تقدم وما تأخر من ذنبك . فاجابها : كيف لا أخشى الله وقد تخلى مرة عن يونس . وكان يدعو الله قائلاً : اغفر لي ذنوبي الحاضرة والماضية والظاهرة والباطنة وطهرني من آثامي تطهر اللج واغسل قلبي كما يغسل الثوب واجعل بيني وبين الائم مسافة ما بين المشرق والمغرب .

وكان يلقي الى الناس ما يوحى اليه من القرآن من التوبيخ في مثل قصه الاعمي (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهَ يَرْكَبُ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ الَّذِي كَرَى أَمَّا مَنْ اسْتَفْنَى فَآَنَتْ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَحْسَى فَآَنَتْ عَنْهُ تَلَهَّى) وفي مواضع أخرى مثل حديثه في خطاب أعدائه وغير ذلك .

ولقد تفنن بعض علماء النفس من الاوربيين في تفسير حالة محمد والوحي الذي كان يلقي اليه فذهب بعضهم الى أنه صرع وذهب آخرون الى أنه شدة تخيل وكلهم غفلوا عن الوسط الذي كان فيه وعن معيشة الخيم في البادية ونسوا مقتضى البيئة التي كان فيها وما من شك في أن محمداً كان الى وقت بعثته كسائر الناس ليس فيه شذوذ في شيء وكان مزاجه بغاية الاعتدال وكذلك كان بعد البعثة في غاية التوازن الا ما كان يحصل له من التغير عند نزول الوحي .

وهذا شيء غير خاص به بل معهود في جميع الالهيين الحقيقيين وفي أنبياء بني اسرائيل . وقد كان ارمينا يقول : أرى قلبي قد تدسّر وجميع عظامي مضطربة وأراني كالسكران وذلك بسبب الاله والكلمات المقدسة . وكذلك كان عمّوس وهو مدّثر كما كان محمد مدثراً يقول الكلمات نفسها . ولم يكن يرى محمد تلك المرائي لأنه كان مريضاً بل كانت تحصل له تلك الحالة العصبية من بعد تلك المرائي . ولا شك أنه يوجد تشابه بين المرضى بالامراض العصبية وبين أصحاب المكاشفات من الالهيين الحقيقيين . ويمكن أن يقال ان البنية الضعيفة هي أكثر استعداداً للأحوال الروحية كما أن هذه الأحوال تزيدها ضعفاً . ولكن لم يكن يوجد أثر من هذا الضعف في محمد وبقى الى أن بلغ الكهولة من أكل الناس صحة وأقواهم جسماً . فلم يكن يشعر بشيء الا ما كان يحصل له من التغير في حالة نزول الوحي ، نعم حصل له مرتين أو ثلاثاً شيء من ضربة الشمس على أثر السفر في الضحى وكان هذا يزول بالحجامة أو بالعلق . أما الوحي فكان يحدث له ألماً شديداً كثيراً ما كان يتجلّد له ويخفيه عن الناس بقدر امكانه فلحظ أبو بكر مرة الشيب قد بدأ في لحيته فقال له محمد : انما هي هود والحاقة والقارعة وأخواتها هي التي شيدتني . وكان يحصل له بعد الوحي ثقل في رأسه يعالجه بالذقات والمراهم ، وكان اذا أحسّ بدنو الوحي يغطّي نفسه ويتنفس تنفساً شديداً ويسمع له غطيظ وتحصل له شدة . واذا كان حتى في الشتاء يتصبب منه العرق . وطلب يعلى بن أمية من عمر أن يريه النبي في حال نزول الوحي فجاءه الوحي وهو في الطريق الى مكة وكان أحدهم ألقى سؤالاً عن مناسك الحج فلم يُحر محمد جواباً ثم لم يلبث أن جاءه الوحي وتغطى بغطاء فدعا عمر يعلى بن أمية ورفع الغطاء عن النبي فاذا به يتنفس تنفساً شديداً ووجهه شديد الحرارة . ولما فطم عنه نهض وقال : أين الرجل الذي ألقى على السؤال ؟ ثم أخذ يتلو الآيات النازلة عليه حينئذ وكان نزول الوحي عليه يختلف في الشكل فكان يسمع أحياناً كصلصلة الجرس أو كخفيف الأجنحة أو كدوى غير مفهوم تماماً ولم يكن يعي كل ما يسمع الا بعد انقطاع تلك الجلمية وكان هذا أشده عليه وأغربه مظهراً ، وأحياناً كان الملك يأتيه بصورة بشرية ، كصورة دحية الخلبي وكان من أجل أهل زمانه أو كصورته هو ، وكان يلقي عليه القول فيفهمه بدون عناء ، فكان الوحي بالاجال على شكلين وقد نهى محمد في القرآن عن أن يُحرّك به لسانه ويُجهد نفسه ليعي تماماً الآي التي كانت تلقى عليه

ولم يكن محمد هو الذى صنع القرآن ، ولا كان مُختاراً فى تنزيل الوحي بل كان يطول عهده به ولا يرى شيئاً . وطالما تمنى أن يأتيه الملك فلم يأتِه

الا أن درمنغهم يعتقد مايعتقده غيره من الاوروبيين من أن القرآن كسائر الكتب المنزلة لم يحرر الا بعد نزوله بكثير وانهم جلاوا الناس على نسخة واحدة من المصحف وأحرقوا ما عداها وان كثيرا من الآيات لم يقع فيها الترتيب اللازم وانه لا يعلم بالتمام هل أدخل فى القرآن شئ من الحديث النبوى الذى قاله الرسول من نفسه لا على أنه وحى . وروى أن جعفر قال : انه كان فى القرآن أسماء سبعة رجال من قريش فلم يبق منها الا اسم أبى لهب . ثم ان الشيعة يتهمون أهل السنة بأنهم حذفوا من القرآن كل ما كان فيه من الآيات الموافقة لعلى ثم أنهى درمنغهم كلامه فى هذا الموضوع قائلاً انه لا يقدر أن يحزم فى هذه المسئلة وانه على وجه الاجال يرى المصحف الحاضر صحيحا لا شائبة فيه . الا ما يتعلق بترتيب الآيات والسور . ولكنه لا يرى الأحاديث النبوية كلها صحيحة ويحزم بأن قسما كبيرا منها موضوع وهذا يوافقه فيه كثير من المسلمين

ثم انه يقول ما يلى : ان محمداً لم يكن يقول فى الصفات الالهية ما يقوله المتكلمون أو اللاهوتيون من التعليقات الطويلة بل كان محمداً ثملاً بالاله لا يرى حقيقة غير الله فالله عنده هو الحقيقة وهو واجب الوجود . ولم يكن العرب ينكرون وجود الله وانما كانوا يتخيّلونه بعيدا عنهم ويتخذون له وسائل من هؤلاء الأصنام فجاء محمد وقلب ذلك الاسلوب فى العبادة وجعل الله حاضرا أمام العقول بدون واسطة وردت تلك الوسائل من أصنام وجنة وملائكة الى الوزراء وعلم الناس أن الله أقرب الى المرء من حبل الوريد . وكانت عقيدته أنه لا بد من وجود ثابت فى وسط تقلبات الحوادث وكأن خالد يهيمن على جميع ما يقع فى هذا العالم ولا حول ولا قوة الى باله وانا لله وانا اليه راجعون والله أكبر والله الأول والآخروالباطن والظاهر والأحد والحي القيوم ، القادر الخالق ، العلى الكبير ، المالك المجيد ، ذو الجلال والاكرام ، العظيم القوى الصمد ، الحكيم القدوس ، أحكم الحاكمين ، المنعم ، الأبدى ، الوارث ، الشاهد ، المدبر ، الهادى ، الأمين ، الحافظ ، الناصر ، المعطى ، الرزاق ، سميع الدعاء الحاسب ، القابض ، الباسط ، العفو ، الغفار ، الرحمن الرحيم . وكان من عقيدة محمد أن الانسان عاجز عجزاً تاماً أمام الله تعالى وانه لا عذر له بين يديه ولكن الله تعالى يعفو

عن كثير وقد كتب على عرشه أن رجته غلبت نعمته وهو يغفر لمن يغفر ويسر رجوع آثم واحد الى الهدى كسرور اعرابي فقد بعيره في الفلاة وما زال في أثره الى أن وجده أمامه . ومن عقيدة محمد أن الانسان لا يوجد في هذه الدنيا الا لعبادة الله تعالى وأن الله غني عنه وأنه يجب عليه أن يطلب وجه الله تعالى في كل شيء وان كل شيء هالك الا وجهه تعالى وان في اشراق النور الالهي على الانسان سلام النفس الداخلي ورضاها ورضي الله تعالى وأن أصل ذلك كله الايمان وان الوصول الى هذه الحالة يكون بالصلاة وبالاشار أي باعطاء ما يعز على الانسان ولو كان به خصاصة

ولئن لم يكن القرآن يقول ما قال يُوحنا : ان الله كله محبة فلم يكن محمد يهمل قاعدة أن الله تعالى يحب مخلوقاته كما تحب الأم ولدها . وكان يقول ان الله يُضاعف الحسنات مائة مرة وقد جاء في القرآن : « اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » وكان عنده أن الايمان بدون المحبة وبدون الأعمال يكون ايماناً ميتاً . وكان ينهى عن الغضب والبغضاء والحسد والكبر والغيبة وكان يقول ان أحسن الناس أكرمهم لفيظه « وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » وكان يقول ان المسلم من سلم الناس من لسانه ويده . وكان يقول ان المهاجر هو من يفر بما حرم الله ؛ وكان يقول احبوا بعضهم بعضاً في ذات الله ؛ وكان يقول ان العبد ينال رضا الله بالمحبة وانه تعالى قريب من الداعي اذا دعاه وانه رءوف رحيم . وكان يدعو ربه ويقول في دعائه : انني أُلجأ اليك من ضعفي وعجزى أنت يا أرحم الراحمين وملجأ الضعفاء الى مَنْ تَسْكُنِي ان أنت خذلتني . وكان عنده أن الدين الحق هو العبادة بالعقل وأن الأعمال انما هي بالنيات وان الذي لا يريد أن يترك الكذب ولا يظهر نفسه فأنه في غنى عن صيامه وجاء في القرآن : « لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِمَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » وجاء في القرآن بشأن الضحايا والقرايين « ان ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » . وكان محمد يقول : انصر أخاك ظالماً أو مظلوما قيل له

يارسول الله فكيف تنصره اذا كان ظالماً . قال : نَزَدَعُهُ عَنْ ظَلَمِهِ . وكان مرة عائداً من غزاة جاهد فيها المشركين فقال رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر في أنفسنا . وقال : يجب أن يحب الانسان جميع الناس وجميع المخلوقات فان أصغر الطير يسبح باري السماوات والأرض يسط جناحيه

وقد أثرت مواعظ محمد هذه في العرب تأثيراً عظيماً وأحدثت انقلاباً كبيراً في المجتمع العربي وفي البيئة الصحبية وارتفع شأن المرأة عما كانوا عليه وأبطل البغاء وأبطلت المخادعة ولم يبطل الرق ولكن وضعت له شروط . وجعل محمد عتق الرقاب من أعظم الفضائل وقال من أعتق رقبة فان الله يعتق من النار جميع أعضائه . وكان يقول عبيدكم اخوانكم فاطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تحملوهم فوق طاقتهم . وكان ينهى عن أن يقال عبيد وكان يقول لا مؤلى غير الله . وسأله سائل : هل عند الله ثواب على الرافة بالحيوانات ؟ فقال له : نعم ، يثيب الله كل من يروى ظمأ مخلوق ذى قلب ومن حفر بئراً فله ثواب لكل بعر يشرب منها . وطالما نهى محمد عن العنف في سوق الدواب وعن قتل الحيوانات الا لموجب . وذكر ابن عمر من أقواله أن الحيوانات يحضرن يوم القيامة للشكوى من ظلمهن وان امرأة تحدشها هرة في النار بلا انقطاع لأنها أغلقت عليها الباب حتى ماتت جوعاً وان مومساً تدخل الجنة لكونها سقت على حافة بئر كلباً كان سيموت عطشاً .

وقد أقبل المتكلمون والأخلاقون والمتصوفة والفقهاء على أقوال الرسول ومواعظه فأخذوا منها أسس تعاليمهم كل فريق في الجهة التي سار فيها ولكنهم بقوا واضعين القواعد العامة نصب أعينهم . واذا كان وقع بينهم اختلافات فلأنهم قد اعتمدوا على أحاديث مختلفة وكل فريق صحح الحديث الذي يرويه . مثال ذلك القدرية والجبرية في اختلافهم كل فريق يجتهد أن يتوكل على شيء من القرآن والسنة . وهذا بعينه قد حصل بين المسيحيين فتجد في هذه المسئلة الاختلاف بين اللاهوتيين مثل توما الاكوييني وبوسويت والجانسينيين والمولنيين (١)

(١) الجانسينيون Jansinistes نسبة الى جانسين رجل هولاندى كان أستاذاً ليلم اللاهوت في باريز في أوائل القرن السابع عشر وله كتاب اسمه « اوغسطينوس » اشتغل في تأليفه نحواً من ٢٠ سنة وشرح فيه مذهب القديس اوغسطينوس في النعمة (اللطف المخزون) والاختيار وعقيدة القضاء والقدر وكان

فالفقرآن يقول ان كل شيء من الله ولكنه ينسب الشر الى ضلال الانسان وقد تجد فيه ما يقوى حرية الانسان وتجد فيه ما يخالفها . فهنا طرفا السلسلة التي لم يقدر الناس الى اليوم أن يعرفوا الحلقات المتوسطة بينهما . ولأن كان الماسمون لا سيما في عصر الانحطاط أخذوا يميلون الى القول بأنه لا خيرة للانسان في أعماله فالحقيقة أن القرآن لا يقول بالجبرية وسأل اعرابي محمداً هل يعقل نفاقه أم يفلتها متوكلاً على الله فقال له : اعقل وتوكل وكان اذا قيل له : اذا كان كل شيء مقدراً عند الله من الأزل فما فائدة السعي ؟ يكون جوابه : اسعوا فيسهل الله لكم الأمور . وبعبارة أخرى : أعن نفسك يعنك خالقك

ومن المأثور عن النبي ﷺ اعْمَلْ لِلْآخِرَةِ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا وَعْمَلْ لِلدُّنْيَا كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا . فهذه في الحقيقة هي الحكمة وهي جاع الفضائل كلها . ومن أقوال النبي ما معناه ان أفطن المسلمين هو من فكر في أمر الآخرة واستعد لها لما وراءها .

ومن الناس من يقابل الآداب الاسلامية بالآداب المسيحية ويجد هذه أروع من تلك ولا شك أن الاسلام أسمح من المسيحية فيما يتعلق بميول الجسد . وهو لا يطالب الانسان بالمبالغة في قهر نفسه وهو يرى الصلاة أحسن وصولاً الى الله اذا صدرت عن رجل متمتع بلبذاته المشروعة . الا أن هؤلاء الذين يرون الطهارة المسيحية أعلى درجة من الطهارة الاسلامية ينسون تقسم زهاد المسلمين في الطهارة وانهم لا يقولون في هذا الأمر عن أحد من نساك الملل الاخرى . وكذلك ينسون تحريم الاسلام للخمر وفرضه صياماً أشد من كل صيام آخر وتشديده على النساء في صيانة عفتهم وفي ملابسهن ما لا يشدده دين غيره . وفي هذه المقاييس بين الأديان لا يجوز الاكتفاء بالنظر الى المبادئ نفسها بل يجب النظر أيضاً الى أحوال الزمان والمكان . فلما كان المسيحيون في أواخر الدولة الرومانية المنغصة في الترف كانوا يتجنبون الشهوات التي ابتلى بها غيرهم . ولما ظهر الاسلام على يد أولئك الأعراب البداة الذين كانوا في شدة من العيش أسرعوا في اللذات بقدر سذاجتهم الا أنه

مذهبه هذا موافقاً لمذهب المصلح البروتستانتي كلفين وغير مطابق لحرية المرء في الاختيار وقد تبعه في ذلك علماء مشاهير منهم باسكال من أعظم المبشرين الذين ظهروا في فرنسا . وكان مولين اليسوعي يقول بخلاف قول جانسين فانقسم اللاهوتيون الى قسمين واشتد الخلاف وطال ودخل في أدوار مختلفة ولكن الكنيسة قضت على العقيدة الجنسينية)

لما تكون المجتمع الاسلامي وتأنطد مست الحاجة الى كبح عنان الشهوات البدنية وظهرت
الزعة الصوفية وعلا مقام الزهد

ثم قال درمنهم : ان القرآن ردد كثيراً معنى كون الدنيا زائلة ومتاعاً قليلاً وانها لم
تكن الا ممراً للآخرة . وكان سامان الفارسي يقول ما قاله باسكال وهو أن المؤمن أشبه
بالمريض الذي يمنعه الطبيب من أن يأكل ما يلذه لأنه يضره . وكان النبي يقول : لو علمتم
ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً . وعاد النبي اعريباً مريضاً فقال له : هذا تطهير لك . فقال
له الاعرابي : بل هذه حجة ستأخذني الى القبر . فقال له النبي : هذا الذي أردته . وكان النبي
يتعبد كثيراً ويقنت ويجمع نساءه ويعظهن . وكان أصحابه كثيراً ما يتعبدون ويتقشفون
وقد بالغ بعضهم في العبادة والزهادة والصوم الى أن نهاهم النبي عن هذا الغلو في العبادة وفي
قهر الأنفس .

ولم يكن محمد يرى خيرات هذه الدنيا علامة على المحبة الالهية وكان يقول لأصحابه :
ما أخشى عليكم شيئاً أكثر من خيرات الحياة العاجلة (وما عند الله خير وأبقى) . فقال
له أحد أصحابه أيمكن أن يأتي من الخير شر فتوقف محمد في الجواب وكأأنما جاءه الوحي وأخذ
العرق يتصبب منه ثم سأل قائلاً : أين السائل ؟ ثم قال له : أترى شيئاً من خيرات هذا العالم
يستحق هذا الاسم . وكان يقول ان خيرات هذا العالم ليست بخيرات ان لم تكن آتية
بطريق حلال ولم تكن تُنفق في سبيل البر فان لم تكن كذلك فهي باب للشر وان أغناكم
في هذه الدنيا سيكونون أفقركم في الآخرة ان لم يكونوا أنفقوا أموالهم في سبيل الله . وكان
يقول : ان جهنم تقول بلاء فيها : اني أنا أضمر المتكبرين والأغنياء والجبارين . وكثيراً
ما كان محمد ينهي أصحابه عن الطمع في الدنيا ويدمر على الذين يجمعون الأموال ويحرصون
عليها وعلى المرايين وعلى التجار الذين لا يراعون وجه الله في مكاسبهم وعلى الحكام الذين
يميلون مع الأغنياء في أحكامهم . وكانوا في صدر الاسلام يكرهون الترف والتنعيم في الدنيا
وربما وصلوا الى تحريم كل ثروة تزيد على اللازم الضروري في حياة الانسان . نعم انهم
فيما بعد لم يتقيدوا بهذه القاعدة ولكن روح الاسلام الأصلية كانت هي هذه وكانت عظات
محمد شديدة التأثير في أصحابه حتى انه وصف عذاب القبر مرة فكاد الحاضرون يصعقون من
هول الوصف . وكان يجد أيضاً في وصفه صوراً في غاية الرقة تدخل الى أعماق القلوب اذا

وصف رحمة الله التي لا تنهاى وما أعد من النعيم للمتقين

وقد أشار درمنغهم فى آخر كتابه عن النبي ﷺ الى تعدد أزواجه وأورد هنا ما يعترضه المعترضون لينتقصوا من قدره ﷺ فقال انه كسائر سادات العرب استكثر من النساء فتزوج ببعضهن عن مجرد عاطفة ، وتزوج ببعضهن ليتألف بزواجه قلوب القبائل وتكلم عن زواجه بزینب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة الذى كان النبي قد تبدأ وكان مراده بذلك أن لا يجعل من يتبناء الانسان فى حكم ابنه الحقيقى ولا يحرم عليه التزوج بمطلقة . وقال درمنغهم ان محمداً وان كان وسع دائرة الحلال فقد ضيق دائرة الحرام . ثم استوفى درمنغهم سيرة النبي ﷺ بدون أدنى تحامل وان كنا لاتتفق معه فى جميع الأفكار . ولم نكن الآن لنستوفى ترجمة كتابه كله وانما نريد أن نختار منه بعض مواضع على سبيل الاستشهاد لأن الكاتب المذكور لم يكن مسامحا لنقول انه كان ينتصر للاسلام حمية على دينه ولم يكن من الكتاب الاوريين المعروفين بيبغض النصرانية ليقول انه انما امتدح الاسلام بسائق بغضائه للدين المسيحى . وانما كان درمنغهم هو من الكتاب المسيحيين المعتقدين بدينهم ولذلك نقلنا كلماته على ما هي عليه ، بدون أن نجتهد فى تحقيق ما اخذها من السنة ورواية الأحاديث الواردة فى المواضيع التى تكلم عليها . فانظر كيف يقول عن قضية النساء فى الاسلام : ان الاسلام قد رفع شأن المرأة فى بلاد العرب وهذه قضية لا تقبل المراء وكان عمر يقول اتنا لم نكن نعد نساءنا شيئاً فى الجاهلية ولم نزل كذلك حتى نزل كلام الله فى حقهن . وكان الرسول يقول ان أفضلكم أحسنكم معاملة لزوجته . وكان يوصى النساء بأن يكن طوع ارادة أزواجهن ولكنه كان يشدد جداً على من يغلظ فى معاملتهن وينهى عن تزويج البنات بدون ارادتهن وكان يقول : ان أجر الانسان فى الانفاق على زوجته أكثر من أجره فى الصدق على الفقراء أو الجهاد فى سبيل الله . وكان يقول : اذا وضع الزوج يده فى يد زوجته تساقطت الذنوب من بين أصابعهما . وكان يقول الجنة تحت أقدام الأمهات . وكان النسوة فى الجاهلية لا يرثن شيئاً فجعل محمد للمرأة نصف حظ الرجل فى الارث ، ومنع القرآن وأد البنات . وكان لا يمل من التوصية بالنساء والأيتام وتكلم عما يعدّه الله من الثواب لمن ربى أمة وحررها وتزوجها وقد أجاز محمد تعدد الأزواج ولم يكن يمكنه غير ذلك فى بلاد ابراهيم ولكن محمداً لم يأمر بالتزوج بأكثر من واحدة

واشترط القرآن العدل التام بين النساء حتى لو أعطى الزوج لاحدى نسائه ابرة وجب أن يعطى مثلها للآخرى وأجاز الطلاق ولكنه قال انه ما من حلال أكره الى الله تعالى منه (أبغض الحلال الى الله الطلاق) ولا يجوز أن ننسى أن الشريعة الموسوية في العهد القديم لم تكن تمنع تعدد الزوجات فان كان الاكتفاء بزوجة واحدة قد صار هو القاعدة في النصرانية فما ذاك الا لأن الاكتفاء بالزوجة الواحدة كان هو المألوف في البلاد الغربية التي انتشر فيها الدين المسيحي

ونقل درمنغهم على «دوكا سترى» في كتابه الاسلام صفحة ١٠٩ قال: مما لاشك فيه بحسب قول ريفيل Réville أننا اذا نظرنا الى الزمان والمكان اللذين وُجد فيهما محمد لم نجد اصلاً أشرف ولا أجراً من الاصلاح الذي قام به محمد بحق النساء فالمرأة في الشرق مدنيونة كثيراً لمحمد. وأما مونتسكيو في روح الشرائع فقد قال: ان تعدد الزوجات في الشرق واحتجاب النساء والبلوغ قبل الوقت ودخول النساء في الهرم قبل الوقت، كل ذلك من الأمور التي نشأت عن تأثير الاقليم.

ثم قال درمنغهم انه هناك محل نظر في الاعتراض على تعدد الزوجات في الاسلام فهل هذا التعدد الرسمي هو أسوأ من التعدد غير الرسمي (١) ومن محاسن تعدد الزوجات منع البغاء وتيسير الزواج لجميع النسوة بحيث تصان الأعراض يقول درمنغهم هذا، ولكن يغلب عليه مشربه الغربي فيقول: كنا نود لو ان محمداً لم يجز تعدد الزوجات أصلاً. وينكر درمنغهم أشد الانكار قول بعض الناس بأن المرأة ليس لها مقام في الاسلام ويقول ان هذه التهمة أشبه باتهام النصرانية أنها جعلت المرأة ملعونة وأصلاً ومنبعاً للشروع. قال: ويكفي أن يذهب الانسان الى بلاد الاسلام ليعلم ما هناك من محبة عائلية وحرمة للنساء خلافاً لما يتقوّل به بعض الاوربيين. ثم ذكر درمنغهم في آخر كتابه حجة الوداع وقال ان النبي شعر بدنو أجله فخطب المسلمين في ذلك اليوم خطبة وداع وقال لهم: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» وكأنه علم ان امته ستشتر عقيدته في الخافقين

وقد وقع ذلك بالفعل وخرج العرب ففتحوا الأقطار واختلطوا بالشعوب ولم يكن يخلو عملهم من شدة ولكنهم كانوا على جانب عظيم من الحكمة وكان فيهم استعداد ليرثوا ممالك

الفرس والروم المحتضرة ولم يكونوا كالفاندال والجرمان في الميل الى العبث والتدمير فتناولوا مصابيح العلم من أيدي الروم والفرس وساروا بها في فتوحاتهم فكان الاسلام في احدى يديهم والمدنية اليونانية والفارسية في الأخرى. وكانت الخلافتان الأموية والعباسية من أجد أدوار التاريخ. وقد نجح الاسلام في دعوته لأنه كان مستحقاً للنجاح فانه قد أتى الشرق بالعلاج الذي كان هذا يحتاج اليه. وقد تحمل المسلمون قبل الهجرة ما تحملوه من الانتقام حتى اذا ظفروا عاملوا أعداءهم بالتسامح

نعم ان الشرك لم يكن ليعفو الاسلام عنه. ولكن أهل الكتاب أى اليهود والنصارى كانوا أحراراً أن يعيشوا في بلاد الاسلام متمتعين بحقوقهم. وكان محمد يقول من أذى ذمياً كنت خصمه يوم القيامة. وانا نرى القرآن والأحاديث ملأى بالنهي عن الاكراه في الدين. وقد عمل الفاتحون المسلمون بهذه القاعدة وما دخل الناس في الاسلام أفواجاً الا لما رأوا فيه من التسامح ولما دخل عمر الى القدس لم يسمح بالحاق أدنى أذى بالمسيحيين وترك لهم كنائسهم بأيديهم وأحسن معاملة بطريقهم وأبى أن يصلى داخل كنيسة القيامة لئلا يأتي المسلمون فيدعوها قال: فلنقابل بين هذه المعاملة وعمل الصليبيين عندما دخلوا الى القدس وذبحوا المسلمين وغاصت الخيل في الدماء الى صدورهم. قال رؤبرتسون: ان أتباع محمد هم الأمة الوحيدة التي جمعت بين التحمس في الدين والتسامح فيه أى أنها مع تسكها بدينها لم تعرف اكراه غيرها على قبوله. وقال الأب ميشون Michon في كتابه «رحلة دينية الى الشرق»: انه من المؤزن للأمم المسيحية أن يتعلموا التسامح الديني من المسلمين. قال درمنغمون في هذا الكلام مبالغات لان النصرانية أيضاً تأمر بالتسامح الديني وأحياناً تفوق الاسلام في ذلك. ولكن المبالغة أيضاً واقعة في اتهام الاسلام بالتعصب. وقال الشيخ محمد عبده ان التوراة والانجيل والقرآن كتب متطابقة وبها يتم التعليم الالهي وتشرق الديانة الحق. وقال مونتس Montaigne: اتنا نشط كل النشاط ونفعل العجائب عندما تكون أنفسنا متزعجة الى الشرور من البغضاء والقسوة والطمع والشح وحب التدمير وبكس ذلك تفقر هممتنا في الخير وحب الاعتدال وقد وجدت دياتنا لمنع الرذائل فكانت النتيجة أن صارت هي التي تحميها وتغذيها

وقد يكلم درمنغمون عما كان يفهمه من رسالته الى الخلق فقال انه خلق أمراً ناهياً لكنه لم يكن يتقاضى الناس الطاعة لأوامره الا بواسطة يبلغهم أوامر الله تعالى. وكان يقول

ان الأمر لله وحده وكان ينهى الناس أن يعاملوه معاملة الملوك . وقد ظن بعض من كانوا من أعدائه في البداية انه لما فتح مكة سنتقلب المسئلة من النبوة الى الملك لكنهم أخطئوا في هذا الزعم وبقي محمد على مشربه الأول من سداجة الحال . وكان يقول : لست ملكاً ولكنني رجل من قريش . ولم يسكره الفقر ، بل عفاً عند ما قدر ، ولم يكن المال ولا شيء من غنائم هذه الدنيا ذا قيمة في نظره وكان يفضل عليها كلها اهتداء رجل واحد الى الاسلام . ولم يكن يؤله الا شيء واحد كان يجده في أعماق نفسه وهو عدم فهم الكثيرين للمقصود من رسالته وانضمام كثيرين اليه لاحقاً بها بل التحاقاً بالحزب الغالب . وختم درمنهم كتابه بقول الأب دو بروغلي De Broglie في كتابه « أسرار تاريخ الديانات » وهو : « جاء في التوراة أنه من اسمايل يخرج شعب عظيم هكذا في سفر التكوين » . فانتشار الاسلام هو من جملة ما أنجز الله به وعده لأبي المؤمنين

تعليل المؤرخين الاوربيين لسقوط مملكة فارس

والمملكة الرومانية بيد العرب

أكثر المؤرخين الاوربيين يعالون سقوط مملكة فارس وجانب عظيم من السلطنة الرومانية في أيدي العرب بهذه الأسباب التي ذكرها ستودارد . ثم يذكرون لنجاح العرب السريع أسباباً من شهامة العرب وميلهم الى مكارم الأخلاق ، وسرعة قبولهم للدين ، وحسن جمعهم بين السيف والقلم وبين الحشونة والركة . وبعضهم يعترف بتأثير العقيدة الاسلامية في هذا النجاح ، ويقدر قدر سواغها في العقول السليمة وخلوها من الأسرار غير المفهومة ، الا أن أعداء الاسلام يعيبون عليها هذه المزية ويجعلون خلوها من غير المفهوم « سداجة » ويعبرون عن ذلك بلفظة « Simplisme » وكثيراً ما تقرأ هذا الوصف في انتقادهم للاسلام ويكررونه كثيراً وهم يزعمون ان انتشار الاسلام بين الأقوام الذين لا يزالون على الفطرة الأصلية ، انما سببه هذه السداجة في تعاليمه . وبالجملة أعطوا المنطق السيد اسم « سداجة » وجعلوا السائق في العقل السليم نازلاً عن درجة الاسرار التي تعلو شأن الأديان بكونها غير مفهومة بزعمهم وركبوا بهذا مركباً صعباً أصبح مركزهم فيها حرجاً ، لاسيما في هذا العصر الذي بدأ فيه أتباع الأسرار غير المفهومة يقولون شيئاً فشيئاً ، وصار المطالبون بالدليل والنازعون الى الجلاء هم امة المستقبل

الحضارة الاسلامية ورقى العرب الفكرى فى القرون الوسطى

للمؤلف

- العواصم الاسلامية وعمرانها فى آسية وافريقية والأندلس
- العلوم والفنون والصناعات
- أقوال المستشرق ما كس مايرهوف الألمانى فى كتابه « العالم الاسلامى »
- فن العمارة الاسلامية

اتفق المؤرخون العصريون من أهل أوربة ، على أن بغداد فى القرن الثالث للهجرة كانت أرقى مدن ذلك العصر حضارةً ، وأزخر عمراناً ، وأعظم ثروة ورفاهية ، وأن هارون الرشيد كان أكبر سلاطين ذلك الدهر ، وأن عبد الرحمن الناصر فى القرن الرابع كان أرقى ملوك الغرب من مسلمين وافرينج ، وكانت الأندلس فى أيامه أرقى الممالك كلها .
ويحسن أن أنقل هنا جملة مختصرة حررتها فى رسالتى : « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ » وهى هذه :

« قد بلغت بغداد فى دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال الحضارة ، واستبحار العمارة وتناهى الترف والثروة ، ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها الى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان ^(١) وكانت البصرة فى الدرجة الثانية عنها وكان أهلها نحواً من نصف مليون .

وكانت دمشق ، والقاهرة ، وحلب ، وسمرقند ، واصفهان ، وحواضر أخرى كثيرة

(١) وهو عدد يندر اليوم فى سكان كبريات العواصم

من بلاد الاسلام ، أمثلة تامة وأقيسة بعيدة في استبحار العمران .

وكانت القيروان ، وفاس ، وتلمسان ، ومراكش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول أو يناظرها مناظر أو أن يكأثرها مكأثر في أوربة حتى هذه القرون الأخيرة .

وكانت قرطبة مدينة فذة في أوربة لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف نسمة . وكان فيها نحو من ألف وسبعمائة جامع ، عدا المسجد الأعظم الذي لما زرته في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبل الحكومة الاسبانيولية ، انه يسع بحسب القياس المضبوط خمسين ألف مصل في الداخل ، وثلاثين ألفاً في الصحن ، فجأة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين !

ولما ذهبنا الى قصر الزهراء ، رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلينا أنها تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً ، في ثمانمائة متر عرضاً . والأسبانيول يقولون لها : مدينة الزهراء . وقال لي المهندسون الموكلون بالحفر في آثارها ، انهم يرجون الاثيان على كشفها كلها من الآن الى خمسين سنة . وحسبك أن غرناطة التي كانت حاضرة مملكة صغيرة ، في آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن في أوربة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة تضاهيها ولا تدانيها ، وكان فيها عندما سقطت في أيدي الأسبانيول نصف مليون نسمة ، ولم يكن وقتئذ في أوربة عاصمة تحتوي نصف هذا العدد . وجرأ غرناطة لا تزال يتيمة الدهر الى اليوم . هذه لحة دالة من مآثر حضارة الاسلام وغرر أيامه . والا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة المرصوفة طبقاً فوق ضيق .

وأنا أضيف الى ذلك هنا أن المهندسين الأسبانيول الذين أثمرت اليهم ، ذكروا لي أنهم كانوا قد ألّفوا لجنة مهندسين طافت في جميع أسبانية للتنقيب عن آثارها القديمة ومبانيها ، فأحصت عدد القلاع التي فيها سبعة آلاف قلعة وحصن ، ثلاثة أرباعها من بناء العرب ، وأنهم لحظوا حصون العرب كلها مبنية على خطوط واحدة يحمي بعضها ظهر بعض يمتد كل خط من الحاضرة من احدى جهاتها ويليه خط آخر من جهة أخرى ، وخط آخر من جهة أخرى وهلم جرا وكل خط تجدد الحصن فيه على مساواة الحصن سلسلة متصلة الى ثغور الافرنجة .

وتأمل فيما قاله « كلود فارير » الكاتب الفرنسى المعروف فى مقدمة مجموعة اسمها « افريقية الشمالية » جعت فيها صور أبدع مبانى العرب فى تونس والمغربين الأوسط والأقصى وهو هذا :

« قصور وجوامع وأبراج وحواضر ماثلة جميع هذه الأرض التى انتزعها نبيّ الاسلام من ذرية سيبين الرومانى . لعمرى أن المسلم هو خلافاً لما يزعمه كثير من الجاهلين ليس بالرجل المدمر . بل انك تجد من تونس الى طنجة وفى فاس وفى مكناس ومراكش ، كما فى القاهرة والقيروان ، بدائع آثار عربية ماثلة فى كل محل بجانب بدائع آثار رومانية تزيدها ولا تنقصها » .

ثم وصف من جلة ما وصف من آثار العرب فى المغرب ، مدرسة دخلها من مدارس فاس ، فقال انها كأجل ما وجد من هياكل يونان القديمة ، لأن جميع قوانين منطق البناء مرعية فيها أشد الرعاية . وقال الكاتبان الفرنسيان المعروفان جيروم وجان تارو : « من لم يشاهد مقبرة الملوك السعديين فى مراكش لم يدرك الى أى أمد وصلت مدنية الاسلام من البداعة » .

واقرأ فى « الاستقصا فى تاريخ المغرب الأقصى » عن آثار الموحدين ثم آثار المنصور السعيدى فى مراكش تجد فيه ما تقرُّ به الأعين .

وأهمُّ من هذا فى هذا الباب « كتاب تحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس » تأليف المؤرخ العلامة الفطريف الشريف ابن الشريف أمير العلماء وعالم الأمراء مولائى عبد الرحمن بن زيدان رئيس العائلة السلطانية فى المغرب الذى فيه أوسع وصف لمباني جده مولائى اسماعيل الكبير ، سلطان المغرب الذى استمرت سلطنته نحواً من خمس وستين سنة ، وبنى فى مكناس وغيرها من القصور والابرار والحصون ، ونسق من الجنان والحدائق ، ما ندر أن سمى الى مثله همه ملك من ملوك العالم .

وعن أجدادنا فى وصف العمارة الاسلامية الفيلسوف الفرنسى « غستاف لوبون » المشهور فى تأليفه المتعددة وفى الأيام الأخيرة « رينه غروسه » الذى اشتهر فى علم المدنية الشرقية .

وقد ظهر حديثاً عن المدينة الاسلامية في المغرب كتاب تمتع اسمه « مراکش ومدن الفن » Le Maroc et les villes d'art طنجة ، وفاس ، ومكناس ، ومراكش ، والرباط ، مؤلفه « پيار شامبيون » Pierre Champion قد حوى من هذا الباب خلاصة ما يلازم وتضمن ٢٢٧ صورة من صور المباني الممتازة برونقها ، وبداعة انشائها في بلاد المغرب الاقصى ويظهر ان المؤلف اطلعاً على العربية لنقله كثيراً من الفصول عن تواريخ المغرب ، « كلاستقفا » و « روض القرطاس » وغيرها ، فضلاً عما نقله عن ابن خلدون الذي لقبه بارسطو القرن الرابع عشر . ولقد كان أكثر ما حدث عنه مباني المرينيين في فاس ، والموحدين والسعديين في مراكش ، والانديلسيين في الرباط

« وما ذهب اليه أن صناعة البناء في المغرب ترجع الى أصول غربية بيزنطية ، وقوطية وسورية ، جاءت من الشرق الى القيروان ، فتلسمان ، فالاندلس ، ثم عادت أدراجها من الاندلس الى افريقية . قال وان ما عليه الناس اليوم في المغرب هو أن صناعة البناء وزخرف المساكن انما هي صناعة أندلسية في أصلها وان أحسن قصور المغرب وأبهائه هو ما بناه الصناع الاندلسيون . قال وقد كان هذا هو الرأي من زمان ابن خلدون الذي ذكر من جملة كلامه أن فن البناء انما يبقى محفوظاً في الخواضر الكبيرة ، التي يزخر عمرانها ، وأنه في زمانه انما هو محفوظ في الاندلس . فالصناع الاندلسيون لا يعملون في بلادهم فقط بل تجدهم يعملون في تونس ، والقاهرة ، وغيرها وانك لتعرفهم من سائر أهالي البلدان الأخرى »

ولعل الفقرة التي لخصها « شامبيون » هذا عن ابن خلدون هي ما يلي نقلاً عن المقدمة :

« وأما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها بما كان لمولتهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس ، وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعاً وكرهاً ، وكانت من اتساع النطاق ماعلمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ، ومعظمها من أهل الاندلس ، ثم انتقل أهل شرق الاندلس عند جالية النصرى الى افريقية ، فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً ، ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر ، وما ينقله المسافرون من عوائدها ، فكان بذلك المغرب وافريقية حظ صالح من الحضارة الخ »

أو هو قد استخلصها من هذه الفقرة الثانية من كلام سيد فلاسفة الاجتماع وهي :
 « وهذا كالحال في الاندلس لهذا العهد ، ، فاننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها
 مستحكمة راسخة في جميع ماتدعو اليه عوائد أمصارها ، كالمباني ، والطبخ ، وأصناف الغناء
 واللهو ، ومن الآلات ، والأوتار ، والرقص ، وتنضيد الفرش ، في القصور ، وحسن الترتيب
 والأوضاع في البناء ، وصوغ الآنية من المعادن ، والخزف ، وجميع المواعين ، واقامة الولائم ،
 والأعراس ، وسائر الصنائع التي يدعو اليها الترف وعوائده ، فتجدهم أقوم عليها وأبصر
 بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم ، فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع
 الأمصار وما ذاك الا لرسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط ،
 وما بعدها من دولة الطوائف وهلم جرأ . فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر الا ما ينقل
 عن العراق والشام ومصر أيضاً لطول آماد الدول فيها ، فاستحكمت فيها الصنائع ، وكملت
 جميع أصنافها على الاستجداء والتنميق ، وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران ، لا تفارقه ،
 وكذا أيضاً حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم
 وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الأحوال ، وان كان ذلك دون الاندلس ، الا
 انه متضاعف برسوم منها تُنقل اليها من مصر ، لقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من
 قطرها الى قطر مصر في كل سنة ، فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال مصر
 لما ذكرناه ومن أحوال الاندلس ، لما ان أكثر ساكنيها من شرق الاندلس حين الجلاء
 لعهد المائة السابعة الح »

وبعد أن نقل المسيو شامبيون ما نقله عن ابن خلدون في هذا الباب قال ان الصناعة
 المغربية والصناعة الاندلسية هما من أصل واحد ، وان كثيراً من القصور والبنيات في العدوتين
 هي شقائق وأخوات مثل مدارس فاس ، وفصر اشبيلية ، وجرآ غرناطة ، لكنه عاد فقال
 ماملخصه : ان مباني فاس تمتاز بالصلابة عن مباني اسبانية ، فان قصور اسبانية يكثر فيها
 الجص والجصين والقرميد ، وانك تجد جدرانها مغطاة بهذه الأشكال ، وانه يكثر فيها تقليد
 تعاريج الكهوف ، وتضاريس الفيران ، وخلايا النحل ، وما أشبه ذلك وكله مصنوع في المادة
 الرخوة التي تجمد فتصير كالحجر ، وليس الأمر كذلك في المغرب ، فان الطريق فيه هي النحت
 في الحجر رأساً ، وتمتاز صناعة البناء في المغرب بكثرة الخشب الذي يتفننون في تزيينه

وترصيعه وتوشيعه الى النهاية ، ويساعدهم على ذلك وجود خشب الأرز الكثير في جبال الأطلس ، وهو الخشب الذى لا يفنى . وأنهى المسيو شامبيون كلامه فى هذا الموضوع بعدما ذكر بدائع المغرب لاسيما آثار بنى مرين قائلاً ، ان آثار المغرب قد بقيت محفوظة أكثر جداً من آثار الأندلس .

قال ونحن فى المغرب بازاء صناعة مدنية قديمة قد تداعت الى السقوط ، الا أنها لا تزال ماثلة وهى الصناعة الأندلسية . ولقد كانت تمتاز بالصلابة والمتانة فى عصر الجهاد الاسلامى السابق ثم ازدادت ميلاً الى النحافة فى القرن الرابع عشر ، ثم كسبت رونقاً لامعاً فى القرن السادس عشر ، ثم كسبت عظمة وقوة تأثير فى القرن السابع عشر ، ولكنها عادت فأنحدرت فى أواخر القرن الماضى . وهذا التقسيم يؤيده المسيو برسير ريكار Prosper Ricard الذى هو من المتخصصين فى معرفة الصنائع الوطنية فى المغرب . ثم ذكر فى محل آخر أن المغرب القديم لا يزال حياً ، وأن من جال فيه يجد أحياناً من طرائفه القديمة ما يجذبه بل ما يدهشه ، فانه قطر طويل عريض ، تنكسر على سواحله الغربية أمواج الاطلنطيك المتلاطمة وفيه السهول الواسعة الممتدة بجزاء جبال من أعلى جبال الأرض ، تشرق عليه شمس شديدة اللعان الا أنها لطيفة الوقع ، وهناك أمة ذات جبال قديم كما وصفها بهذا الوصف أوجين دولاكروا Eugène de La Croix تلبس أطهاراً بالية الا أنها أطهار شريفة ، وأينا ذهبت فى قراها وأريافها تجد من المناظر ما يؤثر فى النفس ، ويعيد لك ذكرى التوراة . وتجد فى المدن جوعاً وأعياداً ومواسم مستمرة ، تخيل لك تلك البلاد متحفاً دائماً مفتوحاً . وأهم من كل شئ هذه الحواضر الكبيرة المعمورة التى هى كلها تقريباً مدن صناعة وفن ، وكأن المدن كلها أسواق مضت عليها القرون تلو القرون ، وهى مدخر للأرزاق ، والمؤونات والمواعين والأدوات ، تصونها صيانة الكنوز جدران عالية وأسوار شاهقة فكل هذا يؤثر فى النفس ويعلق فى القلب ويجعل هذه الحواضر المغربية شخصية خاصة بها . (انتهى ملخصاً)

ولم يقسم لى الحظ أن أزور بلاد المغرب وأرى آثار الموحدين والسعديين فى مراكش وبنى مرين فى فاس والاندلسيين فى الرباط ومولاي اسماعيل فى مكناسة وهو الذى آثاره تحاكي آثار رومة العظمى ، كما قال بعض الأفرنج ، وانما بعد السياحة الى الأندلس مكنت من زيارة طنجة وتطوان ، ومكثت فيهما أيام قلائل برغم انقباض الفرنسيين من وجودى .

هناك ، فشاهدت في طنجة من المباني السلطانية ما يستحق التنويه ، ولكن قصر الوزير المنبهي في جبل مرشان من تلك المدينة الفريدة في نحر البحر ، التي هي طنجة ، هو قصر نادر المثال في دقة الصناعة ، ونية الزخرف ، وتمثيل المدينة العربية بأبهى مظاهرها ، وقد شاهدت في تطاون أيضاً من منازل سرة البلدة كآل بنونه ، وآل الطوريس ، وغيرهم ما خيل لي أنني لم أزل في الأندلس بين أبهاء غرناطة أو مقاصر اشبيلية ، وراقني جداً أن الحكومة الأسبانية شادت داراً للعجزة ومدرسة للصنائع وغير ذلك على النسق الأندلسي المغربي المستفيض في أبنية أكبر المغرب ، وما لا ينكر في هذا الباب أن المارشال ليوتي الذي هو أعقل مستعمر أفرنسي ولربما كان أعقل مستعمر أوروبي على الإطلاق ، قد بذل جهده أيام تمثيله الحكومة الفرنسية في المغرب في المحافظة على الآثار العربية القديمة وفي احياء صناعة البناء العربي الأنيق بحيث تجددت فيها الرغبة ووضعت فيها الكتب وتقيدت منها النفائس بالتأليف والتخليد مما يمكننا أن نذكره بالشكر ، لأنه من قبيل الانصاف الذي طبعت الجلبة البشرية على استحسانه وبإيت الأوربيين اطرادوا الأنصاف في سائر الأمور



ويعجز عن أراد أخذ صورة مجملة في موضوع العمران الاسلامي أن يقرأ « تاريخ التمدن الاسلامي » لزيدان و « حضارة الاسلام في دار السلام » لجليل المنور ، وغيرهما من الكتب الملخصة . وقد أوردت أنا بعض أمثلة في هذا الموضوع في رحلتي الحجازية المسماة « بالارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الموقد مطاف »

ولما كان أعداء الاسلام يريدون أن ينتقصوه بأي شكل من الأشكال ، فقد حاولوا انكار أن يكون له مدينة خاصة به وزعموا أنه مازاد على أن نقل ونسخ ، وما أشبه ذلك من الأقاويل . ولقد رأيت أن أنقل أيضاً الى هذه الحواشي جملة أوردها في رسالة « لماذا تأخر المسلمون » وهي هذه :

« ولم يحرم المؤرخون الاوربيون تحت عنوان « مدينة الاسلام » كتباً قيمة ومجاميع صور تأخذ بالأبصار . وإن أشد مؤرخي الافرنجة تحاملاً على الاسلام لا يتعدى أن يحاول التفسير من شأن مدينته ، بانكار كونه هو أبا عنترتها . فقصرى هذه الفئة أن يحسدوا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً ، وسبقوا الى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم أن

يقولوا ان المسلمين لم يزيدوا على ان نقلوا وأذاعوا ، وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب ، وهذا القول على اطلاقه مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها ، وحقائق كشفوها ، وآراء سبقوا اليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، وما وشوا طرازه ودبجوه ، وما نشره من قبره وما نقلوه . ولنفرض انهم أخذوا عن غيرهم فمن استرق شيئاً ، وقد استرقه ، فقد استحقه .

و بعد فلا يعلم الخلق مدينة واحدة من مدنيات الامم الا وهي رشح مدنيات سابقة ، وراث أقوام درجوا ، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ، ومجموع نتائج عقول مختلفة الاصول ، ومحصول ثمرات الباب متباينة الأجناس .

وانى لناقل هنا بعض مقاله المستشرق المحقق « ماكس مايرهوف » الألماني الذي أنقن هذا الباب في كتابه « العالم الاسلامي » Le Monde Islamique وهو من نظار المؤرخين ومن كبار الأطباء . فالاستاذ « مايرهوف » يقول ماملخصه : ان العرب لم يحملوا معهم الى العالم لدن الفتوح الا اللسان العربي الذي كان اذ ذاك ، برغم ثروته ، وتعدد مناحي التعبير فيه ، محتاجاً الى الألفاظ العلمية . فبدأ العرب أولاً بخدمة اللغة ، ومن أجل فهم القرآن وضعوا علم النحو . ثم اتقنوا علم الرواية لأجل حفظ أشعارهم من الجاهلية فما بعد . ونبغ منهم بعد الاسلام شعراء كبار مثل عمر بن أبي ربيعة ، والخطل ، وجريز ، والفرزدق ، ثم أبو العتاهية ، وابن المعتز ، وأبو تمام ، والمتنبي وغيرهم . قال : وعلى وجه الاجال ، فشعر العرب لا يلائم ذوق أهل الغرب ، فان مبالغات شعرائهم في أوصاف محاسن الغواني ، واغراق أبطال البادية في المفاخرة ، ليس مما تستعذبه أذواقنا . وبعكس ذلك الوزن ، وحسن النسق ، وملكة التعبير التي عند العرب فهي عذبة الى الغاية وانه من الممكن للشاعر العربي أن يقول ماشاء من طوال القصائد على روى واحد ، ثم ذكر « مايرهوف » فن التصوير ونحت التماثيل ، وقال : انه لا يوجد في القرآن منع صريح لهذه الفنون ، الا أنه يوجد في الأحاديث النبوية ما يمنع تمثيل المخلوقات الحية ، وهو لا يجزم بصحة اسناد هذه الأحاديث ، ويعتقد أن هذا التحريم راسخ الى الاسلام عن شريعة موسى . وعلى كل حال ، فقد تأبى المسلمون أن يمثّلوا البشر بالحجر ، وحسروا صناعة التصوير في المخلوقات غير الحية وفي

النباتات . قال : وقد وُجِدتْ أبْنِيَّةٌ من صدر الاسلام مثل قُصَيْرِ نَحْمَرَةٍ ، الذي يرجع تاريخه الى بنى أمية ، وفيها تماثيل يدل وجودها على أنهم لم يكونوا يتشدّدون في منع التمثيل الى الحد الذي وصلوا اليه فيما بعد . فأما الشيعة ، فقد ذكر « مايرهوف » أنهم لا يخرجون من قضية التصوير ، واستدل على ذلك بالدول الشيعية التي لم تكن تمنعه أصلاً . قال وقد أفضى منع صناعة التصوير والتمثيل الى حصر جهود مهندسي الاسلام في اتقان صناعة البناء وذكر في هذا الباب أمثلة ، منها قببة الصخرة في المسجد الأقصى ، وبين ما أخذ أسلوب البناء في الاسلام ، وتتبع تاريخ هندسة البناء الاسلامية ، والأطوار التي مرت بها ، وأورد أمثلة من آثار سامراء ، والرقّة ، وجامع ابن طولون بمصر وجامع القيروان بأفريقية ، وجامع قرطبة بالأندلس ، وجامع تلمسان في الجزائر ، وذكر صناعة البناء الاسلامية في بلاد العجم ثم في بلاد الترك ، وأورد أمثلة بارزة كجامع الفاتح في القسطنطينية ، ثم جامع السلطان سليم في أدرنة الذي هو من هندسة سنان المشهور ، وقال : ان لسان هذا ثلاثمائة وثمانية عشر أثراً من أجل الآثار . ولم ينس « مايرهوف » ذكر حراء غرناطة ، وقال : انها من أشهر مباني الدنيا ، وشهد أيضاً بتناهي الذوق في صناعة بناء المساجد الاسلامية الحديثة في شمال افريقيا

قال : وبالرغم من حرمة التصوير في الاسلام فقد ازدهرت هذه الصناعة في القرن الثامن للمسيح في العراق وفي فارس ، وكانوا يخرجون كثيراً من الكتب المصوّرة ، وهذا ناشئ عن عدم تشديد الشيعة في منع التصوير . ولكن اعتماد المسلمين في النقش والتزيين كان على تمثيل الخلائق غير الحية ، وقد أتقنوا هذا الفن الى الغاية ، سواء في الحجر أو في الخشب أو في النسيج ، وأورد في هذا الموضوع فوائد قلماً توجد في الكتب ، وكنا نود لو فسح المقام لايرادها ، ولكن هذه الحوائث لا تسع كل ما يجب الاطلاع عليه ، الا أننا نتقل عنه ما ذكره بشأن ترصيع النحاس والفولاذ ، وتخريم الذهب والفضة ، فقد قال ان أسواق اصفهان ودمشق والقاهرة آتت في هذا الموضوع ببدايع تفوق الوصف ، ومثلها جفر العاج وتقطيع البلور ، وزخرفة الآنية ، وتطريز جلود الكتب ، فانها بأجمعها صناعات امتاز بها المسلمون ، وقدمهم فيها أهل ايطالية وهكذا دخلت الى أوربة .

قال : ومن الصناعات التي أتت بها الاسلام الى الغرب صناعة الورق ، وقد أخذها

المسلمون عن الصين . وفي سنة ٧٩٤ مسيحية أنشئ في بغداد أول معمل للكاغذ ، وانقطع استعمال الرق والبردى . وقد كانت صنعة تجهيز الطيوب والعقاقير والتجارة بها من خصائص العرب . وأظهر « مايرهوف » اعجاباً شديداً بمهارة العرب في الأخذ والعطاء وبعدهم في التجارة ، وقال انهم كانوا يستجلبون الجلد والفرو من أقاصى البلاد الشمالية كالروسية وبلاد السكندناف ، يستدل على ذلك بكثرة ما وُجد من النقود العربية في تلك البلاد . قال : وانهم كانوا يركبون البحار ويبلغون أقاصيها . فقد وصلوا الى أقصى جنوبى افريقيا جنوباً ، والى جزائر الخلدات غرباً ، والى الهند والصين شرقاً .

قال : وان العرب وسائر الشعوب الاسلامية من غير العرب بلغوا شأواً بعيداً في علم التاريخ . نعم انه يوصف مؤرخو الاسلام بعدم طلاوة الروايات ، وبضعف ملكة النقد ، ولكنهم حريصون جد الحرص على تقييد جيع ما يسمعون ، وضبط شوارد التاريخ وهم بالاجال ثقات فيما يروونه لا سيما عما شاهدوه في زمانهم ، فتواريخهم عمدة لا يستغنى عنها لأجل معرفة تاريخ القرون الوسطى ، وقد ذكر من مشاهير مؤرخيهم الطبرى ، والمسعودى ، وابن مسكويه ، وابن الأثير ، وأبا الفداء ، والمقرئى ، والسيوطى ، ثم ابن خلدون ، وقال عن هذا انه فيلسوف واجتماعى أكثر مما هو مؤرخ .

ثم ذكر « مايرهوف » تاريخ الفلسفة العربية ، وهو لا يخرج عما رواه سائر المؤرخين من أنهم نقلوا فلسفة يونان ، وترجوا كتب هذه الأمة ، وقال : ان أول فيلسوف عربى هو الكندى وجاء بعده الفارابى وهو تركى الأصل ثم جاء بعدهما ابن سينا وهو فارسى ثم اشتهر من فلاسفة العرب ابن رشد من أسبانيا ، وقد ألّف هذا كتباً كثيرة لم يبق أصلها العربى ولكن بقيت تراجمها اللاتينية . قال : وكان لكتب فلاسفة العرب أعمق تأثير فى اللاهوت المسيحى ، وقد كان فلاسفة العرب يرمون الى التوفيق بين الفلسفة اليونانية ومبادئ الدين الاسلامى

ثم ذكر علم الطب فقال ان العرب قلدوا فيه اليونانيين أيضاً ، وذكر مشاهير أطباء العرب كالرازى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن زهر ، وأبى القاسم الزهراوى ، وقال : ان طب العرب كان يعمل به أهل أوربة فى القرون الوسطى ، وأشار الى كتاب طبقات الاطباء لابن أبى أصيبعة الذى ترجم فيه أربعمائة طبيب منهم كثير من اليهود والنصارى .

قال : وان فضل العرب في الكيمياء قد فاق فضلهم في الطب مع بلوغهم في هذا غاية بعيدة : وان معرفة الحوامض المعدنية ، والأمونياك السائل ، وغير ذلك من المواد الكيماوية انما بدأت عندهم : فالعرب في علم الكيمياء كما في علم الطبيعيات كانوا معتمدين على التجارب وهكذا تمكنوا من كشف حقائق كثيرة

قال : وأما في الرياضات فان العرب فاقوا أساتيدهم اليونانيين ، وناهيك ان علم الجبر اسمه عربي ، وان محمد بن موسى هو الذي وضع هذا العلم سنة ٨٣٠ ميلادية ، كما ان البيروني الفارسي وضع علم المثلثات سنة ١٠٠٠ وقد كان للعرب الفضل في وضع ما يسمى : « بالجيب والسهم » و « الخط المماس للدائرة » ، وهم الذين اخترعوا الاسطرلاب ، ووفقوا به الى اقيسة فلكية وأرضية في غاية القيمة . وقد عرفوا أيضاً دائرة الأرض بحسب ما هدتهم اليه تحقيقاتهم هذه ، وهم الذين أدخلوا الأرقام الهندية الى أوربة ولذلك تسمى بالأرقام العربية . ثم ذكر طول باعهم في علم الفلك ومن اشتهر من الفلكيين منهم والامراء والملوك الذين كانوا يُعنون بهذا العلم ويننون المرصد الفلكية وتكتب لهم الأزياج . قال : وقد عرف فلكيو العرب حركة الأرض حول الشمس ولكنهم لم يوفقوا لتبنيها لعدم اطلاعهم على قانون جاذبية مركز الأرض الذي انكشف لغاليله فيما بعد . قال . وقد ألف ابن الهيثم المتوفى في القاهرة سنة ١٠٣٩ ميلادية كتاباً في علم المناظر مفصلاً ، لم يبق منه الا ترجمته اللاتينية ، ولهذا العالم الكبير مؤلفات في المراءى الكروية والعدسية وغيرها ، ثم ذكر اختراعات كثيرة لهم في الميكانيكيات وقال ان كتبهم في هذا الفن كانت مشهورة في القرون الوسطى . قال : وان اتساع العالم الاسلامي قد أوسع معارف العرب الجغرافية فحددوا العروض والاطوال ، واتخذوا ابرة المغناطيس ، وذكر منهم مشاهير الجغرافيين كالادريسي وأبي القداء والقزويني ، والمدمشي ، ثم ذكر أصحاب الرحلات المشهورة كابن جبير وابن بطوطة وأثنى كثيراً على كتاب « معجم البلدان » لياقوت . قال : وكانت للعرب اليد الطولى في زمانهم في علوم المعادن والنباتات والحيوان ، وكانوا يعتمدون في جميعها على التجارب ، وقد تلقى الغرب عنهم معارف وعلوماً كثيرة ، وعرف ما لم يكن يعرفه في ذلك الوقت الى آخر ما قرره الدكتور « مايرهوف » المذكور وهو المائي الجنس ، مشهور بطب العيون ، وله اليد الطولى في الاستشراق ، وقد أثنى لي عليه وعلى معارفه كثيراً المستشرق الاشهر « سنوك هيركرونييه »

الهولاندى ، وعلمت ان الدكتور ملير هوف مقيم اليوم بالقاهرة . وأكثر ما أعجبني من كلامه فى وصف علوم العرب قوله انهم كانوا يعتمدون فى العلم على التجربة وهذا يخالف مذهب بعض الشعوب المتنطعين الذين لا يفتأون يقولون ان العرب كانوا يعتمدون فى علومهم على الأسلوب الغيبي ، وعلى التخيلات ، وما أشبه ذلك من الأقاويل الفارغة .

لماذا الاسلام راق بذاته

والشعوب الاسلامية غير راقية ؟

وأقوال البرنس جيوفانى بورغيز Giovanni Borghese الايطالى والفيلسوف كوندوسه Condocet الفرنسى فى المقارنة بين نظام الاسلام والكشلكة

للامير شكيب

نشر البرنس « جيوفانى بورغيز من مشاهير رجالات ايطاليا منذ بضع عشرة سنة كتاباً جليلاً أسماه « ايطالية الحديثة » أحاط فيه بجميع الموضوعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والأدبية المتعلقة بايطالية وذ كر كل ما يهم ايطالياً معرفته وعند ما وصل الى المسئل الأعلى الادبى صفحة ٢٧٥ نقل فقرة من كتاب « تقدم العقل البشرى » للفيلسوف الديموقراطى الفرنسى « كوندوسه » جاء فيها ما يلى مترجماً بالحرف :

« سأذكر كيف أن ديانة محمد التى هى أبسط الديانات فى قواعدها وأقلها استحالةً فى شعائرها وأكثرها تسامحاً فى مبادئها تظهر كأنها هى السبب فيما عم قطعة كبيرة من الكرة الأرضية من عبودية دائمة وبلادة ملازمة على حين أننا سنرى تألق أنوار العلم وأشعة الحرية تحت ظل أشد الخرافات استحالةً وفى محيط التعصب الدينى البربرى » انتهى

قال البرنس بورغيز : ان مراد الفيلسوف كوندوسه بالخرافات المستحيلة والتعصب الدينى البربرى هو الكشلكة . ولنترك الآن الخوض فى أفكاره هذه الشخصية بحق الكشلكة وهو المعروف بمبادئه الثورية الشديدة ولنكتفى باقراره بالدور الاجتماعى

العظيم الذى ادارته الديانة الكاثوليكية . قال بورغيز : « ان هذا الدور كان من العظمة الى ما لا نهاية له فبينما قواعد الكشلكة تنفى بحاجة الخلق الى النظام العام فبإيديها الأدبية قد حررت المدنية الاوربية من الرق ووطدت كرامة العائلة ومقام المرأة بالاكتفاء بالزوجة الواحدة وألجأت الاثرة البشرية بدعوة البشر الى مشاطرة المتألمين فى آلامهم » اهـ

ونحن نترك أيضاً للبرنس بورغيز تقديراته هذه بشأن الكشلكة ولا نعترضه فيما ليس من بحثنا ولكننا نتكلم على هذا اللغز الذى أعيا كثيراً من علماء الاجتماع حله وهو تأخر المسلمين فى الأعصر الأخيرة رغم الوسائل الكثيرة التى يقيضها الدين الاسلامى للترقى . وحقيقة الحال أن لجميع الأمم عثرات ونهضات ان تصفحت التاريخ لا تجد أمة قد خلت منها وقد كانت دياتنها فى دورى التأخر والتقدم واحدة . ولما كنا قد حررنا فى هذا البحث رسالة نشرناها فى العمام الماضى تحت عنوان « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم »^(١) فالتنا نحيل من شاء معرفة جوابنا فى هذا الموضوع عليها . ولا نرى بأساً فى أن ننقل الى « حاضر العالم الاسلامى » فصلاً منها عنوانه « مدينة الاسلام » فان كثيراً من الناس يوردون ذلك الاعتراض على الاسلام ويقولون ان الشجرة تعرف من ثمارها :

مدينة الاسلام

أما زعم من زعم أن الاسلام لم يتمكن من تأسيس مدينة خاصة والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة ، فهو خرافة يموه بها بعض أعداء الاسلام من الخارج ، وبعض جاحديه من الداخل . أما القسم الأول فلاجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الاوربية ، وأما القسم الثانى فلاجل أن يزرعوا فى العالم الاسلامى بذور الاخلاق ، ونحن لا ننكر تأثير الدين فى المدينة ولكننا لا نسلم بأنه يصح أن يكون لها ميزاناً ، وذلك لأنه كثيراً ما يضعف تأثير الدين فى الأمم فتتغلب من قيوده وتفسد أخلاقها وتنهار أوضاعها ، فيكون فساد الأخلاق هو غلة السقوط ، ولا يكون الدين هو المسؤول : وكثيراً ما تطرأ عوامل خارجية غير منتظرة فتتغلب على ما أثبتته الشرائع من حضارة وتزلزل أركانها ، وقد تهدمها من بوايها ،

(١) « لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم » وهو جواب اقتراح كتب لمجلة المنار خاصة وطبع فى رسالة خاصة سنة ١٣٤٩ وأعيد طبعه للمرة الثانية فى ١٣٥١ وهو من خير ما كتب فى هذا الباب « الناشر »

ولا يكون القصور من الشريعة . فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة بل من الجهل بالشريعة ، أو من عدم إجراء أحكامها كما ينبغي . ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الاسلام عظيماً عزيزاً

ومدنية الاسلام قضية لا تقبل المباحكة اذ ليس من أمة في أوربة سواء الألمان أو الفرنسيين أو الانكليز أو الطليان إلخ إلا وعندهم تأليف لا تحصى في « مدنية الاسلام » فلو لم تكن للاسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه ، مبنية على كتابه وسنته ما كان عاماء أوربة حتى الذين عرفوا منهم بالتحامل على الاسلام يكثر من ذكر المدنية الاسلامية ومن سرد تواريخها ، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيات ، ومن تبين الخصائص التي انفردت هي بها .

فالمدنية الاسلامية هي من المدنيات الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام ، والتي تفس سجلاتها الخالدة بآثارها الباهرة . وقد بلغت بغداد في دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال العمارة ، واستبحار الحضارة ، وتناهى الترف والثروة ، ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها الى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان . وكانت البصرة في الدرجة الثانية عنها ، وكان أهلها نحو نصف مليون .

وكانت دمشق والقاهرة وحلب وسمرقند واصفهان وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الاسلام أمثلة تامة ، وأقيسة بعيدة في استبحار العمران ، وتطاول البنیان ، ورفاهة السكان وانتشار العلم والعرفان ، وتأمل الفنون المتهذبة الأفنان ،

وكانت القيروان وفاس وتلمسان ومراكش في المغرب أعظم وأعلى من أن يطاولها مطاول أو يناظرها مناظر ، أو أن يكثرها مكاثرفي بلدان أوربة حتى هذه القرون الأخيرة . وكانت قرطبة مدينة فذة في أوربة لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف مليون نسمة ، وكان فيها نحو سبعمئة جامع عدا المسجد الأعظم الذي لما زرت في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبل الحكومة الاسبانيوية : انه يسع بحسب مساحته خمسين ألف مصل في الداخل و ٣٠ ألف مصل في الصحن ، جملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون ألفاً من المصلين .

ولما ذهبنا الى آثار قصر الزهراء رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلمنا أنها

تمتد على مسافة تسعمائة متر طولاً في ثمانمائة متر عرضاً، والاسبانيول يقولون: مدينة الزهراء وقال لى المهندسون الموكلون بالحفر على آثارها: انهم يرجون الاتيان على كشفها كلها من الآن الى خمسين سنة . وحسبك أن غرناطة التي كانت حاضرة مملكة صغيرة في آخر أمر المسلمين بالأندلس لم يكن في أوربة في القرن الخامس عشر المسيحى بلدة تضاهيها ولا تدانيها وكان فيها عندما سقطت في أيدي الأسبانيول نصف مليون نسمة . ولم يكن وقتئذ عاصمة من عواصم أوربة تحتوى نصف هذا العدد ، وجراء غرناطة لا تزال يقيمة الدهر الى اليوم هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الاسلام وغرر أيامه ، والا فلو استقصينا كل ما أثر المسلمون في الأرض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة ، المرصوفة طبقاً فوق طبق

وكم حرر المؤرخون الاوربيون تحت عنوان « مدنية الاسلام » كتباً قيمة ومجاميع صور تأخذ بالأبصار . وان أشد مؤرخى الافرنجة تحاملا على الاسلام لا يتعدى أن يحاول التصغير من شأن مدنيته ، وأن ينكر كونه أبا عنزتها . فقصارى هذه الفئة أن ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوماً وسبقوا الى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم أن يقولوا ان المسلمين لم يزيدوا على أن نقلوا وأذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب . وهذا القول مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوماً ابتكروها وحققوا كشفوها وآراء سبقوا اليها ، فضلاً عما زادوا عليه وأكملوه ، وما نشروه ونقلوه ، ومن استرق شيئاً وقد استرقه فقد استحقه .

وبعد فلم نعلم مدينة واحدة من مدنات الارض الا وهى رشح مدنات سابقة ، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ، ومجموع نتائج عقول مختلفة الاصول ، ومحصول ثمرات ألباب متباينة الاجناس

الرد على حساد المدنية الاسلامية المكابرين

أيبنى حساد الاسلام والمكابرون فى عظمة فضله ، الزاعمون أنه انما نقل وتعلم وقدند واقتدى وانه انما صلى وراء غيره : أن المدنية الشرقية يوم ظهر الاسلام كان أخنى عليها الذى أخنى على لبد . وأنه هو الذى جدد لها وأحيا آثارها ، وأقال عثارها ؟ وأنها بعد ان كانت

قد ااحت ولحقت بالغابرين، أبرزها من اصادفها، وجلاها من بعد ان كانت ملفوفة بغلافها، ونشرها بالخافقين، وبلغها كفلق الصبح لكل ذى عينين، وأضنى عليها لباس الاسلام الخاص، ودبجها بدباجة القرآن، التى لم تفارقها فى شرق ولا غرب، ولا سهل ولا وعرة. حتى حل ذلك كثيراً من علماء الافرنج ممن لم يعمه الهوى، ولم يحد فى التحقيق عن مهيع الهدى، على أن اعترفوا بان مدينة الاسلام لم تكن نسخاً ولا نقلاً وانما هى قد نبعت من القرآن، وتفجرت من عقيدة التوحيد؟

فأما ما ترجمته حضارة الاسلام من كتب، وما أخذته عن غيرها من علوم، وما أفادته فى فتوحاتها من منازع جيلة، وطرائق سديدة، فلا يقدح ذلك فى بكارتها الاسلامية، ومسحتها العربية، لان هذا شأن الحضارات البشرية باجتها أن يأخذ بعضها عن بعض، ويكمل بعضها بعضاً، فالعلم الحقيقى ينحصر فى هذا الحديث الشريف: « الحكمة ضالة المؤمن ينسدها ولو فى الصين »^(١) وهذه من أقدم قواعد الاسلام

وعلى كل حال لا يقدر مكابر أن يكابر ان الاسلام كان له دور عظيم فى الدنيا سواء فى الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية، وان هذه الفتوحات قد اتسقت له فى دور لا يزيد على ثمانين سنة، مما أجمع الناس على أنه لم ينسق لأمة قبله أصلاً. وكان نابليون الأول لشدة دهشته من تاريخ الاسلام يقول فى جزيرة سنتيهلانة: ان العرب فتحوا الدنيا فى نصف قرن لاغيره

وتأمل أيها القارئ فى أن قائل هذا القول هو بونابرت الذى لم تكن تملأ عينه الفتوحات مهما كانت عظيمة :

وتعظم فى عين الصغير صغارها وتصغر فى عين العظيم العظام

فهذا رجل عظيم جداً استعظم حادث العرب الذى لم يسبق نظيره فى التاريخ، وقد بقى دور العرب هو الأول فى وقته، ولبشوا وهم المسيطرون فى الأرض، لا يضارعهم مضارع، ولا يغالبهم مغالب، مدة ثلاثة قرون أو أربعة. ثم أخذوا بالانحطاط، وجعلت ظلالهم تنقلص

(١) هذا مضمون حديثين أحدهما « الحكمة ضالة المؤمن خيث وجدها فهو أحق بها » رواه الترمذى من حديث أبى هريرة، ورواه غيره بمعناه مع اختلاف فى اللفظ. والثانى « اطلبوا العلم ولو بالصين . فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه العقيلي وابن عدى والبيهقى وابن عبد البر عن أنس وفيه عند الأخير زيادة أخرى فى فضل العلم وله طرق يقوى بعضها بعضاً

عن البلدان التي كانوا غلبوا عليها شيئاً فشيئاً ، وذلك بفتور الهمم ، وديب الفساد الى الأخلاق ، ونبد عزائم الدين ، واتباع شهوات الأنفس ، وأشد ما ابتلوا به التنافس على الامارات والرئاسات ، — ولا سيما بين القيسية واليهانية — مما لولاه لدانت لهم القارة الأوربية بأجمعها ، وكانت الآن عربية كما هو المغرب . فالمصائب التي حلت بالمسلمين انما هي مما صنعتهم أيديهم ، ومما حادوا به عن النهج السوي الذي أوضحه لهم القرآن الذي بلما كانوا عاملين بمحكم آيه علوا وظهروا وكانت لهم الدول والطوائل ، فلما ضعف عملهم به وصاروا يقرأونه بدون عمل ، وانتقادوا الى أهواء أنفسهم من دونه ، ذهبت ريحهم ، وولى السلطان الاكبر الذي كان لهم ، وانتقصت الأعداء أطراف بلادهم ، ثم قصدوا الى أوساطها . ولنضرب الآن بعض أمثلة عن الأمم الأخرى لأجل المقابلة بيننا وبينهم اذ كانت جصدها تتبين الأشياء

— اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها —

كان اليونانيون قبل النصرانية أرقى أمم الأرض أو من أرقى أمم الأرض ، وكانوا واضعي أسس الفلسفة ، وحاملين ألوية الآداب والمعارف ، ونبغ منهم من لا يزالون مصابيح البشرية في العلم والفلسفة الى يوم الناس هذا .

وكان الاسكندر المكدوني أعظم فاتح عرفه التاريخ أو من أعظم الفاتحين الذين عرفهم التاريخ ، حاملاً للأدب اليوناني ، ناشراً لثقافة يونان بين الأمم التي غلب عليها . وما كانت دولة البطالسة التي لمعت في الاسكندرية بعلمها وفلسفتها الا من بقايا فتوح الاسكندر . ثم لم تزل هذه الحالة الى أن تنصرت يونان بعد ظهور الدين المسيحي بقليل ، فزدانت هذه الأمة بالدين الجديد بدأت بالتردى والانحطاط ، وفقد مزايها القديمة ، ولم تزل تنحط قرنًا عن قرن ، وتندهور بطناً عن بطن ، الى أن صارت بلاد اليونان ولاية من جلة ولايات السلطنة العثمانية . ولم تعد الى شيء من النهوض والرقى الا في القرن الماضي ، وأين هي مع ذلك الآن بما كانت قبل النصرانية ؟

أفيجب أن نقول ان النصرانية كانت المسؤولة عن انحطاط يونان هذا ؟؟
ان القائلين بأن الاسلام قد كان سبب انحطاط الأمم الدائنة به لا مفر لهم من القول بان النصرانية قد أدت أيضاً الى انحطاط يونان التي كانت من قلبها عنوان الرقى

ثم كانت رومية في عصرها الدولة العظمى التي لا يذكر معها دولة ، ولا يؤبه في جانب صوانها لصولة ، ولم تزل هكذا هي المسيطرة على المعمور الى أن تنصرت لعهد قسطنطين . فند ذلك العهد بدأت بالانحطاط مادة ومعنى ، الى أن انقرضت أولاً من الغرب ، وثانياً من الشرق . ولم تسترجع رومية بعد انقراض الدولة الرومانية شيئاً من مكاتها الأولى ، وبقيت على ذلك مدة ١٥ قرناً حتى استأنفت شيئاً من مجدها الغابر . وما هي الى هذه الساعة ببالغة ذلك الشأو الذي بلغته أيام الوثنية

أفنجعل تنصر الرومان هو العامل في انحطاط رومة وتدرجها عن قمة تلك العظمة الشاهقة ؟ لقد قال بهذا علماء كثيرون كما قال آخرون مثل هذه المقالة في الاسلام ، وكلا الفريقين جاز حائد عن الصواب

فان لسقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحي فيهم ولسقوط اليونان من قبلهم بعد أن تقبلوا دعوة بولس الى النصرانية أسباباً وعوامل كثيرة من فساد الأخلاق ، وانحطاط الهمم ، وانتشار الخنى والخلاعة ، وشيوع الأخلاق والاباحة ، ومن هرم الدول الذي يتكلم عنه ابن خلدون ، وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية منضمة اليها غارات البرابرة من الخارج ، فكانت ثمة أسباب قاسرة مؤدية الى السقوط الذي كان لا بد منه ، فلو فرضنا أن النصرانية لم تكن جاءت وقتئذ لم يكن الرومان ولا اليونان نجوا من عواقب تلك الحوادث ولا تخطتهم نتائج تلك الأسباب

فدعوى بعض المؤرخين الأوربيين أن تغلب المسيحية على اليونان والرومان أخنى على عظمتهما ، وزهد بمدنيتها ، ليس فيه من الصحيح الا كون الأوضاع الجديدة تذهب بالأوضاع القديمة ، سنة الله في خلقه ، وانه في هيعة هذا التحول لابد من اضطراب الاحوال وانحلال القواعد واستحكام الفوضى ، والا فلا أحد يقدر أن يقول ان الوثنية أصلح للعمران من النصرانية (١)

(١) علماء المسلمين يعتقدون أن النصرانية على ما طرأ عليها من الوثنية بالتثليث الوثني القديم أصلح لأنفس البصر من الوثنية الخالصة ولكنها ليست أصلح ولا أقبل للعمران المدني الذي تتنافس فيه أوربة وغيرها لأنها ديانة مبنية على المبالغة في الزهد والخضوع لكل حكم دينوي ، والعمران لا يتم ولا يسو الا بالسيادة والملك والنفى ، ومن قواعد الانجيل أن الجل اذا دخل في تهب الابرة فالغنى لا يدخل ملكوت السموات ،

وهذه الدعوى كانت تكون أشبه بدعوى أعداء الاسلام الذين يزعمون ان الشرق كان راتعا في بحاج العمران ، فجاء الاسلام وطمس المدينيات الشرقية القديمة !! لولا أن الحقيقة هي كما قدمنا ان المدينيات الشرقية كانت كلها قد انقرضت أو انحطت قبل ظهور الاسلام بكثير ، وأن الاسلام وحده لا غيره هو الذى جدد مدينة الشرق الدارسة ، واستأنف صواته الزاهية الطامسة ، وبعث تلك الخواضر العظمى الزاخرة بالبشر كبغداد والبصرة وسمرقند وبخارى ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وهلم جرا ، ولئن كانت قد بقيت للشرق آثار مدينيات قديمة فإن الاسلام هو الذى وطد بوانبيها، وطرز حواشيها ، وحل السيف بيد والقلم بيد الى أبعد ماتصوره العقل من حدود الإقطار التي لم يسبق لشرق أن يطأها بقدمه فإذا كان الافرنج الضليبيون من الغرب ، وكان المغول اوائك الجراد المنتشر من الشرق ، قد تبرؤا ماعلا الاسلام في تلك الممالك ، ونسفوا عمران هاتيك الخواضر ، وكانت منافسات ملوك الاسلام الداخلية واتباعهم للشهوات ، وامعانهم في الضلالات ، ومحيدهم عن جادة القرآن القويمة ، وفقدهم مايزرعه في الصدور من الاخلاق ، العظيمة ، قد قضت في الداخل ، على ماعجز عن تعفيته العدو من الخارج ، فليس الذنب في هذا التقاص ذنب الاسلام ، ولا التبعة في هذا الانقلاب عائدة على القرآن ، وإنما الذنب هو ذنب الهمج من الافرنج ، وجناية ذلك الجراد الزحاف من المغول ، وإنما هي تبعة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بآياته ثمناً قليلا ، الا النادر منهم

وأیضا فقد تنصرت الامم الاوربية في القرن الثالث والرابع والخامس والسادس من ميلاد المسيح ، وبقيت امم في شرق أوربة الى القرن العاشر حتى تنصرت . ولم تنهض أوربة نهضتها الحالية التي مكنتها تدريجا من هذه السيادة العظمى بقوة العلم والفن الا من نحو أربعمئة سنة . أى من بعد أن دانت بالانجيل بالق سنة . ومنها بعد أن دانت به

ونعتقد أيضا أن جميع ما جاء به المسيح عليه السلام من الدين فهو حق وكان البشر في أشد الحاجة الى ما فيه من المبالغة في الزهد والتواضع لمقاومة ما كان عليه اليهود وحكامهم الروم (الرومان) من الطمع والكبرياء والتتوأن هذا كان تمهيدا للإسلام الدين الوسط المعتدل الجامع بين مصالح الدنيا والآخرة كما ذكرناه من اعتقادنا يتضمن اعترافنا بحقيقة دين المسيح في نفسه وبكونه من عند الله تعالى مع التعارض بينه وبين ديننا الناسخ له ومن وظيفتي أن آيين هذا في حاشية مقال كتب للنار باقتراح من أحد تلاميذ النار على أمير البيان

بسبب سنة . ومنها ثمانمائة سنة الخ وهذه هي القرون المسماة في التاريخ بالقرون الوسطى . ولا نقول ان الاوربيين كانوا في هذه القرون بأجمعهم هائمين في ظلمات بعضها فوق بعض . بل نقول ان العرب كانوا أعلى كعباً منهم بكثير في المدنية باقرار مؤرخيهم ، وبرغم ألف لويس برتران واضرا به . ومن الكتب المخرجة حديثاً الشاهدة بذلك التاريخ العام للكاتب الفيلسوف الانكليزي « ولز » و « تاريخ مدينت الشرق » لمؤلف افرنسي متخصص في التواريخ الشرقية اسمه « غروسه » فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هي واحدة في هذا الموضوع لم يظهر ما ينقصها ولن يظهر ، وهي : ان العرب في القرون الوسطى كانوا أساتيد الاوربيين ، وكان الواحد من هؤلاء اذا تخرج على العرب تباهى بذلك بين قومه

— سبب تأخر اوروبا الماضى ونهضتها الحاضرة —

أفنجعل هذا التأخر الذي كان عليه الاوربيون في القرون الوسطى مدة ألف سنة ناشئاً عن النصرانية التي كانت دينهم الذي يعضون عليه بالنواجذ ؟

نعم ، ان الأمم البروتستانية منهم تجعل مصدر هذا التأخر الكنيسة البابوية لا النصرانية من حيث هي . وتزعم أن نهضة اوروبا لم تبدأ الا بخروج (لوثير ، وكلفين) على الكنيسة الرومانية .

وأما فولتير ومن في حزبه من أقطاب الملاحدة فلا يفزقون كثيراً بين الكاثوليك والبروتستانت ، وعندهم ان جميع هذه العقائد واحدة وانها عاتقة عن العلم والرقى ، ولهذا قال فولتير تلك الكلمة عند ما ذكر لديه لوثير ، وكلفين ، قال : « كلاهما لا يصلح أن يكون خذاء لمحمد » يريد أن محمداً ﷺ بلغ من الاصلاح مالم يبلغا أدناه ، مع اعتقاد الكثيرين أن مذهبهما كان فجر أنوار اوروبا (١)

(١) ونحن نعتقد هذا وكان شيخنا الاستاذ الامام وأذكىاء مريديه كسعد باشا زغلول يعتقدونه ولكن بمعنى ساي وهو أن هذا المذهب أضعف حجر الكنيسة على العقول البشرية وتقيدها بتعاليمها وفهمها للدين ورأيها في الدنيا ، وكان سبب هذا المذهب ما سرى الى اوروبا عقب الحروب الصليبية بمعاشره المسلمين من استقلال العقل في فهم الدين . عدم سيطرة أحد عليهم فيه كما بينه شيخنا في كتاب الاسلام والنصرانية « الناشر »

والحق الذى لا رتاب فيه ان النصرانية نفسها لم تكن هى المسؤولة عن جهالة الافرنج
المسيحيين مدة الف سنة فى القرون الوسطى بل للمسيحية الفضل فى تهذيب برايرة اوربة
وهؤلاء اليابانيون هم وثنيون . ومنهم من هم على مذهب بوذا . ومنهم من يقال
لهم طاويون ، وكثيرون منهم يتبعون الحكيم الصينى كنفوشىوس . ولقد مضى عليهم
نحو الف سنة ولم تكن لهم هذه المدنية الباهرة ولا هذه القوة والمكانة بين الامم . ثم نهض
اليابان من نحو ستين سنة وترقوا وعزوا وغلظ أمرهم ، وعلا قدرهم ، وصاروا الى ماصاروا
اليه ولم يرحوا وثنيين

فلا كانت الوثنية اذا سبب تأخرهم الماضى ، ولا هى سبب تقدمهم الحاضر ، وقد
تقاوت اليابان والروسية وتجاربتا فتغلبت اليابان على الروسية . مع ان اليابانيين فى العدد
هم نصف الروس ، ولكن مما لاشك فيه ان اليابانيين أرقى من الروس ، والحال ان الروسية
عريقة فى النصرانية واليابان عريقة فى الوثنية

فليترك اذاً بعض الناس جعل الأديان هى المعيار للتأخر والتقدم (١)

أفنقول من أجل هذا المثال : ان الانجيل هو الذى أخر الروسية عن درجة اليابان ،
وان عبادة الآلهة ابنة الشمس هى التى جذبت بضعب اليابان حتى سبقت الروسية ؟

ان لهذه الحوادث أسبابا وعوامل مترابكة ترجع الى أصول شتى . فاذا تراكت هذه
العوامل فى خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد ، وأصبحت فضائل أقوم الأديان
عاجزة بازاء شرها ، كما أصبحت معائب أسخفها غير مؤثرة فى جانب خيرها

ولسنا هنا فى صدد أسباب تقدم اليابان السريع حتى نبين ان اعتقاد عامتهم « وجود
حصان مقدس يركبه الاله فلان » لم يقف حائلا دون تقدمهم المبني على ماركب فى فطرتهم
من الحاشية ، وما أوتوا من الذكاء ، وما أورثهم نظام الاقطاع القديم من التنافس فى
المجد والقوة

وعندنا أمثلة كثيرة لاتكاد تحصى فى هذا الباب اجتزأنا منها بما ذكرناه . وه نكن

(١) هذا صحيح فى جملة الأديان الا الاسلام فقرآنه وتاريخه يثبتان انه هو سبب تقدم أهله حين
اخذوا به . وسبب تأخرهم حين أعرضوا عنه ، كما بين هذا أمير الكتاب فى رسالته هذه فأظم الظلم أن
يجعل سبب تأخرهم « الناصر »

لنتعرض لهذا المقام لولا حلات القسوس والمبشرين وكثير من الاوربيين على الاسلام ، وزعمهم انه هو عنوان التأخر : وانه رمز الجود ، وتحديثهم بذلك في الأندية والمجامع ، ونشرهم هذه الافتراءات في المجلات والجرائد ، وقولهم ان الشجرة تعرف من ثمارها ، وان حالة العالم الاسلامي الحاضرة هي نتيجة جود الاسلام ، وتحجر القرآن ! « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا »

وحسبك أن المسيو « سان المقيم الافرنسي السامي » في المغرب ينشر في العدد الأخير من « مجلة الاحياء » الافرنسية مقالة يتكلم فيها عن نقطة المغرب بعد « ايل الاسلام » ! هكذا تعبيره

فان كان تأخر احدى الممالك الاسلامية حقبة من الدهر يجب أن يقال فيه « ليل الاسلام » فكم كان ليل النصرانية طويلا عند ما بقيت أوربة المسيحية زهاء ألف سنة وهي في حالة الهمجية أو ما يقرب من الهمجية

لماذا أيها الناس تدخلون الأديان فيما هي براءة منه ؟ ولماذا تقحمونها في موضوع يكذبكم فيه التاريخ بأمانيله الجمة

ان ادخال الأديان في هذا المعترك وجعلها هي معيار الترقى والتردى ليس من النصفة

في شيء

المدنية العربية

خدمة العرب لعلم الطب

لشكري

جاء في مجلة المستشفيات الفرنسية Gazette des Hopitaux بعددها المؤرخ بـ ١٩ مارس ١٩٣٢ أى العدد الصادر منذ شهر لتحرير هذه الاسطر نص محاضرة ألقاها الاستاذ الكبير والجراح الشهير البروفسور فورغ Fosgue الذى يُعد من أشهر جراحى فرنسا ان لم يكن أشهرهم وذلك فى تاريخ الطب عند الاسبانيول وما للامة الاسبانيولية من المعارج العالمية فى هذا العلم . وقد بدأ الاستاذ محاضرته بقوله : ان المستشفيات والمستوصفات ومراكز التعليم الطبى فى اسبانية قد أصبحت كلها عصرية بتمام المعنى وملكت من الأدوات والأدوية جميع ما يملكه غيرها فى سائر أوربة وليس فى برشلونه مثلاً معمل أو مُعْتَمَل يفتقر فى شىء عن المعامل والمُعْتَمَلات التى فى فرنسا . ولكن ليس هنا معترك الرأى ولا المقام الذى يمكننا فيه أن نقدر مزية الامة الاسبانيولية قدرها فى الطب والجراحة ، بل يجب علينا أن نرجع الى الوراء فنتصفح الكتب القديمة ونزور المستشفيات على ما كانت عليه فى شكلها السابق ونقرأ تاريخ الجامعات الاسبانيولية القديمة ونستقصى الحركة العلمية عند جيراننا هؤلاء ونخالط نفوسهم ونُدْخُلُ أوساطهم فإذا اطلعنا على ذاك الماضى ازددنا معرفة بهذا الحاضر وعلمنا أن اسبانية هى فى غربى اوربة أرض قائمة بنفسها لها مزاياها وخصائصها وانها تمتاز بميزات لا يشاركها فيها غيرها وأن فيها قوة حيوية قومية غير معهودة لكثير من الأمم وان لتلك الأدمغة الحارة من سرعة الفكر والاستعداد للنضال ما يجعل هذه الامة فريدة فى بابها ، ولأجل أن نفهم هذه الحالة النفسية عند الاسبانيول وجب علينا أن نفهم هذه الحقيقة التاريخية وهى استيلاء العرب على اسبانية وسلسلة الوقائع التى لا تحصى بينهم وبين الاسبانيول الى أن تمكن هؤلاء من استرداد بلادهم . فكأن بلاد الغال بقيت

نحو من خمسة قرون تحت حكم الرومان فقد بقيت اسبانية أيضا زهاء ثمانية قرون الى أن تخلصت من حكم العرب ، وهكذا يمكن قياس درجة اتصال الامة الاسبانية بالمدينة الاسلامية هذه المدينة التي كانت حلقة الاتصال بين العالم الاسيوى وأوروبا الغربية .

قال ليبرى Libri : احذف العرب من التاريخ يتأخر عصرُ التجدد في أوروبا عدة قرون الى الوراء . في سنة ٧١١ شن العرب الغارة بقوة ضئيلة (سبعة آلاف مقاتل) على اسبانية فنزلوا بها وفتحوها بسرعة الصاعقة واستصفوا تلك البلاد في سبع سنوات وابشوا فيها ثمانية قرون وما زالوا الى ١٤ يوليو سنة ١٢١٢ حتى بدأ في التاريخ دور تراجعهم أى ان الجزر لم يبدأ الا بعد خمسة قرون من المدّ وذلك في واقعة لاس نافاس دوطولوزا^(١) Las Navas de Tolosa وقد رأيت بعيني في دير هولغاس Houlgas بقرب برغاش Bergas إحدى الولايات التي وقعت في يد الأسبانيول في تلك المعركة وشعرت بما عند الاسبانيول من الاحترام لتلك الذكري والنخوة بها . وكانت طليطلة قد عادت للاسبانيول سنة ١٠٨٥ فصارت مركز الاتصال بين المدينتين الاسلاميه والمسيحية وسنرى مقدار تأثير هذه البلدة كمركز تبادل للبضائع العقلية وكتب للترجمة يحجج اليه طلاب العلوم من كلّ فج . ثم في القرنين الأخيرين انكفأ العرب من اشبيلية وقرطبة الى غرناطة فصارت معقلاً للانكماش واجتمع فيها فلول العرب . فأصبحت عاصمة ولعت فيها أنوار شعلة المدينة الاسلامية للمرة الأخيرة . وفي ٢ يناير سنة ١٤٩٢ كان سقوط غرناطة وجلاء العرب الأخير فتركوا كما قال « كلود فرير » من قصر الحمراء بقية باهرة تتأمل فيها القرون والحقب دهرأ طويلا كما ان طليطلة بقيت خزانة كتب تغنت بترجمتها الفكرة البشرية أعصرأ مديدة . لا جرم أن هناك تاريخا نادر المثال لم ينقصه شيء لا من العظمة ولا من طول المدة . وانتأمل الآن كيف أن هذا العمل المدني أو الحرث الفكري قد تمّ وبأية الوسائل قد تمّ وما ذا كان من تأثيره في ترقية المعارف الطبية

لقد كانت هذه المدينة في بدأ نشأتها كما قال الأخوان « طارو » Tarroud مدينة يونانية لاتينية ، اقتبسها العرب سريعا وطبعوها بطابعهم الخاص . وبهذا المبدأ الشريف

(١) هذه واقعة العقاب التي ظهر بها ملوك أسبانية المتحدون جميعاً على جيش الموحدين ، ولم تم بعدهما المسلمين في الأندلس قائمة تحمد

الذي بدأ به العرب باقتباس تلك المدنية ، تظهر جميع المعالي الأدبية التي في المدنية الاسلامية فانك ترى شعباً من القبائل الرُّحَّل رعاة الابل ، بسائق دعوة دينية يحملون على الأمم فيفتحون نصف العالم في مدة قرن واحد ثم يكون أعظم مهمهم ، بعد أن وطّدوا هذا الملك الطويل العريض ، أن يضمّوا الى عظمة الفتح عظمة العلم وكما قال لوكلرك Leclerc (١) الذي تأليفه مثال في النقد الدقيق والاطلاع الواسع : لم يكمل القرن التاسع حتى كان العرب قد ملكوا جميع علم اليونانيين فصارت بغداد مركز الحركة العقلية في الدنيا وتعددت فيها مكاتب الترجمة ، ثم صارت طليطلة في القرن الثاني عشر ما كانت عليه بغداد في القرن التاسع فهما اذاً أهم مراكز الترجمة وانتقال الآراء العلمية . وقد كان في بغداد نحو مائة مترجم ينقلون كتب يونان الى العربية والسريانية فنقلوا تأليف ابقراط وليئوس قوريدوس وجالينوس ورؤفوس وأوريباس وبولوس الأَجِينِي وبعد ذلك بثلاثة قرون صارت طليطلة في أسبانية هي مركز الترجمة ، وصارت المدنية الاسلامية تُعيد للغرب الديون العقلية التي كانت اقترضتها من مسيحي الشرق فعادت الافكار اليونانية الى أوربة بواسطة العرب على يد مترجمي طليطلة لا سيما جرار دو كرىمون Gérard de Cremonه . أما كيفية هذا النفوذ العالمي الذي اخترق الاقطار الاسلامية واستضاءت به مراكز المدنية الاسلامية في أسبانية بالأشعة الآتية من بغداد فان الاقرب الى العقل في أسبابها أن هذه المملكة كانت متصلة من الهند الى المحيط الاطلسيكي وكان لها نصف سواحل البحر المتوسط فكان الاتصال دائماً بين افريقية وأسبانية من جهة والشرق و بغداد من جهة أخرى . ولا شك أن الحج كان ذا تأثير شديد في نقل الافكار والآثار ولم تكن الرحلة الى الحج فقط . بل كانوا يُعملون الرحلة في طلب العلم انفسه . وقد عيّن لركرك حوادث من هذا القبيل فقال : ان محمد ابن عبيدون ذهب من الأندلس الى مصر وكان يمارس التطيب في مستشفى القسطنطينية وان ولدني يونس الحراني ذهباً يُحصّلان الطب في بغداد وبقياً عشر سنوات وعمره بن حفص ذهب الى القيروان للتحصيل وكما كان يذهب أطباء من الغرب الى الشرق كانت الأطباء تأتي من الشرق الى الغرب وتقصد سلاطين الاسلام في أسبانية فكانت الكتب نظير الطنائف الحريرية والحلي والجواهر يؤتى بها من الشرق الى الأندلس حتى اجتمع في

(١) طبيب شهير نشأ في جنيف في القرن السابع عشر وله تأليف كثيرة منها تاريخ الطب

خزانة قرطبة زهاء ستائة ألف مجلد في فهرس يقع في أربعة وأربعين مجلداً . وكان القرن العاشر هو القرن الذي بلغت فيه المدنية الإسلامية في الاندلس أوجها فأقبل الناس على العلم في جميع أنحاء المملكة العربية وتعددت مصادر الأشعة ولما انفصلت قرطبة عن بغداد كان ذلك سبباً لزيادة لمعانها باستقلالها وأخذ العرب بالتقدم الى الأمام فلم يكونوا يكتفون بمعرفة علوم يونان فحسب ، بل حثروا هذه العلوم وكشفوا طرقاً جديدة وازداد عدد علمائهم كثيراً كما ان عدد علماء المسيحيين عاد قليلاً . وظهر علماء من اليهود وأخذ عددهم يتزايد وانتقل المسلمون من دور الترجمة الى دور التوليد ، ومنهم ظهرت نوابع لذلك العهد مثل الجراح الشهير أبي القاسم خلف بن عباس الزهراوى فان هذا الرجل كان قدماً من الطبقة الأولى به بدئ تاريخ الطب الاسلامى في أسبانية وكان قدماً منقطع النظر في الجراحة العربية واليه انتهت الرياسة في علم الجراحة في القرون الوسطى ^(١) وكان مولده سنة ٩٣٦ مسيحية في الزهراء المدينة التي شادها عبد الرحمن الناصر وكانت لقرطبة أشبه بفرساي لباريس . وقد بالغ مؤرخو العرب في وصفها وأصاب لويس بيرتران بقوله انها مبالغات خيالية فقالوا ان قصر الزهراء كان يحتوى نحواً من ثلاثة آلاف من الحصيان ونحواً من ستة آلاف من الجوارى وانه وُضع في بنائها أربعة آلاف عمود من المرمر وانه كان فيها حوض ماء مزين بانثى عشر تمثالا من الذهب مرصعة باللازلى اهـ .

اتهى كلام الأستاذ فورغ هنا وقبل أن نكمل ترجمة محاضراته هذه ، نحب أن نذكر ملاحظة على ما كتبه بشأن قصر الزهراء أو مدينة الزهراء كما هو الاخرى فنقول ان لمؤرخى العرب ولغيرهم مبالغات في الوصف لا سيما اذا كان الموصوف خارقاً للعادة مثل قصر

(١) من الغريب أن ترجمة خلف بن عباس الزهراوى قد وردت في طبقات الاطباء لكن بصورة مختصرة جداً فهو يقول : خلف بن عباس الزهراوى كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة ، جيد العلاج وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوى ولخلف بن عباس الزهراوى من الكتب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف وهو أكبر تصانيفه وأشهرها وهو كتاب تام في معناه . اهـ ولكن قد ترجم ابن أبى أصيبعة صاحب هذا الكلام من أطباء الاندلس عدداً كبيراً جداً يستدل به على درجة رقي الطب في الاندلس لذلك العهد كما قال لوكمرك والأستاذ فورغ

الزهراء . ولكن لويس بيرتران المشهور بعداوته للاسلام كاذب فيما يزعم من ان قصر الزهراء لم يكن كما وصفه العرب . نعم ان قضية حوض الماء الذى عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب مرصعة بالثالى لم نجدها فيما قرأناه من أوصاف مؤرخى العرب للزهراء ولكن مما اتفق عليه المؤرخون ان بناء الزهراء استغرق أربعين سنة من خلافة الناصر وانه كان يشتغل فيها كل يوم عشرة آلاف من العملة وكان يُحمل اليها كل يوم ألف وخمسمائة حِمل من مواد البناء وأنه كان فى الزهراء عدة آلاف من الخصيان وعدة آلاف من الجوارى وكانت فيها أجناد ووُصفاء لا يأخذهم الاحصاء . وبالأجلال كان قصرُ الزهراء مدينة ومن شاء مراجعة ماجاء عن الزهراء فى الكتب فعليه بنفع الطيب وبغيره من الكتب المؤلفة على الاندلس وان أقل المؤرخين مبالغة وأكثرهم تدقيقاً فى الأخبار ابن خلدون قد وصف الزهراء وصفاً مدهشاً لم يكن ليكتبه لولا تيقنه أن الزهراء كانت كما وصفها . ولقد شاهدت أنا بعينى خرائب الزهراء سنة ١٩٣٠ فى سياحتى الى الاندلس وكان معى يومئذ المهندس الأسباني هيرنانديس الموكّل بعمليات الحفر فى الزهراء والدكتور رفائيل كاستيجون من أعضاء أكاديمية قرطبة فشاهدنا مكان الزهراء والآثار التى انكشفت منها بالحفر وعلمنا مابقى منها محجوباً فقال لنا العالمان الاسبانيان ان الذى انكشف من الزهراء فى مدة عشرين سنة أى منذ باثروا الحفر هو جزء من عشرين من مجموعها وقالوا انهم يُحتمّون بخمسين سنة الوقت اللازم لكشف جميع أنقاضها على نسبة العمل الذى عملوه الى الآن . وليس بمستغرب أن يكون ذلك كذلك لأن طول مكان الزهراء يبلغ تسعمائة متر وعرضه يبلغ سبعمائة وكله مغطى بالأنقاض كما أنه ليس بمستغرب أن يقال انه كان فيها أربعة آلاف عمود من المرمر وذلك بالنسبة الى سعة المكان مما يشاهده الانسان بعينه فضلا عن مقابلة مايشاهده بما يقرأه . وفى أعلى الزهراء متحف مؤقت مجموع فيه كثير من قطع الحجارة المخروطة والآثار النفيسة وقد شاهدنا بين الأنقاض، وهى القسم القليل الذى انكشف كثيراً من الرخام ومن القرميد الأحمر وقال لنا الاسبانيول ان أكثر البلاط النفيس والاساطين الثمينة قد نقلت من الزهراء الى أمكنة أخرى فالدير الذى فى سفح الجبل مبنى أكثره من حجارة الزهراء وعند مارموا جسر قرطبة أخذوا كثيراً من حجارتها ولا تكاد يوجد كنيسة مبنية فى قرطبة الا وفيها من حجارة الزهراء وقد كانوا أخذوا من أنقاض الزهراء الى اشبيلية وإلى غرناطة . بل كان

الموحدون في أثناء استيلائهم على الاندلس أخذوا من أعمدة الزهراء الى مراكز .
وبالاجال فان الزهراء كانت من أعظم مباني العالم وهي أعظم من الأسكوريال وأجل ،
على حين أن الاسكوريال هو أيضاً من أعظم مباني الدنيا . ولا يجوز أن يوصف بالمبالغة
ماورد من وصف قصر الزهراء الذي يسميه الاسبانيول بمدينة الزهراء والذي أجمع المؤرخون
على أنه كان يحتوي على بضعة عشر ألف نسمة من رجال ونساء . ثم نعود الى ترجمة الاستاذ
فورغ للجراح العربي الشهير المسمى بأبي القاسم . قال : انه كان بحاجة مشابراً على الشغل ،
كتب في حياته مايقع في ثلاثين مجلداً ، وكتابه في الجراحة هو أهم تأليفه وهو يستحق
أن يكون في تاريخ الطب المظهر الأول من مظاهر الجراحة كعلم مستقل مبني على أساس
من الحقائق التشريحية . قال أبو القاسم : اذا كان الطبيب يجمل التشريح يقع في الخطأ
ويقتل المريض فقد رأيت طبيباً جاهلاً يشرط خراجاً في عنق مريض ففتح له شرايين
العنق وما زال الدم يفيض حتى مات لساعته . ومما امتاز به أبو القاسم أنه أول من اخترع
الجراحة المصوّرة فقد جاء في كتابه نحو مائتي صورة عملية . ومن هذا أصبح هو العلم
المشار اليه بالبنان في هذا الفن . وفي القرن الثاني عشر عند ما ترجم جيرار دوكريمونيون
كتاب أبي القاسم الى اللاتينية صار هو الكتاب المتداول في أيدي الجميع . ومما يدل على
قيمه العظمى ان أستاذنا القديم غوي دوشولياك Guy de Chauliac من مدينة مونبيلييه
استشهد بكتاب أبي القاسم أكثر من مائتي مرة . فلا شك ان الجراحة العربية التي
تنمى الى أصل يوناني قد كانت تمت نمواً عظيماً في الغرب وحسبك شاهداً على رقي الجراحة
العربية كلمات الازدراء التي قالها « لانفرانك » Lanfranc في أواخر القرن الثالث عشر
فانه كان ذهب الى ايطاليا واطلع فيها على ترجمة تأليف أبي القاسم ورجع الى باريس فقال
عن جراحى باريس : انهم جهلاء ولا يكاد يوجد فيهم جراح واحد عالم بصنعتهم .

عند ما نصل الى طليطلة يستولى علينا تأثير المنظر الطبيعي بمكان طليطلة العجيب
المشرف على نهر « تاجه » مضافاً الى منظر الأبنية الباهرة . ولكننا ننسى طليطلة القرن
الثاني عشر والثالث عشر مدينة العلم أفاضلة ، مستودع الكتب العربية ، مقر الترجمة الذي
منذ بدأ الاحتلال الاسلامي يتقلص من هناك أصبح مقصداً لحجاج العلم ووراد المنايع
العقلية التي كانت لذلك العهد غير معروفة عند المسيحيين . فقد صارت طليطلة في الطرف

الغربي من المملكة العربية نظيرة لبغداد مركزاً للترجمة والتأليف بعد ثلاثة قرون من عهد ازدهار بغداد

قال لوكلرك مؤرخ الطب : انه في ذلك الوقت كان حصل حادثان عظيمان في قطبي العالم الاسلامي أحدهما الحرب الصليبية التي ساقطت الى الشرق نحواً من مليون مسيحي والثاني زحف الافكار الاسلامية على الغرب بواسطة الاندلس . فقد كان قصد مكاتب المسلمين في أسبانية كثير من طلاب العلم من جميع أنحاء النصرانية عطاشاً الى تلك المناهل فوجدوا في خزائن المسلمين في الاندلس من التأليف والتراجم العربية ما أحيا بينهم الفلسفة القديمة التي كانوا جهلواها . وكان للفرنسيس يد في نشر هذه المعارف البشرية لأن اسقفاً افرنسياً هوريموند داجن Raymond d'agen صار سنة ١١٣٠ رئيساً لأساقفة طليطلة فحق له الفخر بترجمة رسالة الروح لابن سينا اذ بعث في الناس همه الترجمة لكتب العرب فخرج منها ثلاثمائة ترجمة من العربي الى اللاتيني . وهكذا انتشرت بين الأيدي الكتب الحاوية لفلسفة يونان وفلسفة أعظم حكماء العرب . وهكذا انسدت النقص المظلم الذي كان واقعاً في الفكر البشري في القرون الوسطى وتقدمت مدارس الغرب الى الأمام . ولقد ذكر لوكلرك ان من هذه التراجم الثلاثمائة كان يوجد تسعون كتاباً مترجماً من العربية الى اللاتينية في الطب منها أربعة تأليف لأبقراط وخمسة وعشرون لجالينوس والباقي لحكماء الاسلام كالرازي وأبي القاسم وابن سينا وابن زهر . وكان جيرار دوكريمون وهو أعظم المترجمين همه ومن أذكرى رجال القرون الوسطى قد أكمل في مدة خمسين سنة ثلاثة وسبعين ترجمة أكثرها لكتب طبية ومن جملة هذه الكتب قانون ابن سينا الذي كان كافياً أن يشغل وحده حياة انسان . ومنها كتب أبي القاسم في الجراحة التي عملت في سير هذا الفن في أوربة الى الأمام العمل الاكبر فقد بقيت طليطلة اذن مدة قرنين كاملين معهداً للتأليف والترجمة من اللغة العربية واشترك في ذلك اليهود الذين كانوا يحسنون العربية ومن هذا المركز العالمي الذي هو طليطلة توزع مجموع تأليف وأفكار عامة للمعارف البشرية ، وكان لعلم الطب منه الحصة الكبرى

فاذا ألقينا بنظرنا بصورة مجملة على هذه المدنية الاسلامية في أسبانية يأخذنا العجب كما قال لوكلرك وكما ورد في بحث جري مؤخراً من أن بعض الكتاب المعاصرين أخذوا

ينكرون على العرب العبقريّة العلميّة . والحقيقة أن هذه الملكة العلميّة وأن هذا البحث والتنقيب قد أثبتتها العرب لأنفسهم من البداية في بغداد حيث قرر علماءها من ذلك الوقت تقريراً صريحاً المبادئ التي ينبغي أن يسير عليها العلم وهي السير من المعلوم الى المجهول وعدم قبول شيء على أنه حقيقة الا بعد ثبوته بالتجربة . اذن منذ القرن الحادى عشر أثبت العرب أنهم كانوا قد ملكوا الطريقة العلميّة الصحيحة ، وليس بصحيح القول أنهم ما أتوا بشيء جديد ، ولا أضافوا شيئاً يذكّر على التراث اليونانى اللاتينى ، ولا جرم أنهم بالبداية كان أساس عملهم الترجمة من الكتب القديمة ولكن ليس من العدل أن نقول انهم لم يكونوا الا وسطاء وأنهم لم يكونوا يعامون ما يترجون ولم يكن عندهم روح التوليد . وعلى هذا أجاب الفيلسوف الألمانى « هومبولد » Humboldt بقوله : « ان العرب لم يقتصروا على حراسة كنز المعارف الذى عثروا عليه بل أضافوا اليه وأوسعوه وفتحوا طرقاً جديدة للبحث فى أسرار الطبيعة »

وكان أطباء العرب أكثرهم من كبار الفلاسفة ومما لا جدال فيه أن أبا القاسم وابن رشد كانا من الدرجة الاولى فى رجال العالم وكانا من العلماء الواضعين وأبو القاسم هو الذى سبق الى سد الشرايين عند العمليات واخترع طريقة تفتيت الحصى فى المثانة وطريقة استخراج الحصى من مثانات النساء . وأشار عند حصول الفساد المسمى بالفنّزيرتة بالقطع العاجل . وأما ابن رشد الفيلسوف القرطبي الذى كان يشتغل ليلاً ونهاراً وقيل انه لم يتخلّ من الشغل بالعلم الا ليلة زواجه وليلة وفاة والده ، فقد كان مفسر فلسفة أرسطو . وفى كتابه الكليات فى الطب أشار الى الدورة الدموية . واذا شاء الانسان أن يزن بحق وعدل مقدار تأثير البضائع العربيّة فى معاهد الطب فى أوربة فما عليه الا بمراجعة برنامج مدرستنا الطبيّة فى مونيخ . فانتا نجد فى أواخر القرن الثالث عشر من جلة الكتب التدريسيّة جدول تراجم لاتينية لكتب عربيّة جاء بها الأطباء اليهود الذين هاجروا أسبانية الى جنوبى فرنسا وكان فى ذلك الجدول لحكام اليونانيين كتب من تأليف أبقرات وجالينوس ولحكاه العرب كتب من تأليف ابن سينا والرازى وقسطنط واسحاق وحسين . وفى سنة ١٣٤٠ قرر المجمع الطبى الأوكلىة لجالينوس وابن سينا وفى سنة ١٥٠٠ حكموا بالسبق لابن سينا فى خمس محاضرات من أصل عشر وجالينوس فى أربع ، ولابقراط فى واحدة وفى سنة ١٥٣٤

كانت تأليف العرب الطبية هي المعتمد عليها في مدارسنا ولم تزل الحالة هي هذه الى القرن السادس عشر حيث أخذوا يترجون ابقراط من اليونانية رأساً ولم تُحذف تأليف العرب من برامج التدريس عندنا الا في أواخر القرن السادس عشر. قال المؤرخ الكبير جرمان German من مونيخية اننا نشهد لكتّاب العرب الذين كتبوا في المواضيع العلمية بمزية الايضاح التام والطريقة التعليمية. نعم ان هؤلاء العرب الذين يرجعون الى نصاب قديم من مدنية اليمن كانت فيهم قابلية عظيمة للثقافة العليا ولم يكن فيهم شيء من البربرية

اتسهي كلام الاستاذ فورغ فيما يتعلق بالعرب وبعد ذلك أنهى محاضراته بما يتعلق بحركة علم الطب عند الاسبانيول وقد رأينا مناسبا نشر شهادة هذا الجراح الافرنسي الكبير للعرب في خدمة العلم عموماً والطب والجراحة خصوصاً وفضلهم في ذلك على العالم وقوله ان العلم العربي كان مبنياً على التجربة والاختبار ونظن في شهادات مثل هؤلاء الفحول « لوكلرك » و « همبولد » و « جرمان » و « فورغ » وعبد لا يحصى من أمثالهم مقنعاً لمن يريد أن يتحقق قضية فضل العرب على أوربة ويعرف هذان أولئك الثنائين الذين يحاولون انكار هذه الحقيقة أو يزعمون أن العرب بنوا معارفهم على « الاسلوب الغيبي » وانهم لم يكن للتجربة نصيب من علومهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا

الحركة العلمية في الحضارة العربية

كما يصفها الفيلسوفان

ولز الانجليزى و درابر الاميركى

للامير شكيب

ومن رأى رأياً عظيماً في الحضارة العربية الفيلسوف الانكليزى الكاتب المشهور ولز الذى يعد في طليعة مفكرى هذا العصر . وقد سبق لنا الاستشهاد ببعض كلامه في شان البعثة النبوية ، وقولنا انه اصاب في بعض الآراء لا في جميعها . وهما نحن أولاء نذكر خلاصة رأيه في حضارة العرب . قال في كتابه « تجربة في التاريخ العام » في مبحث الاسلام ما تلى ترجمته :

« قبل أن نأتى على ذكر الآثار وعلى ذكر الحروب الصليبية الكبرى التى جعلت النصرانية تقف وجهاً لوجه بازاء الاسلام ، والتى جعلت كلاً من هاتين الملتين تعادى الاخرى الى هذه الساعة عداوة غير معقولة ، يجب علينا أن نلاحظ جيداً الحياة الفكرية التى كانت عليها الأمم الناطقة بالعربية ، والتى كانت قد بدأت تنتشر في الاصقاع التى كانت الثقافة اليونانية مدت عليها رواقها . فنقول : انه في القرون التى سبقت ظهور محمد كان الفكر العربى أشبه بالنار تحت الرماد . فلما انكشف عنه الرماد بالفتح الاسلامى ، لمع لمعانا لم يعهد أن فاقه فيه الا الفكر اليونانى . وهذا في أسنى أدواره . فجاء الفكر العربى بشكل جديد ، وبقوة جديدة ، وعالج علاجاً شريفاً تنمية العلوم الصحيحة نظير ما عالج اليونانيون ولقد كان اليونانى أباً للعلم فجاء العربى وحل محله في هذه الابوة . وكانت طريقة العربى هى أن ينشد الحقيقة بكل استقامة ، وبكل بساطة ، وان يجليها بكل وضوح وبكل تدقيق ، غير تارك منها شيئاً في ظل الاهام . فهذه الخاصة التى جاءتنا نحن الأوربيين من اليونانيين

وهي نشدان النور انما جاءتنا عن طريق العرب ولم تسقط الى أهل العصر الحاضر من طريق اللاتين .

فانه لما فتح العرب فتوحاتهم اتصلا بفلسفة يونان ، لا مباشرة بل بواسطة النصارى النسطوريين الذين كانوا في شرق النصرانية ، وكانوا أرقى فكرياً من نصارى يزنطية المشغولين بعلم اللاهوت ، وكان سوى تثقيفهم أعلى جداً من النصارى اللاتينيين في الغرب فهؤلاء النساطرة كانوا لعهد الفرس الساسانيين أحراراً في ثقافتهم ، وجاء الاسلام فلم ينزع منهم هذه الحرية . وكانوا قد أخذوا جانباً عظيماً من طب يونان ، ثم عززوه بتجاربههم . ولما ظهر الاسلام ، صاروا هم الأطباء في قصور الخلفاء . ومما لا شك فيه أن منهم من كانوا يمارسون الشعائر الاسلامية ، ولا يرون فيها حرجاً على أفكارهم . وكانوا قد حفظوا جانباً من مقالات ارسطو مترجمة الى السريانية ، وكانت عندهم معلومات قيمة في الرياضيات . فإذا كانت بجانب علومهم معلومات القديس بنديكتوس مثلاً ؟ فالعرب القادمون من الصحراء بتلك العقول الذكية المولعة بالاطلاع ، اعتمدوا على هؤلاء النساطرة وتعلموا منهم وأضافوا الى ما تعلموه علوماً جديدة .

ولم يكن النساطرة هم المعلمين الذين انفرد العرب بالأخذ عنهم . بل كان اليهود في جميع حواضر الشرق منششرين . وكانت لهم ثقافة خاصة بهم ، وملكية راسخة في العلوم ، فكان كل من الفكر اليهودي والفكر العربي يؤثر في الآخر تأثيراً عائداً للخير العام . ومن المعلوم أن اليهود هم ممتازون بسهولة تعلم اللغات ، فقد كانوا قبل الاسلام بألف سنة يتعلمون اليونانية في الاسكندرية ، ويؤلفون بها الكتب . وهامهم الآن بعد ظهور الاسلام يتقنون العربية ويؤلفون بها . ولقد اختلط العرب باليهود بحيث لا نقدر أن نعرف في الثقافة العربية أين ينتهي اليهودي وأين يبدأ العربي .

وكان للعرب منبع آخر للعلم ، لا سيما ما تعلق منه بالرياضيات وهو الهند ، فمما لا شبهة فيه ان الفكر العربي استفاد كثيراً من تلك الجهة .

ولقد بدأت مظاهر الحركة الفكرية العربية في دور بني أمية ، الا أنها في دور بني العباس آتت أشهى ثمارها . ولما كان التاريخ هو مبدأ كل فلسفة صحيحة وكبدها ، وكان الرأس والقلب لكل أدب كبير ، كان أكبر كتاب العرب مؤرخين ، ومحرفي تراجم ،

وشعراء مشغولين بالتاريخ . ولما صار التعليم عاما ولم يعد خاصاً بطبقة دون طبقة ؟ ظهرت للعرب مؤلفات في النحو والصرف واللغة لا تحصى .

فكان العالم الاسلامى سابقاً للعالم الاوربى بنحو قرن فى المدنية . وكانت المدارس الجامعة فى البصرة ، والكوفة ، و بغداد ، والقاهرة ، وقرطبة ، وانبثقت أنوارها فى العالم كله ، وقصدها الطلاب من المشرق والمغرب . وقد كان كثير من طلبة العلم فى قرطبة من المسيحيين . ودخلت فلسفة العرب الى أوربة من طريق أسبانية ، وظهرت فى جامعات باريز وأكسفورد ، وشمالى ايطالية ، وأثرت كثيراً فى مجرى الفكر الأوربى ولا سيما فلسفة ابن رشد القرطبى (١١٢٦ — ١١٩٨) التى بلغت الذروة العليا من هذا الموضوع . وكانت فلسفة العرب مبنية على مذهب أرسطو وعلى وضع حد فاصل بين الحقيقة العلمية والحقيقة الدينية مما حرر المباحث العامة من رق التحريجات الدينية اللاهوتية التى كانت تعوقها سواء فى النصرانية أو فى الاسلام . ونبع فى الاسلام فيلسوف آخر هو ابن سينا أمير الأطباء (٩٨٠ — ١٠٣٧)

وكانت الوراقة والصحافة من أزهر الصناعات فى حواضر الاسلام ، مثل دمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، والاسكندرية . وفى سنة ٩٧٠ (مسيحية) بلغ عدد المدارس الحرة التى تأسست لتعليم الفقراء مجاناً فى قرطبة سبعة وعشرين مدرسة .

قال « تاتشر » Tatcher و « شفيل » Schwil فى تاريخ أوربة العام : ان العرب انما بنوا فى العلوم الرياضية على أساس اليونانيين ، وأما أصل الأرقام التى يقال لها الأرقام العربية فلا يزال غامضاً . وقد كان « بونتيوس » فى زمان تيودوريك الكبير (ملك القوط الشرقيين الذى كان فى ايطالية) يستعمل بعض اشارات تشبه الأرقام التسعة التى نحن نستعملها الآن . وكان أحد تلاميذ « جربرت » يستعمل أيضاً اشارات أشد مضاهاة لأرقامنا الحاضرة . وأما الصفر فبقى مجهولاً الى القرن الثانى عشر (المسيحى) اذ اخترعه عربى اسمه محمد بن موسى كان أيضاً هو أول من استعمل الاشارات للكسور ، وجعل للأرقام قيمة متعلقة بمواضعها . ولم يزد العرب شيئاً فى الهندسة على ما قرره اقليدس الا أن الجبر علم هم الذين انفردوا بوضعه . وكذلك أسعوا علم مساحة المثلثات الكروية ، واخترعوا « الجيب » و « الخط المماس للدائرة » وكان لهم فى الطبيعيات اختراع رقاص

الساعة ، وكتبوا في علم المرائي ، وتقدموا كثيراً في علم الفلك ، وبنوا المراصد الفلكية ، وأحدثوا الآلات اللازمة لهذا العلم ، والتي لا تزال معتمد الناس الى اليوم . وهم الذين حسبوا زوايا سمت الشمس ومبادرة نقطة اعتدال الليل والنهار . فكانت معارفهم الفلكية واسعة فعلاً .

وأما في الطب فقد بلغوا شأواً فأتوا فيه اليونانيين بكثير . وقد درسوا الفسيولوجيا وعلم الصحة ، وكانت طرق طبهم العملية نظير طرقنا الحاضرة . ولا تزال نحن الى يوم الناس هذا نستعمل كثيراً من أدويتهم . وكان جراحوهم يعرفون التخدير ويعملون العمليات الجراحية الصعبة ، وبينما كانت الكنيسة في أوربة تمنع ممارسة الطب وتعتمد في شفاء الاستقام على الطقوس الدينية لا غير ، كان العرب ذوى ملكة حقيقية في الطب . وكان لهم نصيب وافر من علم الكيمياء ، فقد كشفوا كثيراً من المواد التي لم تكن معروفة كالكحول ، والبوتاس ، ونيترات الفضة ، والسليمان ، وكثيراً من الحوامض . وأما من جهة الصناعة فكانوا أرقى من وجد الى ذلك الوقت يتفنون في صنع ما يريدونه في الذهب والفضة والنحاس والقصدير والحديد والفولاذ . وكانوا يصنعون الزجاج والخزف الفاخر ويعلمون جميع أسرار الألوان ويتقنون الصباغة ، ويعملون الكاغد للكتابة ويهيئون الجلود بصور متنوعة ، وكانوا يصنعون أنواع الأشربة ، ويستخرجون السكر من القصب . ثم انه كانت لهم القدم الراسخة في الزراعة يجرون فيها على طريقة علمية ، وكانت لهم أساليب راقية في الري^(١) ومعرفة بخواص الأسمدة ، وكانوا يلائمون بين الحبوب وطبيعة الأراضي ، ويعلمون من أصناف التطعيم في الفواكه والأزهار ما لا يعلمه سواهم ، وهم الذين أدخلوا الى أوربة أشجاراً ونباتات لم تكن تعرفها ، وحرروا في علم الزراعة كتباً قيمة .

ومن أهم ما أتقنه العرب ، وكان له أعظم تأثير في الحركة الفكرية البشرية ، صناعة الكاغد . والذي يظهر أن العرب أخذوها عن الصين وألقوا بها الى الأوربيين . وقد كانت الكتابة الى ذلك الوقت على الرق والبردى . ثم لما فتح العرب مصر انقطع ورود البردى ،

(١) ولا تزال طرق الري العربية هي الجارية في أسبانية الى اليوم لم يزيدوا عليها شيئاً

الى أوربة ولهذا تأخرت المدينة الاوربية قرونا عن سائر المدن فانه بدون ورق للكتابة يستحيل أن تنتشر المعارف انتشاراً مذكوراً »

وختم وز فصله عن حضارة الاسلام بجملة نستجلب اليها أنظار القراء ولو كانت الحقيقة التي فيها مؤلة
قال :

« ان كل هذا النشاط الفكرى حقل في العالم الاسلامى في وسط الاضطراب السياسى والقلق فان العرب لم يوفقوا في وقت من الأوقات الى نظام حكومى ثابت آمن غوائل الاضطراب والانقلاب ، بل جميع الحكومات التي أسسوها كانت مطلقة عرضة للزلازل والمكاييد والغيلة والعوارض التي هي من لوازم كل حكومة مطلقة التصرف »
قال :

« الا أنه برغم هذه المزاهاز المستمرة ، وهذا القتل الذي يكاد يكون متصلاً ، وهذه الفتن الطويلة العريضة بين الأحزاب ، كان لروح الاسلام نظام خاص ، مطرد بآدى التأثير في حياة الأمة ، ماسك بحجزاتها عن التهور . ولقد عجزت السلطنة اليزنطية عن زعزعة أركان المندنية الاسلامية . وطول ما كان التركى غير متصرف بأزمة الاسلام ، كانت حياة الاسلام الفكرية غضة . ولعل الاسلام كان في ذات نفسه مغتبطاً بأن تكون حياته العقلية مستمرة مطردة برغم ما كانت عليه حياته السياسية من التخبط والتهور »

ولقد ذهب وز الى أن الاسلام كاد يفتح العالم أجمع لو بقى سائراً سيرته الأولى ، ولولم تنشب في وسطه من أول الأمر الحرب الداخلية . فقد كان هم عائشة أن تقهر عليا قبل كل شيء . وقد كان هم كل من الفريقين العلوى والأموى أن يستولى على الخلافة قبل همه في بسطة الاسلام في الأرض ، الى غير ذلك من الآراء التي نجدها في أكثر كتب المحققين من علماء التاريخ والتي لا تقدر مع الأسف أن نقول انها غير صحيحة .

ومن أعظم المؤلفين الذين أجادوا في موضوع اسلام العلامة « درابر » الأميريكى المشهور صاحب كتاب « اختلاف العلم والدين » فقد كتب كتاباً نادر المثال في تاريخ الحركة الفكرية العالمية في العالم ، وما كان بازائها من العقائد والأديان وما وقع من

المصارمة بين المبدأ العلمي والمبدأ الديني .

وكنت اطلعت على هذا الكتاب اذ كنت في الثامنة عشرة من العلم وأجعت ترجمته الى العربية ، ثم أنجزت ذلك نقلاً عن نسخته الافرنسية التي كان يسهل على الترجمة عنها أكثر من النسخة الانكليزية . ثم اني لأجل زيادة التدقيق والضبط أطلعت عليها العلامة الشهير أستاذ أساتيد العصر الدكتور فانديك ، الذي كان لي عليه تردد كثير ، وكان له نحوي ميل شديد وكنت ممن يستضيء بأرائه . فالدكتور فانديك والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده طيب الله ثراهما ، هما اللذان صححا عزمي على ترجمة هذا الكتاب ، وباشرت بذلك وصرت آتية من الترجمة الى الدكتور بكراس كراس ، وهو يطالعها ويراجعها ويصحح ما يراه محتاجاً الى التصحيح . وقد كان تصحيحه للألفاظ العلمية والاصطلاحات الفنية التي لم أكن لذلك العهد أركن الى نفسي فيها . ولا تزال تصحيحات الدكتور فانديك بخط يده على حواشي المخطوط . وان يسر الله طبع هذا الكتاب فأسطبع عبارات تصحيحه كما كتبها هو أي منذ ٣٤ سنة . ولقد شهد لي الدكتور يومئذ بصحة الترجمة وقال لمن سأله عنى فيها هكذا : « جاء بالصنعة »

واني لنأقل الآن بالحرف قول العلامة « درابر » من كتابه المذكور تحت عنوان : « الفصل الرابع : في تجدد العلوم في الجنوب » مترجماً بقلمى القاصر منذ ثلاث وأربعين سنة مصححاً بقلم الدكتور العلامة الأشهر فانديك الاميركاني عفا الله عنه وجزاه خيراً : —

« قال الامام علي : لاحظت كثيراً في مدة حياتي الطويلة أن الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم . ولعمري ان هذه الملاحظة الفلسفية البعيدة المرمى التي آتى بها صهر محمد ، لمي عين الصواب . فانه مهما كانت ملامح المرء وتقاطيعه دالة على نسبته فان البيئة التي يوجد فيها لمي منشأ طبيعته الفكرية وحد وجهته العقلية . ولما فصح عمرو بن العاص نائب الخليفة عمر ، أرض مصر ، وضمها الى المملكة العربية ، وجد في الاسكندرية نحوياً يونانياً اسمه يوحنا فيلوبونوس ، ومعناه « محب الشغل » فخلت بينهما مودة ، ورغب هذا الرجل الى عمرو أن يتخلل له عن بقية المكتبة الكبرى ، مما لم يكن أخنى عليه الدهر ، ولا ذهب به التعصب ولا أفنته الحروب . فاستأذن عمرو الخليفة في ذلك فأجابه :

« هذه الكتب اما أن تكون موافقة للقرآن ، أو مخالفة له ، فان كانت موافقة فنحن

في غنى عنها ، وان مخالفة فهي ضارة وواجب احراقها « فوزعت على جامات الاسكندرية
وبعد ستة أشهر لم يبق شيء منها ^(١) »

ومهما وقع من المراء في هذه المسئلة فما لا شك فيه صدور هذا الأمر عن الخليفة ،
لأن عمر لم يكن من الطبقة المشتغلة بالعلوم ، ولم تكن الجماعة التي حوله الا من الرجال
المتحمسين في الدين الذين ليس لهم هوس بشئ آخر . فعمل عمر قد حقق ملاحظة على .
ولا ينبغي أن يظن أن الكتب التي كان طمع فيها « محب الشغل » كانت كتب الخزانة
الكبرى المنسوبة الى البطالسة ، والى أو مانوس ملك برغام ، بل كان قد مضى الف سنة على
العهد الذي ابتداء فيه فيلادلفيوس بجمع كتبه . وكان يوليوس قيصر قد أحرق أكثر من
نصفها . وكان بطارقة الاسكندرية قد سعوا سعياً حثيثاً في احراقها . وقد روى أوراسيوس
أنه كان قد شاهد قطرات المكتبة فارغة ، قبل ان صدر أمر الامبراطور لتأويلوس عم
القديس كيرلس ، باحراق الكتب بمدة عشرين سنة . وعلى فرض عدم جريان هذه
الأحوال . على هذه المكتبة ، فان طول الاستعمال ، وكثرة الممارسة ، وما هناك من العوارض
والحوادث اليومية ، والسرقات على طول مدة عشرة قرون متوالية ، لمن الأسباب التي تخنى
على كثير من موجود المكتبة . ولا جرم أن يوحنا النحوي لم يكن له طاقة بنصف مليون
مجلد . ولم يكن ليقدّر أن ينفق عليها انفاق البطالسة والقيصرة . هذا وان المدة التي زعموا
استغراق الحريق اياها لا ينبغي أن تكون قاعدة للحساب ، فان ورق البردى سهل الوقد ،
ولكن الرق لا يتقد بسهولة ، ولهذا لم يكن الجاميون يؤثرونه ما وجدوا غيره . وقد كان
القسم الاكبر من كتب مكتبة الاسكندرية من الرق المذكور .

وأصح وأوثق من احراق عمر لمكتبة الاسكندرية ، احراق الصليبيين لمكتبة
طرابلس الشام التي قيل انهم وجدوا فيها نحواً من ثلاثة ملايين مجلد . فقد كانت المسئلة
دينية من الجانبين . ويقال ان الصليبيين لما دخلوا القاعة الأولى من المكتبة الطرابلسية ، لم
يجدوا الا المصاحف ، فظنوا الأمر كذلك في سائر القاعات فاضرموا النار في الجميع . وليعلم
ان خبر هاتين الواقعتين لا بد أن يكون وقع فيه شيء من المبالغة . ولكن لا بد أن

(١) كتب الدكتور فاندك على حاشية هذه الجملة : هذه القصة حكاه غريغوريس أبو الفرج وعليها

يكون له أصل من الصحة . وهكذا لا يزال التحمس الديني له هذه الأمثال . أفلم يحرق الأسبانيول في المكسيك قطع الكتابات البروغليفية تلك الخسارة التي لا تعوض . أفلم يحرق الكردينال كسيمينس في ساحة غرناطة ثمانية آلاف كتاب عربي ، قسم كبير منها تراجم للعلماء والمؤلفين^(١)

ولقد رأينا تأثير الحروب في انتشار العلوم لعهد البطالسة وما أيقظته غزوات الاسكندر للفرس من الهمم في طلبها ، وقد كانت النتيجة نفسها لغزوات المسلمين . ومن الصداقة التي انعقدت بين عمرو بن العاص ، ويوحنا النحوي ، يظهر لك مقدار ميل العرب بطبيعتهم الى حرية الفكر . فانهم ماخرجوا من وثنية الجاهلية الى التوحيد المحمدي حتى استعدت قرائح جميعهم للعلوم الفلسفية ، والفنون الأدبية ، وكان نسطرة سورية ، ويهود مصر ، هم الذين ينهجون لهم السبيل لذلك . ولقد كنا أشرنا الى ما أصاب نسطور وأصحابه من الانتقام بسبب قولهم بوحدانية الخالق ، تبارك وتعالى ، وانكارهم وجود سماء ذات آلهة واهلات ، وقولهم نعوذ بالله من الاعتقاد بملكية السموات مريم العنراء .

فهذه العقائد التي كان عليها النسطرة ، سهلت جداً علائقهم مع المسلمين . ولم يكثف هؤلاء من مودتهم بمجرد المجاملة ، بل قلّدوهم المناصب في المملكة . وكان النبي نفسه يوصي بهم خيراً . وكذلك الخليفة عمر . وكانت لهما عهود بحسن معاملتهم . ثم في دور العباسيين وضع هرون الرشيد دور العلم العامة تحت نظارة يوحنا بن ماسويه^(٢) وزد على

(١) الذي قرأته في بعض كتب الاسبانيول ان الذي أحرقوه في غرناطة من الكتب العربية أكثر من هذا العدد بكثير قبل مائة الف كتاب وقيل أكثر وانهم أحرقوا كل الكتب بدون استثناء ، سوى كتب الطب والطبيعة والحساب

(٢) قال في طبقات الأطباء : كان يوحنا بن ماسويه مسيحي المذهب ، سريانياً ، قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد باقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباهها المسلمون ووضعه أميناً علي الترجمة وخدم هرون والأمين والأمنون وبقى علي ذلك الى أيام المتوكل . وكانت بنو هاشم لا يتناولون شيئاً من أطعمتهم الا بحضرته

الناطرة اليهود ، فان هؤلاء عند ما مالت النصرانية الى الأخذ عن الوثنية ثم دخلت فيها عقيدة التثليث ، ازداد نفورهم من النصرانية ، ولم تزد القرون الطويلة التي مضت عليهم بالمصائب والنكبات الا استمساكا بعقيدتهم التوحيدية ، ومقتناً للبادئ الوثنية التي أشر بواكرايتها أيام أسره في بابل . فترجوا هم والناطرة مؤلفات كثيرة يونانية ولاتينية الى السرياني ، ثم نقلت هذه الكتب الى العربي وسار الناطرة يعلمون أولاد أمراء الاسلام واليهوداء لهم .

وهذا الائتلاف كسر من سورة التعصب الاسلامي ، ودهت من أخلاق المسامين ، وأعلى من مستواهم الفكري ، فجابوا ممالك الفلسفة والعلم بأسرع مما جابوا ولايات المملكة الرومانية ، وعدلوا عن الافكار العامية الى الحقائق العلمية

والحاصل أنه في ذلك العالم التي أغارت عليه الوثنية ، لم يبق آخذاً بثأر الوجدانية الالهية الا سيف المسلمين . وما أعان كثيراً على حصول هذه النتيجة عقيدة القضاء والقدر التي في القرآن « أينا نكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة »

وقد قال علي : لا ريب في أن جميع أعمال العباد هي بيد الله وحده . فالمسلمون الحقيقيون هم الذين يخضعون لمشيئة الله فيوفقون بين الاختيار المطلق ، وسبق قضاء الله قائلين : « قدّر علينا القضاء وعلينا وضع ألوانه » ويقولون : « اذا شئنا التسلط على قوى الطبيعة لم يلزمنا أن نحاول مقاومتها رأساً ، ولكن تعديل القوة الواحدة بالآخرى » . فهذه العقيدة هيأت ذويها للقيام باكبر الأعمال فتبدلت باليأس الاتكال ، واحتقرت الآمال « اليأس حرّ والأمل عبد »

على أن خوض الغمرات أظهر للمسامين أن في الطب مع ذلك تخفيفاً للألام . وفي الجراحة ضماً للجروح . وإن الذين أشفوا على الهلاك يمكنهم بواسطة العلم أن يعودوا (باذن الله) الى الحياة . وتقرر أن للاختيار المطلق مدخلاً عظيماً في الحياة الشخصية ، وإن الانسان يمكنه الى درجة معلومة أن يصور بأعماله الاختيارية اقدار نفسه ، أما الجماعات فليس لها ضمن شامل ، وإنما تحي في ضمن مملكة النواميس الثابتة

وكان الخلاف بين المسيحية والمحمدية في هذا المقام عظيماً . لأن المسيحي كان مؤمناً بدوام التدخل الالهى ولم يكن يعتقد بناموس أزلى أبدي يدور عليه الكون ، وكان يرجو

بصلواته تغيير سير الأشياء ، وإن لم تكن صلواته مما يستجاب فبصلوات مرير العنبرآ والقديسين ، وبحرمة النخار المقدسة . وكان اذا رأى صوته ضعيفاً التمس ذلك من الكهنة والاشخاص المشهورين بالتقوى ، وأضاف الى صلواتهم الهدايا والتسور والصدقات . وكانت النصرانية بأسرها تعتقد بإمكان انقلاب العالم بحذافيره بواسطة الخوارق والمعجزات . فلما الاسلام فكان بالعكس ، معتمداً على التسليم الطاهر للإرادة الالهية . فكانت صلاة المسلم عبارة عن الشكر لله تعالى على ما قدره للعبد وصلاة المسيحي تضرعاً لأجل الانعام بالخيرات المرتجاة وكلاهما اعتاض بالصلاة عن رياضات الهنود واستغراقهم في التأمل . فليس الوجود عند المسيحي الا سلسلة حركات فجائية وحوادث قد تجيء متنافسة بتأثير الصلوات والقداسات التي تتجاذبها . وليس الوجود عند المسلم الا سلسلة مفاعيل وعلل آخذ بعضها برقاب بعض . فما حركة جسم من الاجسام عند المسلم الا نتيجة حركة سابقة ، وما الفكر عنده الا وليد فكير آخر . ولكل حادث تاريخي عنده منبع في حادث قبله ولكل عمل بشري أصل في عمل آخر . ولم يحدث في العالم الانساني شيء الا وقد أُعيد من قبل . فهناك تسلسل منطقي مطرد . وإن القضاء هو أشبه بسلسلة من حديد كل حادث فيه بمثابة حلقة منها . وهذه الحلقة قد وضعت موضعها منذ الأزل ونحن جئنا الى الدنيا ولا علم لنا ونخرج من الدنيا رغم ارادتنا فلم يبق علينا الا أن نكون منتظرين

وإن عدا هذا الرأي بشأن سير الحياة البشرية ، جدٌ عند المسلمين رأى آخر بشأن تكوين العالم العضوي . فقد كانوا في الاول يفهمون من ظاهر القرآن ان الارض رقعة مسطحة مربعة الزوايا ، محاطة بجبال عالية ، وهذه الجبال هي التي تنوط الارض بقبة السماء وتحمل الفلك أيضاً ^(١) فيجب أن تتأمل تأمل الزهاد في هذه القدرة الالهية التي بسطت هذه الرقعة الفسيحة المتلاثة التي لا نجد فيها خلاً ولا سقطاً وفوقها السبع الطباق ، وفوق السبع الطباق الله تعالى مستوٍ على عرشه ، تحت صورة رجل عظيم القائمة الى النهاية ، عند رجليه ثيران ذات أجنحة نظير ملوك أنور الاقدمين ^(٢)

(١) انما يصدق كلام ترابر هذا على أفكار العوام من المسلمين ومن المعلوم ان أفكار العوام لا يعبأ بها .

(٢) وهذا أيضاً كلام عوام بل أكثر العوام لا يقبلونه وقد وجد في الاسلام فرق قليلة بحجة الا أن تجسيمها مقرون بعدم تشبيه صفات الباري تعالى بصفات البشر وإن كيف مجهول

وهذه الافكار لم تكن خاصة بالمسلمين بل وجدت عند غيرهم . وهي مما ينشأ عند الانسان في بعض أطوار نموه . ولم يطل أجلها في الاسلام ، بل تبدل بها المسلمون أفكاراً علمية صحيحة . وكما جرى في البلدان المسيحية لم يتم هذا الأمر بدون مقاومة حجة المبادئ الدينية . فان المأمون لما عرف كروية الارض أصدر أمره لمن كان عنده من الرياضيين بقياس درجة من الدائرة الارضية ، فقام بعض علماء الدين وعدوا ذلك فسقاً وخروجاً عن الدين ، وأرادوا أن يثيروا العامة عليه ، لكن المأمون لم يبال ماقلوه وثبت في عمله وأمر بحرى القياس على شواطئ البحر الاحمر وفي سهول سنجار بواسطة الاسطرلاب . وتقرر ارتفاع القطب فوق الافق بمنزلتين مسافتهم درجة على دائرة نصف النهار ، ثم قاسوا بعد المسافة بين المنزلتين فوجدوها مائتي الف ذراع هاشمى فحصل من ذلك لدائرة الارض أربعة وعشرون الف ميل انكليزى . وهو حساب لم يكن بعيداً كثيراً عن الحقيقة

وأمر الخليفة ، استزادة من العلم واستقصاء في التحقيق ، بأجراء قياس آخر بقرب الكوفة فانقسم الفلكيون المأمورون بهذا الامر الى فرقتين ، كل منهما سارت من نقطة معينة فقااست قوس درجة واحدة ، احدهما في نحو الشمال والاخرى في نحو اليمين ، ومن ثمة اتصلوا الى نتيجة معلومة . فان كان الذراع الذى جعلوه مقياساً هو الذراع السلطاني فيكون طول الدرجة ثلث ميل . ومن هنا استدل الخليفة على كروية الارض

وما ينبغي التنبيه عليه ان التعصب الدينى في الاسلام لم يلبث أن أذعن لحرارة البحث العامى ، وبعد ان كان القرآن في ظاهر الحال حاجزاً دون تقدم العلوم صار هو الكتاب الكفيل بأعظم الاعمال الممكنة ، وأصبح دليلاً على صحة الدعوة المحمدية^(١)

(١) انه مما تفضى به أمانة النقل ان أثبت هنا ما كتبه الدكتور فاندك بخطه في حاشية هذه العبارة فقد قال : ان القرآن يوافق الترفض مع المترفضين وفيه مهرب أو مهابر لمن طلب العلوم . ولا تقدر أن نوافق الدكتور فاندك مع جلالة قدره علي كون القرآن وافق في شئ من الأشياء علي رفض العلم ، كما اتنا لا تقدر أن نوافقه علي كون الأماكن الكثيرة الصريحة التي حث فيها القرآن علي طاب العلم وعظم فيها الحكمة هي مما يقال له مهرب أو مهابر ينفذ منها طالب العلم . اتنا لا تقدر أن نؤول هذا القول من العلاة فاندك الا اذا تذكرنا انه كان قسيساً بروستانتياً ، وان الشهادة الصريحة للقرآن لا تسهل علي ذي مقام رسمي في الكنيسة الا انه ما يجب التنبيه عليه أيضاً ان العلامة فاندك مر بجميع ماقله ذراير بحق الكنيسة بدون أن يعلق أدنى اعتراض

انه بعد انتقال النبي الى ربه بنحو من عشرين سنة . تنبّهت الأفكار واتسعت الاختبارات بما جرى من فتح سوريا وآسيا الصغرى ومصر ، وشرع الخليفة علىّ ينشط العلوم ، ويروج سوق المعارف الأدبية ، كما ان معاوية رأس الأمويين قلب صورة الحكم ، فصيّره اريثياً بعد أن كان انتخائياً . ونقل كرسى الخلافة من المدينة الى دمشق وهو موقع أحسن توسطاً وأمكن مركزاً وأدخل في موكبه الزينة والابهة وكسر قيود التعصب الشديد وأحب العلم وأهله . وكان أحد مرازمة الفرس قد جاء لينظر عمر بن الخطاب في المدينة فبصر به مضطجعاً أمام جامع المدينة ، بين المساكين ، ولو دخل على معاوية كما كان يدخل سفراء الملوك لراه في قصر فاخر باهر الرياش مزخرف النقوش العربية بين الحياض والأزاهر ولم يمض نصف قرن على وفاة محمد حتى نقلت الكتب اليونانية المشهورة الى اللسان العربى ، كما انها ترجمت المنظومات الشعرية كالإلياذة ، والأوديسا الى اللغة السريانية وخُصّت هذه باستعمال العلماء دون غيرهم لما كان فيها من الأخبار الميتولوجية المنافية للعقائد الاسلامية . ثم نقل الخليفة المنصور (٧٥٣ - ٧٧٥) قاعدة ملكه الى بغداد وصيّرها عاصمة زاهية زاهرة ، وقضى كثيراً من أوقاته في درس علم الفلك ، وشاد مدارس طبية وفقهية . واحتذى على مثاله حفيده هارون الرشيد (٧٨٦) فأصدر أمره بإضافة المدارس الى المساجد في كل أقطار المملكة ، لكن عصر العلم السعيد انما كان في خلافة المأمون الذى جعل دار السلام حاضرة العلم الكبرى وجع خزائن كثيرة للكتب وعكف على مدارس العلماء ومثاقفة الحكماء . وقد بقى هذا الذوق المكتسب عند خلفاء العرب الى ما بعد انقسام المملكة العربية الى أقسامها الثلاثة فكان العباسية فى آسية والفاطمية فى مصر والأموية فى اسبانية لايتنازعون الرياسة الدنيوية فقط ، بل يتناظرون فى العلوم والمعارف والآداب ويتسابقون فى ميدانها .

وكان العرب فى الأدب عارفين بجميع الفنون التى تشعذ الفكر وتهذب العقل ، وتروض الخاطر : وحق لهم الفخر فيما بعد بأنه نبغ فيهم من الشعراء والأدباء أكثر مما نبغ فى جميع الأمم معاً . وأما تفوقهم فى العلوم فقد كان بالطريقة التى تلقوها عن يونان الاسكندرية ، وليس عن يونان اورية ، وذلك انهم أدركوا ان مجرد التأمل بعيد عن أن

يبلغ بالانسان الغاية المقصودة ، وأن هذه الغاية لا تنال الا بمراقبة الأمور واختبار الأشياء أى الطريقة التجريبية . وكانوا يرون الجبر والرياضيات آلات للمنطق ، ويلاحظ من تأليفهم الكثيرة فى جر الأثقال (الميكانيك) وعلم موازين السوائل (الهيدرولستاتيك) وعلم البصريات ، أن حلهم للمسائل العلمية كان دائماً بطريقة الاختبار المباشر أو بالمراقبة الآلية . وهذا هو السبب فى وضع العرب لعلم الكيمياء ، واختراعهم عدة آلات للتقطير والتصفيد والتدوين والتصفية . وكذلك هو السبب فى استعمالهم فى مراقبة الفلك الآلات المدرجة كالربوع المجيئة والأسطرلابات . وقد استخدموا فى الكيمياء الميزان الذى أتقنوا معرفة قاعدته وأنشأوا جداول للثقل النوعى . ولهم الزيجات الفلكية الشهيرة مثل زيجات بغداد ، وقرطبة ، وسمرقند ، وكان ذلك من أعظم وسائل نجاحهم فى الهندسة والمثلثات ، وتوصلهم الى ابتكار علم الجبر ، واتخاذ طريقة الرقم الهندى ^(١) وذلك كله نتيجة اتباع العرب مذهب ارسطو فى الفلسفة دون مذهب أفلاطون لأن الأول تفصيلى والثانى اجالى .

واعتنى العرب كثيراً بجمع الكتب وبنوا لها الخزائن العظيمة ، وقيل ان المأمون استجلب الى بغداد مقدار مائة جل جل من الكتب . وكان من جملة شروط معاهدة له مع الامبراطور ميخائيل الثالث ، أن يتخلى له عن احدى مكاتب القسطنطينية . وكانت وُجدت فى بعض الخزائن رسالة بطليموس فى الرياضيات السهاوية فأمر المأمون بنقلها الى العربية باسم المجسطى . وما زال المأمون يُعنى بأمر المكاتب حتى كانت خزانة كتب القاهرة تشتمل على أزيد من مائة ألف مجلد جيدة النسخ والتجليد . وكان منها ستة آلاف وخمسمائة مجلد فى فنى الطب والفلك لا غير . وكان قانون هذه الخزانة لا يمنع اعارة الكتب للدارسين المقيمين بالقاهرة . وكان فيها كرتان احدهما من الفضة الصلبة ، والأخرى من النوع المسمى بسكب الرمل ، يقال ان الاولى من صنع بطليموس وبلغت قيمتها ثلاثة آلاف دينار . ثم مكتبة خلفاء اسبانية وكانت تشتمل على ستمائة ألف مجلد وكان برنامجها وحده فى أربعة

(١) قد كتب الدكتور فاندك بخطه فى حاشية هذه العبارة ما يلى : هذا خطأ لأن العرب لم يمتنعوا الجبر بل أخذوه عن الهنود كما أخذوا عنهم الأرقام الهندية . والحقيقة ان هذا رأى من الآراء وقد تهدم لنا نقل كلام عدة من علماء الاوربيين الذين يذهبون الى كون الجبر من اختراع العرب

وأربعين مجلداً ، وكان ماعداها في الأندلس سبعون خزانة عامة للمكتب وكثير من الخزائن الخاصة . ويقال ان أحد العلماء رفض يوماً دعوة سلطان بخارى للقامة ببلاطه ، معتزلاً بأنه يلزمه لنقل كتبه لا أقل من أربعائة جل (١)

وكان في جميع هذه المكاتب الكبيرة أماكن للنسخة والترجمة بل كان مثل ذلك في المكاتب الخصوصية فإن حنين بن اسحاق الطبيب النسطوري كان اتخذ لنفسه في بغداد مقاما من هذا النوع (٨٥٠) وترجم ارسطو وأفلاطون وابقراط وجالينوس . وأما في التأليف الأصلية فكانت عادة الأساتيد القاء المواضيع على الطلبة ، ثم جمعها رسائل . وكان عند كل خليفة من الخلفاء رواة وقصاصون ، وناهيك بقصصهم التي منها الف ليلة وليلة ، دليلاً على ما أوتي العرب من قوة التصور . وعمّ التصنيف جميع الفنون والمواضيع كال تاريخ والفقه ، والسياسة ، والفلسفة ، وتراجم الرجال ، وأوصاف الخيل والجمال ، وكانت جميعها تنتشر بدون معارضة الدولة . ولم يحدث الأمر بشأن كتب العقائد ومنع بعضها إلا بعد ذلك بكثير . وكان العرب يتأنقون الى الغاية في الورق وألوانه ، والحرير وأنواعه ، ويزينون فواتح الكتب ، ويموهون منها بالذهب على أنواع وأشكال لا تحصى .

فامتلات المملكة الاسلامية في مدة قصيرة بالمدارس والمكاتب من بلاد المغول شرقاً الى مراكش واسبانيا غرباً ، وارتفع في الطرف الشرقى من هذه المملكة التي كانت تفوق المملكة الرومانية في مساحتها مرصد سمرقند ، وفي الطرف الغربى منها مرصد الخالدة في اسبانية (٢)

قال جيبون في كلامه على ما كان من تنشيط العرب للعارف : ان امراء المقاطعات كانوا يناظرون الخلفاء في محبة العلم ، وبسعيهم انتشر العلم من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . وقد أنفق أحد الوزراء مائتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد ، أجرى عليها خمسة عشر ألف درهم سنوياً ، وكانت هذه المدرسة عمومية يقرأ فيها ستة آلاف طالب ،

(١) هذا هو صاحب بن عباد كان وزيراً لمؤيد الدولة ابن بويه ، ولاخيه نضر الدولة بعد مؤيد الدولة . وكتب اليه الملك نوح بن منصور الساماني يرض عليه الوزارة في مملكته فأجابه معتزلاً وكان من جملة أعذاره استلزام نقل كتبه لاربعمائة جل

(٢) هو الذي يسميه الاوربيون بالجيرالده في اشبيلية

يُدرسون معامن ولد السيد الرفيع الى ولد الصانع الوضع وكانوا يُجرون النفقات على التلاميذ الفقراء ، ويؤدون الرواتب الجلة للمعلمين ^(١) وكنت ترى العلوم والآداب رائجة الأسواق في جميع المدن والأمصار ، وكانوا كثيراً ما يعهدون بإدارة المدارس الى النساطرة واليهود مما يدل على روح التسامح لذلك العهد فلم يكونوا ينظرون الى وطن العالم ، ولا الى دينه بل الى جهة فضله . وكان الخليفة المأمون يقول عن العلماء : انهم صفوة الله في خلقه ، ونخبته من عباده ، صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة ، فكانوا مصاييح الدجى وسادة البشر ، وأوحشت الدنيا لفقدهم .

واقترنت جميع المدارس الطبية العربية بمدرسة القاهرة في تشديد الامتحان على المخرجين منها ، فلم يكونوا يأذنون بممارسة الطب الا لمن أتقن التحصيل ، وامتنحن امتحانا تاما ، وأول مدرسة طبية في اوربا اقتدت بمدارس المسلمين مدرسة ساليرنا . ولعلنا نخرج عن حدود هذا التأليف لو شئنا تفصيل هذه الحركة العالمية التي وُجدت عند العرب . فانهم وسعوا نطاق العلوم القديمة ووضعوا علوماً جديدة ، وأدخلوا طريقة الهند الحسائية ، وهي من الاختراعات العقلية البديعة لاشارتها الى الأعداد بأرقام عشرة ذات قيمتين ، المستقلة والنسبية ، ولتيسيرها قواعد بسيطة لجميع الحسابات . وأما الجبر أو الحساب المعمم الذي موضوعه الكميات غير المعروفة ، والبحث عن علائق الكميات من أى نوع كان حسابياً كان أو هندسياً فقد أخرجوه من ضمن الحدود التي كان حصره فيها ديوفانتوس . وبسط محمد بن موسى حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية ، وعمر بن ابراهيم حل المعادلات الجبرية من الدرجة الثالثة . والمسامون هم الذين أوصلوا علم المثلثات الى صورته الحالية ، واعتاضوا بالجيوب عن الأوتار وجعلوه علماً مستقلاً . ومحمد بن موسى الذي ذكرناه هو بعينه مؤلف رسالة المثلثات السكروية . وللبغدادى رسالة في مساحة الأراضي في غاية الابداع حتى ظن كثيرون انها نسخة من بعض تأليف اقليدس . وأما في الفلك فلم ينشئ العرب ازياجاً فقط ، بل رسموا صفائح للنجوم المنظورة وسموا النجوم الكبرى التي في الكرة السماوية بالاماء التي تعرف بها اليوم ، وقاسوا مساحة الأرض وطول الدرجة كما تقدم الكلام

(١) يشير درابر هنا الى المدرسة النظامية التي شادها الوزير نظام الملك في بغداد وشهرتها غنية عن التعريف

عليه ، وفصلوا مسألة انحراف دائرة البروج عن خط الاستواء ونشروا صفاً مرسومة عليها حركة القمر والشمس وهي صحيحة . وقرروا مدة السنة الشمسية وحققوا حركة مبادرة الاعتدال .

وقد أظن « لا بلاس » في ذكر رسالة علم النجوم تأليف البتاني وذكر رسالة أخرى جلية لأبن يونس الذي كان فلكي الحاكم في مصر سنة ألف للمسيح تحتوي على سلسلة اختبارات من زمن المنصور في الكسوف والاعتدال والانقلاب وقران السيارات واحتجاب الكواكب . وهي مراقبات فلكية جلية أضأت الأسباب في مسائل تغييرات الكرة السماوية . وعكف الفلكيون العرب على اتقان الآلات الفلكية وقياس الزمان بالساعات المختلفة منها المائية ومنها الشمسية وهم أول من استعملوا لذلك الساعة الكبيرة ذات الرقاص

وأما في العلوم التجريبية ، فهم الذين وضعوا علم الكيمياء وكشفوا خواص الجواهر التي يتوصل بها الى معرفة طبائع الأجسام ، والحامض الكبريتيك ، والحامض النيتريك ، والكحول ، وجعلوها في الطب . وهم أول من استعملوا الأقرباذين ، وافتتحوا الصيدليات المجانية وجعلوا فيها المستحضرات المعدنية . وأما في الميكانيك ، فعرفوا قاعدة سقوط الأجسام وقليلًا من الجاذبية . وكان لهم علم بالديناميك أى حركة الأجسام وأنشأوا في علم السوائل جداول لبيان الأثقال النوعية . وكتبوا رسائل في الاجرام الطافية والراسبة . وعدلوا في العلم المصري عن القول اليوناني القديم بذهاب النور من العين الى الجسم المنظور ، الى القول بانعكاس الأشعة وانحرافها ، وكشف الخازن انحناء الشعاع المار بالكوة الهوائية ، محققا اننا نرى الشمس والقمر قبل وجودهما حقيقة فوق الأفق وبعد غيابهما تحته ، وظهرت نتائج هذه الحركة العلمية الكبيرة في الصناعات فاستفادت منها الزراعة في رى الأراضى وتدميلها وتربية المواشى وانتشرت للفلاحة قواعد مضبوطة فنية ، وأدخلت زراعة الارز والسكر والبن ، واتسعت أعمال المعامل فيما يتعلق بنساجة الصوف والحرير والقطن وصنع الورق والجلد في قرطبة ومراكش ، وأسيلت الجوامد واستخرجت المناجم وتسلطت الأيدي على أنواع المعادن وكان لمعمل السلاح في طليطلة شهرة طائرة .

ولما كان للعرب ولوع خاص بالغناء وقرض الشعر ، قضوا كثيراً من أوقاتهم بمباشرة هذه الملاذ العقلية ، وهم الذين عرفوا الاوربيين بالشطرنج والهبوا فيهم حب الاقاصيص . وكانت للعرب قدم راسخة في آداب أسمى من هذه كعلم الاخلاق ، والزهد ، والنسك ، ولهم التواليف النفيسة في زوال العظّمات الدنيوية ، واضمحلال المجد الباطل ، وعواقب الكفر وأصل الكون ، وبقائه ، وانتهائه . وانا لنعجب غاية العجب مما نجده أحياناً في كتبهم من التصورات والافكار التي كنا نظنها عصرية محدثة فاذا بهم قد سبقوا اليها . وذلك كذهب النشوء والارتقاء في الكائنات العضوية ، فقد كان هذا المذهب يعلم في مدارسهم وكانوا يذهبون فيه الى أبعد مما نذهب اليوم باطلاقه على الجواهر غير العضوية (١) وكان عندهم مبدأ الكيمياء الأساسي هو التركيب التدريجي في الاجسام المعدنية قال الخازن : « ان الجهلة حينما يسمعون بتحول بعض الاجسام بطريق التكامل الى ذهب يفهمون انه مرّ بصور الاجسام المعدنية الاخرى أي أنه كان رصاصاً ، ثم صار قصديراً ، ثم صار من نوع سكب الرمل ، ثم فضة ، الى أن انتهى ذهباً . ولا يدركون ان الفلاسفة يريدون بما يقولونه الانسان أيضاً . اذ لم يصل الى الحالة التي هو فيها الآن بالانقلاب السريع بل بالتدريج كأن مرّ بصورة العجل ، فالجمار ، فالفرس ، فالقرد ، الى أن انتهى انساناً » . انتهى .

وقد جاء ذكر مدينة العرب أيضاً في كتاب درابر في الفصل السادس المتعلق بطبيعة العالم والمقايضة بين ما كان عليه الاوريون في القرون الوسطى وما كان عليه العرب قال : « وقد مضى القسم الاكبر من هذه القرون على النصرانية بالمنازعات على الطبيعة الالهية والاختلاف على السلطة الكنسية » . وهذه كانت تجد كل حقيقة داخل الاسفار المقدسة فتثبط الناس عن كل بحث . واذا اتفق لزوم النظر في مسألة فلسفية مثلاً كان يرجع فيها الى فصل للقديس اغسطينوس أو لاكتانسيوس ، ولم يكونوا يجدون حاجة الى مراقبة الاحداث الجوية . وعلى هذه الحال استمر ترجيح العلم الديني على العلم الدنيوي مدة خمس عشرة مائة سنة اذ في كل هذه المدة لم يولد في النصرانية فلكي واحد

أما المسلمون فقد كان عملهم في هذا المقام أحسن جداً ، فقد بدأوا يعتنون بالعلوم

منذ افتحوا الاسكندرية (٦٣٨) فلم يمض على ذلك قرنان حتى درسوا جميع علوم يونان وترجوا كتبهم ، وكان المأمون أمر بترجمة كتاب بطليموس الى العربية ومن بعدها قاس العرب قطر الارض ، ووضعوا جدولاً للنجوم المرئية ، وسموا الكبرى منها بالاسماء التي تعرف بها الى الآن . وقرروا مدة السنة الشمسية ، واخترعوا الساعة بالرقاص ، وكشفوا انكسار النور ، وفعله برؤية الاجرام السماوية ، وقاسوا ارتفاع الهواء الكروي ، وقرروا انه يبلغ ثمانية وخمسين ميلاً . وكذلك عرفوا مسألة النور الشفق وتألق الكواكب . وهم الذين بنوا أول مرصد فلكي في أوربة . وقد صح كثير من رصدهم واعتمد عليه أبرع علماء الرياضة المحدثين . ذكر لابلاس في كتابه « نظام العالم » ان ارساد البتاني تقيم الأدلة الساطعة على اهليجية فلك الارض ، وان تحقيقات ابن يونس تثبت تغير ميل دائرة البروج

على خط الاستواء وانحراف سير المشتري وزحل

كل هذا الذي نذكره ليس الا جزءاً يسيراً من الخدمة الجزيلة التي قدمها فلكيو العرب للعلم ، والعناء الذي عانوه لحل المسائل الطبيعية . هذا بينما ظلمات الجهالة مطبقة على النصرانية وأهلها لا يفكر منهم أحد بهذه الأمور ، وانما عنايتهم منصرفة كلها الى المشاجرات الدينية وعبادة الصور وتحول الخبز جسداً ، والخر دماً ، واستحقاقات القديسين والمعجزات والاعاجيب وشفاء الامراض بالذخائر المقدسة . وبقي هذا الجهل يخيم على أوربة الى غاية القرن الخامس عشر ، ولم يقع التقدم بعد ذلك الى طلب العلم من جهة حب العلم لنفسه والولوع بكشف الحقائق . ولكنه بدأ بمنافسات تجارية وظهر الرحالات الثلاثة كريستوف كولمبوس ، وفاسكو دوغاما ، وفرديناند مجلان ، وبأسفارهم تقرر كروية الارض .

وقد حدث كولمبوس عن نفسه بأنه انبعث الى السفر قاصداً الهند من طريق الاطلانتيك وذلك بمطالعة كتب ابن رشد . ووجد بين أصحابه رجل فلورنتي اسمه « توسكانلي » درس الفلك وجاهر بالقول بكروية الارض . ولما ظهر مشروع كولمبوس قام الاكليريوس الاسبانيولي وقعد وحكم عليه مجمع طلمنكة Talamante بالكفر وانما عرضوا مذهبه عند المحاكمة على مقالات القديسين يوحنا فم الذهب ، وأغسطينوس ، وأيرونييموس ، وغريغوريوس ، وباسيليوس ، وامبروسيوس ، ورسائل الرسل والانجيل والنبوءات والمزامير والتوراة الخ .

هذا ما اخترنا نقله من ترجمة كتاب درابر « اختلاف العلم والدين » وهو كتاب شهير مشحون بالفوائد إذا انتدح لنا الوقت قد نعيد النظر عليه ، ونطبعه مع تعليقات العلامة الدكتور فاندريك الذي طالع الترجمة كلها

ومن تكلم على مدنية العرب وأجاد واشتهر كتابه في كل ناد ، الفيلسوف الافرنسي الدكتور غستاف لوبون الذي توفي منذ نحو شهرين أو ثلاثة عن ٩١ سنة جزاه الله عن العرب وعن الاسلام خيراً . ولقد لخصت كتابه في رسالة وجيزة تذكرة لنفسى ، ثم بلغنى ان الكاتب المصرى المعروف السيد محمد مسعود قد ترجم الكتاب الى العربية ترجمة تامة ، فلهاذا قضت طي رسالتى هذه على غرّها ، منتظراً ظهور الترجمة الكاملة . ولقد كان غستاف لوبون من الافرنج المنصفين الذين لم يدافعوا عن حضارة الاسلام خسب ، بل دافعوا عن حقوق المسلمين وانتقدوا سياسة القهر والهضم التى تعسفهم بها الدول الاوربية المستعمرة . وقد كتب كتابات شافية فى انتقاد قومه الفرنسيس بما يعاملون به مسلمى الجزائر من الظلم ، والارهاق ، ونزع الاراضى ، والتشريد الى الصحراء وغير ذلك . ولقد عرفت هذا الرجل بنفسى منذ أربعين سنة ، وذلك فى باريز اذ ذهبت اليه لاشكره على كتابه الذى كان أخرجه حديثاً عن حضارة العرب ، فقال لى وقتئذ انى كنت ثانى رجل مسلم جاءه وحده فى هذا الموضوع ، وشكره على صنيعه . ولم تساعدنى الاقدار على ملاقاته أكثر من تلك المرة ولكنى كنت أتتبع كتاباته وأتمتع بتصانيفه الكثيرة المفيدة وهو من الفلاسفة الاجتماعيين المعدودين فى هذا العصر

العصبية الفارسية والاسلام

مهييار الديلمي وبديع الزمان الهمداني

على ذكر المؤلف استيلاء العرب على فارس

للمؤلف

يذهب بعضهم الى كون استيلاء العرب على فارس وابادتهم ملك كسرى ، معا كان سابقا من العداوة بين هاتين الامتين منذ أحقاب متطاولة ، قد كان من نتائجها ايغار صدور العجم على العرب وتربصهم بهم الدوائر حتى يأخذوا منهم بثأرهم . ولما كان دين الفرس المجوسية قد تلاشى أمام الدين العربي المبين ، وعجز عن أن يكون عنصراً للمقاومة ، انتهز الفرس أول فرصة شقاق وقعت في الاسلام نفسه ونصروا الفتنة التي وجدوا أكثر العرب ضدها وهي الشيعة ، ولعبوا دوراً عظيماً في توسيع هذه الفتنة بين العرب من طريق الدين فشفوا احتهم من العرب لما كان هؤلاء أزالوه من سلطانهم بدون أن يقاوموا نفس الاسلام الذي رأوا برهانه أسطع من أن يكابر ، بل بمقاومة احدى فتيه التي هي السنة والجماعة والتي كان منها جمهور العرب . لهذا تجد الفارسي يكره العرب ويحتقر كل شيء لهم الا الدين . . . وترى مهييار الديلمي يقول (قد جمعت المجد من أطرافه : نسب الفرس ودين العرب) ومع كون الدين الاسلامي يمنع العصبية للأجناس ويضع فوقها اخوة المؤمنين خاصة كانت لا تزال ترى آثار العصبية الفارسية في بلاد العجم بالرغم من مزج الاسلام للأجناس حتى قال صاحب بن عباد ، وهو فارسي الأصل خالص العقيدة الاسلامية عند ما جاء أحد الفرس وتلا الأبيات التي يفتخر بها على العرب وجاوبه عليها بديع الزمان الهمداني : ما رأيت رجلاً يفضل العجم على العرب الا وفيه عرق من المجوسية ينزع اليه . ولما رسخت قدم الاسلام في العجم وزال كل عرق للمجوسية منهم عشقوا التشيع عشقاً كان أعظم عوامله كره العرب ، الى أن كاد الانسان يراهم شيعة قبل كل شيء . وبما ينسب الى الفيلسوف الفرنسي رنان : ان الفرس هم شيعة أولاً ومسلمون ثانياً . ولا شك أن في هذا القول مبالغة وانما

يصدق على كثير من عامتهم . وبهذه الأيام الأخيرة نجم عندهم كما عند غيرهم من الامم الاسلامية فئة تدّين بالقومية وتحارب الجامعة الاسلامية ، ولكنها لا تزال ضعيفة بالقياس الى السواد الأعظم الذي عمده الاسلام ، بل قد زال من بينهم أكثر النفرة التي كانت عندهم لاهل السنة بما هو نتيجة انحطاط القوة السياسية الاسلامية بأجمعها وشعور العجم بالحاجة الى التضامن مع سائر المسلمين ، سنة الله في المستضعفين ولن تجد لسنة الله تبديلا

نظرية « القومية العثمانية الاسلامية »

و « القومية التركية الطورانية »

على ذكر المؤلف الترك العثمانيين والطورانيين

للامير شكيب

هذه نظرية الفئة الكبرى من علماء الترك العثمانيين الذين درجوا وقد وافقهم عليها كثير من أدباء الترك المعاصرين مثل عبد الحق حامد بك الملقب بالأديب الأعظم ، وسليمان نظيف بك وأخيه فائق عالي ، وجناب شهاب الدين بك ، وجلال نوري بك ، والشاعر محمد عاكف ، وأتور باشا المؤرخ^(١) واسماعيل حقي بك الديار بكري ، واسماعيل حقي بك الازميري ، ورضا توفيق الفيلسوف ، ومنهم على كمال الذي قتله الكمايون في أزميد لحياته وجم غفير من كتابهم ومفكرهم ووزرائهم وشيوخهم ، وهي أن الأتراك العثمانيين وإن كانوا من الترك أصلاً ومحتداً فقد أصبحوا باختلاط دمهم بسائر الأمم التي ساكنوها من قرون في غربي آسية وجنوبي أوروبا من فرس وعرب وكرد وجركس وكرج وروم وأرمن وبلغار وأرناووط وبشناق الخ ، أمة قائمة بذاتها قد ابتعدت كثيراً عن الترك الأصليين ولا سيما من المغول الذين يقال لهم ياجوج وماجوج ، والذين قد اشتهروا بقبح المنظر وغلظ الطبع وكره الحضارة والشغف بسفك الدماء وتخريب الديار ونسف العمران ، مما اتفق المؤرخون شرقاً وغرباً على أنه دأبهم ، حال كون الأتراك العثمانيين قد عرفوا بصباحة الوجوه وكرم الأخلاق ودمامة الطباع وحب المدنية والجمع بين شدة البأس ورقة الشمائل ، ويزيدون

(١) هو غير أنور باشا ناظر الحرية وهذا أيضاً ممن يقول بهذه النظرية

على ذلك أن الثقافة التركية العثمانية والأدب التركي العثماني ^(١) هما خاصان بأتراك آل عثمان لأنهما مقتبسان من الآداب العربية والفارسية ، لأن لغة العرب ولغة الفرس كانتا لغتي العلم والشعر عند الأتراك منذ هاجروا الى غربي آسية ، فلذلك قيل للغة الدولة اللغة العثمانية لافتراقها كثيراً عن لهجة أتراك أواسط آسية ، ولكونها لا تشبه في شيء لغة المغول فهذه الفئة وإن كانت لا تبرا من الترك المسلمين سكان التركستان الروسى والتركستان الصينى وشمالى فارس ، فهى تبرا من المغول وتلعن تاريخهم وتقول انهم هم كانوا سبب بوار الشرق وانحطاط الاسلام ، وانهم هم الذين نسفوا عمران البلاد التركية خراسان وما وراء النهر والبلاد الفارسية والبلاد العربية ، فأهلكوا الملايين ودمروا العواصم الكبرى ، ولم تقم للشرق بعد مصيبتهم قائمة . وبعض هذه الفئة مثل أنور باشا المار الذكر يزعم أنه لا يوجد أدنى صلة نسب بين الترك العثمانيين والمغول ويميل الى أن الترك هم أصلا من الجنس الابيض الآرى ، وانما اختلطوا بسبب الجوار بالجنس الاصفر المغولى ، وقد وصف بعض مؤرخى الترك أعمال جنكيز وهولا كوك وقومهما بمثل ما وصفها به مؤرخو العرب والفرس والافرنج والروس ، لا بل ألفت لهذا العهد رجل اسمه طاهر المولوى كتابا خاصاً بفظائع جنكيز وهولا كوك وخائفتها ، وقال ليس للترك أن يفخروا بمثل هؤلاء المفسدين فى الارض العائين المدمرين الذين كانوا علة انحطاط الشرق عن الغرب ، وأعظم بلاء وقع على الانسان ، واذا أراد الاتراك المسلمون أن يراجعوا محيضة احسابهم فيراجعوا تاريخ آل طولون بمصر وتاريخ السلاجقة وآل زنكى الاتابكى والدولة العثمانية . وقال جلال نورى صاحب التصانيف الاجتماعية العديدة : الترك العثمانيون هم مسلمون أولا وترك ثانياً

وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية ، تحالف الفئة الاولى فى كل هذه النظريات وأشهر دعائها ضيا كوك الب ، وأحد أغايف ، ويوسف آقشورا اللذان قدما من الروسية ، وجلال ساهر ، ويحيى كمال ، وحمد الله صبحى رئيس وبقاق « ترك يوردى » ومحمد أمين بك الشاعر الملى ، وكثير من الادباء والمفكرين وأكثروا الطلبة والنشء الجديد . وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة وأغرقها مجدداً وأسبقها الى الحضارة ، وانهم هم والجنس المغولى واحد فى الاصل ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ،

(١) وم يسمون ذلك بالحزب

ولم يقتصروا فيها على الترك الذين في سيرييا وتركستان الروس وتركستان الصين وفارس والقوقاس والاناطول والروملی ، بل مبدأوهم مد هذه الرابطة الى المغول في الصين والى المجر والفنلاندين في أوربا وكل من يقال انه ينمى الى أصل طوراني ، وهم يقولون بخلاف ما يقول الاولون ، فهم ترك أولاً ومسلمون ثانياً . وشعارهم عدم الدين واهمال الجامعة الاسلامية الا اذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية ، فتكون عندئذ واسطة لا غاية ، وقد غلا كثير من هذه الفئة في الطورانية حتى قالوا : نحن أترك فكعبتنا طوران . وهم يتغنون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم ، وينظمون الاناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجشكية ليطبعوهم على الاعجاب بها ويرقوا مستوى نفوسهم بزعمهم ، وقد سألت صديقي ورفيقي في مجلس الامة محمد أمين بك الشاعر الملى ، وهو من أحسنهم أخلاقاً ومن لا يبلغ بهم نزوع العرق الطوراني أن يشأا العرب وينصب لهم العداوة ، كما هو شأن كثير من رفاقه ، بل بمن سبقت لهم خطب في المجلس ينوه فيها بفضل العرب ، فقلت له : كل شيء فهمته وانكم طورانيون وانه ينبغي لكل أمة أن تتمسك بجامعتها القومية وتحييها في صدور أبنائها وان ذلك لا ينافي الاسلام لأن الجامعة الطورانية باعتبار أن الترك مسلمون تقوى الاسلام ولا توهنه ولكن الذي لم أفهمه الى اليوم هو افتخارهم دائماً بجنكيز مع عيشه وتدميره وما جرى من قومه من نفس العمران واكتساح البسائط . فقال لي : « نفتخر به لكون تشكيلاته العسكرية كانت في غاية الانتظام » تشكيلات عسكرية سى مكمل ايدي » وما يعزى الى المغول من العيث والنداعة فلا يزيد على ما جرى في الحرب العامة من التخريب الذي اقتضته الدواعي الحربية أفلا ترى ما فعل الألمان في شمالى فرنسا مع أنهم أرقى أمة متمدنة » هذه هي نظريتهم من جهة ما اشتهر به المغول من العيث والفساد فى الأرض ، وليس هنا محل تبين الفرق بين تخريبات المغول وتخريبات الألمان فى شمالى فرنسا

وقد امتد الخلاف بين هاتين الفئتين فى الترك الى مواضيع أخر من أهمها مسألة الرجوع الى اللغة التركية القديمة ، وعلى رأيهم « تصفية » اللغة التركية الحاضرة من الألفاظ الغريبة والفارسية ، والاعتياض منها بألفاظ تركية مهمة لعدم استعمالها بين الأتراك العثمانيين مع ان استعمال العربى والفارسى هو مما يضعف القومية الطورانية ، وعلى فرض

أن هناك معاني لا توجد بازائها كلمات تركية صرفة فيمكن الأخذ من العربي والفارسي على شرط تترك هذا المستعار من تينك اللغتين ، وقد دارت على هذه المسئلة الجلي مباحثات ومناقشات طويلة ، ولا تزال دائرة ، وحزب التصفية هذا هو كما لا يخفى هو الحزب الطوراني كما أن حزب العربي والفارسي هو الحزب الاسلامي ، واستعملوا في الاستانة لفظي « تركجي » و « اسلامجي » للدلالة على هذين الحزبين

وبرهان الحزب الاسلامي في مناهضة التصفية هو أولاً ان اللسان التركي وان كانت فيه متوفرة أسماء الامور المادية وأفعال الحركات البدنية ، فهو لسان فقير في الامور العقلية ، قليل الألفاظ المؤدية للعاني المجردة ، ان أمكنه أن يفي بحاجة أمة في حال البداوة وطور السذاجة فلا يمكنه الوفاء باحتياج أمة راقية ودولة عظيمة ، فلا بد له والحال هي هذه ، من الاستعارة من لغة العرب والتوكؤ على لغة الفرس ، لاجل اكمال ما نقصه من تلك الجهة . ثانياً ان الادب التركي الذي نشأ ونما وحررت فيه الكتب الممتعة ، وقصت القصائد البليغة وصار أدباً معدوداً ، وجال في ميدانه خول من الكتاب ونوابغ من الشعراء هم مفاخر أمة الترك انما هو هذا الأدب المقتبس من الفارسي والعربي والذي صار أدباً قائماً بذاته ، فيحسن أن يغير أسلوبه وتبدل ديباجته ، ويحرم الناس طلاوته ويعدل عنه الى أدب تركي بحث يرجع الى لغة ليس فيها شيء من الاستعداد لتكوين أدب بالغ درجة الرقي كالأدب العثماني الحاضر ، وعلى فرض الحال أنه تيسر ذلك أفلا يلزم حقب متطاولة لتأسيس أدب جديد ؟ أما كون استعمال العربي والفارسي هو مما يضعف القومية التركية والحال أن مقصد الترك الجدد هو ايقاد شعلتها في النفوس فالحزب الاسلامي هذا لا يجد الأدب العثماني هذا حائلاً دون نمو الفكرة التركية بل يجد تقرب التركية من العربية والفارسية ، عدا كونه أزين لها وأزيد في محاسنها ، أنفع للاتراك من الجهة السياسية لانه يؤكد الروابط التي تربط العرب والفرس وسائر المسلمين بالامة التركية مما يزيد لها قوة ومنعة اذ كان هذا الحزب لا يزال دستوراً في السياسة هو الاتحاد الاسلامي ، ويرى الاسلام فوق كل شيء ، وقد كان أنور باشا ناظر الحربية يقول اذا كان أتراك التركستان مرتبطين بنا فليس ذلك لكوننا أتراكاً مثلهم بل لكوننا مسلمين فحسب

اسلام الفرس ومبدأ التشيع

للامير شكيب

- العرب والعجم
- القومية الفارسية
- قول المسيو دوموبين صاحب كتاب « تاريخ العالم » .
- الشرع الاسلامي والقوانين الرومانية (استطراد) .
- نظرية الحقوق في الاسلام لصاوا باشا الرومي .
- العلاقات بين العرب الفاتحين والأُمم المغلوبة
- أقوال الكونت دوغوينو صاحب كتاب « الأديان والفلسفات في أسية الوسطى »
- الفرق الشيعية في فارس الاخبارية والمجتهدية والشيخية .
- مبدأ الشيعة .
- أبو ذر الغفاري ومعاوية في الشام .
- التشيع عند العرب والعجم .
- النزعة الحالية عند الشيعة وأهل السنة الى الوحدة الاسلامية العامة .
- المؤتمر الاسلامي العام في بيت المقدس .
- مع حاشية « المناولة أو الشيعة في جبل عامل »

ومن الغريب أن كثيراً من العجم مع تدينهم بالاسلام ، وشدة استمساكهم بالتشيع لآل البيت ، لا تزال تجد فيهم في الأحياء آثار البغضاء للعرب ، وهم يعلمون أن آل البيت الذين يقدسونهم هذا التقديس كله هم عرب أقحاح ، بل هم سنام العرب . ولقد حدثني من أثق به أنه وجد من الإيرانيين علماء مجتهدون في مذهب الشيعة ، قضوا حياتهم في خدمته والدعوة اليه الى أن حانت وفاتهم ، فينبأهم يلفظون أرواحهم تكلموا بما ينبغي عن شدة بغضائهم للعرب وكان هذا كلامهم الأخير في الدنيا وهذا هو القياس البعيد في الشئان بين الأقوام . وقد كنت أحداث إحدى المرات رجلاً من فضلائهم ، ومن ذوي المناصب العالية في الدولة الفارسية ، فوصلنا في البحث الى قضية العرب والعجم ، وكان محدثي على جانب عظيم من الغلو في التشيع الى حد أني رأيت له كتاباً مطبوعاً مصدراً بجملة « هو العليّ الغالب » فقلت في نفسي لا شك أن هذا الرجل لشدة غلوه في آل البيت ، ولعلمه أنهم من العرب ، لا يمكنه أن يكره العرب الذين آل البيت منهم ، لأنه يستحيل الجمع بين البغض والحب في مكان واحد . ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه . ولقد أخطأ ظني في هذه أيضاً ، فانتى عند ما سقت الحديث الى مسألة العربية والعجمية وجدته انقلب عجباً صرماً ، ونسى ذلك الغلو كله في عليّ عليه السلام وآله ، بل قال لي هكذا وكان يحدثني بالتركية : « ايران بر حكومت اسلاميه دكلتر يالكز دين اسلامي اتخاذايتمش بر حكومتدر » أي ايران ليست بحكومة اسلامية وانما هي حكومة اتخدت لنفسها دين الاسلام » وكنت أتحدث مرة أخرى الى الأمير « فرمان فرما » عبد الحسين ابن عم الشاه مظفر الدين ، ووالد الأمير فيروز ناظر الخارجية الإيرانية لعهد الشاه الأخير من آل قاجار ، وقد كانت بيني وبين الأمير فرمان فرما المشار اليه مودة أكيدة واجتماعات كثيرة ، وكنت أرى فيه أيضاً شيعياً غالياً ، وأحسب أنه لتشييعه الشديد لا يمكنه أن يكون شائناً للعرب ، وقد غلطت في هذه أيضاً ، فقد رأيت أنه يجمع بين الأمرين يحب آل البيت أشد الحب ، ولا يحب العرب الذين آل البيت منهم . وقد صرح لي قائلاً : ان العرب عند ما استولوا على فارس أفسدوا أخلاق العجم ، وبذلك أسقطوا تلك الأمة الفارسية العظيمة التي استولوا عليها وأدخلوها في دينهم ، فلم أستطع على كلامه صبراً ومع أني كنت أيام معرفتي بهذا الأمير شاباً وكان

هو كهلاً ، وكان عندنا ضيفا في جبل لبنان ، لم أملك نفسى من الحدة وقلت له : لا شك أن أخلاقكم كانت فاسدة من قبل ، ولو لا ذلك ما تغلب عليكم العرب وأتم أمة منظّمة ، وهم أمة آتية من الصحراء من تحت الخيام ، وقد اتفق المؤرخون والعلماء الاجتماعيون أن العرب لم يفتحوا تلك الفتوحات السريعة ، ولم يستولوا على ممالك الفرس والرومان والهند والترك والبربر وغيرهم الا بما كانوا عليه في صدر الاسلام من الأخلاق العالية .

فانقطع بعد ذلك عن الحديث . وقضيت مما سمعته من هذين الرجلين من كبار العجم أشد العجب ، لأنى كنت أراها في غاية التمسك بالاسلام ، وهما يعلمان أن الاسلام عربى المنبت ، وكنت أراها في غاية العصبية لعتره على ، وهما يعلمان أنها من بنى هاشم من صميم العرب ، وأراها مع ذلك اذا جرى الكلام في القوميات انقلبا فارسيين متشددين ، لا يريدان أن يعلما عن العرب شيئا ، فكأن الواحد من هؤلاء له نفسيتان احداها اسلامية والاخرى فارسية ، وأغرب من هذا أن هذين الرجلين ليسا من الجنس الفارسى الآرى بل من الجنس الفارسى التركى ، لأن فارس كما لا يخفى ترجع الى سلالتين منها السلالة الايرانية الآرية ، ولغتها الفارسية ، ومنها السلالة التركية المغولية ولغتها التركية . ولكن السلالتين اندجبتا أمة واحدة تحت ظل الدولة الفارسية وصارت الفارسية هي اللغة الرسمية للجميع كما أن التشيع غالب على الفريقين . ولا أقدر أن أقول ان هذه الحالة الروحية في العجم هي عامة لهم ، وان جميع مجتهديههم وعلمائهم يضمرون العداوة للعرب برغم معرفتهم أن آل البيت هم من قريش ، وبرغم ذهاب الألوف منهم في كل سنة حجاجاً الى البيت الحرام في مكة ولكنى لا أشك في أمر واحد وهو أن القومية الفارسية لم تندثر بالديانة الاسلامية التي جاءت من العرب ، وان هناك عوامل خاصة تجعل الفرس يميلون الى آل البيت ، منها ما تقدم ذكره من أن استيلاء العرب على فارس أوجد في العجم مناوأة للدولة ، التي استولت على بلادهم ، وأزالت ملكهم ، فلذلك رأيتهم انتصروا لبني العباس والعلوية ، يوم كانوا يداً واحدة في حرب بنى أمية الذين كان مركزهم الشام . وما زالوا حتى حولوا الخلافة الى العراق وصارت الدولة العباسية كما يقول كثير من المؤرخين مطبوعة بطابع المدنية الفارسية

ومن الوسائل التي يمت بها العجم الى الاسلام نسب سلمان الفارسى الذي كان من

أَكابر الصحابة ، وهو منهم وقد جعله النبي ﷺ من آلِه فقال : سامان منا آل البيت . وقد لحظت أنه لما قتل العيين أبو لؤلؤة الفارسي سيدنا عمر رضى الله عنه وقام عبيد الله بن عمر بعد وفاة أبيه فقتل المارزبان ، وهو الأمير العجمي الذي كان أسيراً بالمدينة وأسلم ، وكان قتل عبيد الله إياه بتهمة أنه كان ذا يد خفية في دفع أبي لؤلؤة الى قتل عمر ، كان من على رضى الله عنه أن احتج أشد الاحتجاج على قتل عبيد الله بن عمر للمارزبان ، بدون ثبوت تلك التهمة التي وجهها عبيد الله اليه . فكانت هذه القضية من أسباب انحياز عبيد الله الى معاوية . وهي على كل حال مما يتخذها العجم دليلاً على سابق محبة على لهم

وكان على بن الحسين بن سيدنا على وهو الملقب بزين العابدين يمتُّ الى الفرس بنسب ، لأن أمه هي بنت يزدجرد آخر ملوك فارس . ويقال نقلاً عن أبي القاسم الزمخشري في كتاب « ربيع الأبرار » أنه لما جئ الى المدينة بسبب فارس في خلافة عمر ، كان فيهم ثلاث بنات يزدجرد ، فباعوا السبايا وأمر عمر ببيع بنات يزدجرد . فقال له على : ان بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن من بنات السوق ، فقال كيف الطريق الى العمل معهن قال : يَقْوَمُنَّ ، ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن . فقَوِّمُنَّ ، فأخذهن على بن أبي طالب رضى الله عنه ، فدفع واحدة لعبد الله بن عمر ، وأخرى لمحمد بن أبي بكر وأزواج الثلاثة ولده الحسين فكان له منها ولده زين العابدين .

هذا ولما كان هذا العصر عصر القوميات كما لا يخفى ، اقتداء بالأُمم الأوربية في الزمن الأخير كانت القومية الفارسية قد أخذت تشتدُّ أكثر من ذي قبل ، وذلك نظير ما حصل عند الترك ، وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم ، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم ، وعن الذئب الأبيض الذي كانوا يعبدونه ، حتى صوروه في بعض كتبهم الحديثة وقال لهم المرحوم موسى كاظم شيخ الاسلام — وهو الذي أخبرني بذلك — ان العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشعر منها الأبدان ولكنهم اقلعوها بالاسلام وافتخروا بان الله لطف بهم ، وأنقذهم منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات . وأما أتم فتريدون أن تتناسوا الاعتقاد بالبارى تعالى ، وتذكروا عبادة الذئب الأبيض . . . فياللاسف

فكما حصل عند الترك حصل عند الفرس وصار ناشئتهم يبحثون عن أديانهم

القديمة التي منها الكيومرنية أى تعظيم النور والتحرز من الظلمة ، ومن هنا جاءتهم عبادة النار . ومنها فرقة زرادشت الذي كان يدعو الى وحدانية الله ، ويقول انه خالق النور والظلمة ، وان الخير والشر انما حصلا بامتزاجهما ، وانهما لو لم يمتزجا لما كان وجود للعالم ، الى غير ذلك من العقائد والأوايد والآثار التي كانت عند قدماء الفرس كالثنوية ، والزردشتية ، والمانوية ، ومنهم من يبحث عن المزدكية التي كانت تدعو الى الاتحاد والاباحة .

والذى يظهر ان الميل الى هذه العقائد ليس بجديد في فارس ، بل انه كانت لم تزل له عقايل منذ زمان ابن العباس . وقد دلنا التاريخ على ذلك من قيام بابك الخرمي — نسبة الى خرمة كسكرة بلدة بقرب اصطخر — الذي ثار في أيام المعتصم العباسي وكان يرى رأى المزدكية من المجوس الذين كانوا خرجوا قبل الاسلام وأباحوا المحرمات ، وقتلهم أنو شروان ، ثم ثاروا بعد الاسلام بالمبادئ نفسها وعليهم بابك هذا ، فقتل جند الخلافة واستولى على الحصون ، فسرح اليه المعتصم جيشاً تحت قيادة أبي سعيد محمد بن يوسف ، فاستخلص منه بعض ما كان أخذه . ثم سير اليه الافشين حيدر بن كاوس ملك أشروسنة وكان أبوه أسلم في زمان المأمون فهزم بابك في وقعة أرشق ، وفر بابك الى موقان ، ولكن جبرته لم تخمد . وفي سنة ٢٢١ ظهر « على بغا » الكبير في وقعة هشداس ولحق الافشين بغا بالامدادات . وفي السنة التالية وجه المعتصم الى الافشين جعفر بن دينار مدداً ، وأتبعه بإيتاخ ، ووجه معه ثلاثين الف فدرهم ، وألح الافشين على بابك بالحصار ، واستنزله من معقله بعد حرب تشيب لها نواصي الاطفال ، واحتوى على معسكره ، وأحرق قصوره بالنفط ، وسبي أولاده وغياله ولكن بابك أفلت من يده بدخوله في غياض قريبة ملتفة الدوح ، لا تسلك فيها الخيل ، ونفذ من هناك الى جبال أرمينية ، فوقع في يد سهل ابن سنباط من رؤساء تلك الناحية فأسلمه الى الافشين وقدم هذا به وبأخيه على المعتصم فأمر بقتلهم ، وكافأ الافشين بتاج من الذهب ، ووشحه بوشاحين من الجواهر ، ووصله بعشرين مليون درهم وعقد له على السند . وكافأ ابن سنباط بالف درهم ومنطقة ذهب مرصعة بالجواهر ، وبتاج البطرقة .

ولابى تمام الطائى في هذه الوقائع القصائد الطنانة التي هي من أجزل شعره بل من

أجزل الشعر بأسره .

وقيل ان المعتصم أخرج في حرب بابك الخرمي من الدراهم خمسمائة وقر؛ وقيل أخرج مالا يدخل تحت الحصر . وكل هذا يدل على ما كان لتلك النزعة المجوسية من الخطر فضلاً عن ان بابك راسل ملك يزنطية وأغراه بغزو بلاد الاسلام ؛ وسار ملك الروم تيوفيل ابن ميخائيل وأوقع بالمسلمين وأوجف في ديارهم ؛ والمعتصم مشغول بحرب بابك ، فاضطر المعتصم أن يغزو الروم تلك الغزاة الشهيرة التي فتح بها عمورية . ولما انتهى المعتصم من أمر بابك الخرمي ظهر له ان الافشين نفسه كان يكيد سراً للاسلام ؛ ويجتهد في هدم الدولة ونقلت له عنه أشياء فيما يتعلق بعقيدة المجوس . جاء في كتاب « العيون والحقائق في أخبار الحقائق » : انه لما نعى الى الخليفة المعتصم خبر دسائس الافشين وما كان يرسل به أهل أشروسنة ؛ أمر بالقبض عليه وعلى ولده الحسن ؛ ثم أخرجه من حبسه وأحضر جماعة من الاشراف والوجوه لينظروه على أشياء ؛ وأتى بمازيار ؛ فقبل للافشين : هل كاتبت مازيار ؟ قال لا ، فجاوبه مازيار فقال . كتبت اليها تقول : ان هذا الدين يعني دين الاسلام ان انفقنا أنا وأتم محونا أثره ؛ ونعود الى دين آبائنا المعجم ، فانكر ذلك ؛ فاحضر محمد بن عبد الملك الزيات رجلين وكان هو الوزير والمناظر فقال للافشين : لِمَ ضربت هذين ظهراً وبطنا وهذا امام وهذا مؤذن كان في أشروسنة . قال : نعم ضربتهما لانهما اتخذتا بيتاً للاصنام فجعلاه مسجداً وكان بيني وبين الصفد عهد نخشيت من نقض العهد . قال : فما كتابك عندك قد زيمته بالحرير والجوهر فيه كفر بالله تعالى ؟ قال : هو كتاب وراثته عن أبي فيه آداب الملوك ؛ وهو دين القوم الذي هو اليوم كفر ؛ فكنت أسمع الأدب وأترك سوى ذلك ؛ ووجدته محلى ؛ ولم تكن لي حاجة الى أخذ الحلية التي عليه ؛ فتركته بحاله ككتاب كلية ودمنة ، وكتاب مزدك . وشهد عليه الموبذ وقال انه كان يأكل الخنوقة ، ويحملني على أكلها ، ويقول انها أرطب لحماً من المذبوحة ، وقال : اني قد دخلت لهؤلاء القوم (يعني المسلمين) في كل ما أكرهه ، وقد أكلت الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل ، غير اني الى هذه الغاية لم تسقط مني شعرة يعني أنه لم يختن

ثم وافقه المرزبان بان أهل أشروسنة يكتبون اليه بلسانهم كتاباً معناه : الى الله الالهة من عبده فلان بن فلان . قال : بل كذا كانوا يكتبون الى أبي وجدي . قال محمد بن

عبد الملك الزياد : فما أبقيت لفرعون حين قال لقومه : « أنا ربكم الأعلى » . ونوظر على أشياء مثال هذه تدل على فساد دينه وفساد ديانتته في الاسلام يطول شرحها . ثم أمر المعتصم باعادته الى محبسه وبقى فيه نحواً من سنة الى أن مات وصلبوه بعد موته على باب العامة ، ثم أحرق هو والخشبة التي صلب عليها ، وحل الرماد فطرح في دجلة ووجد في داره تمثال انسان من خشب عليه حلقة كثيرة من جوهر ، وكتب فيها ديانتته

وقال الذهبي في كتاب « دول الاسلام » : سنة ٢٢٢ التقى الافشين وبابك . فانهزم بابك ولم يزل الافشين يعمل عليه حتى أسره ، وكان بابك بطلاً شجاعاً جباراً عنيداً ملعوناً أراد أن يقيم دين المجوس ، واستولى على توزر ، والمدائن ، وقد أنفق المعتصم بيوت الأموال في حرب هذا . فأنفق في ذلك العام الف الف دينار . وفتح الله مدينة بابك بعد حصار شديد فاختنق بابك وأسر جميع حاشيته وأولاده وبعث اليه المعتصم بالأمان ففرقه وشم ثم صعد في الجبل وانقلت الى جبال ارمينية ، فنزل عند بطريق فاغلق عليه البطريق واسلمه للتحف فجاء جماعة فقتلوه . وكان المعتصم جعل لمن أسره حياً مائة الف دينار ، ولمن جاء برأسه نصف ذلك ، فكان يوم دخوله بغداد وهو على جل يوماً مشهوداً . ثم قال الذهبي : سنة ٢٢٦ غضب المعتصم على الافشين وسجنه ثم صلبه الى جانب بابك اتهم بعبادة صنم وكان افلت وخافه أيضاً المعتصم اه . وقد حصلت في فارس ثورات متعددة غير ثورة بابك الخرمي اعربت فيها الفارسية المزدكية عن ذات نفسها

والحاصل ان العجم بعد أن دانوا بالاسلام بمدة طويلة ، بقيت أقوام منهم تحن الى دينها الاصل ، وينزع بها عرق المجوسية . وفي هذا شيء من العداوة التي بين العرب والعجم ومن استكبار العجم الخضوع لدين أصله من العرب . ومثل هذا أيضاً الحنين الذي عند بعض شبان الترك الى ديانتهم القديمة والى عبادة الذئب الأبيض استكباراً لاتباع الأمة التركية ديانة صادرة عن العرب . وقد بلغنا أن بعض ناشئة المسلمين من أمة الجاوي يبحثون كثيراً عن مذهب بودا الذي كان مذهب الجاوي قبل أن أسلموا ، ويدرسونه وكأنهم يريدون أن يحيا آثاره . كذلك في الهند شبان كثيرون من المسلمين يكرهون الجامعة الاسلامية ويفضلون عليها الجامعة الهندية اتباعاً للهنداك .

وعند بعض الناشئة المصرية نزعة محسوسة الى الأوابد المصرية القديمة ، والحضارة

الفرعونية ، وميل الى التفصى من النسبة العربية والحضارة العربية . وكل هذا تعصباً من هؤلاء الأقوام لقومياتهم بزعمهم وشعوراً منهم بشئ من الكبر عن أن يتبعوا ملة ليست من سلالته . والحال أن الاسلام ليس بدين يفرق بين عربي وعجمي وأن مبدأه الاساسى (ان اُكْرِمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ) وأن النبي محمد لم يبعث الى العرب وحدهم بل الى البشر كافة ، فان كانت المساواة تامة في دين من الأديان أمام الخالق تعالى فهي في الاسلام .

وبعد فإنا نرى الأوربيين وهم اليوم أرقى الأمم والغالبون على أكثر الكرة الارضية وهم يعلمون أنهم جميعاً من الجنس الآرى ، يتبعون ديانة رجل يهودى من الجنس السامى المحض ، ولا يستنكفون عن أن يعبدوه وعن أن يؤلهوه . ومنهم من يعبد أمه ولا يجحدون في ذلك غشاضة ، ولا تأخذهم العزة في قوميتهم الآرية ، ولا يقولون : مالنا ولعبادات الساميين ! هل سمعنا ان أحداً من الافرنج استكبر ان يتبع سيدنا عيسى عليه السلام كلا . أفلم يكن في ذلك عبرة للعجم والترك وغيرهم ممن يأبى كبر بعضهم أن يتبعوا دين النبي العربى وهم غير مكلفين أن يؤلهوه ولا أن يقدسوه تقديس الافرنج للمسيح . ان هذا والله لعجب عجاب . وأعجب منه ان هذه الفئة سواء من الترك أو من العجم تجعل الافرنج قوتها في كل شئ . فياليتها اقتدت بالافرنج في عدم ادخال العقائد في القوميات .

ولنعد الى قضية العجم وعلاقتهم بالعرب فنقول اننا رأينا فصلاً في هذا الباب للسيو « غودفروا دومومبين » صاحب « تاريخ العالم » الذى سبق لنا ذكره ، وهو فصل فيه تعليقات كثيرة على نسق الافرنج المولعين بهذا الاسلوب في التاريخ ، ولو خبطوا فيه ، الا ان تعليقات « دومومبين » يشبه بعضها أن يكون صحيحاً وفي بعضها نظر . فهو يقول ماملخصه : ان الأمة الاسلامية في أيام الخلفاء الراشدين بعد أن دان الاعاجم بالاسلام ، لم تكن أخنبت شكلاً عاماً ، ولا رست قواعدا على وحدة تامة ، وانما كانت شعوبا متساكنة ، ودخل بنو أمية وهذه هي الحال . وربما أرادوا أن يجعلوا لهذه الأمة نظاما كافلاً وحدتها . الا أن دولتهم لم تطل كثيراً . وكان العرب مبعثرين في البلدان التي فتحوها

وكانت منهم فئة هنا وفئة هناك ، ولا يمكن حصر عدد العرب الذين خرجوا للفتوحات . وانما يقال نحو ٢٠٠ ألف رجل ، وقد اختلطوا بالاهالى الاصليين بالزواج ، وفاضت عليهم الخيرات من الغنائم وغيرها ، فانغمسوا في الترف . وكان العمل كله من زراعة وصناعة في أيدي الشعوب المغلوبة ، وكان العرب يرون أنفسهم أكرم الشعوب ، وانهم الأمة المختارة لأجل هداية البشر ، وأنه يجب أن يكونوا جميعاً مسلمين . ولهذا ثقل عليهم بقاء قسم من بني نعلب ، وغسان ، وكندة ، على النصرانية ، وأرادوا حملهم على الاسلام ، ولكن الخلفاء لم يشاءوا حملهم عليه بالعنف ، وضربوا عليهم نوعاً من الجزية : لكنهم ميزوهم في ذلك عن الاعاجم ^(١) انتظاراً لاسلامهم

أما الاعاجم أى البرابرة — ومعنى اللفظتين واحد فالاعاجم بالنسبة الى العرب هم البرابرة بالنسبة الى الرومانيين — فان العرب لم يكونوا ينظرون اليهم كقوم مساويين لهم . ولم يكن عليهم الا أن يؤدوا الجزية ، وهكذا يكونون آمنين على دمائهم ، وأموالهم ، وعقائدهم . فأما اشراكهم في شرف الملة الاسلامية ومنافع الاسلام في الدنيا والاخرى فلم يكن في نظر العرب ضرورياً لانهم قوم منحطون عن درجة العرب . وحسب الاعاجم حريتهم الدينية لانهم أهل كتاب . فأماً المساواة مع العرب فغير مطلوبة ، والعدالة انما هي بين المسلمين فقط . اهـ

نقول ان كلام « دومومبين » هنا لا يخلو من الخلط لاسيما عند ظنه ان العرب لم يكونوا مهتمين بادخال العجم في الاسلام ، وانما كان همهم الوحيد اسلام العرب . نعم انه لما كان الخلفاء سائرين على مقتضى الآية الكريمة (لا اكره في الدين قد تبين الرشد من الغي) لم يعترضوا أحداً من الكتائب في دينه . وهذا في الحقيقة من مفاخر الحكومات الاسلامية لأنه لا يوجد أثره ولا أشرف من الحكومة التي لا تستعمل قوتها القاهرة في سبيل استجلاب الأمم التي تحت حكمها الى دينها . وأماً ان الخلفاء ورجال الأمة العربية ، لم يكونوا يرتاحون الى دخول الاعاجم في الاسلام ، حتى لا يشركوهم في منافع الاسلام الدينيوة والأخروية . فلعمري هذا هو الخلط بعينه . فقد كانت جميع سياسة الخلفاء لاسيما الاتقياء منهم تدور على محور نشر الاسلام . ولما شكأ أحد العمال بمس من نقص

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري تجد من هذا البحث ما فيه بلاغ

الجباية بسبب اقبال أهل الذمة على الدخول في الاسلام أجابه الخليفة عمر بن عبد العزيز :
ويحك ان محمداً جاء هادياً ولم يجيء جايئاً . وجاء في فتوح البلدان للبلاذري انه : لما
استخلف عمر بن عبد العزيز كتب الى ملوك ماوراء النهر يدعوهم الى الاسلام ، فاسلم
بعضهم . قال : ورفع عمر الخراج على من أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم . ثم بلغه عن عامله
على خراسان ، الجراح الحكمي ، عصبية ، وكتب الى عمرانه لا يصلح خراسان الا السيف
فانكر ذلك وعزله . وجاء أيضاً في فتوح البلدان للبلاذري ان أمير المؤمنين المأمون اغزا
السغد وأشروسنة وفرغانة وكان قد ألح عليهم بالغارات أيام مقامه بخراسان ، وبعد ذلك
وكان مع تسريته الخيول اليهم يكتبهم بالدعاء الى الاسلام والطاعة والترغيب فيهما . ثم قال
ان المأمون كان يكتب الى عماله على خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من
أهل ماوراء النهر ، ويوجه رسله فيفرضون لمن رغب في الديوان ، وأراد الفريضة من أهل
تلك النواحي وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة فاذا وردوا بابه شرفهم واسنى صلاتهم
وأرزاقهم . ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من
جند أهل ماوراء النهر من السغد والفرغانة والاشروسنة ، وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه ،
وغلب الاسلام على من هناك .

قال وحدثني العمري عن هيثم بن عدي عن ابن عياش ان قتيبة اسكن العرب ماوراء
النهر حتى اسكنهم أرض فرغانة والشاش . اهـ

قلت : قتيبة بن مسلم الباهلي ولاء الحجاج بن يوسف الثقفي خراسان ، ففتح فيما
وراء النهر الفتوحات الكبار ، فهو العربي الكبير الذي فتح بلاد الترك . وكان ذلك مبدأ
دخول هذه الأمة في الاسلام . وأما اسكانه العرب فيما وراء النهر فقد كانت هناك جماعات
كثيرة من العرب لدن الفتح طال بها العهد فيما بعد وانقطع ما بينها وبين الأمة العربية
فنسيت لغتها واستتركت . وقد حدثني بعض أهالي كاشغر من التركستان الصيني انه من
المعروف عندهم كون كثير من أهالي تلك التلاد يرجعون في نسبهم الى اولئك العرب الذين
فتحوا بلاد الترك . وسمعت مثل هذا من بعض أمراء الطاغستان التي كان العرب يسمونها
باب الأبواب . وقالوا لي ان أكثر العائلات الشريفة والعائلات التي كانت حاکمة في الطاغستان
هي من سلاسل العرب الفاتحين .

ثم نعود الى كلام الميسو « دوموبين » في موضوع ثورة العجم على العرب بعد استقرار الاسلام والقائه بجراحه على بلاد الأعاجم ، فهو يقول ما محصاه : ان العرب كانوا يرون أنفسهم أعلى درجة من الأمم التي دانت بدينهم ، ولذلك نجد الاسلام نفسه ميز المسلم في القصاص على الذمي ، كما كان الشأن في رومة بالنسبة الى البرابرة . وأما في القضايا المدنية ، فقد كانت أمور أهل الذمة عائدة للقضاة الذين يوليهم الخلفاء . وهكذا دخلت أمور أهل الذمة في المحاكم الاسلامية ومن هنا كان تأثير القانون الروماني في التشريع الاسلامي دخل شيئاً فشيئاً .

وهذه مسألة مما وهم فيه « دوموبين » كغيره من مؤلفي الأفرنج الذين لم يقدرُوا أن يتبعوا سير التشريع الاسلامي وكيفية استنباط الفقهاء للأحكام من الكتاب والسنة ، والاجماع والقياس ، فظنوا خطأ ان ماخذ التشريع الاسلامي من القانون الروماني ولقد ألفت في هذه المسئلة صاوا باشا الزوي من علماء الحقوق في أيام العولة العثمانية كتاباً تمتعا بالفرنسية اسمه « نظرية الحقوق في الاسلام » Théorie Du Droit Musulman

قال في أوله انه هو أيضاً كان يعتقد هذا الاعتقاد نظير غيره ، ويبنى ذلك على ما يعرف من كون بني أمية لبشوا في الشام مدة طويلة يعملون بالأحكام التي كانت باقية من أيام الرومانيين . فلا عجب في أن يكون هو وغيره قد توهموا أخذ قسم المعاملات في الشريعة الاسلامية من القانون الروماني الذي كان به العمل في سورية ، الا أنه أحب أن يدرس هذا الموضوع درساً دقيقاً ، ويتعرف كيفية نشوء التشريع في الاسلام ، فاستجد بعض علماء أصول الفقه من الأتراك — وسهام — وقرأ الفقه الحنفي جيداً — وذكر الكتب التي طالعها أو راجعها — وتجرد لمعرفة هذا الأمر مدة طويلة ، فوجد هذا الرأي الذي معناه ان التشريع الاسلامي مأخوذ من القانون الروماني رأي ضعيف أشبه بأن يكون خيالاً من أن يكون حقيقة .

قال صاوا باشا في صفحة ١٦ من كتابه :

« ان الصناعة والتجارة ، لم تكونا مهمتين في الحجاز . وكان الأشراف يعنون بهما ، وظالماتهما يعملون الرحلة الى الشام ، ويجلبون منها ما يلزم لبلاذهم ، اذ كانت

المدينة السورية وقتئذٍ أكمل من مدينة الجزيرة العربية ، وكان أشرف قريش الذين من عادتهم التردد الى دمشق وسائر مدن سورية ، يطلعون على الأوضاع الرومانية التي بها معاملاتهم . ولهذا كان مما يرد على خواطر الناس ، حتى الذين منهم يعظمون شأن الشريعة المحمدية ، ان الأحكام التي يتألف منها الفقه الاسلامي إنما هي مستعارة من التشريع الذي كان العمل به جاريًا قبل الهجرة . فالخطأ في هذه المسألة له وجه لا يخفى . فالذي لم يطلع حق الاطلاع على منابع الفقه الاسلامي وتاريخ هذه الشريعة هو معذور إذا ، اذا ذهب به الظن هذا المذهب فان الأسباب التي تحمل عليه كثيرة أثرت الى بعضها وسأشير الى البعض الآخر » ثم قال :

« ان الخصومات التي كانت تتولد في الاسلام في السنين الأولى من تبسطه في الشام والعراق ، كانت تنفصل بحسب القانون الروماني تفادياً من وقوف سير العدل ومن الخلل في الأحكام . فالفتاح المسلم رأى أن يوسع القانون الذي جاء به من الحجاز بما استعاره من القانون الذي وجدته في البلدان التي فتحها ، ولهذا ذهب أكثر علماء أوربة الى كون الخلافة الاسلامية أدخلت في فقهها أحكاماً كانت احتاجت الى استمدادها من قانون رومة ، لفضل القضايا بين رعاياها . وبما لامرية فيه ان كثيراً من المعاملات التي كانت معروفة في الشام والعراق لاسيما مما يتعلق بالايجار والرهن لم يكن معروفاً في الحجاز . فامراء الاسلام كانوا معذورين في الأخذ من القانون الروماني الذي كان مكملًا في سورية وكان يدرس في أشهر مدرسة للحقوق في ذلك العصر الاوهمي مدرسة بيروت التي أسسها الامبراطور يوستينيانوس وكان يدرس فيها « دوروقى » مساعد « تريبونين » الفقيه المشهور .

هذه هي المقدمات التي بنى عليها العلماء الاوربيون اعتقادهم بأن تشريع فقهاء الاسلام الذين بدأوا التشريع في أيام الخلفاء العباسيين الأوائل إنما هو مجموعة أحكام تضاهاى ما كان جاريًا به العمل في سورية قبل الفتح الاسلامي . فأنت ترى الأسباب التي حلت على هذا الظن وهي معقولة . الا أن الحقيقة هي غير ما فكروا به في أوربة . ويكفي أن ينظر الانسان الى هذه المسألة نظر المدقق ويتابع سير الشريعة الاسلامية في تقدمها وفي أطوارها حتى يعلم استقلال الشرع الاسلامي واصالة منبعه وان هذا ليس من ذاك .

ولا شك أن لكل تشريع منبعاً مختلفاً عن الآخر . ففقه يوستينيانوس هو عمل

مبنى على العقل السليم البشرى ، وقد اصطبغ بالصبغة المسيحية . وأما فقه الامام الأعظم فهو مبنى على كتاب الله (القرآن) وسنة الرسول ولن ترى في الفقه الاسلامي حكماً واحداً غير مدغم على هذا أو هذه . فاختلاف المنبعين لا يرب فيه يظهر لكل من درس تاريخ فقه يوستينيانوس وفقه أبى حنيفة »

ثم دخل صاوا باشا في الموضوع ، وأورد خلاصة اجتهاد الامام أبى حنيفة وأصحابه أبى يوسف ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، وزفر ، ثم من بعدهم من الأئمة ، وخلص تاريخ التشريع الاسلامي وبين ما أخذه كلها ، وأثبت فلسفة الفقه الاسلامي المعبر عنها بعلم الاصول وقال انه لا يقدر انسان أن يعلم مأخذ الشرع الاسلامي ان لم يقرأ أصول الفقه ، وقال انى أدعو من يهمه هذا الموضوع ان لا يحكم فيه قبل أن يطالع هذا التاريخ المتسلسل للفقه الاسلامي مطالعة كافية ثم قال : انى أنا مسيحي معتقد بديني ولكن المسيحي الحقيقي هو الذى يعامل جميع الناس بالحق . ولهذا أنا أخض الشريعة الاسلامية فخص رجل مسيحي وأقدرها قدرها بدون ضلع ولا ميل فأجدها لذلك جديرة بأعظم الاحترام

وكتاب صاوا باشا هو أحسن كتاب قرأته بلغة أوربية في هذا الموضوع . والفرق بينه وبين غيره من المؤلفين انه يبنى حكمه على أدلة وبراهين ووثائق ونصوص وحقائق تاريخية وان أولئك يبنون على ظنون وتخربات . وعلى نظر من جهة واحدة ، وعلى قولهم : لابد أن يكون كذا : وهناك أسباب تدعو الى الظن بأنه كذا وكذا . ومن يدرى فقد يكون كذا وكذا . وهذه أشياء لاتصح أن تكون مداراً للأحكام ، ولا يقال لها تمحيص وانما يقال لها تخمين . وما أصدق الآية الكريمة « إِنَّ الظَّنَّ لَا يُفْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً »

ونعود الى كلام « دوموميين » الذى قاطعناه مرتين للرد عليه نظراً لشهرة مكاتبه في التاريخ ، فهو يقول : ان العلاقات بين العرب الفاتحين وبين الأمم التى غلبوا عليها لم تكن مبنية على قاعدة المساواة ، وانه من زمان بنى أمية كان أهل الذمة مضطرين أن يضيفوا المسلمين ثلاثة أيام ، ويقدموا لهم المؤن وخليهم العلائق ، وانه بعد ذلك فى أيام المتوكل

العباسي حصل ضغط على النصارى واليهود ، وانه بالاجال كان موقف أهل الذمة موقف ذلّة ولم يكونوا ليتحملوه الى الآخر فلم يكن لهم مناص من أحد أمرين اما الخروج على الحكومة الاسلامية أو الدخول في الاسلام . وكان الخروج على الاسلام أصعب عليهم لأنهم كانوا متفرقين ، وكانت تعوزهم الأسلحة والأعتدة ، وتعوزهم القوة المعنوية ، أيضاً فاختار أكثرهم الشق الثاني ، وهو الدخول في الاسلام . وبعد أن دخلوا في الاسلام وصار لهم الحق في المساواة شرعوا يخاضعون خلافة أهل السنة والجماعة فكانت كل حركة دينية فيها مناهضة للسنة وللخلافة مرجعا لهم يسارعون اليها ، وكانوا هكذا يأخذون بثأرهم في داخل الاسلام أكثر مما يأخذون بثأرهم في الخارج عنه .

ثم يقول « دومومبين » يظن الناس أن ظفر الاسلام كان ظفراً محتماً وفتيحة منطقية للتوحيد السامي على النصرانية اليونانية التي تناسب طبائع الاوربيين أكثر من الساميين . ولكن لا يجب أخذ هذا القول على إطلاقه . فقد كانت آسية الصغرى من قبل التاريخ المسيحي ميداناً لصراع مديّنات مختلفة ، وآلهة متعددة . ثم ان أفكار هذه الأمم المتعددة التفت في أحد الأيام حول رجل يهودي كان مليئاً من تقاليد قومه صلب العقيدة بدينهم ، الا انه كان ساخطاً على المظالم الاجتماعية التي كانت في أيامه كما انه كان ساخطاً على رجال الدين لما كانوا عليه من الرياء . وكان قلب هذا الرجل مفتوحاً لآلام الشعب ناسياً نفسه كلها لا يرى لنفسه عليه حقاً ، فكانت نفسه من الجهة الأدبية نفساً الالهية . فدانت آسية الصغرى بالمسيحية وعبدت اله هذا الرجل الذي كادت تمزج فيه الطبيعة الانسانية بالطبيعة الالهية . ولم يكن الشعب مهتماً أن يخوض في قضية كنه هذا الامتزاج الآن الكهنة حاولوا أن يفهموا هذا المسيح بحسب أفكارهم وأن يؤسسوا له كنيسة . ومن هناك أخذوا بالخوض في هذه القضية المعقدة مستخدمين لها الفلسفة اليونانية من جهة والفقه اليهودي من جهة أخرى . فدخلوا فيما لانهاية له من تحليل هذه المسألة والتعريف بما كان الالهياً وبما كان انسانياً في طبيعة عيسى وتحديد الفاصل بينهما من الزمان والمكان . وجاءوا في هذه المجادلات الدينية بغلظة وعنف وصلف وتعصب لا يحيط بها الوصف ، ودخل معهم في ذلك الملوك واستخدموا هذه المشاحنات لأغراضهم الدنيوية فانقسم القائلون بالنصرانية الى ملل ونحل مختلفة متعادية . فكان الآراميون في العراق وما بين النهرين نساطرة ، وكان نصارى

سورية يعاقبة ، وكان قبط مصر ملكيين ويعاقبة ، وكانت الشعوب بدون شك تشترك في هذه المباحثات بدون أن تفهم منها شيئاً ، وربما كان كثير من الخلق قد ملوا وسموا من هذا التهادى كله في الجدل على طبيعتي المسيح الالهية والانسانية .

ولقد تقرر ان الاسلام هو عبارة عن كتاب نزل بالعربية على رسول من العرب ، الا أنه من المقرر أيضاً ان عناصر هذه الديانة العربية مشتركة مع عناصر الديانتين اليهودية والمسيحية فهي أخت لهما ، وقد جعل الاسلام عيسى ابن مريم أكبر الأنبياء بعد محمد والذي سيأتي في آخر الزمان ويؤذن بدينونة البشر . وحفظ الاسلام لمريم أم عيسى مكاناً من الطهر علياً لم يتضاءل هذا المكان الا بعد أن أخذ المسيحيون يعبدونها عبادة حقيقية ، وبالجملة فان المسيحيين واليهود الذين كانوا يدخلون في الاسلام لم يكونوا يرون أنفسهم دخلاً في دين جديد . ولا نعلم تاريخ دخول النصارى واليهود في الاسلام ، وغاية ما نعلم ان بنى أمية لم يكونوا معتندين بنشر الاسلام بين أهل الكتاب ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز انه عني بهذا الأمر خاصة ، لكنه لم يلبث في الخلافة أكثر من ثلاث سنوات ، فإذا يقدر أن يصنع في مدة قصيرة كهذه ؟ ولم نعلم كيف كان دخول هذه الأقوام في الاسلام هل بدأ بدخول الرؤساء فانقادت لهم العامة كما حصل بين البرابرة في أوربة ، أم دخلت الجماعات في الاسلام فوراً ؟ وعلى كل حال كان الفتح الاسلامي قد قطع مواصلات الأمم المسيحية في آسية مع القسطنطينية مرجعها الطبيعي . وكانت نار الاسكندرية قد انطفأت أيضاً . فلم يبق ما يأتى من الخارج بما يوطد العقيدة المسيحية .

وأما اسلام الفرس فقد بدأ بالامراء وأصحاب الاقطاعات الذين بدأوا بالعلاقات مع رجال الدولة العربية وصار لهم مقام في الدولة الا ان اسلام الفرس لم يكن كاملاً . بل بقيت بينهم فئات مزدكية تظهر بصور مختلفة . وأما في مصر فبقيت أمة من القبط . كما انه بقي في سورية جماعات من المسيحيين على غير اتصال بمركز الكنيسة العام .

فدخول أهل الزمة في الاسلام قد أحدث انقلاباً عظيماً في الأمة الاسلامية ، لأن المسلمين الجدد تطلبوا المراكز في الدولة وتغيرت بأسلامهم أنظمة الأراضي والجبايات والجيش . وحدث لذلك تأثير كبير في المجتمع الاسلامي . وكثرت الطبقة التي يقال لها « الموالي » . ثم

هناك مسألة أخرى وهي مسألة الرِّق . فالاسلام يعرف الرق الا انه يحث على تحرير الارقاء . وكان الفاتحون المسلمون يفضلون أن يجدوا أمامهم من يؤدون الجزية واذا وجدوا أقواما من الوثنيين يوجب عليهم الدين الاسلامي أن يُجبروهم على الاسلام أو يستأصلوهم فكانوا يتجنبون اجبارهم على الاسلام كما يتجنبون سفك دماهم في أكثر الأحيان . وكانوا يتأولون لهذا الأمر بأن مثل هؤلاء هم « صابئة » فالذين ليسوا بنصارى ولا يهود ولا مزدكيين ، كان يقال لهم الصابئون . وأما الارقاء فلما كثر عتقهم تولدت منهم طبقة جديدة . وكان الموالي أيضا يمتون بالولاء الى رؤساء من العرب . وكل ماجرى من هذه الأمور كان مؤدياً الى المساواة بين طبقات الأمة الاسلامية . وهكذا ضعف العرب تدريجاً ، وبضعفهم ضعفت الدولة الأموية فاتتهز بنو العباس فرصة هذا الخلل وهذا الانقلاب اللذين دخلا على المجتمع الاسلامي وأخذوا بالكيد لبنى أمية ودس الدسائس لقلب دولتهم . ولم يكن أبو مسلم الخراساني لينجح في ثورته على الأمويين لولم يوافق ذلك استعداداً عظيماً في نفوس الأمم التي أسلمت من غير العرب .

ثم قال « دوموميين » ان الحياة تكاملت في المملكة العربية في النصف الأول من القرن الثامن المسيحي (أى أوائل القرن الثالث للهجرة) فظهرت المجادلات الكلامية واشتدت وتولدت الفرق . وذكر ان أشرف العرب عادوا فتمسكوا بالدين أكثر من ذي قبل ، وقال ان بنى أمية كانوا اجلاً متدينين . واستند في هذا القول على كلام العلامة غولدهسير المستشرق المجري المشهور الذي كلامه حجة . والحال ان كثيرين من المستشرقين نسبوا اليهم ماعداً واحداً منهم أو اثنين رقة الدين . و « دوموميين » نفسه سبق له ان أشار الى عدم اهتمامهم حاشا عمر بن عبد العزيز بنشر الدين .

ثم قال « دوموميين » انه كان لطائفة قراء القرآن لذلك العهد نفوذ عظيم في المجتمع الاسلامي

وقال ان المركز الديني لعهد بنى أمية كان الحجاز ، لاسيما المدينة ، وان من الغريب كونها جمعت وقتئذ بين التقوى ، والورع ، وطهارة العقيدة ، وبين اللهو والغناء وأسباب السرور ، فان أشهر المغنين كانوا بالمدينة كما كان أشهر الفقهاء فيها . وهذه ملاحظة صحيحة . قال : اما اهتمام غير العرب الى الاسلام فنه ما كان في أصله من باب المصانعة ، الا ان

منه ما كان بحسب رأيه من باب الاقتناع الوجداني . وقد كان لهؤلاء المهتدين تأثير عظيم في تقوية الاسلام وتوطيده . وهو يرى ان علم الحديث وتحرير السيرة النبوية ، قد كانت بدايتهما في زمان بنى أمية . ومن رأيه ان الدين الاسلامي دين حضري Religion Citadine وانه توطد بالمساجد الجامعة وهناك كان يجتمع المسلمون والمهتدون الذين اعتادوا مثل هذا الاجتماع في الكنائس قبل الاسلام

ثم جعل « دوموميين » مقابلة بين تنصر البرابرة الذين دخلوا في السلطنة الرومانية واسلام الأعاجم وغير العرب ، فقال وهو من أكثر كلامه صواباً :

« ان البرابرة الذين هجموا على السلطنة الرومانية في الغرب ، انما كانت غاراتهم لأسباب معاشية أى ان ذلك كان حادثاً اقتصادياً صرفاً ، فكانت هذه الأقوام تدخل الى بلاد الرومان ارتياداً للرزق وحباً براحة المعيشة . وكانت كلها منحطة في الأفكار والعقائد ، وكانت أديانها وثنية . فعندما احتلت انقاض السلطنة الرومانية وجدت جهازاً حياً هو الكنيسة فانضوت اليهوداوت بالنصرانية عقيدة الأمة الرومانية المغلوبة وصار البرابرة أنفسهم هم حمة النصرانية .

أما العرب فكانت حادثتهم على العكس من هذه . قد جاءوا بعقيدة دينية أتاها بها رجل عظيم منهم فلما غزوا الروم والفرس لقنوا هذه العقيدة أئماً كانت أعلى منهم كعباً في المدنية . فالمغلوب في الشرق اتبع دين الغالب ، حال كون الغالب في الغرب اتبع دين المغلوب .

قال : وان الذين دخلوا في الاسلام من النصارى واليهود أدخلوا فيه ما كان في حقائبهم من المباحث اللاهوتية فتولد منها علم الكلام الاسلامي . فقد كانت قبل الفتح الاسلامي مراكز لاهوتية وفقهية شهيرة مثل انطاكية ، وبيروت واورفة ، واسكندرية ، وغزة ، والذين أسلموا أدخلوا علومها في الاسلام ، وجعلوا تأويل آيات القرآن وفق الحكمة اليونانية وصارت للاسلام فلسفة عالية اشتهرت شرقاً وغرباً الخ

فهنا نظن المصنف استرسل الى الافتراضات ، والتخرصات على عادة الاوربيين ، اذ انه لم يأت بشاهد واحد معين يثبت افتراضه . والافتراض وحده لا يتولد منه حقيقة مقطوع بها . وقصارى ما نقوله نحن ان الأفكار مشتركة بين البشر ولا سيما اذا كان صقع المفكرين

واحدا ، وكان الاتصال كثيراً . وما لاشك فيه ان علم الكلام الاسلامي كان مؤيداً بالمنطق وان علم المنطق هو من العلوم التي تلقاها العرب عن يونان فاستعملوها في أقيستهم العقلية ومباحثهم الدينية ولكن المنطق منه ماهو طبيعي أيضاً يكنى فيه العقل السليم . وما كان المنطق اليوناني الذي يدرس في المدارس الا الأسماء والاصطلاحات التي وضعوها للصور الفكرية القائمة في النفوس . هذا هو الفرق بين المنطق المطبوع والمنطق المسموع

ويعجبني أكثر من كلام « دومومين » في هذا الموضوع كلام الكونت « دوغوينو » Comte De Gobineau صاحب كتاب « الأديان والفلسفات في آسية الوسطى » فهذا الكتاب هو ثالث ثلاثة لكتابين آخرين أحدهما « ثلاث سنوات في آسية » والآخر « الأخبار الآسيوية » من تأليف « دوغوينو » المذكور الممدود في مقدمة العلماء الذين أجادوا التأليف في أحوال ايران وأواسط آسية . ولقد ظهر كتاب « دوغوينو » « الأديان والفلسفات في آسية الوسطى » Les Religions et les philosophies dans L'Asie centrale سنة ١٨٦٥ ثم أعيد طبعه سنة ١٨٦٦ ثم أعيد طبعه سنة ١٩٠٠ ونال شهرة عظيمة في ألمانيا ، ولا سيما أن الاستاذ شيان L.Scheman الألماني صدره بمقدمة اعترف فيها بأن الكونت « دوغوينو » هو من أكبر مفكرى العصر ، وانه لما ترجمت تاليفه الى الألمانية ، عدّه كثير من الالمان من أعظم كتّاب القرن التاسع عشر . ونقل عن بعضهم أنه قال : « اننا لا نعرف كاتباً أوربياً فهم حقيقة الشرق الحديث فهم هذا الرجل ولا وصفه بمثل هذا البيان الفصيح » ويقول الاستاذ شيان : اننا لا ندرى في كتابه هذا « الاديان والفلسفات في آسية الوسطى » أى شئ نستبدع أكثر من الآخر أسعة أنظاره أم عمق غور أفكاره أم غزارة معلوماته أم متانة رواياته أم سمو بيانه أم لطف أحاديثه الخ وقد بدأ « دوغوينو » كتابه هذا بقوله :

« ان جميع أفكارنا وجميع الطرق التي نفكر بها كان منشؤها في آسية » والشاهد الذي نحن في صده من كتاب « دوغوينو » الذي أقام ثلاث سنوات في بلاد فارس ونقّب عن علومها وآثارها وصار صديقاً لا يبارى في معرفة شؤون الامة الفارسية هو تاريخ اسلام العجم وأسباب غلبة التشيع عليهم فهو يقول تحت عنوان « الاسلام الفارسي » ما يلي ملخصاً :

« ان الديانة الاسلامية التي هي مشتملة على عقائد كثيرة سابقة لها هي موافقة الى الغاية لعقل الشرقيين ، ولكل طبيعة فكرية شرقية . وبهذا السبب نجد الاسلام يتقدم هذا التقدم المدهش في افريقية . وليس الأمر كذلك في أوربة حيث هذه العقيدة لا تصادف اقبالاً ولا نعلم أن من الاوروبيين من تقبل الاسلام غير جماعات من الارنوط والبشناق . أما في الهند فان الفاتحين من العرب والغزنويين والمغول والافغان قد لبثوا زمناً طويلاً حتى أدخلوا في دينهم هذا العدد الذي دخل فيه من أهل الهند . وليس جيع مسلمي الهند من أصل هندي كما أنه ليس أكثر مسلمي الصين من أصل صيني بل أكثرهم متحدرين من أصول فارسيين وآباؤهم كانوا عملة في خدمة جنكيز وقويلاى .

واذا أردنا أن نفصل بين العقيدة الدينية والضرورة السياسية التي طالما عملت باسم العقيدة لا نجد ديناً أسمح من الاسلام بل نقدر أن نقول لا نجد ديناً متحيداً فيما يتعلق بأديان الآخرين أكثر من الاسلام . وفيما عدا الاحوال المستثناة التي اضطرت فيها الحكومات الاسلامية الى اتخاذ الوسائل الممكنة لتوحيد عقيدة رعاياها فعلى وجه الاجال كان التسامح وكانت الحرية الدينية هما أساس الشرع الاسلامي ، وذلك بسبب أن القرآن يعلم الناس أن معرفة الحقيقة لا تتعلق بإرادة الانسان بل بإرادة الله .

وما زال المصنف يشرح هذا المعنى الى أن قال : ان الذي يلتزمه الاسلام من الاعتقاد هو وجود اله واحد يوحى ارادته الى خلقه بواسطة الانبياء . فهذا هو الالف وهو الياء في هذا الدين وما اعتقد الانسان بالله ورسله فانه يبقى متمتعاً بتام الحرية في قضايا وجدانه ويجوز له أن يختلف عن سائر المسلمين في آراء كثيرة وجدانية ويبقى مع ذلك معدوداً من المسلمين ما دام معترفاً بالله ورسله لا يجحد هذه العقيدة علناً . فنتيجة هذا المبدأ العظيم قد كانت أن يقبل كثير من أبناء الملل الأخرى على الدخول في الاسلام ، ويشاطروا الأمة الفاتحة منافع الايمان به ، وكذلك ان تدخل تحت هذا الغشاء الرقيق من الاسلام آراء وعقائد ومذاهب قديمة لم تكن من الاسلام في شيء ، ولكن الاسلام وسعها . ومن أجل هذا تعددت المذاهب الاسلامية ولم تكن في العبد أقل من مذاهب النصرانية ومنسوب الى نبي الاسلام القول بأن أمته ستفترق الى فرق كثيرة .

وانه لمن الصعب موافقة القائلين بأن الدين الاسلامي مانع للترقى الفكرى بل الذى

يظهر لنا ان القضية هي بالعكس ، فان ديانة جاءت فيها هذه الجلة : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء . وجاء فيها ان الانسان في اليوم الآخر يحاسب بقدر ما أعطى من العقل . وقد مرّت من ظهورها في القرن السابع الى أواخر القرن السادس عشر بادوار سعادة مادية عظيمة مصاحبة لحالة رقي علمي وأدبي لسنا في الحقيقة محيطين بها كلها لا يمكن أن يقال انها ديانة مانعة للترقي الفكري . واذا قيل انه في العهد الأخير ظهر الاسلام بمظهر انحطاط من هذه الجهة ، فان أسباب هذا الانحطاط لا يؤاخذ بها الاسلام نفسه . فليتأمل الانسان فيما اذا استمرت في قطعة من أوربة ادارة عسكرية ، مستبدة غاشمة متغشمة مدة مائتين وخسين سنة ، كما جرى في تركيا . أو استمر حكم عماليك غرباء من كرج وشركس وترك وأرنووط كما جرى في مصر . أو كما حصل قبل سنة ١٧٣٠ في فارس من غارات الأفغان ومن حكم نادر شاه العسكري والمظالم التي رافقت تأسيس دولة آل قاجار الحالية ، فلا شك ان هذه القطعة مهما كانت أوروبية فانها لا تثبت أمام هذه الحوادث ، وان ما لها يكون الى الانحطاط . ولهذا لا أجد تعليلاً غير هذا التعليل لما نراه من انحطاط البلدان الشرقية ، ولا أرى من العدل أن نلقي على الاسلام مسئولية حالة كهذه وانني أرد كل الرد نسبة تقييد العقول الى ديانة لمعت في ظلها للعقل البشري أدوار سنيّة . ولا يقدح في هذا الأمر أن يكون موجوداً في الاسلام عدد من المشايخ الجاهلاء أو الجامدين . أفلم يوجد مثل هؤلاء وأشد منهم تعصباً وأحط فكرياً بين خدمة الدين المسيحي في أوروبا ؟ انه مما لا مشاحة فيه أن روح النقد والبحث والأخذ والرد ، قد رافق الاسلام من بداية أمره وبدأ من محمد نفسه . والآن في فارس نجد الشيعة الذين هم الأكثرية في البلاد منقسمين الى ثلاثة أقسام : الاخبارية والمجتهدية والشيخية . ولكل من هذه الفرق الثلاث آراء جديدة مبنية على مقتضيات الوسط التي تعيش فيه . فالأخبارية يقبلون جميع الأحاديث والآثار المنقولة عن الأنبياء والأئمة ، وبمقتضى هذا المبدأ يمكن هذه الفئة أن تقبل مبادئ وآراء لم يكن أصلها من القرآن ، وذلك بأنه اذا ورد في الأحاديث النبوية ما يوافقها فقد أصبحت مقبولة عند هذه الفرقة . نعم في هذا المذهب سعة لا تنكروا ان كان الاخباريون يزعمون أنفسهم أخلص الشيعة ، ويخالفون محدثي العرب والترك من أهل السنة في شدة تمحيص الأحاديث ، وتجد في الاخبار التي يعتمدون عليها ويطبقونها على الاسلام أقوالاً باقية من الديانات الفارسية

القديمة والساسانية ، وتراهم يذهبون في حشر الأجساد مذهباً يخالف الظاهر من الاسلام ، فلا يقولون بأن الاجساد تعود بعد الموت كما هي ، بل يقولون ان البشر بعد الحساب انما يكتسون مظاهر نورانية . وسواء كان الابرار أو الفجار فلا يظهرون في الابدان التي كانت لهم في الحياة الدنيا ، وسواء كان نعيم أولئك أو عذاب هؤلاء ، فكله هناك من طبيعة عقلية محضة لا مادية . وفتة الاخباريين هذه ينتسب اليها كثير من الطبقة الوسطى في الشعب ، فمهما وجد من الأفكار الغريبة عن الاسلام ، وأمكن وضعه تحت اسم واحد من الأئمة تقبلوه بدون مراجعة . ولهذا تجد كبار علماء الدين يردّون عليهم ويفندون مزاعمهم لاسيا في طهران .

وأما الشيخية فان لهم صلةً بكثير من مبادئ الاخبارية ، وهم وان كانوا يقولون بحشر الأجساد كما في الاسلام ، فانهم يتابعون الفيلسوف ابن سينا في قضية معراج الرسول الى السماء ، وفي معجزة انشقاق القمر ، ويقولون انه لا يجب تلقي هذه الامور بحسب ظاهرها ، بل يجب حملها على المجاز ، ففي مسألة المعراج يقولون انها كانت رؤيا - وهذا الرأي على ضعفه موجود في الاسلام قال به كثيرون وينسب الى معاوية رضى الله عنه وأما في مسألة انشقاق القمر فيقولون انه كناية لفظية . ومؤسس الطريقة الشيخية هو الشيخ أحمد البحريني ، عربي الأصل . كان يدرس في تبريز وتوفي في كربلاء ، وله تأليف في علم الكلام لم يصرح فيها بشئ من هذه المبادئ ، ولكن يقال انه كان يستعمل الكتان ، وانه كان على جانب عظيم من الجراءة في آرائه . وللعقيدة الشيخية أنصار كثيرون في الطبقة العالية من رجال الدين وهم يناصبون الاخباريين العداوة ويتقدونهم أشد انتقاد في قبولهم جميع الاحاديث والاخبار بدون نقد ولا تمحيص ويحتجون عليهم بالقواعد التي وضعها أئمة الحديث والتي تقتضي مزيد التحري . وهم في هذا المعنى قرييون من أهل السنة . وقولنا قرييون من أهل السنة لا ينبغي أن يؤخذ منه أنهم أميل الى السنة من غيرهم بل هؤلاء أيضا يرون أنفسهم من أخلص الشيعة وأصلبهم عقيدة ، فهم في الحقيقة وسط بين تدقيق أهل السنة الزائد في الحديث ، وتساهل الاخباريين فيه . وهم أشبه بفرقة پوزيت Puséytes « الانكليز الذين هم من أشد الفرق كراهية للكتلثة ، وهم في الواقع أقرب من غيرهم اليها .

أما فئة المجتهدة فانهم ينتقدون الاخباريين في سرعة تهافتهم؛ وسهولة تلقيهم للاخبار بدون تمحيص ويقولون ان الخبر يجب ليكون معمولاً بموجبه. أن يستوفى شروط التمحيص المنصوص عليها في كتب الأئمة؛ فمن الوجهة النظرية لا تجدهم يتساهلون في هذا الموضوع أصلاً وأما من الجهة العملية فتجدهم بالعكس يقبلون كثيراً من الروايات عن معجزات الرسول والأئمة؛ ولا يحبون أن ينازعوا فيها أو أن يتحروا في أسانيدھا؛ وكذلك لا يقبلون كلام الشيخية في جملها على المجاز؛ ويرجعون فهمها بحسب ظاهرها؛ اذ يرون ارخاء العنان في التأويل بالمجاز والكناية مفضياً الى هدم الدين نفسه ويرون تحكيم العقل في كل شيء منافياً للإيمان وهم كأسيويين يؤمنون بالمعجزات. وأكثر المجتهدين والاجتهاديين هم من طبقة القضاة؛ ومأموري الادارة؛ والذين يشتغلون بالعمل أكثر من النظر. وكثيراً ما يتحول الانسان في فارس من مذهب الى مذهب فينما هو من الشيخيين مثلاً اذ تراه تحول اجتهادياً أو اخبارياً. أما مذهب السنة فهو ضئيل في فارس والشعور القومي هناك ضده وقد ازداد بغض الشيعة للسنة من أيام الدولة الصفوية؛ وكان العامل في هذه العداوة سياسياً أكثر مما كان دينياً. وبالأجمال لا توجد ديانة أكثر فرقاً من الاسلام وذلك لسببين الأول: كثرة عدد الفرق، والمعروف بصورة رسمية انها من الاسلام، والثاني: ان الانسان يمكنه أن يقبل في جانب مبادئ القرآن آراء كثيرة لم يكن أصلها منه. فسبب هذه الحرية العظيمة التي تجدها في الاسلام والتي هي منشأ الأخذ من الخارج هي بساطة العقيدة ووجازتها فهي تنحصر في قول الانسان: لا اله الا الله محمد رسول الله. فمن صرح بهاتين الشهادتين فهو مسلم

ثم أخذ المصنف يذكر تاريخ البعثة النبوية وما قام به الرسول ﷺ من تصحيح العقائد السابقة وأطال في هذا المقام وقال ان الرسول كان مصلحاً معتدلاً في اصلاحه. وقال ان الرسول لم يأخذ ما عاينه عن اليهودية من التوراة رأساً وإنما أخذ عن التامود وعما كان دائراً في عصره بين اليهود. وكذلك قال ان محمداً كان مصيباً في قوله ان النصارى حرفوا الانجيل لان النصارى في عصره وجد منهم من حرف الانجيل قال: فنبأ الاسلام في نفسه كان يحترم ملتي موسى وعيسى أشد الاحترام الا أنه كان يشدد التكبر على اتباعهما الذين أفسدوا العقائد التي كانا قد أتيا بها. فالاسلام بالكتب الثلاثة التوراة بدون تبديل والانجيل

بدون تحريف ، والقرآن الموحى الى محمد بواسطة جبريل ليس الا اعادة دين العرب القديم الى نقاوته الأصلية ، واحياء ملة ابراهيم كما كانت ، وقد ذكر « دى غوينو » سيرة الرسول الشخصية في صفحة ٤١ من كتابه فقال : انه كان بين العرب بل بين جميع معاصريه رجلاً متحلياً بشمائل زكية ، رصيناً ، محباً للعدل ، محباً للانسانية ، حليماً ، نزيهاً ، الى الدرجة القصوى

وأما الفتح الاسلامى وكيف تحولت به فارس مملكة اسلامية وبقيت فارسية في نفسها وهو الموضوع الذى نحوم حوله الآن فقد علمه بالأسباب التى سبق ان أوضحها بصور مختلفة وهو ان الاسلام مبدأ سهل سمح يسهل أن تدخل تحته مبادئ جديدة طارئة عليه من الخارج أو راشحة اليه من السابق . وأعظم دليل على هذا الأمر هو التشيع الذى هو دين فارس اليوم . قال : فالعرب عند ما هدموا ملك كسرى في وقعة القادسية كانوا قد صادفوا أمة فارسية خامرها الفساد في أخلاقها كما خامر الأمة البيزنطية . وليس هذا بقادح فيما ثبت للعرب الفاتحين حينئذٍ من البسالة الفائقة والحاسية المدهشة وجميع الفضائل العسكرية من اخلاص وصبر وقناعة وعلو نفس وبعدهمة وبصيرة بالحرب . وانما نقول انهم لو صادفوا امامهم في الشرق ما صادفوه في الغرب من أمم متعلقة بحكوماتها وأقوام مخلصه لأمرائها لما كانت أمكنتهم تلك الفتوح التى فتحوها في الشرق بهذه السرعة الغريبة ولكان عمرو ابن العاص وخالد بن الوليد وأمثالهما اضطروا الى العودة الى قفارهم . الا أن المملكة البيزنطية كانت قد تخرت بفساد الأخلاق وتمزقت بالمجاذلات الدينية . وكذلك فارس لم تكن أحسن منها حالاً .

ثم ذكر أحوال ديانات العجم يوم ظهور الاسلام فقال ما محصله : ان المجوس كانوا قد أسسوا في ظل الدولة الساسانية ملة رسمية ، زعموا أنه لا يجوز أن يكون غيرها في المملكة وهو خطأ لم يقع فيه الزاردشتية من قبل . ولم يلحظ المجوس ما كان قد تطرق الى بلادهم من المذاهب الغريبة ، فان العقائد اليونانية والاشورية والمبادئ الافلاطونية الدينية التى تولدت في الاسكندرية كانت قد شاعت في جنوبى فارس وغربها . وأما في شمالي فارس فالقبائل التى هناك كانت لم تخضع للديانة المجوسية الا على شرط حفظ شعائرها القديمة التى من جلتها عدم وجود طبقة كهنوتية خاصة . وكانت هذه القبائل تتمسك بعاداتها من أن رئيس

العائلة هو الكاهن الوحيد لها . وكان قد دخل في فارس أيضاً عقائد مسيحية ويهودية كان لها تبع كثيرون منهم أمراء وقواد ذوو سلطان ، ودخلت أيضاً البوذية والمناوية والبراهمية وهذه الأخيرة كانت منتشرة في كرمان ومقاطعات هرمز . وكانت المجوسية الفارسية توخت ارضاء جميع المذاهب وفتحت صدرها لكثير من العقائد المسيحية واليهودية والكلدانية . ورأت نفسها ديانة سَمحة تريد أن تتفادى المنازعات والمجادلات الدينية ، فاصابها في آخر الامر ما يصيب كل ملة تقصد التوسّع فتقع في التضيق ، وذلك انها اضطرت أخيراً الى الاكراه والاضطهاد . ولما كانت هي دين الحكومة صار كل ساخط على الحكومة ناظم عليها سوء الادارة ساخطاً على الديانة أيضاً فلما جرت وقعة القادسية واتصر العرب على العجم جاءت فرجاً لكثير من اليهود والمسيحيين الذين كانت الحكومة الفارسية تضطهدهم ، وكان الدين العربي الجديد يعدّهم أهل كتاب ولا يكلفهم الا أداء جزية تريحهم من التكاليف العسكرية . وكذلك جاءت القادسية فرجاً لاصحاب المهن والصناعات الذين كانوا يغرمون غرامات فاحشة بحجة أنهم يهينون النار أو الماء أو التراب وهو مما لم يكونوا يقدرّون أن يتجنبوه لأجل صناعاتهم . فما كان أسرع مثل هؤلاء بطبيعة الحال الى الدخول في الاسلام قال : ولا نريد أن نقول بهذا ان الديانة المجوسية كانت قد فقدت كل حكمها بعد أن وضعت يدها على الدولة مدة أربعة قرون ، بل كانت قد بقيت لها عروق واشجة في البلاد . ولما انهزمت في معركة القادسية كان انهزامها مرافقاً لانهزام الدولة والوطن . ولم يمض على ذلك زمن حتى صارت هي الممثلة للوطن الفارسي . فقد كان بقي للسلطة القديمة بقايا ذات بال ، وكان من أمراء فارس من لم يزل متمتعاً بماله وجاهه ونفوذ كلمته ، ولم يكن المسلمون يضطهدونهم كما يظن بعض المؤرخين ، فبقيت شوكتهم قوية . فلما جاء بعض أمراء الترك ينازعون خلفاء العرب الملك ويستقلّون عنهم بامارات لهم خاصة ، وجدوا من استعداد زعماء العجم موافق سياستهم حتى ان أشد هؤلاء الأمراء اسلاماً مثل محمود الغزنوي مثلاً كان يقوى العجم على العرب وكان الأدب الفارسي لا يزال الا في صور معلومة فارسيّاً في ديباجته فتأيّدت بذلك النزعة الفارسية ، ثم انطلقت الحرية للشعب الفارسي فصاروا يلعنون العرب علناً بلا تكبير حتى دخل في ذلك أحفاد الذين كانوا أول من ابتهجوا بمقدم العرب . وكانت قد تنوسيت الأحقاد القديمة على السلطة السابقة ، بل كان

الشعب الفارسي رجع يتذكرها ويتأوه على ذلك المجد القديم الغابر . ولم يكن بقي لبيت الملك الفارسي الأخير سلالة ليلتفّ الفرس حولها ولكنه كان من الممكن احياء القومية الفارسية نفسها من جديد وتجديد رياسة دينية شبيهة بالتي كانت بفارس قبل الاسلام . وبالجملة شرعت الوطنية الفارسية تظهر في رُشدان صيغة دينية خاصة بها شبيهة بما كان لها من هذا القبيل قبل ان دخلت في دين العرب

ولم يكن مما يرد على الخاطر أن تنتقض فارس على الاسلام نفسه فان العالم وقتئذ في نظر الشرق كان ينبغي أن يكون مسلماً . فالاسلام كان يمثل القوة السياسية والمجد والحضارة معا . وقد يجوز لهم أن لا يبقوا منه الا الاسم فقط ولكن هذا الاسم كان لا بد منه . فالفلاسفة كانوا يعملون تحت اسم الاسلام بجميع قواهم لبث مبادئهم ولو خالفته . والأمرء الساسانيون والغزنويون والديالمة مثل بني بويه كان كل منهم يعمل على شاكلته ولكنهم كانوا جميعا ينطوون ظاهراً تحت لواء الاسلام . فكانت الحالة هناك كما هي الحالة الآن في الغرب : كثير من الناس لا يشهدون المراسم الدينية المسيحية ولا يعتقدون بدين المسيح . ولكنهم في الوقت نفسه لا يرحون يترغون بذكر « المدينة المسيحية » و « العالم المسيحي »

وكان جل مقصد العجم صدم وحدة الدولة العربية لانهم كادوا يخنقون تحت سلطان هذه الخلافة العربية المنبسطة على البلدان من اسبانية الى الهند . وكانوا يعملون لاستقلال فارس بنفسها استقلالاً داخلياً فأول ما فكرُوا به هو انكار مشروعية خلافة أهل السنة ، والظهور بمظهر المناصرة لحقوق آل البيت المهضومة ، متمسكين بمبدأ شرعي هو بزعمهم أعظم مشروعية وأعرق في الاسلام من المبدأ العربي نفسه ، فكأنهم صاروا عرباً أكثر من العرب ومسلمين أكثر من خصومهم . قاموا يستظهرون على العرب بمبادئ لا يمكن هؤلاء أن ينكروها بتاتاً ، وهكذا كان منشأ مذهب الشيعة في ايران وقد صحب منشأ معارك وملاحم لا تحصى ولكنه خدم فارس كثيراً في قضيتها القومية وجدّد كثيراً من منازعها القديمة .

كان النزاع في ظاهر الحال دائراً على حق العباسيين في الخلافة وعدمه . ولكن في الحقيقة كانت النهضة نهضة فارسية محضة . وأخذت كل بلدة تؤلف لنفسها طبقة دينية خاصة

ولما كان وجود طبقة دينية خاصة — كما في الدين المسيحي مثلاً — غير متفق مع مبادئ القرآن ولا مع سنة الرسول وكان كلٌّ من المسلمين بحسب الكتاب والسنة غير مقيّد في عقيدته بأوامر رجال الدين نزع هؤلاء المسلمون من العجم الى طريقة جديدة وهو أن يقولوا ان القرآن لا تسوغ تلاوته ولا تفسيره الا لعلماء الدين الذين يقال لهم اليوم « ملأ » وهذا منزع أخذه الايرانيون عن فلاسفتهم القدماء وعن مؤابذتهم المجوس ، وهي حصر الخدمة الدينية في طبقة معينة لا تتعداهم . وهكذا تمجّدت الديانة الساسانية بشكل اسلامي هو مذهب الشيعة . ولما تأسست الدولة الصفوية فيما بعد لم تكن سوى دولة ساسانية مسلمة . وان تعمقنا في حقائق الأشياء نرى ان التشيع عندهم هو القول باله أزلى أبديّ واحد لا بداية له ولا نهاية . قد خلق الكون على قواعد ثابتة ، وبين خلقه شروط النجاة والهلاك وسيكون الرجوع اليه ، والرسول هو أكمل المخلوقات والقرآن غير مخلوق بل وُجد منذ الأزل بالارادة الالهية ، وبالجملة فآله والرسول والقرآن يذكروننا هنا بالعقيدة الفارسية القديمة المسماة « الزروانه اكرنه » أى الزمان بدون حد . وأما العمل فهو لآئمة آل البيت فهم الذين يحفظون العالم ويهدونه الى صراط مستقيم وليس في الخارج عنهم الا الظلمات . فالاعتداء بهم هو النجاة ، والانحراف عنهم هو الهلاك . وهم اثنا عشر اماماً . واذا تأمل الانسان ، يجد اعتقاد العجم المسلمين في على أشبه باعتقاد العجم القدماء في هرمزد المخلص الحافظ القيوم ، كما أن ذريته أشبه باللائكة الصالحين الذين في ديانة زردشت يقاثلون الأرواح الخبيثة . وأما قضية الشيطان والقتال الدائم بينه وبين الآئمة فهي أشبه بقضية أهرمان في الممسيقية القديمة . ولذلك تجد أهل السنة يكرهون هذه الاعتقادات أشد الكره ويرون فيها الاتقادات المجوسية القديمة ، ولعمري ليسوا بمخطئين . ولكنهم لا يقدرّون أن يلوموا الا أنفسهم نظراً للسعة التي في مذهبهم فانهم قد حاولوا أن يدخلوا في الاسلام من الخلق بقدر استطاعتهم ولم ينظروا الى ما كان المسلمون الجدد يحملون في حقائبهم ويدخلون به على الاسلام . انتهى

هذه خلاصة ما ذكره الكونت « دوغوينو » وقد يكون اطلع على أحوال العجم أكثر من كل أوربي . ولكننا لا نقدر أن نتلقى جميع قضايه بدون خص وان أصاب في كثير منها : ومما لا مشاحة فيه ان أهل فارس يغفلون في على وآل البيت أكثر جداً من

الشيعة العرب ، كالزيدية في اليمن ، والمتأولة في الشام ، والشيعة في العراق ولكننا لا نقدر أن نقول ان هذه الخصائص التي لآل البيت وهذه العصمة للأئمة الاثني عشر غير معروفة أصلاً عند الشيعة من العرب . فان كانت الأسباب السياسية وحدها هي التي حلت أهل فارس على النزوع الى مذهب الشيعة ليقيموا منه خصماً لمذهب السنة ويجددوا الدولة الفارسية التي كان العرب قد قضوا عليها ، فاذا نقول في شيعة العراق وشيعة الشام وشيعة اليمن وكلهم عرب اقحاح ينزع بهم عرق العربية كما ينزع بأهل السنة بدون فرق .

اني لا أخالف هذا المؤات في كون الفرس نقلوا كثيراً من عقائدهم القيمة الى الاسلام ، ولا أخالف أيضاً في كونهم انتقضوا على العرب مراراً ، وخالوا تأسيس ممالك فارسية في وجه الخلافة العباسية ، وأنهم أيضاً احتفظوا باللسان الفارسي في وجه اللسان العربي ، وأن تشيعهم للعلوية إنما كان أكثره ناشئاً عن أغراض سياسية في أصلها ، المقصد منها مقاومة الحكم العربي . ولقد تقدم لي هذا البحث بعينه في هذه الخواشي ولم أكن اطلعت عندما حررت ذلك البحث على كتاب الكونت دوغوينو فأنا اذن متفق معه في المبدأ ، وانما أخشى أن يكون مبالغاً في بعض الأمور وذاهباً في اطلاق الحكم مذهب الأوربيين بنى جلده ، فيما يتكلمون به عن الشرق . فالتشيع لم يبدأ في فارس بل بدأ في الحجاز نفسه أي في موطن العرب ، وظهر بعد ذلك في الشام بواسطة أبي ذر الغفاري ، وقد سبق لي بحث وافٍ في هذا الموضوع نشرته في مجلة المقتطف سنة ١٩١٠ مسيحية وجاذبني فيه الحبل المجتهد الكبير ثقة الاسلام التبريزي الذي استشهد بيد الروس عند مادخلوا اذر بيجان العجم بعد ذلك التاريخ بأشهر قلائل .

وكذلك نشر الاستاذ المحقق الشيخ احمد رضا من علماء جبل عامل مقالات ممتعة في المقتطف عن أصل التشيع في القطر الشامي ذكر فيها أنه لما نفي أبو ذر الغفاري من المدينة الى الشام بأمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنهما ، أقام أبو ذر في دمشق ينشر دعوته العلوية ، وآراءه الاشتراكية في عدم جواز استئثار الأغنياء بالأموال دون الفقراء ، واستجاب دعوته قوم في دمشق لا تزال أعقابهم الى اليوم . ثم انه كان يخرج الى الساحل فكان له مقام في قرية الصرfond القريبة من صيداء ومقام آخر في قرية ميسن المشرقة على غور الاردن وكناتهما من قرى جبل عامل . والمقامان الى الآن معروفان . فكان له من ذلك

الوقت في هذه الديار من استجواب دعوته في التشيع وكان معاوية استغاث بعثمان من أبي ذر وكتب اليه ان أبا ذر أفسد علينا الشام فأمره برده الى المدينة ، فأرسله اليها مهاناً على بعير ضالع بلا غطاء ولا وطاء ، بعد أن شتمه ونال منه ما اشتهى ، كما ذكر ابن الأثير في كامله ، والطبري في تاريخه ، وان كررها أن يذكر أسباب نفية بعد ذلك الى الربذة ، الا مانسباه الى أبي ذر من الآراء الاشتراكية . قال صديقنا الاستاذ الشيخ احمد رضا : ولا يمكن التسليم بان الأمر الذي أخرج معاوية فأخرجه عن حمله حتى فعل بأبي ذر ما فعل هو رأيه هذا وحده ، بل هو أمر مهم من هذا وأعظم ، وهو الدعوة الى العلوية التي كانت تقضى على آمال معاوية كلها . قال : وكان أبو ذر معروفاً بميله الشديد الى الهاشميين عامة والى على خاصة ، وكان ممن تخلف مع على عن البيعة يوم السقيفة ، على مارواه أبو الفداء وغيره ، بل هو أول من أطلق عليهم اسم الشيعة . ورد في كتاب الزينة في تفسير الألفاظ المتداولة بين أرباب العلوم لأبي حاتم الرازي كما نقله عنه صاحب الروضات : « ان أول اسم ظهر في الاسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الشيعة ، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة وهم : أبو ذر وسلمان الفارسي والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر ، الى أن آن أوان صفين فاشتهر بين موالى على عليه السلام »

قال الشيخ احمد رضا : « أما الشيعة في ايران والعجم فقد كان مبدأ أمرها في أوائل الدعوة العباسية ولم تكن يومئذ ثابتة الأركان ولا في زمان بني بويه ، والدولة العلوية هناك الى أن انقضى أمر الخوارزمية في ايران ، وأقام المغول حكومتهم في قلب ايران ، وتعاقبت ملوكهم الى زمان السلطان الجايتو محمد المغولى المنقب بشاه خدا بنده ، فهو الذي أظهر التشيع في ايران ودعا اليه وأمر بان يخطب بأسماء الأئمة الاثني عشر على المنابر . (الى أن قال) : ولكن دولة العجم لم تصبح شيعية محضة قبل زمن الشاه عباس الكبير الصفوى الذي كان في القرن العاشر (للهجرة) وكان صاحب الفتيا لديه بل مرجع ايران في زمانه المحقق الكركي العاملى ، ويقول جودت باشا في تاريخه ان الشاه عباس هو الذى بث مذهب التشيع في ايران وأقام الدولة الصفوية على أساسه . اهـ

أقول ان هذه الروايات التي نقلها الاستاذ الشيخ احمد رضا العاملى من أعضاء مجمعنا العلمى العربى تطابق المشهور والمأثور في التواريخ المعتبرة ، الا انى لا أعلم من أين نقل ان

أبا ذر الغفارى رضى الله عنه كان يختلف الى الساحل والى مشارف الغور هل عثر لذلك على نصوص أم هو من الأخبار المتواترة بين شيعة جبل عامل ؟ لست أعلم .

أما الذى فى طبقات ابن سعد من خبر أبى ذر الغفارى ، فهو أنه جاء الى دمشق وأنه اختلف مع معاوية . قال : أخبرنا هشيم قال أخبرنا حصين عن زيد بن وهب قال : مررت بالربذة ^(١) فإذا أنا بأبى ذر قال : فقلت ما أنزلك من ذلك هذا ؟ قال كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » قال معاوية نزلت فى أهل الكتاب قال : فقلت نزلت فىنا وفيهم . قال فكان بينى وبينه فى ذلك كلام . فكتب يشكونى الى عثمان . قال فكتب الى عثمان : أن أقدم المدينة ، فقدمت المدينة وكثر الناس على كأنهم لم يرونى قبل ذلك . قال : فذكر ذلك لعثمان فقال لى : إن شئت تنحيت فكننت قريباً فذاك أنزلنى هذا المنزل ولو أمر على حبشى لسمعت ولاطعت .

وروى ابن سعد حديثاً آخر قال أخبرنا يزيد بن هارون قال أخبرنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين أن رسول الله ﷺ قال لابی ذر : إذا بلغ النبأ سلماً فأخرج منها ونحاً بيده نحو الشام ولا أرى أمراءك يدعونك . قال يارسول الله : أفلا أقاتل من يحول بينى وبين أمرك ؟ قال : لا . قال : فما تأمرنى قال : اسمع وأطع ولو لعبد حبشى . قال : فلما كان ذلك خرج الى الشام فكتب معاوية الى عثمان : ان أبا ذر قد أفسد الناس بالشام . فبعث اليه عثمان فقدم عليه ثم بعثوا أهله من بعده فوجدوا عنده كيساً أو شيئاً فظنوا انها دراهم فقالوا ماشاء الله فإذا هى فلوس (قطع نحاسية صغيرة) فلما قدم المدينة قال له عثمان : كن عندى تغدو عليك وتروح اللقاح . قال : لاحتاجة لى فى دنياكم . ثم قال : ائتن لى حتى أخرج الى الربذة ، فأذن له فخرج الى الربذة وقد أقيمت الصلاة وعليها عبدٌ لعثمان حبشى فتأخر فقال أبو ذر تقدّم فصل فقد أمرت أن أسمع وأطيع ولو لعبد حبشى فأنت عبد حبشى . قال ابن سعد : أخبرنا يزيد بن هارون قال أخبرنا العوام بن حوشب

(١) الربذة من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز إذا رحلت من فيند تريد مكة وبهذا الوضع قبر أبى ذر الغفارى رضى الله عنه واسمه جندب بن جنادة وكان قد خرج اليها مغاضباً لعثمان بن عفان رضى الله عنه فأقام بها الى أن مات فى سنة ٣٢ . عن معجم البلدان بحرفه

قال حدثني رجل من أصحاب الآجر عن شيخين من بني ثعلبة رجل وامرأته قالا : نزلنا الربرة فرأينا شيخاً أشعث أبيض الرأس واللحية فقالوا : هذا من أصحاب رسول الله ﷺ . فاستأذناه أن نغسل رأسه فأذن لنا واستأنس بنا فبينما نحن كذلك إذ أتاه نفر من أهل العراق ، حسبته قال من أهل الكوفة فقالوا يا أبا ذر : فعل بك هذا الرجل وفعل ، فهل أنت ناصب لنا راية فلنكمل برجال ماشئت . فقال : يا أهل الاسلام لاتعرضوا عليّ ذاكم ولا تذلووا السلطان فانه من أذل السلطان فلا توبة له ، والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة أو أطول جبل لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ، ورأيت ان ذاك خير لي . ولو سيرني ما بين الافق الى الافق أو قال ما بين المشرق والمغرب ، لسمعت وأطعت ، وصبرت واحتسبت ، ورأيت ان ذاك خير لي ، ولو رددني الى منزلي لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذاك خيراً لي . قال أخبرنا الفضل بن دكين قال حدثنا جعفر بن برقان عن ثابت بن الحجاج عن عبد الله بن سيدان السلمي قال : تناهى أبو ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما ثم انصرف أبو ذر متبسماً فقال له الناس : مالك ولأمر المؤمنين ؟ قال : سامع مطيع ولو أمرني أن آتي صنعاء أو عدن ثم استطعت أن أفعل لفعلت . وأمره عثمان أن يخرج الى الربرة . هذا وقد نقل ابن سعد بأسانيد متعددة قول رسول الله ﷺ : ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبي ذر . ولهذا الحديث في بعض الروايات تمة وهي : من سره أن ينظر الى زهد عيسى بن مريم فليتنظر الى أبي ذر . ونقلوا عن أبي ذر انه قال أوصاني خليلي بسبع : أمرني بحب المساكين والدنوة منهم ، وأمرني أن أنظر الى من هو دوني ولا أنظر الى من هو فوق ، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أصل الرحم وان أوديت ، وأمرني أن أقول الحق وان كان مرراً ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من لاحول ولا قوة الا بالله ، فانهن من كنز تحت العرش . وكان ينفق كل ما بيده ويقول : ان خليلي عهد اليّ أيّ مال ذهب أو فضة أو كى عليه ، فهو جر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله . ولقي أبو موسى الأشعري أبا ذر فلزمه ، فجعل الأشعري يقول له : أنت أخي ومرحبا بأخي . وجعل أبو ذر يقول له : اليك عنى لست بأخيك انما كنت أخاك قبل أن تستعمل .

لقد نقلنا هذه الأحاديث مكتفين بها عن غيرها من أخبار أبي ذر لاجل أن نعرف

القارىء بحقيقة حال أبي ذر فقد ثبت انه كان شديداً في الحق لا يخاف فيه لومة لائم ، وانه كان زاهداً في الدنيا ، وكان على منزع اشتراكي يميل الى الفقراء والمساكين ، ويكره ادخال الأموال ، لكنه برغم خلقه هذا كان يرى الطاعة للسلطان ، كأنه كان يذكر دائماً ما أوصاه به الرسول ﷺ وهو : اسمع وأطع ولو لعبد حبشي . فأما ذهابه الى الشام فالشائع ان عثمان نفاه اليها وليس في الطبقات الكبرى لابن سعد تصريح بأنه نفاه الى الشام وإنما هناك إيماء بأنه رأى مالم يعجبه وهو في المدينة فخرج الى الشام ، ثم اختلف في الشام مع معاوية . فكتب معاوية الى عثمان يقول له : ان أبا ذر أفسد الناس علينا . فأمره برده الى المدينة . ولم أقف على أثر في الطبقات لسكنائه بجبل عامل وساحل صيداء ، ولكن قرأت خبراً يدل على أن أبا ذر جاء بيت المقدس .

وعلى كل حال خبر أبي ذر الغفاري بأنه كان من شيعة عليّ خبر شائع بين الناس ، ومن الثابت ان التشيع بدأ عند العرب قبل العجم ولكن الغلو في التشيع بدأ عند العجم . ويجوز أن يكون هذا الغلو في التشيع ، وهذا الاعتقاد في عصمة الأئمة ، والقول بان ادارة الكون هي في يدهم ، من آثار الديانات الفارسية القديمة كما ان الأسباب السياسية التي أشرنا اليها سابقاً من نزوع العجم الى الأخذ بثأرهم من العرب كانت أيضاً عاملة في نشر التشيع في فارس . وأما كون غلبة التشيع الحقيقية على تلك المملكة لم تقع الا في عهد الدولة الصفوية ، فهذا يقع الاجماع عليه ويؤيده الكونت دوغوينو في كتابه الذي ذكرناه ويصرح به الاستاذ الشيخ احمد رضا ومن قبل هذا الدور لم يبلغ التشيع هذه الدرجة من القوة في فارس بل نجد في التواريخ ما يدل على العكس

وفي رسائل أبي بكر الخوارزمي رسالة الى جماعة الشيعة بنيسابور يعدد فيها جميع ماجرى من المحن والمظالم على آل البيت ولو انتدب أحد علماء التواريخ لشرحها لجاء منها كتاب كبير وفيها يقول : « ونسأل الله أن لا يحشرنا على نصب أصفهاني ولا على بفض لأهل البيت طوسي أو شاشي » وهذا يدل على ان التشيع لم يكن غالباً على تلك البلاد كما هو اليوم . بل كان في العجم نواصب وكان بلد كبير مثل أصفهان معروفاً بشدة العداوة لآل البيت وهذا بشهادة رجل من كبار المتشيعين وأدباء عصره كابي بكر الخوارزمي . أما الدلائل التي يستخلصها الانسان من التواريخ على استعداد العجم للتشيع فهو اتفاق

المؤرخين على كون الخلافة العباسية انما قامت بالأعاجم أيام كانت الدعوة الهاشمية واحدة لم يفترق فيها بنو العباس عن بنى أبى طالب . ولغد قال المسيو هوار المستشرق الفرنسى صاحب « تاريخ العرب » ان العجم فى وقعة الزاب أى الوقعة التى انهزم بها مروان بن محمد آخر بنى أمية ، أخذوا بشأهم عن يوم القادسية . ثم انه ظهر أن آل برمك برغم كل ما كانوا عليه من الحظوة فى زمان المنصور والرشيد كانوا فى الباطن يميلون الى آل البيت ، حتى قيل ان سبب نكبتهم هو اطلاق جعفر بن يحيى البرمكى سبيل يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على رضى الله عنهم بدون اذن الرشيد ، بعد أن دفعه الرشيد اليه وجعل اعتقاله فى داره . وكذلك يعلم الناس أن بنى بويه كانوا شيعة وانهم بعد استيلائهم على بغداد والتزامهم نصره الخلافة العباسية والعمل تحت لوأئهم يزالوا شيعة .

أما الحالة الراهنة الآن فى فارس وهو الذى يهم التعريف به ، اذ كان من أهم موضوعات حاضر العالم الاسلامى ، فهى ان الدولة الفارسية لاتزال دولة اسلامية وحامية للتشيع فى الاسلام . ولما كان ضعف الأمة الواحدة يزيل ما بين أحزابها المختلفة من الأحقاد فقد كان من نتائج ضعف الأمة الاسلامية فى العصر الحاضر ، زوال كثير من البغضاء التى كانت عند العجم لأهل السنة ، وزوال مثل ذلك من أهل السنة للشيعة ، وقد يورث الخير شراً والشر خيراً ، ولقد لحظ كل من ساح فى بلاد العجم حتى من الاوربيين ان الأمة الفارسية فى العصر الحاضر تشعر بشعور العالم الاسلامى جميعه ، فتهتم لتركيا ، وبلاد العرب ، ول مصر ، وللغرب ، ولكل بلاد الاسلام اهتماماً أكيداً ، ويكرهها ما يكره المسلمون ، ويسرها ما يسرهم ، وسمعت مرة الأمير العلامة الجليل أرفع الدولة رضاخان ممثل فارس فى جمعية الأمم يقول من خطبة له فى جلسة عمومية : ان فارس تمثل فى عصبة الأمم العالم الاسلامى المؤلف من أربعمائة مليون نسمة . وقد كان من دلائل القرب بين الشيعة والسنة عقد الحكومة الفارسية الحاضرة معاهدات صداقة بينها وبين تركيا ، وبينها وبين العراق ، وبينها وبين الجزائر ونجد ، وبينها وبين مصر ، وكلها حكومات سنية . وفى أواخر السنة الماضية عندما انعقد المؤتمر الاسلامى فى القدس الشريف شهده جماعة من أعيان الشيعة كالسيد الطباطبائى ، والشيخ الحسين آل كاشف الغطاء ، وجماعة من علماء الشيعة فى العراق ،

وجاعة من علماء الشيعة العاملين منهم الاستاذان الشيخ سليمان ظاهر ، والشيخ احمد رضا وغيرهم ، وقد صلى أعضاء المؤتمر الممثلون لجميع العالم الاسلامي مرتين بامامة المجتهد الكبير السيد حسين آل كاشف الغطاء ، ولم يخطر ببال أحد الاعتراض على ذلك بل ابتهج به المسلمون جيعاً وصرح رياض بك الصلح مفخر شبان سوريا بأنه اليوم قد انبثق فجر الوحدة الاسلامية .

نعم ان في فارس اليوم نزعة لادينية تبحث في وقت واحد عن الالحاد في الدين ، وعن تاريخ فارس القديم ، وتريد التجدد العصري بزعمها ، واحياء الفارسية التي مرّت عليها ألوف من السنين أى الحديث الأحدث مع القديم الأقدم تحاول الجمع بينهما ولكنها لا تبلغ درجة الفقة الماثلة لها في تركيا من جهة الغلو في التجدد مع احياء التركية القديمة . وكاتنا الفئتين لا تقدران على زعزعة الاسلام لافي فارس ولا في تركيا

وهذا ما كنا نشرناه في مجلة المقتطف عن الشيعة تحت عنوان « المتأولة أو الشيعة في جبل عامل ^(١) » :

اطلعت في المقتطف على ما كتبه حضرة الفاضل الشيخ أحمد رضا من أدباء جبل عامل بشأن طائفة الشيعة المعروفة بالمأولة في هذا الجبل وتأملت فيما أورده من تاريخ ظهورها فيه مع سبب اشتهاار الشيعة في بر الشام دون غيرها بامم « المتأولة » الى غير ذلك من التنقيبات الحرية بالاعتبار فآثرت أن أضم الى هذا البحث بعض ما خطر لي فيه اتماماً للفائدة ووفاء بالبلاغ لامن قبيل الاعتراض ولا على جهة المحاجة بل من قبيل اضافة رأى الى الآراء والقاء دلو بين الدلاء فأقول :

ذكر الكاتب أن لقب متأولة مشتق على غير القياس . من تولى أى اتخذ ولياً لانهم تولوا آل البيت النبوي رضوان الله عليهم أى اتخذوهم أولياء أو هو مشتق من توالى أى تتابع نظراً لتواليهم خلفاً عن سلف في موالاة العترة المصطفوية . والذي أراه أن التوجيه الأول هو الأقرب وانه هو الاصل في التسمية فان تولى يأتي في اللغة بمعنى اتبع كما يأتي بمعنى انصرف فكأنه من الاضداد وهذا منزع معروف للعرب وقد جاء منه في الكتاب العزيز بمعنى الاعراض « وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم » وجاء بمعنى الاتباع : « ومن يتولهم منهم

(١) مقتطف أغسطس سنة ٩١٠ م ٧٣٩

فانه منهم « أى يتبعهم وينصرهم . والشيعه قد تولوا آل البيت أى اتبعوهم ف قيل فى اسم الفاعل متولى وتحرفت الكلمه بطول الزمن على ألسنة العامة ف قيل « متولى » وجعوه متاوله وكان الاولى أن يقال فيه متولية . والوجه الثانى هو من تولى فى حب آل البيت أى تابع فيكون اسم فاعله « متولى » ولا تحريف عندئذ فيه من جهة مفردة لكن يبقى التحريف فى جمعه اذ لا جمع لمتولى على متاوله بل جمعه الصحيح متوالية وقد سمعت وجهاً ثالثاً من فم استاذنا الامام الشيخ محمد عبده المصرى أكرم الله مشواه وهو أنهم كانوا يقولون للعلوى «مُتَ ولياً لعلّى» وكان يحرض الشيعة بعضهم بعضاً على الثبات فى حب آل البيت بهذا الكلام فصيغت من ذلك كلمه «مُتَوَلَّى» ثم صارت بتوالى الأيام مُتَوَالِي وكلمها وجوه غير بعيدة والغرابه ليست فيها بل فى كون هذه اللفظه غير معروفة الا لشيعة بر الشام بل لشيعة جبل عامل وجبل لبنان وبعليكم . ففى العراق شيعة لا يقال لهم متاوله وفى اليمن شيعة يقال لهم الزيدية ولا يقال لهم متاوله وفى العجم شيعة أكثر من كل محل ولا يقال لهم متاوله وبين مسامى الهند ملايين من الشيعة ولا يعرفون بلقب متاوله . وأغرب من هذا أن فى نفس دمشق الشام محله يقال لها الخراب سكانها من العلويين ويقال لهم هناك روافض ولا يقال لهم متاوله وبالأجال فالشيعة فى جميع بلاد الاسلام تحت ألقاب شيعة وعلوية وامامية وجعفرية وزيدية واثنا عشرية وغير ذلك وكلمه متاوله مخصوصه بشيعة بر الشام

على أن المجانسة فى المعنى بين التشيع والموالاة ظاهرة بل المعنى واحد فى اللفظتين والولى أو المتولى هو المشايخ أو المتشيع ورد فى كتاب « غاية الاختصار فى أخبار البويوتات العلوية المحفوظة من الغبار » للسيد الشريف تاج الدين بن محمد بن زهرة الحسينى نقيب حلب قوله كل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيعة وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره ويقال شايعه كما يقال والاه من الولى والمشايع

هذا ما حضر لى الآن من جهة كلمه متاوله وأنا موافق لصاحب البحث على كونها حديثه العهد جرت على الألسنة منذ مائتى سنة فقط لأن المؤرخين لم يذكروا هذه اللفظه عند ذكر شيعة بر الشام مع كون هذه الطائفة موجودة فى القطر منذ أوائل الفتح الاسلامى أما ما ذكره من جهة مبدأ التشيع فى الشام فانه من سيدنا أبى ذر الغفارى الذى نفاه الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنهما الى الشام وكان يخرج الى الساحل وله مقام بقرية

الصرفند ومقام آخر في مشارق الغور الى غير ذلك فهو قول متواتر بين الناس وربما كان أقرب الأقوال الى الصحة ولكن كنت أحب أن يكون الكاتب أورد النصوص التاريخية من أمهات الكتب أو نقل من الروايات ما فيه زيادة تفصيل وشفاء للغليل فإن التاريخ المعروف لدينا قصير العبارة جداً عن هذا الحادث وهذه الظامة فيه هي التي أضلت كثيراً من المؤرخين في حقيقة أصل الطائفة الشيعية في جبل عامل ، وحملت بعضهم على الظن أنهم قوم أتوا من العجم فلا انكار أن أبا ذر كان موالياً لعلى أى كان شيعياً وأنه من المتخلفين عن مبايعة الصديق يوم السقيفة وله في ذلك شركاء من الصحابة نصت على ذلك الأمهات . فأما مقامه بالشام فغاية ما ذكره فيه أنه كان ينكر على معاوية جمع الأموال ويشنع عليه بهذا السبب حتى شكاه معاوية الى عثمان فنفاه الى الربذة . ذكر أبو الفداء في حوادث سنة ٢٥ وفاة أبي ذر الغفاري واسمه جندب بن جنادة قال : « وكان بالشام ينكر على معاوية جمع المال ويتلو « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » الآية فكتب معاوية الى عثمان يشكوه فكتب اليه عثمان أن اقدم المدينة فقدم الى المدينة فاجتمع الناس عليه وصار يذكر ذلك ويكثر الشناعة على من كنز الذهب والفضة فنفاه عثمان الى الربذة » أما تسمية هذا الجبل بجبل عامل أو جبل عاملة فلم أجد الكاتب تعرض لها مع أن فيها ما يثبت كون سكان هذا الجبل عرباً لا عجماء وذلك لأن مؤرخي العرب اتفقوا على كون حير وكهلان وأشعر وعمر و عاملة هم ولد قحطان وان أباهم هو يشجب ابن يعرب بن قحطان وان من حير التابعة وبنى شعبان وقضاة ومن كهلان الازد وطى ومذحج وهمدان وكندة ومراد وانمار . ومن كل من هؤلاء بطون وأغاذ كثيرة . وأما أشعر فهي القبيلة التي ينسب اليها أبو موسى الأشعري وأما عمرو فبنهم ظم وجذام وأما عاملة فخرجوا الى الشام ونزلوا بالقرب من دمشق بجبل عرف بجبل عاملة ، ومنهم عدى بن الرقاع الشاعر وعلى هذا يكون أصل مكان هذا الجبل من عرب اليمن وربما يكون نزل فيهم أيضاً قوم من السكاسك وهي قبيلتان على ما حققه ابن الجوزي النسابة الاولى من كندة والثانية من حير وهم بنو زيد بن وائلة بن حير ويلقب بزيد السكاسك وكلاهما باليمن والذي حملني على هذا الظن وجود أرض يقال لها السكسية الى الجنوب من الصرفند على سيف البحر

وقد ورد ذكر جبل عامل في مواضع كثيرة . قال ياقوت في معجم البلدان عند ذكر هونين :
بلد في جبال عاملة . وقال عند ذكر تبنين : بلدة في جبال بني عامل المطلة على بلد بانياس
بين دمشق وصور . وورد في تاريخ ابن الأثير عند ذكر حصن الافرنج تبنين : ان الملك
العزیز خرج من مصر لنجدة المسامين في الشام ورحل هو والعساكر الى جبل الخيل
(الخليل) ويعرف بجبل عاملة

ومن الغريب أنه لم يرد في الكتب القديمة ذكر هذا الجبل باسم بلاد بشارة كما هو
معروف به اليوم والشيخ احمد رضا يقول ان نسبة هذه البلاد هي الى أحد حكامها في
العصور الوسطى قيل انه من الأمراء بنى معن وقيل هو بشارة بن مقبل القحطاني وان كل
ذلك لم يقم عليه برهان وقوله هذا هو الصحيح أما الأمراء بنو معن فلم نجد في تاريخهم
من اسمه بشارة . وأما بشارة بن مقبل القحطاني فبدا لو ورد شيء من تاريخه لنعلم أين
كان مقره ومن كان صاحب هذا الاسم اذ لو عرفنا شيئاً من أمره لكان يمكن ترجيح
هذه الرواية على غيرها وما دام صاحب هذا الاسم مجهولاً فالأولى أن تكون هذه البلاد
منسوبة الى حسام الدين بشارة من أمراء الدولة الأيوبية قال ابن شداد في سيرة صلاح الدين
يوسف انه أتى عكا فأقام بها معظم سنة ٨٥٠ ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً وأمره بعمارة
السور ومعه حسام الدين بشارة وقال أيضاً انه في سادس عشر جادى سنة ثمان وثمانين وصل
كتاب من حسام الدين بشارة يذكر أنه تخلف في صور مائة راكب وانضم اليهم من عكا
خمسون وخرجوا لشن الغارات في البلاد الاسلامية فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد
من ذلك الطرف وجرى بينهم قتال شديد

وقد ورد ذكر حسام الدين بشارة مرة ثالثة في تاريخ ابن شداد عند حلف اليمين
للافضل بن صلاح الدين بعد وفاة والده وظهر من كلامه أنه كان من أكابر أمراء تلك الدولة
فلا يمنع أن يكون تولى هذه البلاد ونسبت اليه وهو أقرب وجه في هذه النسبة حتى يقوم
ما يدل على رجحان خلافه

أما كون التشيع في جبل عامل هو أقدم من العجم بل في كل قطر حاشا الحجاز فن
الحقائق التي لا خلاف فيها بل التشيع في العجم أحدث منه في سائر بلاد الاسلام . فجودت
باشا في تاريخه يقول ان الساء عباس هو الذي بث مذهب التشيع في ايران وأقام الدولة

الصفوية على أساسه . والمحجى يقول ان الشاه عباس بن السلطان محمد خدابنده بن طهماسب ابن الشاه اسماعيل بن سلطان حيدر ينتهى نسبه الى الامام على وان أول من بالغ في التشيع وأظهره هو السلطان حيدر وكان ذلك سنة ست وتسعمائة وهذا مخالف نوعاً لما قاله جودت باشا وعلى كلا القولين فالتشيع في العجم غير قديم كما أنه في العرب وفي الشام لم يكن ظاهراً بل كانت الشيعة تتمسك بحبال التقية خوفاً على أنفسهم . ولذلك نجد المؤرخين يتجانبون عن نسبة علماء الشيعة الى التشيع الا اضطراراً فقد ترجم المحجى محمد بن علي بن محمود الشامي العاملي المعروف بالشغري ونقل عنه ما قاله ابن معصوم في السلافة من الثناء والاطراء وذكر أنه خرج من الشام الى العجم ولم يذكره بتشيع ولا رفض وكذلك ترجم حسناً ابن زين الدين الشهيد العاملي الشهير بالشامي ولم ينسبه الى التشيع وذكر حفيده زين الدين ابن محمد بن حسن كذلك . انما في ترجمة محمد بن علي بن احمد المعروف بالحريري وبالحر فوشى العاملي الأديب الشاعر ذكر اخراجه من دمشق وسعى يوسف بن أبي الفتح عند الحكام بقتله بنسبة الرفض اليه وانه سار الى بلاد العجم وان سلطانها الشاه عباس صيره رئيس العلماء في بلاده . كذلك عند ما ترجم محمد الخ العاملي الشامي نقل عن ابن معصوم صاحب السلافة أنه قدم من مكة في سنة سبع أو ثمان وثمانين وألف وفي الثانية منهما قتلت الأتراك جماعة من العجم لما اتهموهم به من تلويث البيت الشريف وان المترجم خاف على نفسه فالتجأ الى السيد موسى بن سليمان ونجا . وذكر المحجى أن ممن قتلوا بتلك التهمة السيد محمد مؤمن وكان رجلاً متعبداً الا أنه معروف بالتشيع

ولما وصل الى ترجمة فريد عصره بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول ذكر أنه ولد ببعلبك غروب شمس الأربعاء لثلاث عشرة بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وخسين وتسعمائة وانتقل أبوه الى بلاد العجم وما زال يتدرج في سلم الفضل الى أن ولى مشيخة الاسلام في تلك الديار . وقال « وغالت تلك الدولة في قيمته واستمرت غيث الفضل من ديمته فوضعت على مفرقها تاجاً وأطلعت في مشرقها سراجاً وهاجاً وتبسمت به دولة سلطانها شاه عباس واستنارت بشمس رأيه عند اعتكار حنادس الناس فكان لا يفارقه حضراً ولا سفراً الخ » ثم نقل عبارة الطالولي في حقه التي أطراه فيها بما لم يسمح به لأحد وقال ان شاه عباس طلبه لرياسة علماء بلاده لكنه لم يكن على مذهب الشاه في الزندقة لانتشار صيته في

سداد دينه الا أنه غالى في خب آل البيت . وذكر المحبى أنه لما نزل الشام نزل بمحلة الخراب وهي الآن محلة الشيعة . ونقل في حقه عبارة للشيخ أبى الوفاء العرضى وهي أنه لما قدم حلب في زمان السلطان مراد بن سليم حضر دروس الوالد أى الشيخ عمر وهو لا يظهر أنه طالب علم حتى فرغ من الدرس فسأله أدلة تفضيل الصديق على المرتضى فذكر حديث ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين أفضل من أبى بكر فرد عليه وأخذ يذكر أشياء كثيرة تقتضى تفضيل المرتضى فشمته الوالد وقال له (رافضى شيعى) وسبه فسكت ثم ان صاحب الترجمة أمر بعض تجار العجم أن يصنع وليمة يجمع فيها بين الوالد وبينه فصنعها ودعاها فأخبره أن هذا هو الملا بهاء الدين عالم بلاد العجم وقال للوالد : شتمونا فقال له : ما علمت أنك الملا بهاء الدين . ثم قال : أنا سنى أحب الصحابة ولكن كيف أفعل سلطانتا شيعى ويقتل العالم السنى . قال المحبى ولما سمع بقدمه أهل جبل عامل تواردوا عليه أفواجا أفواجا فخاف أن يظهر أمره فخرج من حلب

ومن هنا يظهر أن الشيعة كانوا لا يزالون معتصمين بالنقية مكتمين لأمرهم مئين من السنين لأنه لا جدال في كونهم موجودين في الشام من أوائل الفتح الاسلامى ومع هذا فالمؤرخون لا يذكرون هذا الأمر الا عَرَضاً وربما لم يذكروه أصلاً . وما يدل على القلم والتسكيم كون الاسماعيليه والدروز قد خرجوا من الشيعة ويقال انهم خرجوا من الشيعة السبعية أى القائلين بالأئمة السبعة وقع ذلك في أواخر القرن الرابع للهجرة وأوائل القرن الخامس في أيام الدولة الفاطمية الغالية في التشيع . فالشيعة كانوا في هذه الجبال قبل هذه الطوائف التى خرجت منهم ومنازل الفريقين لا تزال متناوذة مما يستدل على وحدة الجرثومة فضلاً عما بين كثير من عشائر الفريقين من القرابات والكلالات والانساب المتحددة في الأصل متواتراً ذلك خلفاً عن سلف يؤيد كون هذه الطوائف راجعة في أصلها الى العرب والله تعالى من وراء العلم

التشيع

إيهما فيه أقدم الشام أم العجم^(١)

طالعت ما ورد في المقتطف من أحد فضلاء تبريز جواباً على ما سبق لى ولأحد افندى رضا من أدباء جبل عامل بان التشيع هو في الشام أقدم منه في كل قطر حاشا الحجاز والفاضل التبريزي يريد أن مجرد الاستدلال العقلي على أقدمية التشيع في الشام باقامة أبي ذر الغفاري في نواحيه ومخالفته لخليفة عصره هو غير سديد. إذ أهالي مصر حينئذ يجب أن لا يتأخروا عن أهل الشام في التشيع لأن محمد بن أبي بكر كان عندهم وهو من ألد الخصوم لعثمان (رضي الله عنه) ويقول أيضاً ان مبدأ التشيع في العجم هو في أيام الدعوة العباسية إذ معلوم ما ظهر من ميل أهل خراسان الى تأييد أمر العلوية وان تلك البلاد كانت منذ ذلك الوقت مركزاً لعلماء الامامية. وانه اذا ورد في تاريخ المحبي وتاريخ جودت باشا ظهور التشيع في فارس في أيام السلطان حيدر أو الشاه اسماعيل فربما كان مقصدهما عموم التشيع جميع ايران وجعله مذهباً رسمياً

والجواب على ذلك أن التشيع بدأ منذ أيام سيدنا على كرم الله وجهه فلما وقعت الحرب بينه وبين سيدنا معاوية انقسم المسلمون حتى الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) قسمين قسم كان مع على وقسم كان مع معاوية ووقع هذا الانقسام نفسه في الحجاز ثم في الشام التي لم يطبق جميع أهلها على مناوأة على يومئذ فكان منهم من بقى على موالاته فلهذا قلنا ان الشام في التشيع أقدم من فارس

ولم يكن الاسلام نفسه لذلك العهد قد تبسط في فارس حتى ينبسط فيها مذهب من مذاهبه فان لم يكن ثبت الأصل فكيف يثبت الفرع ؟

نعم ظهرت الدعوة العباسية في خراسان ومرو في أواخر الدولة الأموية حينما هب بنو هاشم لاستعادة الخلافة من بني أمية فوجدوه في ذلك السواد وهو خراسان ملبياً لدعوتهم وناصراً لكلمتهم ، وتم الخروج على الأمويين ، ودالت الدولة للهاشميين فأخذها منهم أبناء

العباس وكانوا في الأول يداً واحدة مع أبناء عمهم العلوية ، ولكن لا يصح أن يقال ان الدعوة العباسية هي نفس الدعوة العلوية ، بل يقال هما شعبتان من أصل واحد ، وان الدعوة العباسية هي غير التشيع . وعلى فرض كان ذلك كذلك فأين الأيام التي يقول عنها مناظرنا الفاضل وهي أيام اجابة العجم لدعوة بنى العباس من ايام انقسام أهل الحجاز والشام بين علي ومعاوية . فان بين العهدين نحواً من قرن واحد فقد كانت خلافة الامام على سنة ٣٥ وكانت خلافة أبي العباس السفاح العباسي سنة ١٣٢

فاذا ثبت ان أهل الشام انقسموا بين علي ومعاوية في أثناء حرب صفين فقد ثبت ان التشيع ظهر بينهم لذلك العهد ، وأما التشيع في بلاد العجم فلو عدنا القيام بأمر بنى العباس تشيعاً علوياً محضاً وهو ليس كذلك فلم يظهر الا في أواخر دولة بنى أمية أيام مروان ابن محمد . ولهذا حكمنا بسبق الشام للعجم في تاريخ الشيعة . وهناك دليل آخر . وهو انه لو كان أهل فارس مشايعين لآل علي في قيامهم بدعوة بنى العباس لما قاموا بمبايعة رجل عباسي حين كان يوجد من العلوية من يطلب هذا الأمر لنفسه وانما كان القائمون يومئذ بنصرة العلوية هم من العرب لا من العجم

فما وقع الانقسام بين العلوية والعباسية وخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين (الحسن) بن علي بن أبي طالب وهو الملقب بالنفس الزكية وبالمهدي على أبي جعفر المنصور أخى السفاح تبعه أهل المدينة وقتلوا من دونه حتى قتل ولم يكن خروجه في العجم ولا قاتل معه أحد من فارس ثم خرج أخوه ابراهيم في البصرة طالباً البيعة له قبل أن يبلغه خبر قتله وأجاب دعوته خلق وانهزم من أمامه سفيان بن معاوية أميرها واستولى على الاهواز وواسط وسار الى الكوفة وقد أحصى ديوانه مائة ألف وكاد يتم له الفوز لولا ما قضى الله من هزيمته أخيراً وقتله وذلك سنة ١٤٥ ولم نقرأ انه قام بنصرته أحد من خراسان ولا في مرو ولا في جيع فارس

ثم خرج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضوان الله عليهم أجمعين) وذلك في خلافة الهادي بن المهدي العباسي ، وكان ظهوره في المدينة والتف عليه جماعة من آل البيت ومن أهل المدينة وبايعوه وخرج الى مكة فالتقى بجماعة من بنى العباس ومعهم من حج من رجالهم وقوادهم فاقتتلوا ووقعت الهزيمة على الحسين وقتل

وانهزم أصحابه وأفلت منهم ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأتى مصر ، فارسله واضح عامل البريد وكان شيعيا على البريد الى المغرب . وبلغ ذلك الهادي فغضب عنق واضح . ومات ادريس بالمغرب وولده ادريس الأصغر الذي أسس دولة الأدارسة بالمغرب مما ليس هنا محل تفصيله . ولم يكن لفارس أقل نصيب من هذه المظاهرات لآل البيت يومئذ بل انحصرت في الحجاز والعراق والغرب

وسنة ٢٠١ عندما أوصى المأمون بولاية عهده الى الامام علي بن موسى الرضا بن موسى السكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ولقبه الرضا من آل محمد وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس الخضر شعار العلويين وكتب بذلك الى الآفاق صعب ذلك على بني العباس وامتنع بعض أهل بغداد عن البيعة وأدى الأمر الى فتنه وبويع ابراهيم بن المهدي بالخلافة وكان المأمون في مرو فسار الى العراق وجرت حروب وانهزم الثأرون على المأمون فلم يسمع ان عرقاً في العجم نبض لهذه الحادثة مع ان المأمون دخل بغداد ولبسه الخضر وطاوعه الأكثرون وصار أهل العراق يدخلون عليه في الثياب الخضراء ويحرقون كل ملبوس يروونه من السواد . ولولا وفاة الامام علي الرضا سنة ٢٠٣ لربما بقي المأمون على عزمه في التخلي عن الأمر للعلوية . فلو كان التشيع يومئذ واشج العروق في أرض العجم لما سبقهم أحد الى الموالاته والمظاهرة ولتقدموا فيه على العراقيين الذين هم أولى بنصرة بني العباس

ولما ظهرت الدولة العلوية الفاطمية وهي أول دولة علوية حقيقية استوثق لها الأمر ولم تكن أيامها نزع ثائر ولا فتنه خارج بل دولة راسخة متأنلة زاجت دولة بني العباس بالمناكب ابتدأت سنة ٢٩٦ واستمرت الى سنة ٥٦٧ كان أول ظهورها في افريقية وامتدت منها الى مصر والشام والحجاز ، حتى خطب بدعوتها الأمير الساسيري في العراق وعلى منابر بغداد مدة غير قصيرة فكان العرب هم القائمين بالدعوة الفاطمية يومئذ ولم يكن العجم القائمين بها

ثم ان عبد الله القداح الذي كان من كبار دعاة هذه الدولة سار من نواحي اصفهان الى الأهواز والبصرة ثم الى سامية من أرض حص داعياً فكان قصده بلاد العرب . وبديهي انه لو وجد في بلاد العجم يومئذ مثاراً لدعوة أو مستورى لزند لما رحل عنها الى

غيرها ثم خلفه ابنه اجد فصاحبه رستم بن حوشب من أهل الكوفة فاختر ابث دعوته اليمن وهناك التقى ابن حوشب بأبي عبد الله الشيعي فاصطحبا واتفقا على بث الدعوة في افريقية فسار أبو عبد الله الشيعي اليها وأجابت دعوته قبائل كتامة وقاتل بني الأغلب فقهرهم فكانت هذه البلاد منبتاً لأكبر دولة علوية شيعية وذلك قبل الدولة الشيعية الصفوية القائمة ببلاد العجم بستائة سنة .

وفي سنة ٢٥٠ عند مظهر يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالكوفة واستولى عليها ولكن خاتمه السعد فظفرت به جيوش العباسيين وقتل وحمل رأسه الى الخليفة المستعين ولا نعلم فيما يحضرنا من التاريخ وان يكن ما نعلمه فيه أقصر من أن يسمى علماً ، ان دولة علوية قامت في العجم فعلا الى زمان الحسن بن زيد بن محمد بن اسمعيل بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي قام بطبرستان وكثر جمعه واستولى على طبرستان وجرجان وسمى بالداعي الى الحق وذلك سنة ٢٥٠ وقتل سنة ٢٨٧ وقام بعده الناصر الحسن بن علي المعروف بالاطروش وتوفي سنة ٣٠٤ وقام من بعده الحسين بن القاسم العلوي ويلقب بالداعي وقتل سنة ٣١٦ وانقرض بموته ملك العلويين في هاتيك الديار

ولا أريد أن أقول بهذا ان التشيع لم يعرف في العجم الا في هذا العهد بل انما أقصد كونه عرف هناك بعد الشام كما قدمنا وانه أيضاً لم يكن في العجم شائعاً كما هو اليوم يشهد بذلك التاريخ وظهور الجمل الغفير من أئمة أهل السنة من بلاد العجم . أما ابتداءه في العجم فيرجع الى أواخر القرن الأول قال ياقوت الحموي عند ذكر قم " ما يأتي : ذكر بعضهم ان قم بين اصبهان وساهو وهي كبيرة حسنة طيبة وأهلها كلهم شيعة امامية ، وكان بدء تمصيرها في أيام الحجاج بن يوسف سنة ٨٣ وذلك ان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس كان أمير سجستان من جهة الحجاج ثم خرج عليه وكان في عسكره سبعة عشر نفساً من علماء التابعين من العراقيين فلما انهزم أتى الأشعث ورجع الى كابل منهزماً كان في جلة اخوة يقال لهم عبد الله والأحوص وعبد الرحمن واسحق ونعيم وهم بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعري وقعوا الى ناحية قم وكان هناك سبع قرى اسم احداها كندات فترز هؤلاء الاخوة على هذه القرى حتى فتحوها وقتلوا أهلها واستولوا عليها وانتقلوا اليها واستوطنوها

واجتمع اليهم بنو عمهم وصارت السبع قرى سبعة محال بها وسميت باسم احدهما كندات فاستقطوا بعض حروفها فسميت بتعريبهم قُمًا ؛ وكان مُقدّم هؤلاء الاخوة عبد الله بن سعد وكان له ولد قد ربي بالكوفة فانتقل منها الى قم وكان اماميا وهو الذي نقل التشيع الى أهلها فلا يوجد سني قط . ومن ظريف ما يحكى انه ولي عليهم وال وكان سنياً متشدداً فبلغه انهم لبغضهم الصحابة الكرام لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر قط ولا عمر فجمعهم يوماً وقال لرؤسائهم بلغني انكم تبغضون صحابة رسول الله ﷺ وانكم لبغضكم اياهم لاتسمون اولادكم بأسمائهم وأنا أقسم بالله العظيم لئن لم تجيئوني برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر ويثبت عندي انه اسمه لأفعلن بكم ولأصنعن . فاستمهلوه ثلاثة أيام وقتشوا مدينتهم واجتهدوا فلم يروا الا رجلاً صعلوكاً حافياً عارياً أقبح خلق الله منظراً اسمه أبو بكر لأن أباه كان غريباً استوطنها فسماه بذلك فجاءوا به فشتهم وقال: جثمتوني بأقبح خلق الله تتنادرون عليه وأمر بصفعهم فقال له بعض ظرفائهم : أيها الأمير اصنع ماشئت فان هواء قم لا يجيئ منه من اسمه أبو بكر أحسن صورة من هذا . فغلبه الضحك وعفا عنهم اه .

وقد سمعت هذه النادرة نفسها من فم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رواية عن استاذ الامام الكبير الشيخ جلال الدين الافغانى أكرم الله مثواهما

وعلى هذا فيكون التشيع في بلاد العجم مخصوصاً بقم وبعض أماكن وكانت تقع بين الشيعة وأهل السنة هناك الحروب والفتن كما يستدل عليه من التاريخ . وفي الثالث الأول من القرن الرابع غلب بنو بويه على العراق واستبدوا بأمر الخلافة وصار الخليفة آلة في يدهم وكانوا شيعة وأصلهم من الديلم وبقيت دولتهم الى سنة ٤٤٧ ؛ ولكن لم يغلب بواسطتهم التشيع على بلاد العجم ولا على بلاد العراق . وما غلب التشيع على الأقطار الايرانية وصار مذهب الدولة الرسمي الا في أيام الملوك الصفوية في أواخر القرن التاسع كما ذكر المحي وجودت باشا وغيرهما من المؤرخين

أما التشيع في جبل عامل وأطراف جبل لبنان من بلاد الشام فلا تزال الأدلة تقوم على كونه فيها من لدن الفتح . وقد يأتي التاريخ في أثناء سرد الحوادث وتأتي كتب السير والتراجم بما يفي عن استتبابه فيها منذ ظهوره الى الآن . من ذلك ماورد في طبقات الشافعية للعلامة السبكي في ترجمة الفقيه أبي الفتح نصر بن ابراهيم المقدسى المعروف بابن أبي

حافظ وهو قوله تفقه على الفقيه سليم^(١) ثم دخل الى ديار بكر وتفقه على محمد بن بيان الكازروني ودرس العلم ببيت المقدس مدة ثم انتقل الى صور وأقام بها عشر سنين ينشر العلم مع كثرة المخالفين له من الرافضة . ثم ذكر وفاته في سنة ٤٩٠ بدمشق .

وقال ياقوت الحموي عند ذكر الكرك : قرية في أصل جبل لبنان وليس هو القلعة التي يقال لها الكرك بفتح الراء ونسب اليها أبا الرضا الكركي . وقال كان ثقة في الحديث ، متقناً لما يكتبه الا أنه كان رافضياً مات سادس عشر ذى الحجة سنة ٥٩٢

كذلك في رحلة ابن بطوطة في القرن الثامن ما يدل على وجود الشيعة في هذه الأماكن^(٢) ومن هنا استدللنا على كون التشيع معروفاً في جبال الشام من أيام أمير المؤمنين على كرم الله وجهه الى يومنا هذا فلا يسبق الشام في هذا المعنى قطر الا الحجاز ولا يساويها فيه الا الكوفة

وكتب الاستاذ الشيخ احمد رضا في خطط الشام المجلد ٩ ص ٢٥١ بعنوان (الشيعة) (بلا توقيع) نفى به مقاله بعض الكتاب من أصل مذهبهم من بدعة عبد الله بن سبا وتبسط قليلا في الدليل على وجودهم في زمن علي عليه السلام في جبل عامل ومما جاء به ماورد في كتاب الروضة والفضائل لشاذان بن جبرائيل القمي رواية مسندة الى عمار بن ياسر وزيد بن ارقم تدل على أنه كان زمن خلافة علي عليه السلام قرية في الشام عند جبل الثلج تسمى « أسعار » أهلها من الشيعة . وأسعار هذه خرابة بين مجدل شمس وجبانا الزيت . وهناك نهر يعرف بنهر أسعار وهي على طريق القادم من الشام الى جبل عامل . وذكرت منازل الشيعة في بر الشام . ثم معتقدات الشيعة وما خالفوا فيه أهل السنة أو خالفهم فيه أهل السنة .

(١) يزيد سليما الرازي الشهير بصور

(٢) (المقتطف) وقد ورد ذكر الشيعة في رحلة ابن جبير وكان في دمشق سنة ٥٨٠ للهجرة قال : « وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى منهم الرافضة وهم السابون ومنهم الامامية والزيدية وهم يقولون بالترفضيل خاصة ومنهم الاسماعيلية والتعيرية وهم كفرة فانهم يزعمون الالهية لعلي رضي الله عنه ومنهم الغرايسة وهم يقولون ان علياً رضي الله عنه كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب »

ترجمة القرآن الى غير العربية

على ذى المؤلف الترك وعلاقتهم بالاسلام والحضارة الاسلامية

للأمير شكيب

- الترجمة الى التركية
- قصة محمود بن سبكتكين .
- فتوى الشيخ محمد بن حنيت مفتى الديار المصرية .
- مقال الشيخ مصطفى المراعى شيخ الجامع الأزهر سابقا .
- ما لجواز الصلاة بالترجمة من التأثير فى الأمم الاسلامية غير العربية .
- مقابلة بين العربية للمسلمين واللاتينية للامم الكاثوليكية

ثم فى سنة تجديد طبع هذا الكتاب أى سنة ١٩٣٢ مسيحية بدأوا يجرّبون اقامة الصلاة نفسها باللغة التركية ، ويقرّأون القرآن بالتركية مترجماً وقد أحدثت هذه المسئلة ضوضاء فى تركيا وفى العالم الاسلامى كما لا يخفى . ورأى الأتراك الجسد هو أن الأتراك لا يقدرون أن يفهموا القرآن بالعربية فما صلاة انسان لا يفهم ما يتلو؟ ورأى الأتراك المحافظين وسائر المسلمين هو أنه لا بأس فى ترجمة القرآن الى التركية ، وتفسيره بالتركية ، ليفهمه الترك الا أنه لا بد من الصلاة به فى أصله العربى ، وذلك لأن الترجمة قد تنحرف بالكلام الالهى عن معناه الأصلى ، ولأن الترجمة تفقد الأصل كثيراً من فصاحته وبلاغته ، وعلى كل حال يرى هؤلاء أن الصلاة بالقرآن مترجماً الى التركية بدعة سيئة . وأنصار الصلاة بالقرآن المترجم يحتجون على جوازها برأى الامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه . ومن الناس من يقول : ان أباً حنيفة كان أجاز الصلاة بقرآن مترجم ، الا أنه رجع عن رأيه هذا فيما بعد .

ولقد نقل ابن خلكان في وفيات الأعيان قصة جرت أمام السلطان محمود بن سبكتكين وهو أنه جمع العلماء بين يديه في مدينة مرو وانتدبهم للقبالة بين مذهبي أبي حنيفة والشافعي فقرروا أن يصلي أحدهم ركعتين على مذهب أبي حنيفة ، وآخر ركعتين على مذهب الشافعي لينظر السلطان فيهما ويختار فصلّى القفال المروزي صلاة الشافعي بالطهارة المسبغة ، وأتى بالأركان والهيئات والسنن والآداب الخ وقال : هذه صلاة لا يجوز الشافعي غيرها . ثم صلى صلاة الحنفية وتساهل في الطهارة واللبس والنية والأتیان بالاركان والهيئات الى غير ذلك مما حكاه ابن خلكان ، نقلاً عن امام الحرمين أبي المعالي الجويني ، ومن جملة ذلك أنه قرأ آية من القرآن بالفارسية « دوبركك سبز » ثم قال : هذه صلاة أبي حنيفة . فأنكر علماء الحنفية أن تكون هذه صلاة أبي حنيفة ، فطلب القفال احضار كتب أبي حنيفة فأحضرت وقرئ ما يتعلق منها بالصلاة فوجد طبق ما فعل القفال فأعرض السلطان عن مذهب أبي حنيفة وتمسك بمذهب الشافعي رضى الله عنهما . وهذه الرواية التي رواها ابن خلكان فيها نظر من جملة وجوه ، الاول ان كل من قرأ « وفيات الأعيان » من أوله الى آخره يلحظ عند ابن خلكان تحاملاً ظاهراً على أبي حنيفة ، والحنفية ، وتعصباً شديداً للشافعية الثاني أن امام الحرمين ، والقفال المروزي ، كلاهما أيضاً شافعي يريد اظهار مزية مذهبه ، الثالث أننا لا نعتقد جواز صلاة الحنفية على الوجه الذي زعمه القفال إلا في حال الضرورة . وليس هذا بقادح في المذهب الحنفي اذ كان الاسلام كله يراعى الضرورات ويقدرها بقدرها ، ولذلك جاء في الحديث « انما بعثت بالحنيفية السمحة » . بقى أن ترجمة القرآن الى الألسن الأخرى لا خلاف في جوازها عند الحنفية . أما الصلاة بالترجمة فلو كان هذا الرأي هو المعول عليه في المذهب الحنفي لكان الأتراك منذ ألف سنة أى منذ اسلامهم يصلون بالتركية وليس الحال كذلك ولقد بلغنا أن مشيخة الأزهر بمصر ألفت لجنة خاصة بموضوع ترجمة القرآن للبحث فيه واصدار القرار الذي تطمئن به خواطر المسلمين في هذا الشأن وسنرى ما يكون من هذه اللجنة . أما « دوبركك سبز » فهي ترجمة ورقتين خضراوين أى قوله تعالى (مدهامتان)

وأما الترجمة التي أخرجوها بالتركية للقرآن الكريم فلا يكاد التركي نفسه يقرأها لا لركا كتبها في نفسها بل لركا كتبها في جانب الأصل

ولما كانت مسألة ترجمة القرآن قد أخذت دوراً عظيماً في هذه الأيام ، وكان الامر جداً ليس بهزل ، أحيينا أن لا يخلو هذا الكتاب من خلاصة أثيرة في هذا الموضوع . فإباحة ترجمة القرآن والصلاة بالترجمة يتولد عنها محاذير كثيرة ، لان القرآن ينبغي أشد المحافظة على أصله ، وهو قد نزل بلسان عربي مبين ، ولا يمكن فهم حقيقة اعجازه وخوارق فصاحته وبلاغته الا باللسان العربي الذي نزل به ، فاذا تجاوزت الايدي كتاب الله بالترجمة مع ما فيها من الوعورة ومن تعذر تطبيقها على الأصل ومن اختلاف مناهج البيان بين اللغات لم يخل الأمر من وقوع تحريف في كتاب الله . كما أن تحريم الترجمة البتة ومنع الصلاة بها حتى للعاجز ، يكونان من العقبات في وجه انتشار الاسلام الذي أربعة أخماس أتباعه وربما أكثر من ذلك هم من الأمم الأعجمية ، فكانت الحكمة تقضي بالتوسط بين الأمرين ، وهذا ما فعله الامام الاعظم أبو حنيفة رضي الله عنه . نعم انه في أول الامر قد أفرط في التوسيع والرخصة وعلى ما يظهر أجاز الصلاة بالترجمة حتى لغير العاجز ولكنه عاد فيما بعد الى رأى صاحبيه أبي يوسف ومحمد ، وهو منع الصلاة بالترجمة على القادر الذي يمكنه أن يتلو ما تيسر من القرآن نفسه وإجازة ذلك للعاجز .

ومن حيث انه قد سبق هذا البحث منذ بضع سنوات وصدرت فيه فتوى للاستاذ العلامة الشيخ محمد بنحيت مفتي الديار المصرية فلا بأس من أن نورد هنا خلاصة هذه الفتوى . فقد نقل الاستاذ بنحيت ما قيل في قضية ارشاد المسلمين لاهل الكتاب ، وتعليمهم القرآن ، فقال ان أبا حنيفة يرى جواز تعليم الحربى والذمى القرآن والفقه رجاء أن يرغبوا في الاسلام . وقد أخذ أبو حنيفة هذا من قوله تعالى « **وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** » ومن أنه روى كون النبي ﷺ مر على ابن أبي ، قبل أن يسلم ، وفي المجلس أخلاط من المسلمين والمشركون فقرأ عليهم القرآن . وأما الامام مالك فمنع تعليم القرآن غير المسلمين . وأما الامام الشافعى فله في المسئلة قولان . ويظهر أن الشافعى يجيز تعليم القرآن لمن يربح منه الرغبة في الاسلام ويمنعه اذا حصل الظن بأن المقصود منه هو الطعن في الدين

والذى يظهر من كلام الشيخ بنحيت لا مجرد ترجيح الجواز لترجمة القرآن فقط بل

الحث على ترجمة كتاب الله ترجمة صحيحة ، تفاديا من التحريف والتشويه اللذين يتعمدهما أعداء الاسلام ، وعلماء بأن كثيرين من الملل الأخرى يتشوقون الى الاطلاع على حقيقة القرآن ، وهذه التراجم الفاسدة المنتشرة في أوروبا تضل عليهم الطريق التي بها يتصلون الى الحق . ويقول الشيخ بخيت ان ترجمة القرآن للتعليم والتفهيم والتعلم والتفهيم والانذار والتبليغ قد أجازته الحنفية والحنابلة وأجازته الشافعي في قول بلا تفصيل ولكن منعه مالك . وأما اعتياد قراءة القرآن بغير العربية التي نزل بها ، أو كتابة المصحف بلغة أخرى غير العربية ، أو بالعربية مخالفة لخط المصحف العثماني ، فهذا ممنوع أشد المنع اتفق الأئمة في ذلك . وقضية ألفاظ القرآن وكتابته وترتيب سورته وآياته انما تؤخذ بطريق النقل عن الشارع ، أما الصلاة بترجمة القرآن ، فان كان قادراً على أن يتلو شيئاً منه لم يجز له أن يقرأ بالترجمة ، وأما ان كان عاجزاً عن قراءة أى شيء منه بأصله جازت الصلاة بالترجمة . وهذا الجواز للعاجز في قول الحنفية فقط . أما عند غيرهم فلا يجوز مطلقاً . ولا يسقط فرض الصلاة عن المكلف اذا أقامها بالترجمة

أما الاستاذ الشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الازهر سابقاً فقد نشر في هذه الايام مقالا طويلاً استقصى فيه هذه القضية ، ونقل عن شمس الأئمة السرخسي هذه العبارة : وأصل هذه المسئلة اذا قرأ في صلاته بالفارسية جاز عند أبي حنيفة رحمه الله ويكرهه ، عندهما أى عند صاحبين لا يجوز اذا كان يحسن العربية . واذا كان لا يحسنها يجوز . وأبو يوسف ومحمد رحهما الله قالا : القرآن معجز والاعجاز في النظم والمعنى . فاذا قرر عليهما فلا يتأدى الواجب الا بهما ، واذا عجز عن النظم أتى بما قدر عليه ، كمن عجز عن الركوع والسجود يصلّى بالإيماء ، وأبو حنيفة رحمه الله استدل بما روى أن الفرس كتبوا الى سلمان الفارسي رضي الله عنه أن يكتب لهم الفاتحة بالفارسية ، فكانوا يقرأون ذلك في صلاتهم حتى لانت ألسنتهم للعربية

ونقل الشيخ المراغي عن شرح الكنز للزيلعي هذه العبارة : وأما القراءة بالفارسية فائزة في قول أبي حنيفة . وقال أبو يوسف ومحمد لا تجوز اذا كان يحسن العربية لان القرآن اسم لمنظوم عربي لقوله تعالى : (اِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) . وقال تعالى : (اِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) والمراد نظمهم ، ولأبي حنيفة قوله تعالى : (اِنْ هَذَا لَقِيَ الصَّحُفِ

الأولى **صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**) وصُحُفُ إِبْرَاهِيمَ كانت بالسريانية ، وصُحُفُ مُوسَى كانت بالعبرانية فدلّ على كون ذلك قرآناً : الى أن يقول : ويجوز بأى لسان كان وهو الصحيح لأن المُنزّل وهو المعنى عنده لا يختلف باختلاف اللغات . والصحيح ان القرآن هو النظم والمعنى جميعاً لانه معجزة للنبي ﷺ ، والاعجاز وقع بهما جميعاً الا أنه لم يجعل النظم رُكناً لازماً في حق جواز الصلاة خاصة رُخصة ، لأنها ليست بحالة الاعجاز . وسُئل عمر النسفي عن لا يحسن الفاتحة بالعربية ويقدر على التكلم بالفارسية أو لغة أخرى يتأدى بها معنى القرآن ، هل يكلف تعلم تلك اللغة غير العربية فقال نعم ، لان تعلم القرآن فرض لاقامة الصلاة . ومذهب أبى حنيفة أن القرآن لا يختص بالنظم العربى في قوله الأول الذى رجع عنه فيفرض عليه تحصيل ذلك كما يفرض عليه تعلم القرآن بالنظم العربى لمن قدر عليه . وعندهما (أى عند الصحابين) تجوز قراءة القرآن بغير العربية اذا كان لا يحسن العربية فقد وافقاه أى ان الصحابين وافقوا أبا حنيفة في أنه يصير قرآناً عند العجز عن أدائه فيفرض ذلك عليه بالاجماع في هذه الحال

نقل المرائى أن الحبيب العجمي صاحب الحسن البصري قدس الله سرهما كان في الصلاة يقرأ القرآن بالفارسية لعدم انطلاق لسانه بالعريية . ونقل أيضاً عن أبى حنيفة في الرجل يفتتح الصلاة بالفارسية أو يقرأ بالفارسية أو يذبح ويُسمّى بالفارسية وهو يحسن العربية قال الامام : يجزئه في ذلك كله .

وقال أبو يوسف ومحمد : لا يجزئه في ذلك كله الا في الذبيحة ، وان كان لا يحسن العربية أجزأه . قال الصدر الشهيد في شرحه على الجامع الصغير لمحمد بن الحسن . وهذا تنصيص على أن من يقرأ القرآن بالفارسية لا تفسد الصلاة بالاجماع ، ونقل عن معراج الدراية ان ترجمة القرآن تسمى قرآناً مجازاً ، فيقال ليس ذلك بقرآن وانما هو ترجمة . قال : وانما جوازناه للعاجز اذا لم يُخل بالمعنى لانه قرآن من وجه ، باعتبار اشتاله على المعنى فالتيان به أولى من الترك اذ التكليف بحسب الوسع وهو نظير الايماء .

والشيخ مصطفى المرائى يرى فيما يظهر في هذه المسئلة رأى الصحابين أى جواز الصلاة بترجمة القرآن للعاجز قياساً على جوازها بالايماء لمن عجز عن القيام . ولكن الشيخ المرائى لا يقطع بكون أبى حنيفة رجع عن رأيه الأول اذ يقول ان رواية الرجوع رواها أبو

بكر الرازي مرة ، ورواها نوح بن مريم وعلى بن الجعد ، وقد أغفلت مرة واحدة في كتاب الامام محمد . وأغفلت أيضاً في شرح المبسوط للسرخسي وفي كتب قاضيخان

والشيخ المراغي لا يريد بهذا ترجيح عدم رجوع أبي حنيفة ولكنه يقصد أن رجوع أبي حنيفة الى رأى صاحبيه لم تتفق فيه الروايات . قال : فاذا نظرنا الى ذلك نراهم ، أي علماء الحنفية ، متفقين على أن التكليف بالوسع ، وأن الترجمة للعاجز هي التي في وسعه ، وانها خلفت عن النص العربي يقام مقامه عند العجز كما يقام الایماء عند العجز مقام الركوع والسجود ، ولم نعهد في التشريع ان المكلف مخير في الخلف . بل الذي عهدناه أن الخلف يأخذ حكم الأصل ويحل محله . واذا تأملت قولهم : ان المعنى لا يختلف باختلاف اللغات نراهم يريدون أن لا تخلو الصلاة من القرآن اما بلفظه ومعناه واما بمعناه فقط فهم حريصون على أن تكون المناجاة لله بكلامه أو بمعنى كلامه وهم حريصون على تحصيل المقاصد ، وجعل الصلاة صورة حية مملوءة بالشعور بجلال الخالق وعظمته ، وفي معاني القرآن الكريم من العظات والعبر ما يملأ القلب روعة ورهبة وخشية ، وبركتها لا يمكن أن تذهب بنقلها الى لغة أخرى والمناجاة بالمعاني خير وأبقى من وقوف المكلف صامتاً .

ثم أورد الاستاذ المراغي عدداً من الآي الكريمة وقال انه لا يتردد لحظة واحدة عن القول بان جلال معاني هذه الآيات لا يمكن أن يفارقها في اللغات الاخرى ، نعم قد تضعيع روعة هذه الألفاظ ، ولكن تبقى روعة المعاني والمناجاة محتاجة الى هذه الروعة ، ولا يسع منصفاً الا الاعجاب بأراء فقهاء الحنفية في هذه المسئلة والله هم حيث قالوا : ان الصلاة حالة مناجاة لا حالة اعجاز وللعالم الاسلامي الحق في أن يفخر باولئك العلماء الذين استنبطوا هذه القواعد وهذه المدارك الدقيقة . وفي الحق ان فقهاء الحنفية هم الملجأ دائماً في حل المضلات الاجتماعية ولا نستطيع أن نفهم حقهم من الثناء

واعترض الاستاذ المراغي على من قال بعدم جواز الصلاة بالترجمة بناء على أن الترجمة ليست قرآناً وان ما كان كذلك كان من كلام الناس . قال المراغي : وهو غير صحيح ، لان الترجمة وان كانت غير قرآن بالاتفاق ، تحمل معاني كلام الله ، ومعاني كلام الله ليست كلام الناس ، وعجيب أن تسلب من معاني القرآن صفاتها ، وجاها ، وتوصف بأنها من جنس كلام الناس بمجرد أن تلبس ثوباً آخر غير الثوب العربي كأن هذا الثوب هو كل شيء .

ونحن نوافق الشيخ المراغى فى أن الصلاة بالترجمة للعاجز خير من السكوت ، ومن عدم تلاوة شئ لا من الأصل ولا من المعنى . ولكننا نخشى من أنه اذا فُتِح هذا الباب على مصراعيه ، كثر العدول عن أصل القرآن الى الترجمة لما فى ذلك من السهولة على الأعاجم . ويؤيد ذلك الشعوبية ممن يكرهون العرب لما رُب سياسية ، فينتهى الأمر أخيراً بعدول مئات ملايين من المسلمين عن الصلاة بالقرآن الأصل الى الصلاة بتراجم مهما بالغ المترجمون فى تحريرها والتدقيق بها ، فلن تكون شيئاً بالنسبة الى الأصل .

وقول الاستاذ المراغى ان للعانى روعة لا يسلبها اياها اختلاف الالفاظ ، نُجيب عليه بأن روعة المعانى لا يبقى منها الا القليل اذا لم تُلبَس القوالب اللاتقة بها . وقد أجمع أرباب البيان فى الشرق والغرب على أن النقل من لغة الى أخرى يذهب بأكثر فصاحة اللغة المنقول منها لاسيما اذا كانت الترجمة حرفية . فاصرار القائلين بعدم جواز ترجمة القرآن مبنى على خوفهم من تعدد القرآن وعلى ما يلاحظون من دخول السياسة فى هذا الموضوع أى ان أقواماً أرادوا الابتعاد عن الاسلام من أصله ، فعجزوا عن ذلك لتمكن الاسلام فى صدور الأمم التى يديرون هم شئونها ، فرجعوا الى أسلوب آخر وهو ترجمة القرآن والصلاة بالترجمة لتكون لهم الخطوة الأولى فى الابتعاد عن العرب وعن الاسلام معاً .

وربما كان الاستاذ المراغى لا يعلم من هذا الأمر كل ما نعلمه نحن ، فهذه المسئلة ليست بجدثة ، ولقد بدأت المناقشة فيها بين رجالات الاتراك فى أيام الحرب العامة . وكان منهم نفرٌ جاهر بوجوب التفصى من الاسلام من أصله ، فاقام الآخرون عليهم التكبر ، و بينوا لهم استحالة هذا الأمر وأن التثبت به يفضى الى ثورة تأتى على الحرث والنسل ، لان الاتراك لا يرضون بالاسلام بدلاً . فعند ذلك قال اولئك الملاحدة الذين كانوا يريدون القضاء على الاسلام : اذا كان لا بد من أن نبقى مسلمين . فليكنْ اسلامنا تركياً . وليرفع منه كل ما فيه رائحة عربية

وكان رأس القائلين بهذه المقالة الفاسدة ضياء كوكب ألب المفكر المشهور عندهم الذى توفى بعد الحرب والله المستعان ، وقد بقيت هذه الافكار تعمل فى تركيا الى أن انتهت الحرب ، ثم الى أن تأسست أنقرة وأخذت بالسياسة اللادينية المحضة التى يكون من العبث محاولة تغطيتها والمكابرة فيها — كما يفعل بعضهم — فكان من جملة ما قامت به الفئة الكيالية من الأعمال الرامية الى ابعاد الترك عن الدين الاسلامى والثقافة العربية ، السعى

بترجمة القرآن الى التركية واجازة الصلاة بها . وهم لا يقيدون هذا الجواز بالعجز ، بل يريدون أن يجعلوه علماً للقادر والعاجز معاً حتى يصير هو القاعدة ، وربما ينقلب الى الضد اذا طالت أيام الملاحظة في أنقرة فتصير الصلاة بالقرآن الاصلى ممنوعة ، وربما يعاقب حينئذ عليها كما يمنعون الآن عرب ولاية اطنه من التكلم بالعربية والكتابة بها . ولنا شواهد على ذلك منع حكومة أنقرة الحجج ، وهو من أركان الاسلام ، والغاؤه الشريعة الاسلامية بأسرها في المعاملات ، واقامتهم الأمة التركية على القانون السويسرى المدنى . فمن يفعل هذه يفعل تلك ولا يبعد عنه شئ . واذا جازت عادة الصلاة بالتركية فى الاناضول عمت جميع الأمم التى لا تتكلم بالعربية ، كسلى أوربا من أرناؤوط وبشناق وأتراك وتتر ، ثم صارت الى العجم والى الهند والصين والجواهر . ولو كانت قضية الصلاة بالترجة هى بتلك الدرجة من السهولة عند علماء الحنفية الذين لم يكونوا يجهلون رأى الامام الاعظم وصاحبيه ، لكانوا أجازوا الصلاة بالتركية من قديم الزمان ، والحال انهم لم يكونوا يصلون الا بأصل القرآن ولا يزالون كذلك . وكانوا يرون أن الانسان مهما بلغت به الأمية والسذاجة فلا يعجز عن حفظ بعض آيات يلقنه اياها والداه أو شيخ محله أو رجل من اخوانه .

وبالاختصار فنحن على رأى أبى يوسف ومحمد الذى رجع اليه أبو حنيفة من جواز الصلاة بالترجة للعاجز ، لكن بعد أن يتحقق عجزه التام عن حفظ شئ من القرآن وهو مع ذلك مكلف أن يتعلم شيئاً منه يقيم به صلاته ولكننا لانرى التوسع فى الجواز لما نخشى فيه من انقلاب المسئلة الى دسيسة سياسية قومية يتسع خرقها باسم المذهب الحنفى ، ونرى أن الأولى باخواننا الترك أن يستمروا على ما كانوا عليه الى الآن من أمر الصلاة بالعربية ، وأما اذا كانوا يريدون فهم معانى القرآن وهو أمر لازم فيقدرون أن يرجوه وأن يترجوا تفاسيره الكثيرة فيفهموا من معانيه ما يستعجم عليهم . وهانحن أولاء نرى الأمم الكاثوليكية ومنها أمم راقية فى سلم المدنية ، وراقية جداً ، مثل الفرنسيس والبلجيك والنموسيين ، وما يزيد على الثلث من الألمان ، ونحو من الربع من الهولانديين ، ثم امة المجر ، وأمة التشيك ، والبولونيين ، ثم الايرلانديين ، ثم الامة الايطالية ، والامة الاسبانيولية ، والامة البرتغالية ، وجميع سكان أميركا الجنوبية ، وأهل أميركا الوسطى ، وخمسة وعشرين مليوناً من أميركا الشمالية ، وجميع هذه الأمم تقيم شعائرها الدينية الكاثوليكية باللغة اللاتينية ، بدون أن تفهمها ولا يفهمها من كل أمة منها الا نزر لا يذكرك ، وانما يفسرون لهم ما يريدون

فهمه من الشعيرة الدينية من اللاتينية الى ألسنتهم ، اذن هذه سبيل ليس الاسلام فيه بأوحد ، فكما ان اللغة اللاتينية هي لغة دينية لثلاثمائة وخمسين الى أربعائة مليون مسيحي كاثوليكي فاللغة العربية هي اللغة الدينية ويجب أن تبقى اللغة الدينية لثلاثمائة وخمسين الى أربعائة مليون مسلم . بل العربية أولى بهذا التخصص لأن كتاب الاسلام السماوى انما نزل بها ، ولم يكن كتاب النصرارى السماوى قد كُتب باللاتينية من أصله ، بل اللاتينية هي لغة الكنيسة الرومانية ، قد ترجوا الانجيل اليها من اللغات السامية . ثم ان العربية هي لغة حية يتكلم بها نحو سبعين مليوناً من البشر ، واللاتينية لم يبق واحد فى الدنيا يتكلم بها بل صارت من قبيل الآثار التاريخية .

ثم أورد الاستاذ المراغى أقوالاً عن الصدر الشهيد ، وعن شارح الهداية وعن الزيلعى ، وعن أبى يوسف ما يُستظهر به على جواز قراءة شيء من ترجمة القرآن بعد تلاوة الفرض من النص العربى ، وقال ان هذه النصوص صريحة ، لاتحتمل التأويل ، دالة على جواز ضم الترجمة الى النص العربى ، المفروض للقادر على العربية ، ولكنه أورد نصوصاً أخرى على عدم جواز قراءة الترجمة مع الأصل ، ويظهر أنه وقع خلاف بين الفقهاء فى ذلك ، وقد رجّح صاحب الفتح فساد الصلاة التى تكون بهذه الصفة اذا كان المقروء من الترجمة قصة أو أمراً أو نهياً وقال بالجواز اذا كان المقروء ذكراً أو تنزيهاً ، والاستاذ المراغى يرى رأى صاحب الفتح هذا اذا لم يكن هناك عذر من عدم احسان النطق بالعربية .

وأما الترجمة من حيث هي فالتا نوافق الشيخ المراغى والشيخ بخيت وغيرهما ممن أجازوها استناداً على أقوال العلماء والأئمة والسلف الى سامان الفاريسى ، ونقول مع الشيخ المراغى انه قد استفاد من ترجمة القرآن كثيرون من العلماء الذين لم يكونوا يدينون بالدين الاسلامى ، فبعضهم آمن به وخرج من الظلمات الى النور ، وبعضهم لم يصل الى تلك الدرجة لكنه غير رأيه فى الدين الاسلامى وفى النبى ﷺ ، ووضع الاسلام موضع الكرامة وبحث فيه البحث اللائق بجلاله . قال : وأظننى أعبت اذا شرعت أئين الفوائد التى تعود على الاسلام نفسه من اظهاره ونشره على الأمم المحتضرة ، بلغاتها ، ولكن يجب أن تُراقب تلك التراجم . قلنا : فى عصر كالعصر الذى نحن فيه لا يختلف فى هذه المسئلة اثنتان .

محاصرات العرب للقسطنطينية

على ذكر المؤلف تهديد الترك للقسطنطينية قبل فتحها

للمؤلف

ان العرب منذ فتحوا الشام فكروا في فتح القسطنطينية لأنها كانت لذلك العهد عاصمة النصرانية ، وكان الاسلام لو فتحها تغلب على شمالي اورية بلا نزاع . ومن الأحاديث النبوية المروية : « لنفتحن القسطنطينية وانعم الأمير أميرها وانعم الجيش ذلك الجيش » وهذا الحديث على ضعفه متداول بين الناس . ويقال انه مذكور في الجامع الصغير للسيوطي . وهو منقوش على الحجر في جامع آيا صوفيا باسطامبول . وكيف كان الأمر فالمسلمون تنهبوا من بدء الاسلام لأهمية القسطنطينية ، وسنة ٦٥٣ هجرى هـ جهز العرب اسطولا عظيما في ميناء طرابلس الشام ، عقدوا له لبس بن أبي أرطاة لأجل غزو القسطنطينية . فتلاقى هذا الأسطول بأسطول الروم وهزمه . الا أن الاسطول العربى في هذه الغزاة لم يبلغ القسطنطينية . وفي سنة ٤٤٤ للهجرة وفق ٦٦٤ للمسيح غزا الاسطول العربى القسطنطينية بقيادة بسر بن أبي أرطاة المذكور ، ووصل اليها كما رواه الطبرى . ثم ان فضالة بن عبيد غزا خليدونية — ماجاور البوسفور من آسيا الصغرى — حيث وافاه يزيد بن معاوية ، وقد جعل المؤرخ تيوفان هذه الغزاة في سنة ٦٦٦ للمسيح ولكن الياس النربى قال : ان السنة التى حاصر فيها يزيد بن معاوية القسطنطينية كانت سنة ٥١ للهجرة وفق سنة ٦٧٢ مسيحية . وقد جاءها يزيد برءاء ، وكان بسر بن أبي أرطاة ماسكاً البحر ، وقد انتشرت السفن الحربية العربية على طول ساحل بحر مرمرة ، وهاجم العرب القسطنطينية بين شهرى ابريل وسبتمبر ، ولم يتمكنوا من فتحها فلما جاء الشتاء انكمشوا الى جهة « قيزيقيا » في الشمال الغربى من آسيا الصغرى وفى الربيع عاودوا حصار تلك العاصمة ، ويقال انهم لم ينصرفوا عن القسطنطينية الا بعد خروب استمرت سبع سنوات ، وكان أعظم عامل في فشلهم النار الاغريقية التى أحرقت جانباً من الاسطول كما ان جانباً آخر منه غرق في أثناء الرجوع .

وليس عندنا كل التفاصيل اللازمة عما جرى من الوقائع في هذه السنوات السبع. والمرجح ان الجيش العربي الذي جاء من البر بدأ بالحصار سنة ٦٦٧ وأن الاسطول أقلع عن القسطنطينية سنة ٦٧٣ ومؤرخو العرب يجعلون غزاة القسطنطينية هذه من سنة ٤٨ الى سنة ٥٢ للهجرة ومنهم من يعد ذلك الى سنة ٥٥ ويقولون ان أبا أيوب الأنصاري رضى الله عنه توفي في حصار القسطنطينية سنة ٥٠ ومنهم من يقول سنة ٥١ ومنهم من يقول ٥٢ والذي في الطبقات الكبرى لابن سعد انه توفي سنة ٥٢ وهو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد ابن عوف من بلمحارث بن الخزرج شهد بدرأ ، وأحداً ، والخندق ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وخرج غازياً في زمان معاوية . قال في الطبقات : فرض فلما ثقل قال لأصحابه ان أنا مت فاجلوني ، فإذا صافتم العدو فادفنوني تحت أقدامكم ، وسأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لولا ما حضرني لم أحدثكم سمعت رسول الله ﷺ يقول : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة . قال ابن سعد : ولما مرض أتابه يزيد بن معاوية يعوده فقال : حاجتك ؟ قال : نعم ، حاجتي اذا أنا مت فاركب بي ثم سئع بي في أرض العدو ما وجدت مساعاً ، فإذا لم تجد مساعاً فادفني ثم ارجع . فلما مات ركب به ثم سار به في أرض العدو وما وجد مساعاً ثم دفنه ثم رجع . قال ابن سعد أخبرنا عمرو بن عاصم قال أخبرنا همام عن عاصم بن بهدلة عن رجل من أهل مكة ، ان أبا أيوب قال ليزيد بن معاوية حين دخل عليه : أقرئ الناس مني السلام ولينطلقوا بي فليبعدوا ما استطاعوا . قال حدث يزيد الناس بما قال أبو أيوب ، فاستسلم الناس فانطلقوا بجنائزته ما استطاعوا قال محمد بن عمر : وتوفي أبو أيوب عام غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية في خلافة أبيه معاوية سنة ٥٢ وصلى عليه يزيد بن معاوية ، وقبره بأصل حصن القسطنطينية بأرض الروم فلقد بلغني ان الروم يتعاهدون قبره ويرمونه ويستسقون به اذا قحطوا انتهى ما جاء في الطبقات .

ثم ان الأتراك عند ما فتحوا القسطنطينية سنة ١٤٥٣ بقيادة السلطان محمد الفاتح عثروا على قبر أبي أيوب الأنصاري وبنوا عليه قبة وجعلوا عنده جامعاً وجاء في الانسيكلويدية الاسلامية ان ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبي أيوب . قلت كانت وفاة ابن قتيبة في ذى القعدة سنة سبعين ومائتين وقيل ست وسبعين ومائتين على مافي وفيات الأعيان . والحال ان وفاة محمد بن سعد صاحب الطبقات كانت يوم الأحد لأربع خلون من جادى الآخرة سنة ثلاثين ومائتين أى قبل وفاة ابن قتيبة كما في وفيات الأعيان أيضا . فيكون جزم أصحاب

الانيسكلوبيدية الاسلامية بأن ابن قتيبة هو أول من ذكر قبر أبي أيوب الانصارى هو بغير محله ، لأن ابن سعد سابق لابن قتيبة وأنت ترى انه قد ذكره ، وأما قضية كون الروم حفظوا قبره وكانوا يستسقون به في الفحط فقد جاء في الانيسكلوبيدية المذكورة نقلها عن الطبرى وابن الأثير وابن الجوزى والقزوينى والحال انها مذكورة في طبقات ابن سعد الذى تقدم في الزمن هؤلاء جميعاً . وقد جاءت هذه القصة مع ترجمة أبي أيوب في كتاب تركى للحاج عبد الله اسمه « الآثار الماجدية في المناقب الخالدية » طبع استانبول سنة ١٢٥٧

وجاء في الانيسكلوبيدية الاسلامية ان الهدنة بقيت بين العرب والروم نحواً من أربعين سنة الى أن تولى سليمان بن عبد الملك فاعمل في غزو القسطنطينية وجرد لها جيشاً كثيفاً عقد عليه لأخيه مسلمة فجاءها من البر وجاء الأسطول العربى من البحر وكان الخليج المسمى بقرن الذهب مسدوداً بسلسلة حديدية ، فاستمر هذا الحصار سنة كاملة وكان ابتداءه في ٢٥ اغسطس سنة ٧١٦ وهذه المرة خاب العرب أيضاً فيما قصدوا اليه وذلك بفقد القوات وبزحف البلغار من جهة الشمال مناصرين للروم . وقد جاء ذكر هذه الغزاة في تاريخ الطبرى وتاريخ ابن الأثير واستوفاهما ابن مسكويه ويقال انه وجدت عين ماء اسمها عين مسلمة عند الدردنيل حيث كان الأمير مسلمة قد خيم بعسكره ذكر ذلك المسعودى وابن خردادبه وقيل ان مسلمة بنى جامعاً في ذلك المكان . وذكر ابن قتيبة ان رجلاً اسمه عبدالله بن الطيب سل سيفه وأثبتته في باب القسطنطينية . وهذا الرجل كان من أصحاب مسلمة . ولم ينصرف مسلمة من حصار القسطنطينية حتى اجبر امبراطور الروم على التعهد ببناء بيت لأسرى العرب بجوار قصر الأمبراطور . وكذلك كان مسلمة هو البانى لأول جامع في القسطنطينية نقل ذلك المقدسى وابن الأثير ويقال انه هو الذى بنى برج غلطة ، وروى « حاجى خليفة » في تقويم التواريخ انه هو الذى بناه سنة ٩٧ للهجرة انتهى

قلت ذكر المسعودى في مروج الذهب خليج القسطنطينية فقال انه يضيق عند المدينة فيصير عرضه نحواً من أربعة أميال وعليه العمار ويتهى في ضيقه الى الموضع المعروف بالاندلس^(١) وهناك جبال ، وعين ماء كثير ماؤها موصوف تعرف بعين مسلمة بن عبد الملك . وكان نزوله عليها حين حاصر القسطنطينية وأنته مراكب المسلمين في فم هذا

(١) هذا تحريف للفظه الدردنيل فيما يظهر لنا أو غلط طبع في النسخة المطبوعة بالطبعة الازهرية

الخليج مما يلي بحر الشام . ومنتهى مصبة مضيق (هو الدردنيل) وهناك برج يمنع من فيه من يرد من مراكب المسلمين في الوقت الذي للمسلمين فيه مراكب تغزو الروم وأما الآن فمراكب الروم تغزو بلاد الاسلام ولله الأمر من قبل ومن بعد . انتهى كلام المسعودي وهو مما حرره سنة ٣٣٠ للهجرة . فكيف كان يقول لو عاش لهذا العصر ؟

ثم جاء في الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة ان العرب حاصروا القسطنطينية في زمن هرون الرشيد ووصل الجيش العربي الى اسكدار ، أى القسم الاسيوى من المدينة فاضطرت الامبراطورة « ايرانه » — والمسعودي يقول لها اريين — التي كانت كافلة ابنها قسطنطين السادس لصغر سنه ان تطلب الصلح وتؤدى للخليفة الجزية . روى ذلك تيوفاتوس ، والبلاذرى ، والطبرى ، وابن الأثير . وقال هؤلاء ان هذه الغزاة جرت سنة ١٦٥ للهجرة . قلت ان البلاذرى يذكر ان المهدي أغزا ابنه هرون الرشيد الروم سنة ١٦٥ فنزل على الخليج . ثم نقلت الانسيكلوبيديّة عن « اوليا » عن محي الدين الجالى ان العرب حاصروا في أيام المهدي والرشيد القسطنطينية أربع مرّات .

وأما الجامع المنسوب الى مسلمة بن عبد الملك في القسطنطينية فلم يعرف مكانه . وقيل انه هدم في أثناء فتنة ، وذلك سنة ١٢٠٠ مسيحية . وقيل ان الصليبيين اتهبوه سنة ١٢٠٣ وذكر ابن الأثير ان الأمبراطور قسطنطين « مونوماك » كان قد رمّم هذا الجامع بناءً على رغبة طغرل بك السلجوقي وذلك سنة ٤٤١ ، وقال أبو الفداء انه سنة احدى وأربعين وأربعمائة أرسل ملك الروم الى السلطان طغرل بك هدية عظيمة وطلب منه المعاهدة فأجابها اليها وعمر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرل بك . اهـ .

وقال ابن خلكان في الوفيات في ترجمة السلطان طغرل بك : « ومن محاسنه المستورة انه سير الشريف ناصر الدين بن اسمعيل رسولا الى ملكة الروم وكانت على الروم اذ ذاك امرأة فاستأذنها في الصلوات الخمس بجامع القسطنطينية وبالجماعة يوم الجمعة فأذنت له في ذلك . فصلى وخطب للإمام القائم (العباسي) وكان رسول المستنصر العبيدي صاحب مصر حاضراً فأثكر ذلك وكان من أكبر الأسباب في فساد الأحوال بين المصريين والروم »

وجاء في الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة نقلاً عن المقرئى ان الأمبراطور ميخائيل « باليولوغ الثامن » بنى سنة ٦٦٠ للهجرة في القسطنطينية جامعاً أهدى اليه الملك الظاهر بيبرس مغروشات نفيسة

فتح الترك للقسطنطينية

و خلاصة خططها

للمؤرخ

ومضى على حصار العرب للقسطنطينية واحتلالهم لاضفاف البوسفور ستائة سنة قبل أن حاصرها الاتراك لأول مرة لعهد بايزيد الأول العثماني ، وذلك سنة ١٣٩٦ . وبينما كان بايزيد الأول ماسكا بخناقها بلغه قدوم جيش افرنسي مجرى تحت قيادة سيجيسموند الأول ملك المجر انسجدة القسطنطينية فنهد اليهم بجيشه والتقى الجمعان في نيقوبوليس من بلاد البلغار الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٣٩٦ فكانت الدبرة على الفرنسيين والمجر . واستؤصل جيشهم قتلا وأسراً . وقرأت في بعض تواريخ الفرنسيين انه حصلت في تلك البلدة معركتان احدهما سنة ١٣٩٣ انهزم فيها سيجيسموند ملك المجر . والثانية سنة ١٣٩٦ انهزم فيها المجر والافرنسيين معاً . وعاد بايزيد الى التضييق على القسطنطينية الى أن ارتضى امبراطور الروم بشروط ابن عثمان ، وذلك سنة ١٤٠٠ وكان من جملة تلك الشروط التخلي عن حارة في تلك العاصمة لتكون مسكناً للمسلمين ، والاذن في بناء مسجد جامع ، ونصب قاض شرعي لفصل دعاوى المسلمين . ولما جاء تمرلك وتغلب على السلطان يلدرم بايزيد وأخذه أسيراً نشقت فروق نسيم الفرج الا أن ذلك لم يستمر الى الآخر بل سنة ١٤٢٢ جاء السلطان مراد الثاني وحاصر القسطنطينية وضيق عليها فلم يقدر له فتحها فارتضى بالصلح مع الامبراطور . وخلفه ابنه محمد الثاني فزحف اليها سنة ١٤٥٢ وبنى بجانبها حصن « روملى حصار » وبدأ الحصر في ٩ ابريل سنة ١٤٥٣ وافتتحها في ٢٩ مايو وكان أكثر الخاح الأتراك في الهجوم من جهة البر بين باب طوبقو وباب أدرنة

فان مدافعهم الثقيلة فتحت ثلماً تعذر على الروم سدّها . وكان خليج قرن الذهب مسدوداً بسلسلة حديدية فتقل الترك أسطولهم من جهة طوله بغجه وأصعدوه في البر الى أكمة بك أوغلي وأنزلوه الى الساحل المسمى بقاسم باشا وأزلقوه على الشحم الى الخليج واستولوا عليه وكشف المولى آق شمس الدين قبر أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه . وانهب الأتراك البلدة ثلاثة أيام ثم دخلها السلطان محمد الفاتح في اليوم الرابع ، وارتفع النهب وعم السكون ، ونودى بالأمان ، وصلى السلطان الجمعة في كنيسة أياصوفيا بعد أن حولها جامعاً . وكان الجنويون في غلطة ولهم فيها محلة خاصة بهم فتسلمها الأتراك منهم . وجاء تاريخ فتحها مصادفاً بحساب الجبل لآية « بلدة طيبة » أى (٨٥٣) وهى سنة فتحها بالحساب الهجرى . ولم يلك الاسلام في الحقيقة بلدة أجل منها ، ولا خطة أهم موقعاً ، ولا مدينة أطيب نجعة . وقيل ان أجل مدن العالم منظراً اذا أقبل المسافر عليها ثلاث نابولى في ايطالية ، وأشبونة عاصمة البرتغال ، والاستانة وهذه أجل الثلاث . وأما أهميتها الجغرافية والسياسية فلم تكن لبلدة أخرى في المعمور واقعة بين البحرين الاسود والأبيض ، وواصله بين البرتين آسية وأوربة أمامها بوغاز ووراءها بوغاز ومن ملكها فقد نبواً ملكاً كبيراً وكروسيا عالياً منيفاً ومن شرقها البوسفور ومن غربها بحر مرمره المنتهى بمضيق الدردنيل ، واذا تحصن كل منهما كما يجب أصبح العبور منهما في حكم المستحيل تقريباً . ولقد تمكن الأدميرال الانكليزى^(١) دو كهورت من اجتياز الدردنيل بغتة ووصل الى الاستانة ولم يجرأ أن يهاجها وقفل راجعاً ولكن حصون الدردنيل لم تكن وقتئذ في المنعة التى صارت اليها فيما بعد . وقد ظهر أن فرنسا وانكلترة وجهتا في الحرب العامة الى الدردنيل جيوشاً جرارة وأساطيل قلما اجتمعت في حرب بحرية وانهما بذلنا لاختراق هذا المضيق من الجهود ما ندر مثله في تاريخ الحروب وانتهى الأمر بأن الجيوش العثمانية دحرتها الى الورا واضطرتها الى الرجوع والانقلاع أخيب ما كاتنا ، بعد أن فقدنا بين قتيل وجريح وضائع ثلاثمائة وخمسة وعشرين ألف مقاتل^(٢)

(١) في ٢٠ فبراير سنة ١٨٠٨

(٢) راجع الكتاب المؤلف على حرب الدردنيل التابع لسلسلة وثائق الحرب العامة بالفرنسية

فالعرب في صدر الاسلام لم تخف عنهم أهمية هذه المواقع ولذلك زحفوا اليها عن أبعد شاسعة ، وأعملوا في غزوها قوات هائلة . ولما ملك آل عثمان بلاد الأناضول ثم اجتازوا البحر الى الروملى حصروها من البرين ، ولم يزالوا يعملون في استخلاصها لأنفسهم الى أن قبض الله ذلك الفتح العظيم لمحمد الثانى ابن مراد ، وكان من أعظم السلاطين تولى الملك في حداثة سنه في عهد أبيه وأصلى الأعداء المعارك الكبرى ، مثل معركة قوصوه التى هزم بها المجر والامم البلقانية ، ثم انه جلس على كرسي السلطنة بعد وفاة أبيه وهو ابن ٢٢ سنة وفتح القسطنطينية العظمى وهو ابن ٢٤ سنة .

قال البارون « كارادوفو » Baron Carra de vauخ في كتابه « مفكرو الاسلام » في الجزء الاول منه عند ترجمة محمد الفاتح : ان هذا الفتح لم يقبض لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تيسر بمجرد ضعف دولة بيزنطية ، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم له كل ما كان في عصره من قوة العلم . فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد بالايجاد ، فأعمل في تركيب أضخم المدافع التى يمكن تركيبها يومئذ وانتدب مهندساً مجرباً ركب له مدفعاً كان وزن الكرة التى يرمى بها ٣٠٠ كيلو ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل ، وقيل انه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتكمنوا من سحبه وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه ، ولما زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمائة ألف مقاتل ومعه مدفعية هائلة وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر ١٢٠ سفينة حربية . وهو الذى من قريحته تصور سحب جانب من الاسطول من البر الى الخليج وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم ٧٠ سفينة أنزلها في البحر من جهة قاسم باشا . وبعد حصار ٥٠ يوما هدمت مدافعه أربعة أبراج ، وفتحت ثلثة عظيمة من جهة باب سان رومان وقام السلطان بالقحمة الأخيرة بنفسه وسار على رأس جيشه ويده قضيب من حديد الى أن دخل قصر امبراطور الروم فأنشد قول الشاعر الفارسى : العنكبوت تنسج خيوطها في القصر الملوكى واليوم يسمع صداه على أبراج افراسياب ولما دخل كنيسة أياصوفيا لم يسمح بمحو الفسيفساء التى بها صور أشخاص وانما أمر بأن تغطى بالجص الخ »

وازدادت عمارة فروق في زمان آل عثمان ، وأسكن فيها محمد الفاتح أقواماً من أطراف مملكته لا سيما من بلاد القرمات ومن الجزر وعاد اليها كثير من الروم الذين كانوا غادروها ، وبعد وفاة الفاتح جاءها اليهود المطرودون من أسبانية ومعهم جماعة من العرب . وما زالت هذه البلدة تنمو وتعتظم حتى صارت عاصمة العالم الاسلامي ومن عظميات عواصم العالم كله وبلغ عدد سكانها في هذا العصر مليوناً ومائتي ألف نسمة. الا أنه من المؤسف كون حكومة تركيا الجمهورية الحاضرة قد أهملت هذه البلدة الطيبة التي لا نظير لها اهمالاً زائداً ونقلت مقر الحكم الى أنقرة فرجعت الاستانة القهقري ونزل عدد سكانها من مليون ومائتي ألف الى سبعةائة ألف وقيل الى ستمائة ألف وان اهمال الحكومة التركية لمثل الاستانة لمن الأغلاط السياسية التي لا جدال فيها .

ولقد شاد بنو عثمان في الاستانة أو اسطنبول من الجوامع والقصور والأبراج والحصون والمدارس والمكن والمعاهد الخيرية ما يليق بعاصمة فريدة نظيرها ، وأهم ما فيها من المباني الجوامع التي لا توجد في سواها والتي تجده منأرها العديدة سامقة في الفضاء من كل جانب فتكسب بها اسطنبول منظراً لا يجده ناظر في غيرها لا شرقاً ولا غرباً . ومن أهم هذه الجوامع جامع الفاتح الذي أتم بناءه هورجه الله سنة ٨٧٥ للهجرة وبنى بجانبه ثمانى مدارس وعنده القبة التي دفن فيها الفاتح ومدافن أخرى لآله يقال ان منها مدفن الاميرة الصربية ماري ابنة جورج برانكوفيه التي كان تزوج بها مراد الثانى وماتت وهي باقية على دينها .

ثم جامع بايزيد بقرب باب السمرعسكرية وفيه مدفن السلطان بايزيد بن محمد الفاتح وبعض عائلته .

ثم جامع السليمية بناه السلطان سليم الأول مشرف على محلة الفنار وفيه تربة السلطان المذكور ، وتربة السلطان عبد المجيد ، والد السلاطين مراد وعبد الحيد ومحمد الخامس ومحمد السادس .

ثم جامع الشاهزاده بناه السلطان سليمان سنة ٩٥٥ للهجرة وهندسه المعمار سنان المشهور وفيه مدفن الأمير محمد بن السلطان ومدفن أخيه جها نكير .

ثم جامع السليمانية ، وهو من أجل وأشهى وأنعم جوامع الدنيا بناه السلطان سليمان القانوني وكان المهندس له المعمار سنان ، وانتخب له أعلى قمة من الجبال التي عليها الاستانة وبنى حوله أربع مدارس وعمارات أخرى وفيه مدفن سليمان الأول القانوني وسليمان الثاني وأجد الثاني . وهذا الجامع فيه من الصنعة الهندسية في بناءه ما لا يوجد في أياصوفيا

ثم جامع السلطان أجد بناه أجد الأول وهو قريب من أياصوفيا وله ست منائر وفيه مدفن السلطان أجد الأول وولديه عثمان الثاني ومراد الرابع

ثم جامع « يني جامع » بقرب الجسر الواصل بين اسطنبول والغلطة وقد بدأت به السلطنة كوسم ثم أكملته السلطنة خديجة والدة محمد الرابع وذلك سنة ١٠٧٤ للهجرة وفي هذا الجامع مدافن السلاطين محمد الرابع ومصطفى الثاني وأجد الثالث وعثمان الثالث . ولا تزدحم الجماعات في مسجد ما تزدحمه في هذا الجامع نظراً لقربه للجسر ومركز حركة الخلق .

ثم جامع النور العثماني بدأ بنائه محمود الأول وأكمله عثمان الثالث .

ثم جامع لاله لي وفيه مدفن سليم الثالث

ثم زيرك جامع وأصله كنيسة حوله الفاتح الى جامع .

ثم جامع محمود باشا بقرب النور العثماني بناه أحد الصدور العظام سنة ٨٦٨ للهجرة

ثم جامع مراد باشا بناه أحد وزراء الفاتح سنة ٨٧٠

ثم جامع وفا بناه بايزيد الثاني سنة ٨٨١ للشيخ مصطفى وفا .

ثم جامع داود باشا على بحر مرمره تاريخ بنائه سنة ٨٩٠

ثم جامع خوجه مصطفى باشا في سماطيه أصله كنيسة يزنطية تحولت جامعاً سنة ٨٩٥

ثم جامع عتيق علي باشا في شميرلي طاش بني سنة ٩٠٢

ثم جامع مهرماه ابنة السلطان سليمان في أعلى نقطة من المدينة بقرب باب ادرنة

سنة ٩٦٥ وهندسه المعمار سنان

ثم جامع رستم باشا عند الخليج بناه رستم باشا الصدر الأعظم في زمن سليمان الاول وهذا الجامع هو من بناء سنان ايضاً وفيه من صنعة الخرف القاشاني نفائس لا توجد في غيره .

ثم جامع الصدر الأعظم « الصوقولى » كمل بناؤه سنة ٩٦٩ .

ثم جامع فتحية أصله كنيسة تحول جامعاً في زمان مراد الثالث سنة ١٥٨٧

ثم جامع جراح باشا كان بناؤه سنة ١٠٠٢ للهجرة .

وفي اسطنبول القديمة نحو من خمسمائة جامع وبديهي أنه غير داخل في هذا العدد الجوامع التي في غلطة وبك اوغلى وبشكطاش ونشان طاش والقرى التي على البوسفور من الجانبين فهناك جوامع أيضاً تحصى بالآلاف . ومنها جوامع في الغاية من الاتقان والبداعة وكلها لها المناظر الرفيعة المستديرة الضاربة في الهواء البالغة الحد في البهاء والتي هي زينة هذه العاصمة . ومن أشهر هذه الجوامع « النصرية » في الطوبخانه وجامع « جهانكير » في « الفندقلى » وجامع « بشكطاش » وجامع « يلديز » وغيرها .

ولنتكلم الآن على جامع أيا صوفيا وهو الدرة الدهماء واليتمية الطائر ذكرها في الغبراء فنقول :

ان هذا الجامع لا يزال أعظم جامع في القسطنطينية ، كما أنه كان أعظم وأجل كنيسة في الشرق ، ومن أعظم وأجل كنائس العالم . والأصل في هندسة قبة المشهورة بعظمتها مأخوذ من الهندسة التي كانت معروفة قديماً في العراق أى انها هندسة آسيوية لا أوربية كان أتى بها البنّاؤون من العراق الى بلاد الروم وغلبت على كنائسهم ، وعدلوا بعدها عن طرز البناء اليونانى القديم . أما حلية أيا صوفيا الداخلية فهي من الصناعة السورية . فهي اذاً من جميع الوجوه تضرب في بنائها الى عرق آسيوى . ولقد صار طرزها هو المعول عليه في بناء الكنائس الارثوذكسية كلها ولا سيما في الروسية . ولم يحدث في الهندسة طرز يفوقه وجاء في الانسيكلوبيديّة الاسلاميّة ان بعض كنائس الغرب أيضاً مثل كنيسة مار مرقس في

البندقية مبنية أيضاً على طرز أيا صوفيا . قالت : وان أجل جوامع الأتراك في الروملى — كجوامع أدرنة مثلاً — لاتخرج عن طرز أيا صوفيا الا قليلاً .

وأول من أسس أيا صوفيا هو الامبراطور قسطنس ابن الامبراطور قسطنطين الكبير وذلك سنة ٣٦٠ مسيحية ، وكانت تسمى حينئذ بالكنيسة الكبرى . ثم أصابها جوائح من حريق وزلزال ثم أعيد بناؤها سنة ٤١٥ م ثم احترقت في أثناء فتنة احترق بها جانب كبير من المدينة . وعندها قرر الامبراطور يوستينيانوس تجديد بنائها والسخاء عليها بالأموال الطائلة وحشد لها الصنائع وجع مواد البناء من أطراف المملكة لاسيما من انقاض الهياكل القديمة التي كان النصارى قد دمروها بعد تنصر الدولة . واستجداد يوستينيانوس لهندسة الكنيسة مهندسين من أشهر بنائى ذلك العصر وكل عصر وهما « انيتموس تراليس » و « ايزدوروس ميله » فتوخيا فيها الطريقة التي تقيها الحريق وتأثير الزلازل التي تكثر في القسطنطينية وعقدا لها هذه القبة العجيبة . وتم بناء أيا صوفيا سنة ٥٣٧ واحتفل يوستينيانوس بافتتاحها في يوم عظيم أبلغ فيه الأبهة منتهاها وهتف يومئذ : سليمان قد غلبتك . ولم يكن في قوله هذا مبالغا . ثم حصلت زلزلة سقط بها جانب من القبة وذلك في زمن يوستينيانوس نفسه ، جددوا بناءها ورفعوها نحو ٢٠ قدماً واحتفلوا بافتتاح البناء سنة ٥٦٣ . ويقدر داخل أيا صوفيا بخمسة وسبعين متراً طوالاً وسبعين متراً عرضاً ويقدر علو القبة بستة وخمسين متراً ، ولما كانت الجدران لا تكفي لتوطيد القبة الى الدرجة المطلوبة فقد أرسلوها أيضاً على أساطين أربع مرتبطة بعضها ببعض بأعمدة أصغر منها وبقوى شديدة وعدد أعمدة الكنيسة التي يتوكأ عليها البنيان ١٠٧ أعمدة كلها من ذوات الألوان النادرة والرخام المجزع . وكانت القبة والحيطان مزينة كلها بالفسيفساء المذهبة الآخذة بالأبصار وعلى الحيطان صور عيسى ومريم عليهما السلام والأنبياء والرسل والملائكة وان القلم ليعجز عن اعطاء تلك المناظر حقها من الوصف . وكان القسوس والوفهة^(١) الذين يخدمون في أيا صوفيا لعهد يوستينيانوس ٤٢٥ شخصاً وكان لها مائة بواب . وقيل انه لما فتح الأتراك القسطنطينية كان وفهة أيا صوفيا ٨٠٠ شخص

وسنة ٩٨٩ مسيحية حصل زلزال أضر بقبة أيا صوفيا ثم ترممت . وسنة ١٢٠٤ انتهب

اللاتين الصليبيون هذه الكنيسة وجردوها من حلالها وذلك في أثناء مقامهم بالقسطنطينية وأكثرترميمات أيا صوفيا للعهد البيزنطى وقعت فى القرن الرابع عشر اذ بنيت حول الكنيسة جدران وأجنحة جديدة لتوطيد الجدران القديمة .

وجاء فى الانسيكلويدية الاسلامية أن أول مسلم كتب عن أيا صوفيا هو أحد ابن رست من رجال القرن الثالث للهجرة وذلك فى كتابه « كتاب الأعلاق النفيسة » وكان يسمى أيا صوفيا بالكنيسة العظمى ويصف كيفية ذهاب امبراطور بيزانطية الى الكنيسة أيام الآحاد والاعياد بذلك الاحتفال العظيم وكيف كان الاسرى المسامون يؤتى بهم الى تلك الحفلة ليهتفوا للملك قائلين : « أطال الله حياة الملك » وذكر هذا الكاتب شيئاً فى غاية من الدقة فقال انه يوجد فى مدخل الكنيسة الغربى مجلس وأربعة وعشرون باباً صغيراً فكلما مضت ساعة من الأربع والعشرين ساعة يفتح باب من هذه الابواب من نفسه ثم ينغلق لنفسه . ولم يذكر هذه النادرة أحد غير أحمد المذكور . ولم نجد بعد ذلك لأحد من مؤلفى الاسلام كتابة عن ايا صوفيا حتى القرن السابع للهجرة فقد جاء لشمس الدين محمد الدمشقى كلام وجيز على أيا صوفيا . ثم جاء ذكر أيا صوفيا فى رحلة ابن بطوطة الذى زار الاساتنة لكن ابن بطوطة يقول انه لم يدخل الى داخل الكنيسة لأنه كان من العادات المرعية عندهم ان كل من دخل اليها لا بد له من أن يسجد للصليب وهو أبى أن يفعل ذلك .

ولما دخل الاتراك القسطنطينية فى ٢٩ مايس ١٤٥٣ التجأ جميع الاهالى الذين لا يحملون السلاح والنساء والأولاد الى أيا صوفيا وهم يعتقدون أنه متى وصل الترك الى عمود قسطنطين الكبير يظهر ملك فى السماء فينهزمون نكوصاً على الأعقاب ويعودون من حيث أتوا . ولكن الترك دخلوا الكنيسة وأخذوا جميع تلك الخلائق أسرى . وليس بصحيح ما يزعمه بعضهم من أنهم ذبحوهم . فالترك لم يذبحوا هناك أحداً وما لبثوا أن أطلقوا سبيل أولئك الأسرى . ولما جاء محمد الفاتح ترجل عن جواده ودخل أيا صوفيا وارتفع صوت الأذان فى داخل الكنيسة وسجد السلطان ومن معه للاله الواحد وتحول هيكل قسطنس ويوستنيانوس مسجداً للإسلام .

أما ما أدخله المسلمون من التغييرات على أيا صوفيا فهو أنهم غطوا الصور التى كانت على الحيطان والفسيفساء البديعة الباهرة المشوثة على الجدر والاقبية وذلك بالحص الذى يمنع

من ظهورها للعيان لما في دين الاسلام من تحريم الصور في أما كن العبادة وكذلك رفعوا الحاجر الذي كان بين القسيسين والاهالى . ولما كانت الكنائس البيزنطية موجهة في بنائها الى القدس وكان المسلمون في صلواتهم يولون وجوههم شطر مكة كان لابد للمسلمين في أياصوفيا من أن ينحرفوا قليلا عن الجهة الشرقية الى الجهة الجنوبية . ولقد دعم الماسمون أيا صوفيا ببحران جديدة فبنى محمد الفاتح دعائم لتقوية الحائط الجنوبي الشرقي من المسجد وبنى أيضاً احدى المنائر الأربع الموجودة الآن والتي هي من أجل ما يرى في سماء الاستانة ثم بنى سليم الثانى المنارة الثانية وبنى مراد الثالث المنارتين الأخريين فتتأمت أربع منائر . وكان لمراد الثالث في أيا صوفيا آثار كثيرة فهو الذى جعل عند الباب حوضين يسع كل منهما ١١٥٠ ليتراً من الماء لأجل الوضوء وجعل في الداخل مضطبتين عاليتين يتلى فوق احدهما القرآن طول النهار ويؤذن بالصلاة فوق الأخرى ووضع مراد الثالث محل الصليب الذى بأعلى القبة هلالاً أنفق على تمويهه بالذهب أموالاً طائلة وقطر هذا الهلال خمسون شبراً فهو يرى من مسافات بعيدة.

وقد بنيت الى الجنوب من المسجد قباب لأجل دفن السلاطين أقدمها قبة سليم الثانى وبجانبها مدفن ابنه مراد الثالث وحفيده محمد الثالث . وهناك أيضاً مدفن مصطفى الأول ثم ابن أخيه السلطان ابراهيم . وعمن اعتنى أشد الاعتناء بأيا صوفيا السلطان مراد الرابع فشاد عضائد كثيرة للجدران وفي أيامه كُتبت على الجدران الداخلية من المسجد الآيات القرآنية بتلك الحروف التى لا يوجد أكبر منها وكلها مموّهة بالذهب وهى من خط ذلك الخطاط الشهير يشكجى زاده مصطفى شلبى فمن هذه الأحرف حرف الالف مثلاً طوله عشرة أذرع وهذا عدا بداعة الخط واشتباك حروفه ، وتعليق بعضها على بعض ، مما يدهش الابصار ويتنافس به أدباء الترك ، وقد كتبت أيضاً بهذا الخط نفسه أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة . أما المنبر الذى في أيا صوفيا فهو احدى يتأتم الصنعة وهو أيضاً من آثار مراد الرابع . وقد شيّد أحمد الثالث مقصورة لصلاته مرتفعة مشتبكة من جهة المسجد . ثم ان السلطان محمود الأول جعل بجانب المسجد سبيلا للماء ومدرسة وذلك الى الجنوب منه وجعل أيضاً خزانة للكتب هي في نفس الجامع . ومن بعد مراد الرابع فاتح بغداد تأخرت أحوال أيا صوفيا بالتأخر العام الذى أصاب المملكة وبقيت الحال على ما هى عليه الى أيام السلطان

عبد المجيد الذى سنة ١٨٤٧ عهد الى الاخوان « فوساطى » من البنائين الطليان بترميم مايجب ترميمه من المسجد فلبشوا مدة سنتين يشتغلون ولم يبقوا على الحيطان الا الحص الذى يحجب الصور البشرية وجلّوا الحيطان الممموهة بالذهب والنقوش الساطعة ، وكذلك فى زمان عبد المجيد جرى رفع المنائر الأربع وبالجملة فكان ترميم السلطان المشار اليه لجامع أيا صوفيا من أجل ماثره .

ولقد توالى الزلازل على الاستانة المعروفة بكثرة زلازلها ولم يصب أيا صوفيا من هذه الاهتزازات الارضية منذ القرن الخامس للمسيح الى الآن اذى يذكر وذلك بفضل الدعائم الكثيرة التى أقامها البيزنطيون سابقاً والأتراك لاحقاً وشدوا بها جدران الجامع صفاً وراء صف . وأجل ما يكون مسجد أيا صوفيا فى شهر رمضان اذ تحتشد الألوف من الصلّين لصلاة العصر وكذلك الألوف لصلاة التراويح بعد العشاء وأعظم حفلة تقع فيه فى الليلة السابعة والعشرين من رمضان أى ليلة القدر . وكان السلطان عبد المجيد الثانى يأتى الى أيا صوفيا فى أواسط رمضان بعد الاحتفال المعروف بزيرة البردة الشريفة فى سراى « طوب قيو » .

وقد كتبت على مسجد أيا صوفيا تأليف خاصة به ، منها كتاب ظهر فى زمن الفاتح من تأليف احمد بن احمد الجيلانى مأخوذ منه قسم عن اليونان وقد حرره المؤلف بالفارسى . ثم ترجمه أديب اسمه نعمة الله الى التركى وهذا التأليف تجده فى خزانة أيا صوفيا تحت رقم ٣٠٢٥ ، وروى الكاتب شلى صاحب كشف الظنون أن الفلكى علياً بن محمد الكشجى ألف أيضاً لعهد السلطان الفاتح كتاباً آخر بالفارسى على أيا صوفيا لكننا لم نتحققه . ثم انه يوجد فى خزانة كتب برلين تأليف ثالث عهده ٨٨٨ للهجرة فى الموضوع نفسه هو ملحق بتاريخ الدولة العثمانية الا أن اسم المؤلف غير مذكور فيه

ثم هناك مجلد اسمه « تواريخ قسطنطينية » فيه كتابان فى الموضوع وفيه أقاصيص كثيرة تتعلق بالجامع وأسباب بناء هذا المعبد فى الاصل والاموال التى أنفقت عليه . ثم انه موجود تأليف آخر اسمه « تواريخ قسطنطينية وأيا صوفيا » لعلى العربى الياس بدأ به سنة ٩٧٠ لعهد السلطان سليمان القانونى . ويقول على العربى الياس ان البناء الذى هندس بناية أيا صوفيا يأمر الامبراطور يوستينيانوس كان اسمه اغناطيوس وبالجملة نجد تاريخ هذا الرجل أو فى الكتب بموضوع أيا صوفيا وان كان مقصراً عن الوفاء بتحقيقاتنا العصرية . اهـ

هذا ما نقلناه عن الانسيكلو بيدة الاسلامية بشأن أياصوفيا أشهر جامع في القسطنطينية وذلك على وجه الاختصار . وفي الاستانة غير بعيد عن هذا الجامع جامع آخر اسمه أياصوفيا الصغير بناه أيضاً الامبراطور يوستينيانوس باسم القديسين سرجيوس وباخوس . وقد تحول في زمان محمد الفاتح أيضا الى مسجد .

ثم ان تاريخ أياصوفيا الذي أشارت اليه الانسيكلو بيدة من تأليف الجيلائي قد جاء ذكره في كشف الظنون وجاء ذكر التاريخ الآخر للكشجى قال : « تاريخ أياصوفيا مختصر نقله احمد بن احمد الجيلائي حين الفتح من اليونانية الى الفارسية وأهداه للفتح . ثم نقله نعمة الله بن احمد من الفارسية الى التركية وللمولى الفاضل على بن محمد الكشجى المتوفى سنة ٨٧٩ تأليف لطيف بالفارسية ألفه للفتح المرحوم »

وفي القسطنطينية جوامع أخرى كانت كنائس منها « كليس جامع » و « كول جامع » أي جامع الورد وغيرهما . ولا يزال فيها خسون كنيسة منها كنائس باقية من القرن الثالث عشر .

وأما الجامع المسمى « بسلطان أيوب » في الخليج الذي هو أقدس مكان عند الاتراك فهو الجامع المبني على ضريح الصحابي الجليل أبي أيوب خالد الانصاري رضى الله عنه . وقد تقدم لنا خبر وفاة أبي أيوب في أثناء حصار القسطنطينية . وما أوصى به يزيد بن معاوية من جهة دفنه ، ثم انه لما جاء محمد الفاتح وحصر هذه البلدة الطيبة وفتحها انكشف للمولى آق شمس الدين ضريح أبي أيوب ، وشاد الفاتح رحمه الله سنة ٨٦٣ جامعاً عند ضريح الصحابي المجاهد . ثم في سنة ١٢١٣ الى سنة ١٢١٥ تجدد بناء هذا الجامع على صورته الاصلية ، وكان من عادة سلاطين آل عثمان أنه عندما يتولى أحدهم السلطنة يذهب الى جامع أبي أيوب المشار اليه ويتقلد فيه السيف باحتفال عظيم ، ويكون تقليد السيف من يد الشلبي شيخ الطريقة المولوية التي مركزها قونية .

هذه هي العادة التي أدركناهم عليها الا أنه لما تولى السلطنة السلطان محمد وحيد الدين الملقب بمحمد السادس ابن السلطان عبد المجيد بن محمود وهو الذي أعلنت تركيا الجمهورية

بعد خلعه كان الذى قلده السيف السيد احمد الشريف كبير السادة السنوسية والمجاهد الشهير بهذا العصر .

هذا وبجوار جامع أبى أيوب مقبرة فيها مدافن كثير من أميرات آل عثمان ، وكثير من الوزراء والعلماء والشعراء ورجال الدولة نظراً لكون الناس فى الاستانة يتبركون بهذا المكان المنسوب لصاحب رسول الله ﷺ ويحبون أن يدفنوا فيه . ومن جملة من دفنوا فيه أحد أعمام محرر هذه السطور وهو العالم الكبير المرحوم الأمير محمد الأمين الارسلانى الذى كان عضواً فى مجلس شورى الدولة وتوفى فى الاستانة شاباً عن ٣١ سنة وذلك سنة ١٢٨٨ هجرية (١)

ومن المدافن الشهيرة فى الاستانة مدافن السلاطين مثل « سلطان محمود تر به سى » فى « ديوان يولى » وفيها دفن السلطان محمود الثانى المتوفى سنة ١٨٣٩ مسيحية وولده السلطان عبد العزيز المتوفى سنة ١٨٧٧ ، وتربة السلطان عبد الحميد الأول المتوفى سنة ١٧٨٩ وهى فى « بفعه قبوسى » وفيها دفن السلطان مصطفى الرابع المتوفى سنة ١٨٠٧ ومن الأمكنة الدينية المشهورة فى الاستانة التكايا ، وهى التى يقال لها الزوايا عند العرب . وهذه كان يبلغ عددها ٢٦٠ تكية فى البلدة وقرى البوسفور أشهرها تكية المولوية فى « بنى كوى » وتكية السنبلى فى جوارها ، ثم تكية هذه الطريقة فى « بك أوغلى » وهى من أشهر تكايا تركيا وأقدمها ، بنيت سنة ٨٩٧ للهجرة ثم احترقت منذ مائة وسبع وستين سنة وأعاد بناءها بشكها الحاضر السلطان سليم الثالث وذلك سنة ١٢١٠ وفيها قبر احمد باشا المهتدى الافرنسى الذى كان اسمه الكونت دوبرونفال de Bonneval والذى هو من آل « ليموزين » العائلة العريقة المعروفة بفرنسة من القرن الحادى عشر والثى اشتهر منها عدة من القواد الأبطال ، ومنهم « كلود اسكندر » هذا الذى ولد سنة ١٦٧٥ وتوفى سنة ١٧٤٧ وكان فى الجيش الافرنسى فخرت معه حادثة أوجبت غضبه ففارق فرنسة ودخل فى خدمة أوستريا واشتهر فى محاربة الأتراك ، وبعد مدة من الزمن وقع أسيراً فى أيديهم فى بوسنه ثم أسلم وجعله الأتراك قائداً باسم احمد باشا . ولما مات دفن فى هذه التكية . ومن المدفونين فيها اسماعيل الأنقروى شارح المتنوى

(١) راجع ترجمة الأمير محمد ارسلان عند ذكر الأمراء الارسلانيين فى دائرة المعارف للبستانى

وأما المدارس القديمة التي تعلم فيها العلوم الشرعية والآداب الشرقية فكانت نحو ١٧١ مدرسة أشهرها مدرسة أبياصوفيا وفيها ١٥٠ طالباً ومدرسة السلطان اجد وفيها ٢٠٠ طالب والسليمانية وفيها ٦٥٠ طالباً والمحمدية وفيها ٩٠٠ طالب وكان مجموع طلبة هذه المدارس نحواً من سبعة آلاف

ولما آل الحكم في تركيا بعد الحرب العامة الى مصطفى كمال باشا وانقلب من السلطنة الى الجمهورية والى جمهورية لادينية Laïque أقفلت هذه الجمهورية التكايا وألغت الطرق وأغلقت المدارس الدينية والشرعية ، ورفعت التعليم الديني من مكاتب الحكومة ، وقامت بأعمال وأحداث كثيرة من هذا القبيل مما سيأتي ذكره في محله .
وفي الاستانة مستشفيات ودور للجائنين كانت من القديم تابعة للجوامع ثم جعلتها الحكومة التركية على الطريقة العصرية

أما خزائن الكتب فهي ٤٥ خزنة فيها ٦٤١٦٢ مجلداً كلها كتب اسلامية أكثرها مخطوط بالقلم . وأشهر هذه الخزائن الخزنة التي في سراي السلاطين في طوب قيو . ثم خزنة أبياصوفيا . ثم خزنة الفاتح . ثم خزنة النور العثماني . ثم خزنة أسعد افندي . ثم خزنة الكوبرلي . ثم خزنة راغب باشا . ومن الخزائن المعروفة خزنة بايزيد وفيها كان بعض أجزاء كتاب الاكالييل النادر الوجود للهمداني الباني . وخزنة عاشر افندي بقرب « بني جامع » وفيها وجدت أنا منذ أربعين سنة رسالة « الدرة اليتيمة » لعبد الله بن المقفع ورسائل أبي اسحق الصابي رئيس كتاب ديوان الخلافة لعهد الطائع العباسي ونسخت هذين المخطوطين بخط يدي وطبعتهما وكانت هذه طبعتهما الأولى . ولقد علمنا أن حكومة تركيا الحاضرة جمعت أكثر هذه الكتب في مكتبة واحدة بدار الفنون . وأما مكتبة السراي فمنها قسم في الخزنة الخاصة بها ومنها قسم في « بغداد كوشك » ويقال ان فيها مخطوطات لاتينية ويونانية ذات قيمة عظيمة . ولقد أتيت لي أن أدخل الى هذه المكتبة والى خزنة التحف السلطانية وأن أرى كثيراً من الكتب النفيسة في أجلاها المذهبة وخطوطها التي تحير العقول ، ولا عجب فعن الملوك ولا تسلي . وأى الملوك : سلاطين آل عثمان الذين ملكوا نحواً من سبعمائة سنة مملكة من أكبر ممالك العالم . وكذلك الجواهر والدرر اليتيمة التي في خزنة آل عثمان قما

يوجد مثلها في خزائن الملوك . ولا شك في أنها تقوم بملايين كثيرة من الجنيهاات . وفي أثناء الحرب العامة نقلت الدولة الجواهر التي كانت في « الحرم النبوي بالمدينة » المنورة الى خراطة طوب قبو . وفي السراي من النفائس مالا يحصى ومن جلستها ١٢ ألف قطعة خزف صيني من النادر الاندر الذي صار مثله كالكبريت الأحمر كان المرحوم على الباشانابه التونسي قد عهد اليه بجمعها وتنفيذها لسعة معرفته بالخزف المذكور وهو الذي قال لي انه لا يظن في الدنيا كلها مجموعة خزف صيني في نفاسة هذه المجموعة لا في الكيفية ولا في الكمية

وأما الخلفات النبوية التي أخذها السلطان سليم العثماني من آخر خلفاء بني العباس عندما فتح مصر ، فلها في سراي طوب قبو كوشك خاص بها وأهمها البردة الشريفة ، التي أعطاها الرسول ﷺ كعباً بن زهير عندما أنشدته « بانت سعاد » وهي في سبط ثمين كان السلطان سليم رتب عندها ١٢ حافظاً يقرأون كتاب الله بالمناوبة بحيث لا تنقطع التلاوة لا ليلاً ولا نهاراً . وكان السلاطين يحتفلون بزيارتها في وسط رمضان في يوم مشهود يكون فيه السلطان وأمرآء الأسرة المالكة والوزراء والقواد وأعضاء مجلسي الأعيان والنواب وقد حضرت هذه الحفلة مراراً وكان السلطان يجلس على دكة وأمامه الصندوق الذي فيه السبط الذي فيه البردة وهم يقولون لها « خرقة سعاد » . ثم يتقدم الرجال المدعوون للحفلة واحداً بعد واحد بالترتيب بحسب برنامج معلوم فيرقى الواحد منهم درجة الدكة ويصير أمام الصندوق ، وينحني ، ويقبل الصندوق من أعلاه ويكون السلطان قد تناول منديلاً فسح به على وجه الصندوق فيناوله اياه وينصرف سائراً من غير الجهة التي جاء منها . فيرقى غيره وهلم جرّاً الى أن تنتهي هذه المراسم والسكوت التام والخشوع العظيم سائذان عليها بحيث لا يسمع الانسان فيها الا صوت قارئ يتلو القرآن في وسط البهو الذي فيسه الحفلة . لعل اخواننا الوهابيين يستهجنون هذه المراسم ولا يرون تقبيل الآثار النبوية أو الأصوثة التي فيها مما يستحب شرعاً الا أنه ليس شيء من هذه الأمور منوياً به غير مجرد التذكر والتبرك وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى .

ثم ان سراي طوب قبو هذه هي في الواقع عبارة عن بلدة كبيرة في طولها وعرضها ومبانيها وحدائقها وميادينها وساحاتها وفيها اكشاك وقصور وصروح بغاية الأبهة اذا

بها الانسان طول النهار لا يأتى على آخرها . وفيها مساكن حرم السلاطين والغرف الخاصة بكل واخت منهم وما أدهشنى وأنا أطوف فيها انى لم أكد أمرت بغرفة ولا بهو ولا أيوان من هذه القصور الملكية الا رأيت على جدران ذلك المكان آيات قرآنية أو أحاديث نبوية بأجل الخطوط المذهبة . وقد رأيت القصيدة المعروفة بالبردة الشريفة منقوشة باحرف كبيرة مموهة بالذهب من أولها الى آخرها فى ايوان واحد . ومن شاء أن يزور هذا المكان لم يكن له بد من أن يطوف به بمعرفة دليل يعرفه تاريخ كل محل ونسبته ووقت بناءه ومن كان من السلاطين يسكن فى هذا القصر وأية حادثة وقعت فى تلك الساحة وأى اجتماع جرى فى ذلك البهو الى غير ذلك . وقد كان دليلنا يوم طفنا فى سراى طوب قبو المؤرخ العليم بالخطط احمد رفيق بك المشهور الذى كان يشرح لنا كل ما يتعلق بكل محل من الوقائع فشهدنا بواسطته التاريخ مجسماً .

وللسلاطين العثمانيين ، عدا سراى طوب قبو ، سرايات كثيرة متناهية فى الفخامة ، منها سراى « طولمه بغجه » التى كان يسكن فيها المرحوم السلطان محمد رشاد ، وفيها البهو الكبير العديم النظير الذى تجرى فيه مراسم الأعياد وتستقبل به الملوك . ومنها سراى « جراغان » وقد احترق جانب منها . ومنها سراى « يلديز » التى كان يسكنها السلطان عبد الحميد الثانى وهى على رابية من أبدع روابى الاستانة ولها حديقة واصله الى البحر . وكان يصيف فيها السلطان رشاد أيضا . وقد وقعت لنا مقابلة السلطان رشاد مرتين فى سراى يلديز ومرة فى سراى طولمه بغجه هذا عدا المقابلات الرسمية . ومن السرايات الفخمة فى الاستانة سراى « بكار بك » فى الشاطىء الاسيوى من البوسفور وهى التى مات فيها السلطان عبد الحميد الثانى بعد خلعه . ومنها كوشك « كوك صو » وغير ذلك من السرايات والقصور والصروح والمقاصف التى تدهش كل من رآها وفى الاستانة ثكنة عسكرية كثيرة لاتكاد تحصى الا أن أعظمها الثكنة السليمية فى اسكدار يقال انها من أعظم ثكن الدنيا .

وفى « الطوبخانه » وهى معمل المدافع والأسلحة وأول من أسس الطوبخانه محمد الفاتح ثم زاد فيها سليمان القانونى . وما زالت السلاطين تهتم بها وتزيد فيها . سنة ١٩١٢ زرتها بنفسى وتفقدت أعمالها وكان مديرها رجل اسمه ناظم باشا فعلمت منه انها تصنع فى كل اسبوع عشرة مدافع و ١٢٠ بندقية ومقداراً من العلف للبنادق ومن القنابر للمدافع ،

ولكن ذلك لم يكن شيئاً بالنسبة الى احتياجات السلطنة فلذلك كانت الدولة العلية توصى على مدافعتها وبنادقها في معامل ألمانيا . وقد علمت ان الدولة قد كانت أوسعها في أثناء الحرب العامة وأدخلت فيها زيادات كثيرة .

وفي الخليج « الترسانة » وهي محرفة عن « دار الصنعة » وكان العرب يسمون كل مكان تبني فيه المراكب البحرية بدار الصنعة فأخذ هذه الكلمة الافرنج وحرفوها وقالوا « ارسنال » وأخذها الترك وحرفوها وقالوا « ترسانة » وقد كان مؤسس الترسانة في اسطنبول السلطان سليم الأول سنة ٩٢٢ (١٥١٦) ثم زاد فيها القانوني ثم زاد فيها حسن باشا الجزائري في زمن عبد الحميد الأول ثم زاد فيها حسين باشا في زمن سليم الثالث . وهناك دار نظارة البحرية العثمانية . وأما الآن فقد جعلت حكومة أنقرة دار الصنعة في خليج ازميد .

وفي الاستانة مكاتب ودور علم كثيرة أشهرها دار الفنون في اسطنبول ومكتب « غلطة سراي » في بك اوغلي ، والمكتب العسكري في « شيشلي » ومكتب البحرية في جزيرة « خلقى » في بحر مرمره . وكلها قد نبغ منها الألوف من رجال العلم والأدب والسيف والقلم .

وفي الاستانة أسواق عظيمة شهيرة لاتوجد في حاضرة شرقية غيرها . منها السوق الكبيرة التي بدأها محمد الفاتح وسوق مضر التي بناها سليمان القانوني وغيرها . وكذلك فيها خانات شهيرة مثل خان « والده سلطان » و « بيوك نبي جامع » وفيه ٣٥٠ غرفة و « سنبللي خان » و خان محمود باشا وغيرها ، ويقدر عددها فيها من الخانات بمائتين .

ثم ان القسطنطينية من قديم الزمان كانت في حاجة للمياه نظراً لوفرة سكانها وضخامة عمراتها . فقياصرة الروم كانوا جلبوا لها المياه من الخارج على الخنايا والقناطر العظيمة أولهم الإمبراطور هادريان ثم فالنس . ولما جاء المسلمون ازداد احتياج الأهالي الى الماء كما هو بديهي فجر إليها الفاتح ميهاً جديدة ثم جر لها القانوني بواسطة مهندس سنان خمسة ينابيع عقد لها خمسة مجار فوق القناطر وجعها في حوض كبير . وبنى عثمان الثاني حوض برغوس سنة ١٦٢٠ . وبنى أحمد الثالث السد — والأتراك يقولون بند — الذي في الوادي المسمى بغابة بلغراد . وسنة ١٧٣٢ بنى محمود الأول سد « بغچه كوي » الذي منه مياه بك اوغلي وغلطة والطوبخانة . وفي طرف بك اوغلي الى جهة شيشلي محل يقال له « تقسيم »

منه تقسيم المياه التي جرّها مجرود الأول .

وفي الاستانة حياض مياه قديمة من عهد الروم دثر أكثرها واعتيض منها بالعيون التي هي من أجل مآثرها العيون والسبل المبنية بالمرمر البالغة الحد في بداعة الصنعة مثل سبيل السلطان أحمد الثالث الذي بقرب « باب هايون » الذي تاريخه سنة ١١٤١ .
ويقدر عدد حمامات الاستانة بنحو من ١٥٠ حماماً عدا حمامات القرى الملحقة بالاستانة .

هذا وكان العرب يقولون للقسطنطينية « فروق » كصبور وقد وردت كذلك في معاجم اللغة وكأنهم أخذوها من قوله تعالى (وَأَذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ) أى فلقناه فان البحر يفرقها بين آسية وأوربة بمضيق البوسفور ثم يفرق القسم الاوربي منها بالخليج المسمى بقرن الذهب الذي فيه دار الصنعة أو الترسانة وفي آخره قبر خالد الانصارى رضى الله عنه .

وهذا الخليج يفرق بين القسم المسمى باسطنبول الأصلية وغلطه . وكانت غلطة من أيام الروم مسكن الجنوينة وأصناف اللاتين . ولما فتح الترك الاستانة انتقل كثير من الروم والأرمن اليها ، ثم لما بنيت الطوبخانة وهي من قسم الغلطة جاءها كثير من المسلمين وهكذا تحولت كنيسة ماربولس جامعاً منذ سنة ١٥٢٥ وقيل ١٥٣٥ وهي المسجد الذي يقال له اليوم « عرب جامع » ويقول بعضهم انه كان جامعاً في أثناء حصار العرب للقسطنطينية . وتحولت كنيسة مارا فرنسيس الى جامع سنة ١٦٩٧ وهو المسجد المسمى بجامع الوالدة . وللأتراك ١٤ جامعاً في غلطة منها أربعة كانت كنائس .

ولقد ذكر ياقوت الجوى في معجم البلدان هذه العاصمة الشهيرة وقال انها دار ملك الروم ، وان الحكايات عن عظمها وحسنها كثيرة ولكن ياقوت لم يعطها حقها وربما كتب في وصف بلدة لا تبلغ مقدار حارة من حارات القسطنطينية أكثر مما كتب عن القسطنطينية ، ولعله تجنب الأطناب في شأنها خشية أن ينسب اليه التعصب للرومية لأنه رومى وخشى أن يقال انه لا يزال فيه عرق من الرومية ينزع اليه . وقد روى ياقوت ثلاثة أبيات جاء فيها ذكر القسطنطينية قال انها لأبي العيال الهزلى رثى ابن عم له قتل في القسطنطينية وهي هذه :

ذكرت أخى فعاودنى رُداع القلب والوصب
أبو الأضياف والأيتا م ساعة لايعد أب
أقام لدى مدينة آ ل قسطنطين وانقلبوا

قال ياقوت وهى اليوم بيد الأفرنج غلبوا عليها الروم وكان ياقوت حيا فى أوائل القرن السابع للهجرة . ولنختم كلامنا على القسطنطينية بذكر قضية يبنى أن تعرف فى العالم الاسلامى وهى انه لما تقررت فى معاهدة لوزان المنعقدة بين تركيا ودول الحلفاء سنة ١٩٢٣ مبادلة السكان بين تركيا واليونان بحيث يخرج المسلمون الذين فى بلاد الروم الى تركيا ويخرج الأروام الذين فى تركيا الى بلاد اليونان ، وجرت المبادلة بالفعل استثنى من ذلك الأروام الذين فى القسطنطينية وهم يناهزون مئتي ألف نسمة واستثنى بمقابلتهم المسلمون الذين فى تراقيا الغربية لأن الدول الأوربية واليونان أتينَّ اخلاء القسطنطينية من المسيحيين فابت تركيا أن تجعل ذلك بدون عوض ولما كان مسلمو تراقيا يعز عليهم فراق وطنهم جعلوا هؤلاء فى مقابلة هؤلاء .

فهذا ما اكتفينا به من أخبار هذه البلدة الطيبة أدامها الله دار اسلام . ولقد رجعت الحكومة التركية الآن تطلق عليها اسمها القديم استامبول وأعانت انها لاتقبل المكاتبات التى ترد عليها تحت اسم القسطنطينية Constantinople وأوجبت أن يكتب استامبول Stamboul وذلك لأن الأتراك يرون فى اسم القسطنطينية تذكاراً لملك الروم فيها ويرون اسم استامبول هو الاسم الذى يطلقه الأتراك عليها . وحقيقة الحال ان اسم استامبول كان معروفاً للقسطنطينية من عهد الروم وقد نقل ياقوت الحموى عن ابن خرداذبة انه يقال لها اسطنبول ومن المعلوم ان ابن خرداذبة عاش فى أوائل القرن الثالث للهجرة وكان فى أيام الخليفة المعتمد العباسى ويقال انه كتب كتابه المسالك والممالك فى نواحى سنة ٢٣٢ . اذاً يكون اسم استامبول أو اسطنبول قديماً ومن العجيب أن ينفر الأتراك الأنقريون من اسم القسطنطينية بحجة انه اسم غربي وهم يحبون أن يقلدوا الأوربيين فى كل شئ وقد أخذوا يكتبون اللغة التركية بالحروف اللاتينية وأدخلوا فيها كلمات لاتخصى من اللغات الأوربية وهذه الكلمات ليست من الأعلام بل من الكلمات المعتادة التى كان يمكنهم الاستغناء عنها لوجود ألفاظها فى العربية فآثروا الألفاظ الأوربية على الألفاظ العربية حبا بالانغماس لاغير ،

فكيف نسوا هذا كله ورجعوا يحاولون اثبات تركيتهم في احياء لفظة واحدة هي لفظة « استانبول » أو اسطنبول . ان هذا المنطق الاتقري لعجيب

هذا ولما كانت ألسن البنيان هي أدل الدلائل على هم الملوك فلا شيء أدل على علو هم السلاطين العثمانيين من هذه الجوامع العظيمة التي شادوها في اسطنبول آيات باهرة للناظرين وآثاراً خالدة في الأولين والآخرين .

فهذه الجوامع عدا فائدتها المعنوية من جهة الصلاة التي هي عمود الدين وكونها مجمعا للآلوف وعشرات الآلوف من جماعات المصلين هي أيضاً الملاجئ الوحيدة في الاستانة عند نزول التوازل سواء كانت من حريق أو زلزال أو حرب أو آفة سبوية أخرى . ومن المعلوم ان القسطنطية في القديم والحديث عرضة للزلازل ولا تزال الزلازل تختلف اليها ، ولذلك اعتمد أهلها على البناء بالخشب لأن خطر الأبنية الخشبية في الزلازل أقل جداً من خطر الأبنية الحجرية . ولكنهم بهذا الأمر تعرضوا لخطر آخر هو الحريق الذي لا تحلو منه الاستانة ليلة واحدة . وكثيراً ما حدث من الحرائق ما أفنى قسماً كبيراً من تلك العاصمة ، ومرة احترق ثلث الاستانة في حريق واحد . وفي أيامنا هذه جرت حرائق كان يبقى بعدها مائة ألف نسمة أو يزيدون بدون مأوى . فعند ماتحصل حرائق كهذه لم يكن للاهالي الباقين بدون مأوى وهم ألوف أو عشرات الألوف ملجأ إلا الجوامع والمدارس التي حولها فانها مبنية كلها بالحجر الأصم المنحوت بناء هو المثل البعيد في الاحكام بحيث مضت عليها القرون ولم تتأثر لا بقدم ولا بزلزال ولا بحريق فتجدها كالقلاع بل أشد متانة ، ولولا هذه الجوامع وهذه المدارس لكان مصير أصحاب البيوت المحترقة لاسيما في فصل الشتاء من أجمع ما يتصوره العقل فإن بيوت الافراد لتعجز عن استيعاب خمسين ألفاً ومائة ألف من النسمات الباقية بدون مأوى . وكذلك في أثناء الحروب كان يهاجر المسامون الذين في نفور المملكة الى الاستانة بعيالهم وهم ألوف مؤلفة فتضيق عليهم الارض بما رحبت ولا يسعهم غير هذه الجوامع . ولقد شهدت أنا بنفسى هذا الأمر في أثناء الحرب البلقانية فقد كانت مصر أرسلت بعثة للهلل الأجر المصرى لأجل مداواة الجرحى العثمانيين على رأسها المرحوم محمد باشا الشريعى وكامل باشا جلال ، وجاءنى أنا أيضاً من الأمير محمد على توفيق رئيس الهلال الأجر المصرى تفويض بان أكون من المراقبين على أعمال تلك البعثة في الاستانة .

وفي ذلك الوقت تقدمت عساكر الدول البلقانية واخترقت حدود تركيا فاجفل الاهالى
المسامون من أمامها والتجأوا من كل صوب الى الاستانة لايالون على شئ ولم يكن في
أيديهم شئ تقريباً فدخل الاستانة نحو من مائة وثلاثين ألف نسمة مسامة من الروملى
فأزلائهم الحكومة فى هذه الجوامع التى لولاهالكان خطبهم لايوصف ولكن كانت
الحكومة أوانئذ باحتياجها لثونة جيوشها عاجزة عن اعاشة هؤلاء المهاجرين القادمين بعتة
وليس بأيديهم شئ يسد أرقامهم . فعند ذلك توالى برقياتى الى الامير محمد على توفيق
رئيس الهلال الاحمر المصرى والى الامير عمر طوسون رئيس لجنة اعانة الدولة بمصر والذى
نجدته على رأس كل مأثرة فى خدمة الاسلام ، فى الحال أرسلوا مبالغ وافرة من المال وأمكننا
أن نوزع على هؤلاء البؤساء اعانات أصاب النفس الواحدة منها ثلاثة ريالات مجيدية
فكانت العائلة المؤلفة من عشرة أنفس تقبض ثلاثين ريالاً مجيدية ، وكانت بعثة الهلال
الاحمر المصرى بالاشتراك مع لجنة من قبل امانة البلدة توزع هذه الأموال على المهاجرين
بموجب قوائم كانت تعد من قبل بعددهم وبأسمائهم ، ومن حيث انى كنت دائماً حاضراً
تلك التوزيعات أمكننى أن أشاهد أكثر تلك الجوامع وتلك المدارس التى كانت هذه
الألوف المؤلفة من المهاجرين قد أنزلت بها وعامت أى غناء تغنيه هذه المباني الخالدة وتأملت
فى فضل أولئك السلاطين الذين لولم يؤثروا فى الأرض الاهذه الآثار العظيمة وحدها لكفاهم
ذلك خيراً فى هذه الدنيا وأجراً فى الآخرة . فكيف وقد ضموا الى هذه الآثار الباهرة
تلك الفتوحات التى انصت الزمان بذكرها وارتعت لها الدول الاوربية بأجمعها وعاش الاسلام
زمناً مديداً آمناً فى ظلها فلا ينكر فضائل هذه الاسرة الا المكابر الجاحد الذى يحاول أن
يستر نور الشمس بيده ولكن التاريخ شاهد خالد أمين لا يكذب أهله .

التسامح والتعصب بين الاسلام وأوربة

على ذكر المؤلف بلوغ الترك أسوار فينا سنة ١٦٨٣

للمؤلف

مازلنا نؤكد أن الأوربيين في عهد الحروب الصليبية وفيما بعدها بقرون لم يكونوا أقل من الترك تعصباً ولا جفاء وأن تاريخهم في الحروب الصليبية وما جرى منهم عند فتح القدس من ذبح ٧٠ ألف مسلم في المسجد الأقصى حتى سبحت الخيل الى صدورهم في الدماء ومن استئصلهم شأفة المسلمين من الاندلس ، وصقلية وجنوبي فرنسا وسردانية ؛ مع أنهم كانوا يحصون في هذه البلدان بالملايين تاريخ شاهد بصحة ما نقول ، فقد عفى الأوربيون كل أثر للاسلام في أوربا ولم يرضوا أن يبقى فيها مسلم واحد ، حال كون الترك الذين يقال انهم برابرة بقي تحت ولايتهم ملايين من المسيحيين من جميع الأجناس كانوا يقصدون في أوقات عديدة أن يستاصلوهم أو ان يحملوهم على الجلاء ؛ كما فعل ملوك اسبانية وفرنسا بالعرب . وقد يقال ان الذي منع الترك عن حمل النصارى الذين كانوا تحت سلطانهم على الاسلام أو الجلاء هو الشرع المحمدي الذي يمنع الاكراه في الدين ويرضى من المعاهد بالجزية وقالوا ان السلطان سليمان القانوني كان فكر في سوء المغبة من بقاء الملايين من الأروام والبلغار والأرمن وغيرهم في الممالك العثمانية ، وأحب اخراجهم ، وقيل بل السلطان سليم ؛ وكان كل مرة يعترض في ذلك شيخ الاسلام ويقول : ليس لنا عليهم الا الجزية . والجواب قد يكون ذلك ويثبت ان الاسلام هو الذي هذب الأتراك وحال بينهم وبين طرد المسيحيين من ديارهم ؛ فلماذا ياليت شعري لم يهذب الانجيل الشريف أقوام أوربا ولم يمنع البابا اسكندر السادس وأساقفة الكنيسة في اسبانية ، والملك فرديناند ، والملكة ايزابلا ، وغيرهم من الملوك المشهورين بالكنائس من نصب ديوان التفتيش وارتكاب تلك الفظائع في العرب واليهود ممن بقى على ديانته سراً الى أن جاورهم باجمعهم عن ذلك القطر الذي اوطنه العرب

زهاء ٨٢٠ سنة ، مع أن الانجيل كما لا يخفى لا يميز شيئاً من هذه الأفعال بل يوصي الناس بحب الأعداء فكيف تتألف مع شريعة الانجيل التي هذا مبلغ وداعتها وتساعها قضية تحريق الناس بالنار لأجل عقائدهم

لا نريد أن نعزو الى هذا المؤلف التحامل أو التعصب فيما جعله نتيجة عمل الترك بل نشهد بكونه من أوفر المؤلفين الأوربيين انصافاً وتحريماً ، ولكن ثمة أمور لا يزال الأوربي مهما بلغ من انصافه وحرية فكره غافلاً عنها أو هو لما يعتقد من علو قومه وكونهم محبولين من طينة هي غير طينة الآخرين ، لا يقدر أن ينظر الى عيوب قومه وآثام بني جلدته بالعين التي يرى بها عورات غيرهم من الأقوم . فقد جرت لنا مباحثات طويلة مع كثير من علماء الافرنجة في موضوع التسامح وعدمه ، فكنا نراهم يعتقدون أنه لا يوجد في الدنيا أقل تسامحاً وسجاجة من أهل الشرق فاذا ذكرناهم بما فعلوه بعرب الاندلس قالوا : ذلك شيء آخر . والى الآن لا نفهم لماذا هو شيء آخر . وبعضهم يقول هذه حوادث جرت في القرون الوسطى . فاذا سألنا بكونها جرت في القرون الوسطى فماذا يقولون في الموبقات والفظائع التي جرت من الجنس الأبيض الاوربي في هذا العصر نفسه سواء في القرن التاسع عشر أو القرن العشرين مما فعلوه في مستعمراتهم بأفريقية الوسطى وشمال أفريقيا والكونغو والسودان المصري وبما فعلوه في الهند وغيرها من آسية ، بل بما وقع بمعرفة منهم في الروملى أثناء الحرب البلقانية بل بما أوقعه بعضهم ببعض في الحرب العامة هذا كله لم يقع في القرون الوسطى ، ولا في الجاهلية الاوربية ، بل جرى في عصر النور وبحبوحة الحضارة وعنجهية التهذيب الاوربي . نعم لا نفهم كيف اذا ذبح الترك الأرمن يكون ذلك توحشاً وبربرية وتمتلى الصحف بألفاظ القسوة والوحشية والهمجية ، وتقوم القيامة ، فاذا ذبح البلقانيون مسلمي الروملى واستباحوا حرمهم ، أو الأروام مسلمي غربي الاناضول ، لم نجد شيئاً من تلك القيامة ولا هاتيك النعرة وان عبر عنها بشيء قيل انها حوادث مؤسفة أو ماجريات لا تخلو منها حرب أو مقابلة بالمثل لاعتداءات سبقته ويحتهد كل الاجتهاد في تغطيتها وجر ذبول النسيان عليها . هذا الذي نعترض عليه وقلمنا نجد عليه جواباً سديداً ولكن ليس صاحب هذا الكتاب بالذي يعتمد تعمية الحقائق

الفرق بين الخليفة والملك

— * —

هدى الخلفاء الراشدين

— * —

سيره عمر بن الخطاب

على ذكر المؤلف الخلافة الراشدية والشورى الاسلامية

للمير شكيب

الخلافة في الاسلام ليست بملك ولا سلطنة ، وانما هي رعاية عامة للامة لاقامتها على الشرع الحنيف ، وردع القوى عن الضعيف في الداخل ، وصيانة الاسلام ودفع المعتدى عليه من الخارج . وهي لا تنعقد الا بإرادة الأمة . والسلطان الذي يؤتاه صاحب الخلافة هو من الأمة لا سلطان له عليها الا منها . وقد فهم لو ثروب ستودارد هذا الباب حق الفهم وعرف الخلافة التعريف الصحيح بخلاف كثير من الاوربيين الذين يتبجحون بزعمهم أن مبدأ كون السلطان القومي من الأمة انما هو من الأوضاع الغريبة الاوربية قاتلهم الله ما أجهلهم بتاريخ الشرائع ، وما أجراهم على الخلط . ومن أغرب الامور أن كثيراً من الشرقيين ومن المسلمين أنفسهم يتابعون الافرنج في هذا الوهم ولا يعلمون قاعدة الاسلام في هذا الموضوع . ولو تأملوا ما كان عليه الخلفاء الراشدون الأربعة ، وهو أشد صور الحكم الاسلامي انطباقاً على الشرع ، لراوه أمراً شعبياً محضاً وديموقراطياً بحتاً وأبعد شيء عن السلطان المطلق والقرآن صريح في قوله تعالى : « وشاورهم في الأمر » وقوله « وأمرهم شورى بينهم »

نعم ان الخلفاء الراشدين لم يقع انتخابهم الى أجل مسمى نظير رؤساء الجمهوريات ولم يكن العرب لذلك العهد بسذاجة البدواة يعرفون هذا الضرب من الحكم ولكنه لا جدال في أن الخليفة أو أمير المؤمنين لم يكن شخصاً مقدساً غير مسئول كما هو عند الاوربيين ولم تكن له مزية شخصية على سائر الامة وكان اذا أخطأ يقيد من نفسه . ولم يخطر ببال أحد من الخلفاء الراشدين أن يورث أولاده الخلافة بل كانوا يلقونها عن ظهورهم القاء من يريد الخلاص من تبعها فاذا كان الانسان يريد أن يعرف ثمار شجرة الاسلام فليتاأمل في سيرة الخلفاء الراشدين فانها المرآة الحقيقية لروح الاسلام . ويناسب أن نذكر هنا بعض الآثار الواردة فيما كان الخلفاء الراشدون يفهمون من هذا الامر . جاء في الطبقات الكبرى لمحمد ابن سعد قال : أخبرنا محمد بن عمر ، قال حدثني قيس بن الربيع ، عن عطاء بن السائب عن زاذان عن سامان أن عمر قال له : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : ان أنت جبيت من أرض المسامين درهما أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبر عمر . ثم قال أخبرنا محمد بن عمر ، قال حدثني عبد الله بن الحارث ، عن أبيه ، عن سفيان بن أبي العوجاء قال : قال عمر بن الخطاب : والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك ؟ فان كنت ملكا فهذا أمر عظيم ، قال قائل : يا أمير المؤمنين ان بينهما فرقاً ، قال ما هو : قال الخليفة لا يأخذ الا حقاً ولا يضعه الا في حق فأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا . فسكت عمر . ولما بويع أبو بكر قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فاني وليت هذا الأمر وأنا لله كاره والله لوددت أن بعضكم كفانيه ، ألا وانكم ان كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله ﷺ لم أقم به . كان رسول الله عبداً أكرمه الله بالوحي وعصمه به ألا وانما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فرأعوني فاذا رأيتموني استقمتم فاتبعوني وان رأيتموني زُغت فقوموني » وكان عمر فيما روى قد خطب الناس وقال لهم : « من رأى في اعوجاجاً فليقومه » فقام واحد ممن سمعوه من الجمع وقال له : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا . فقال عمر : « الحمد لله الذي جعل في هذه الامة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه » . ولما بويع أبو بكر كان منزله بالسُّنَج في ضواحي المدينة فأقام هناك بعد ما بويع له ستة أشهر أحياناً يغدو على رجله الى المدينة ويركب أحياناً

فرسأ له وبقى زمنا بعد الخلافة يغدو الى السوق فيبيع ويبتاع بنفسه وكان قبل الخلافة يحلب أغناماً لجيرانه فلما بويع له بها قالت جارية من الحى : الآن لا تحلب لنا منافع دارنا . فسمعها أبو بكر رضى الله عنه فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم وانى لأرجو أن لا يغورنى مادخلت فيه عن خلق كنت عليه ، فكان يحلب لهم فرمما قال للجارية : يا جارية أتحبين أن أرغى لك أو أصرح . فرمما قالت أرغى وربمما قالت صرّح . فأى ذلك قالت فعل . فكث كذلك بالسّخ ستة أشهر ثم نزل الى المدينة فأقام بها ونظر فى أمره فقال : لا والله ما يصلح أمر الناس التجارة وما يصلح لهم الى التفرغ والنظر فى شأنهم واستنشق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم وكان الذى فرضوا له كل سنة ستة آلاف درهم فلما حضرته الوفاة قال : ردّوا ما عندنا من مال المسلمين فأنى لأصيب من هذا المال شيئاً وان أرضى التى بمكان كذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم ، فدفع ذلك الى عمر ولقّوح وعبد صيقل وقطيفة فقال عمر لقد أتعب من بعده .

بمثل هذه العفة وبمثل هذه الطهارة وبمثل هذه البساطة فى المعيشة تولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه قيادة الأمة العربية لأول ظهورها بالاسلام وظهور الاسلام بها . وسار على أثره عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكان آية الله الكبرى فى العدل والزهد والاغلاظ فى الحق والشدة على الأقوياء والرافقة بالضعفاء وبأخلاقه هذه اتسق للاسلام ما اتسق من الفتوحات كما أنه بثبات أبى بكر عجزت الردة أن تجرى مجراها فى العرب . وكان عمر من سداجة العيش بالمقام الذى لا يصل اليه أحد . سئل عمر عما يستحله لنفسه من بيت مال المسلمين فقال : يحل لى حلتان حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ وما أحجّ عليه وأعتمر من الظهر وقوتى وقوت أهلى كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم . وقال عمر مرة : انى أنزلت نفسى من مال الله منزلة مال اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف .

وورد فى الآثار أن عمر مكث زماناً وهو فى الخلافة لا يأكل من المال شيئاً حتى دخلت عليه فى ذلك خصاصة وأرسل الى أصحاب رسول الله فاستشارهم فقال قد شغلت نفسى فى هذا الأمر فما يصلح لى منه فقال عثمان بن عفان : كل وأطعم . وقال مثل ذلك سعيد

ابن زيد . فقال عمر لعليّ : فما تقول أنت في ذلك . قال غداء وعشاء . فأخذ عمر بذلك . وجاء في طبقات ابن سعد أن عمر كان يقوت نفسه وأهله ويكتسى الحلة في الصيف ولربما خرق الأزار حتى يرقعه فما يبدل مكانه حتى يأتى الأبان وما من عام يكثر فيه المال الا كانت كسوته فيه أدنى منها في العام الذي قبله . فكلّمته في ذلك حفصة ابنته فقال لها : انما أكتسى من مال المسلمين . وقالوا ان عمر كان يستنق كل يوم له ولعيله درهمين فقط ، ثم ان عمر حج البيت فأنفق في حجته ستة عشر ديناراً فقال لابنه عبد الله : يا عبد الله ابن عمر أسرفنا في هذا المال ، وكان الدينار باثني عشر درهماً ، ومن الروايات عن زهد عمر أن أبا موسى الأشعري أهدى لعائلة عمر طنفسة نحو ذراع وشبر فدخل عمر الى البيت فقال : أئني لكم هذا فقالت امرأته : أهداها لنا أبو موسى الأشعري . فأخذها عمر فضرب بها رأسها ثم قال عليّ بآبي موسى الأشعري وأتعبوه . فأئني به قد أتعّب وهو يقول : لا تعجل عليّ يا أمير المؤمنين . فقال عمر : ما يحملك على أن تهدي للنساء . ثم أخذها عمر فضرب بها فوق رأسه فقال : خذها فلا حاجة لنا فيها

ومن أخبار عمر في زهده وتقصفه انه لما كان عام الرمادة ، وهو عام المجاعة ، ركب دابة فرائث شعيراً فراها عمر فقال : المسلمون يموتون هزلاً وهذه الدابة تأكل الشعير لا والله لا أركبها حتى يحجي الناس ، وتواترت الروايات على انه ما أكل سمناً ولا زيتاً ولا ذاق لحماً حتى انتهت المجاعة . وروى أنس بن مالك انه حرّم على نفسه السمن عام الرمادة وكان يأكل الزيت وانه تقرقر بطن عمر يوماً فنقر بطنه بأصبعه وقال : تقرقر انه ليس لك عندنا غير هذا حتى يحجي الناس . وكان في أثناء المجاعة يختلف الى بيوت الفقراء ويحمل لهم الطعام على ظهره ، وجاء حديث عن عياض بن خليفة قال : رأيت عمر عام الرمادة وهو أسود اللون ولقد كان أبيض فنقول ممّ ذا ؟ فقالوا انه كان يأكل السمن واللبن فلما أحل الناس حرّم ذلك على نفسه فأكل بالزيت وأجاع نفسه كثيراً فتغير لونه . وقالوا يومئذ انه لولم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت همماً بأمر المسلمين . ونظر عمر عام الرمادة الى بطيخة في يد بعض ولده فقال بخ بخ يا ابن أمير المؤمنين تأكل الفاكهة وامة محمد هزلي نخرج الصبي هارباً وبكى . فسأل عمر كيف حصل الولد على هذه البطيخة فعلم انه

اشتراها بكفّ من نوّى . وكان عمر يُطعم عام الرمادة (فى المدينة) بضعة آلاف كل يوم على سُفرتِهِ ، ويرسل القوت الى المحاوِيج الذين لا يقدرّون أن يأتوا اليه والى المرضى والصبيان ، وكان عدد هؤلاء نحواً من أربعين ألفاً .

وأخبارُهُ فى الزهد والتّشفّ كثيرة متواترة فمن شاء استقصاءها فعليه بكتب السير . وقيل انه دخل مرة على رجل فاستسقاها وهو عطشان فأناه بعسل فقال ماهذا فقال : عسل فأبى أن يشربه وقال لا يكون فيما أحاسب به يوم القيامة . وحدثت يسار بن بُمَيْر قال : ماتحت لعمر الدقيق قط الا وأنا له عاص ، وحدث السائب بن يزيد قال : رأيت على عمر ابن الخطاب ازاراً فى زمن الرمادة فيه ستّ عشرة رقعة . وقال أنس بن مالك : رأيت عمر ابن الخطاب وهو يومئذ أمير المؤمنين وقد رفع بين كتفيه برقاع ثلاث لبّد بعضها فوق بعض . وحدثت على بن زيد عن أبى عثمان النهدي قال : رأيت ازار عمر قد رقعته بقطعة من أدم . وأبطأ عمر جعة بالصلاة فخرج فلما ان صعد المنبر اعتذر الى الناس فقال انما حبسنى قميصى هذا لم يكن لى قميص غيره ، كان يخاطله قميص سُنبلانى لا يجاوز كُفّه رُشغ كفيه . وحدثت عامر بن عبيدة الباهلى قال : سألت أنساً عن الخزّ فقال : وددت ان الله لم يخلقه وما أحد من أصحاب النّبي ﷺ الا وقد لبسه ما خلا عمر وابن عمر . وحقيقة الحال ان مشرب عمر هذا فى التّشفّ والتّقدير على نفسه انما كان مشرباً خاصاً يحمله عليه شدة الورع وتصوره ، وهو أمير المؤمنين ، ان فى أمته أناسا كثيرين يعيشون فى شظف فكان يأبى أن يكون فى رعيته من يجوع وهو يشبع ومن يأتزر بالادم وهو يلبس الخز . والا فان عمر رضى الله عنه لم يكن يجهل ان الله تعالى قد أحل الطيبات من الرزق وانه لو حل نفسه على الرفاهية بدون اسراف لجاز له شرعاً .

وما ذكرنا هذه النّف من أخبار زهد عمر وشظف معيشته وخشونة مأكله وملبسه وتورعه الزائد فيما يستحقه من بيت مال المسلمين الا لنظهر ما بين الخلافة والملك من الفرق ونثبت ان الخلافة فى الاسلام انما هى رعاية لا بد منها لحفظ المجتمع وليس للرعى فيها أدنى مزية على الرعية فى شىء عائد الى شخصه . وقد كان الخلفاء الراشدون بما تلقوه من تربية النّبي ﷺ لهم يفهمون حق هذه الرعاية ويعلمون أنهم انما هم خدّمة للامة ومسؤولون

عن الدقيق والجليل من أمرها . وكان عمر يقول لومات جبل ضياعاً على شط الفرات
لخشيت أن يسألني الله عنه ، وكان يقول : «أيُّما عاملٍ لي ظلم أحداً فبلغتني مظلمته فلم أُغَيِّرْها
فأنا ظلمته» . وكان يقول : «الرعية مؤدية الى الامام ما أدَّى الامامُ الى الله فإذا رجع الامام
رتعوا» . وخرج عمر بن الخطاب الى مكة فما ضرب فسطاطاً حتى رجع لأنه كان يستظل
بالنطع . وقال عامر بن ربيعة : صحبت عمر بن الخطاب من المدينة الى مكة في الحج ثم رجعنا
فما ضرب فسطاطاً ولا كان له بناء يستظل به انما كان يلقي نطعاً أو كساءً على شجرة
فيستظل تحته ، وحدث الربيع بن زياد الحارثي قال : شكا عمر طعماً غليظاً أكله فقال
الربيع : يا أمير المؤمنين ان أحق الناس بطعام لين ، ومركب لين ، وملبس لين لأنت .
فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه وقال : أما والله ما أراك أردت بها الله وما أردت بها
الا مقاربتى هل تدري ماملى ومثل هؤلاء ؟ قال : وما مثلك ومثلهم . قال : «مثل قوم
سافروا فدفعوا نفقاتهم الى رجل منهم فقالوا له : أنفق علينا . فهل يحل له أن يستأثر منها
بشيء» قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : «فكذلك مثلى ومثلهم» . ثم قال عمر : «انى لم أستعمل
عليكم عمالى ليضربوا أبشاركم ، وليشتمو أعراضكم ، ويأخذوا أموالكم ، ولكنى
استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلاذن له عليه ، ليرفعها
الىّ حتى أقصّه منه» . فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين أرايت ان أدب أمير رجلاً من
رعيته انتقصه منه فقال عمر : ومالى لأقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقصّ من
من نفسه . وحدث الأحنف قال : كنا جلوساً بباب عمر فمرت جارية فقالوا سرّية أمير
المؤمنين فبلغ ذلك عمر فدعانا فأتيناه فقال : ماذا قلتم . قلنا لم نقل بأساً ، مرّت جارية
فقلنا هذه سرّية أمير المؤمنين فقال : ماهى لأمر المؤمنين بسرية وما تحلّ له انما من مال
الله . فقلنا فإذا يحلّ له من مال الله فقال : أنا أخبركم بما أستحل منه : يحلّ لى حلتان
حالة فى الشتاء وحالة فى القيظ وما أحج عليه وأعتمر من الظهر وقوتى وقوت أهلى كقوت
رجل من قريش ليس بأغناهم ولا أفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصينى ما أصابهم .
وكأمّ الناس حفصة أن تكلم أباهما بأن يلين من عيشه شيئاً فقالت : يا أمير المؤمنين ان
قومك كلونى أن تلين من عيشك فقال : غششت أباك ونصحت لقومك . وأبى عمر أن

يجعل الخلافة في ابنه وقال : ان أقواماً يأمروني أستخلف وإن الله لم يكن ليضيع دينه وخلافته والذي بعث به نبيه فإن عجل بي أمر فالخلافة شوري بين هؤلاء للرهب الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . وكان من جملة وصايه قبل وفاته : «أوصيكم بكتاب الله فإنكم لن تضلوا ما اتبعتموه ، وأوصيكم بالمهاجرين فإن الناس يكثرون ويقولون ، وأوصيكم بالأنصار فإنهم شعب الاسلام الذي لجأ اليه ، وأوصيكم بالأعراب فإنهم أصلكم ومادنتكم» . وقد جاء في هذا الحديث رواية أخرى وهي أصلكم ومادنتكم واخوانكم وعدوكم ، وأوصيكم بأهل الذمة فإنهم ذمة نبيكم وأرزاق عيالكم .

ولما طعن أبو لؤلؤة الفارسي عمر وهو يصلى قال : من قتلني فليل له غلام المغيرة ابن شعبة وكان نجاراً فقال عمر : قاتله الله ، والله لقد كنتُ أمرتُ به معروفاً ثم قال : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعى الى الاسلام . ثم قال لعبد الله بن عباس : لقد كنتُ أنت وأبوك تحبان أن تكثرا العلوج في المدينة . فقال له ابن عباس ما يفيد انهم ان شاء أخرجوهم من المدينة فقال له عمر : أبعد ما تكلموا بكلامكم وصلوا بصلاتكم ونسكوا نسككم . ولما أيقن بالموت قال لابنه : يا عبد الله بن عمر أنظركم على من الدين خسه فوجده ستة وثمانين ألف درهم فقال : يا عبد الله ان وفي لها مال آل عمر فأدّاه عني من أموالهم وان لم تف أموالهم فاسأل فيها بنى عدى بن كعب^(١) فان لم تف من أموالهم فاسأل فيها قريشاً ولا تعدهم الى غيرهم . وقالوا له حين حضره الموت : استخلف . فقال : لا أجد أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فايهم استخلف فهو الخليفة من بعدى فسمى عليا ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ، وسعداً . ووردت رواية أخرى في وصاته عند موته في معنى الرواية السالفة ولكنها تختلف ببعض ألفاظ قال عمر : أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله والمهاجرين الأولين أن يحفظ لهم حقهم ، وأن يعرف لهم حرمتهم وأوصيه بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم ردة الاسلام وغيظ العدو وجباة المال أن لا يؤخذ منهم الا فضلهم عن رضى منهم ، وأوصيه بالأنصار الذين تبوأوا الدار والايمان أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً فإنهم

(١) بنو عدى هم الفخذ الذين من قريش ينسب عمر بن الخطاب اليهم

أصل العرب ومادة الاسلام ، وأن يؤخذ من حوائش أموالهم فيرد على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم وأن لا يكلفوا الا طاقتهم ، وأن يقاتل من ورائهم ودعا الستة الذين جعل الأمر شورى بينهم فلم يكلم منهم الا عليا وعثمان فقال يا علي لعل هؤلاء القوم يعرفون لك قرابتك من النبي ﷺ وصهرك وما آتاك الله من الفقه والعلم ، فان وليت هذا الأمر فأتق الله فيه . ثم دعا عثمان فقال : يا عثمان لعل هؤلاء القوم يعرفون لك صهرك من رسول الله وسنك وشرفك فان وليت هذا الأمر فأتق الله ولا تحملن بني أبي معيط على رقاب الناس . ثم قال : ادعوا الى صهيبا فدُعي فقال : صل بالناس ثلاثاً وليدخل هؤلاء القوم في بيت فاذا اجتمعوا على رجل فمن خالفهم فاضربوا رأسه .

قلت فمن تأمل في قول عمر : وان يؤخذ من حوائش أموالهم فيرد على فقرائهم رأى فيه منزعاً اشتراكياً لا ريب فيه الا أنه منزع اشتراكي حكومي يصدق عليه ما يعبر عنه الافرنج اليوم بلفظة Étatisme ثم ان الدول الاوربية اليوم قد اضطرت كلها الى سلوك هذه السبيل وما هذه القوانين الاجتماعية التي يسمونها Lois sociales والتي معناها أن يؤخذ من الميزانية المالية العامة لاغائة المعوزين والمرضى منهم والباقيين بدون عمل Chomeurs أو Trbeitlos الامن هذا الضرب

ثم روى ان سعيد بن زيد قال لعمر : لو اشترت برجل من المسلمين اتتمنك الناس فقال عمر : قد رأيت من أصحابي حرصاً سيئاً واني جاعل هذا الأمر الى هؤلاء النفر الستة الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . ثم قال : لو أبركني أحد رجلين فجعلت هذا الأمر اليه لوئنت به سالم مولى أبي حذيفة ، وأبي عبيدة بن الجراح . وقيل انه قال : من أستخلف لو كان أبو عبيدة بن الجراح فقال له رجل : يا أمير المؤمنين فأين أنت من عبد الله بن عمر فقال : قاتلك الله والله ما أردت الله بهذا أستخلف رجلاً ليس يحسن يطلق امرأته ??

قلت : أما أبو عبيدة عامر بن الجراح فقد صح عن رسول الله ﷺ انه لما قدم عليه أهل اليمن وسأله أن يبعث معهم رجلاً يعلمهم السنة والاسلام أخذ بيد أبي عبيدة بن الجراح وقال : هذا أمين هذه الأمة . وعن أنس بن مالك ان النبي ﷺ قال : الا أن لكل

أمة أميناً وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وفي حديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح . وقيل إن عمر قال : جلسائه مرة : تمنوا . فتمنى كل واحد بما حضره فقال عمر : لكنني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح . وعن شهر بن حوشب أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح فاستخلفته فسألني عنه ربّي لقلت : سمعت نبيك يقول : هو أمين هذه الأمة . وعن ثابت بن حجاج أنه قال . لاستخلفته وما شاورت فإن سئلت قلت : استخلفت أمين الله وأمين رسوله . وجاء في الطبقات الكبرى لابن سعد : في ترجمة أبي عبيدة بن الجراح : إن عمر بن الخطاب أرسل اليه بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار : وقال للرسول : أنظر ما يصنع . قال فقسمها أبو عبيدة . قال ثم أرسل إلى معاذ بن جبل بمثلها وقال للرسول مثلاً قال فقسمها معاذ إلا شيئاً قالت امرأته نحتاج اليه . فلما أخبر الرسول عمر قال : الحمد لله الذي جعل في الاسلام من يصنع هذا .

وكانت وفاة أبي عبيدة رحمه الله في طاعون عمواس في خلافة عمر سنة ١٨ وكان أمير الجيش الذي فتح الشام ودفن في غور يسان المنسوب اليه ، وبلغ من برّه بأهله أنه قال : وددت اني كبش فذبحنى أهلى فأكلوا لحى وحسوا مرقى

وهو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر أوى من قريش ، ورؤى عنه رضى الله عنه أنه قال وهو أمير على الشام : يا أيها الناس انى امرؤ من قريش وما منكم من أحد أحر ولا اسود يفضلى بتقوى الا وددت انى فى مسلاخه (١) .

وأما سالم مولى أبي حذيفة فعلى احدى الروايات هو ابن عتبة بن ربيعة ، وعلى رواية أخرى سالم بن معقل من أهل اصطخر كان مولى ثُبَيْتَةَ بنت يعار الانصارية ، وهو يذكّر فى الانصار لعتق ثبّيتة اياه ، ويذكر فى المهاجرين لكونه مولى أبي حذيفة زوجها الذى تبدّاه وربّاه حتى صار يقال له سالم بن أبي حذيفة . وعن مالك بن الحارث كما ورد فى الطبقات ان زيد بن حارثة كان معروفاً بنسبه ، وأما سالم مولى أبي حذيفة فلم يكن يعرف نسبه ، فكان يقال سالم من الصالحين . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد آخى بينه وبين أبي

(١) يريد أن يكون فى جلده أى يريد أن يكون ذلك الرجل .

عبيدة بن الجراح

ومرادى بهذا الذى نقلته فى عرض البحث عن حقيقة الخلافة وفى عرض الكلام عن عمر بن الخطاب وعن أبى عبيدة وعن سالم مولى أبى حذيفة رضى الله عنهم انه ليس من أمة على وجه الارض بلغت بها الديموقراطية ما بلغته فى الاسلام، فأنت ترى ان الامام عمر الذى يقول الرسول فيه : « لو كان نبىً بعدى لكان عمر » قد رشح خلافته على المساميين مولى أصله اعجمى وقيل ان نسبه الاصلى غير معروف وهو سالم مولى أبى حذيفة . وأنت ترى ان أمين الامة أبا عبيدة بن الجراح يقول انه قرشى لكنه يتمنى أن يكون فى جلد زنجى اذا كان هذا يفضل فى التقوى . وقد جاء فى الأثر انه لما قدم المهاجرون الأولون من مكة الى المدينة نزلوا بالعصبة الى جنب قباء فأمرهم سالم مولى أبى حذيفة لأنه كان أكثرهم قرآنًا ، وكان بينهم يومئذ مثل عمر بن الخطاب وأبو سامة بن عبد الأسد . فقد ثبت من هنا انهم لم يكونوا يعملون الا بآية (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وان التقوى هى المزية الأولى فى الاسلام لا يعد لها حسب ولا نسب . ومن أقوال عمر المشهورة : والله لو جاءت الاعاجم بالاعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة فلا ينظر رجل الى القرابة وليعمل لما عند الله فمن قصر به عمله لا يسرع به نسبه

ولعمري ان الذين يجزمون بأن الخلافة لا بد أن تكون فى قریش ويذهبون الى أن كل خلافة ادعاها غير قرشى فهى غير صحيحة ، مهما كان من فضله ، وكفايته قد يجدون فى قول عمر (لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لوليته أو لاستخلفته) مالا ينطبق عليه جزمهم وما يجعلهم يتفكرون

ثم نعود الى حديث الشورى فنقول ان عمر أوصى عثمان بأنه ان ولى هذا الامر لا يحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس ، وأوصى علياً بأنه ان ولى هذا الامر لا يحمل بنى هاشم على رقاب الناس ثم قال للسته : قوموا فتنشاوروا فامروا أحدكم . قال عبد الله بن عمر : فقاموا يتشاورون ، فدعانى عثمان مرة أو مرتين ليدخلنى فى الامر ولا والله ما أحب انى كنت فيه علماً انه سيكون فى أمرهم ما قال أبى والله لقلماً رأيته يحرك شفثيه بنى الا كان

حقاً^(١) فلما أكثر عثمان على قتلى : ألا تعقلون أتؤمرون وأمير المؤمنين حي . فوالله لكأنما أيقظت عمر من مرقد . فقال عمر : امهلوا فان حدث بي حدث فليصل بكم صهيب ثلاث ليال ثم أجمعوا أمركم فن تأمر منكم على غير مشورة من المسلمين فاضربوا عنقه

ولما طعن أبو لؤلؤة عمر ثلاث طعنات وطعن من يليه قال عمر : أدركوا الكلب فقد قتلني . فادركوه فاتتحر أبو لؤلؤة بخنجره الذي طعن به الامام ثم أدرك عمر النزف فقال : قولوا لعبد الرحمن بن عوف ليصل بالناس . فاحتمل الناس عمر الى بيته وفيهم عبد الله بن عباس قال ابن عباس : فلم أزل عند عمر ولم يزل في غشية واحدة حتى أسفر الصبح فلما أسفر أفاق فنظر في وجوهنا فقال : أصلى الناس ؟ فقلت : نعم . فقال : لا اسلام لمن ترك الصلاة . ثم دعا بوضوء فتوضأ ثم صلى ثم قال : أخرج يا عبد الله بن عباس فسل من قتلني ؟ فخرجت حتى فتحت باب الدار فاذا الناس مجتمعون جاهلون بخبر عمر . فقلت : من طعن أمير المؤمنين ؟ فقالوا : طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة . فدخلت فاذا عمر يئد في النظر يستأني خبر ما بعثني اليه فقلت : أرسلني أمير المؤمنين لاسأل من قتله فكلمت الناس فرجموا انه طعنه عدو الله أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة ثم طعن معه رهطاً ثم قتل نفسه . فقال عمر : الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط ما كانت العرب لتقتلني

ويقال ان عمر لما طعنه أبو لؤلؤة أول طعنة ظن كلباً قد عقره ولم يعلم أن رجلاً طعنه الا عند الطعنة الثالثة . وكان أبو لؤلؤة من سبي نهاوند أي فارسياً وكان اذا جاء السبي الى المدينة نظر الى الصغار منهم وجعل يمسح رؤوسهم ويبكي ويقول : ان العرب أكلت كبدي . فظاهره أنه ما جله على قتل عمر الا حب الانتقام من العرب الذين كانوا هزموا العجم لا سيما في واقعة نهاوند وأزالوا ملك الأكاسرة وكان كل ذلك في زمان عمر . فهي احنة في صدر فارسي عن زوال ملك قومه وسبي من سبي منهم واستدلال العرب اياهم فتنشفي

(١) قلت ومما تحقق من كلامه رضي الله عنه ان أغارب عثمان رضي الله عنه عشوا في أيامه فكانت تلك الفتنة التي أدت الى قتله والى ما عقب ذلك من الفتن والمصائب التي وقعت بسير الاسلام الى الامام ، ولم تزل تفعل في هذه الأمة فعلها الى اليوم

منها بقتل أمير العرب الذين أذلوا قومه . وكان عمر لما دخل عليه أمراء العجم أسرى وفيهم الهرمزان قد قال لهم : الحمد لله الذى أعز الاسلام وخذلكم . فيظهر أنها بقيت هذه الكلمة تعمل في قلوبهم . وكان عمر لا يأذن لسبي قد احتلم في دخول المدينة حتى كتب اليه المغيرة ابن شعبة وهو على الكوفة يذكر له غلاما عنده صنعا ويستأذنه أن يدخله المدينة ويقول ان عنده أعمالا كثيرة فيها منافع للناس انه حداد نقاش نجار فأذن له عمر في ارساله الى المدينة وضرب عليه المغيرة مائة درهم كل شهر فجاء الى عمر يشكى اليه شدة الخراج فقال له عمر : ما ذا تحسن من العمل فذكر له الاعمال التى يحسن فقال له عمر : ما خراجك بكثير في كنه عمالك فانصرف ساخطاً يتذمر فلبث عمر ليالى ثم مر به العبد فدعاه فقال له ألم أحدث أنك تقول لو أشاء اصنعت رحى تطحن بالريح ؟ فالتفت العبد ساخطاً عابساً الى عمر ومع عمر رهط فقال : لاصنعن لك رحى يتحدث بها الناس . فلما ولى العبد أقبل عمر على الرهط الذين معه فقال لهم : أوعدنى العبد آتفا . فلبث ليالى ثم اشتمل أبو لؤلؤة على خنجر ذى رأسين نصابه في وسطه فكمن في زاوية من زوايا المسجد في غلس السحر فلم يزل هناك حتى خرج عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر فامادنا منه عمر وثب عليه فطعنه ثلاث طعنات احداهن تحت السرة خرقت الصفاق وهى التى قتلتة ثم انحاز أيضاً على أهل المسجد فطعن من يليه حتى طعن سوى عمر أحد عشر رجلاً ثم انتحرن بخنجره . وعن عمرو بن ميمون قال : شهدت عمر حين طعن ، أنه أبو لؤلؤة وهو يسوى الصفوف فطعنه وطعن اثني عشر معه هو ثالث عشر فأنا رأيت عمر باسطاً يده وهو يقول : أدركوا الكلب فقد قتلنى فاج الناس وأناه رجل من ورائه فأخذه ومات ستة أو سبعة ممن طعنهم فحمل عمر الى منزله فأناه الطبيب فسقاه نبذاً فخرج من احدى طعناته فسقاه لبناً فخرج فقال له الطبيب : أوص بما كنت موصياً فوالله ما أراك تسمى . وفي رواية أبى الحويرث أن أبا لؤلؤة عندما قال له عمر : لا تجعل لنا رحى ؟ أجابه : بل أجعل لك رحى يتحدث بها أهل الأمصار . ففزع عمر من كلمته وكان على بن أبى طالب معه فقال له عمر : ما تراه أراد ؟ فقال : أوعدك يا أمير المؤمنين . قال عمر : يكفيناه الله قد ظننت أنه يريد بكلمته غوراً .

وقالوا انه لما طعن عمر اجتمع اليه البديون المهاجرون والأنصار فقال لابن عباس :

اخرج اليهم فسلهم عن ملاء منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني . فخرج ابن عباس فسألهم فقال القوم : لا والله لوددنا أن الله زاد في عمرك من أعمارنا . ولما طعن عمر كان كلامه : وكان أمر الله قدراً مقدوراً وقال : ألم أقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج أحداً فغلبتموني . ولم يترك عمر صلاة الفجر بعد أن طعن وصلى وجرحه يشب دماً ، وقال عند ذلك : لاحظ في الاسلام لمن ترك الصلاة . ولما أيقن عمر بالموت وارتج البيت بكاء قال : والله لو أن لي ما على الأرض من شيء لافتديت به من هول المطلاع . فقال ابن عباس : والله اني لأرجو أن لا تراها الا مقدار ما قال الله « وان منكم الا واردها » ان كنت ما علمنا لأمير المؤمنين وأمين المؤمنين وسيد المؤمنين تقضى بكتاب الله وتقسم بالسوية فأعجبه قوله واستوى جالساً وقال : أتشهد لي بهذا يا ابن عباس ؟ قال نعم . وفي رواية أخرى أنه لما شرب عمر اللبن وخرج من جرحه بكى وأبكى من حوله فقال : هذا حين لو أن لي ما طلعت عليه الشمس لافتديت به من هول المطلاع . قالوا : وما أبكك الا هذا ؟ قال : ما أبكاني غيره فقال له ابن عباس : يا أمير المؤمنين والله ان كان اسلامك لنصراً وان كانت امامتك لفتحاً والله لقد ملأت امارتك الأرض عدلاً ما من اثنين يختصمان اليك الا اتبها الى قولك . فقال عمر : أجلسوني فلما جلس قال لابن عباس : أعد علي كلامك . فلما أعاد عليه قال : أتشهد لي بذلك عند الله يوم تلقاه ؟ قال ابن عباس : نعم ففرح عمر بذلك وأعجبه . وحق عمر أن يفرح بشهادة مثل عبد الله بن عباس

وروى عن عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قال حين طعن عمر : مررت على أبي لؤلؤة ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى فلما بغتتهم ثاروا فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه وسطه فانظروا ما الخنجر الذي قتل به عمر ؟ فوجدوه الخنجر الذي نعته عبد الرحمن بن أبي بكر فانطلق عبيد الله بن عمر حين سمع ذلك من عبد الرحمن ومعه السيف فأتى لهرمزان فقال له امض معي حتى ننظر الى فرس لي فلما مضى بين يديه علاه بالسيف قال عبيد الله بن عمر : فلما وجد حر السيف قال لا اله الا الله . وأما جفينة ، فكان من نصارى الحيرة وكان ظئراً لسعد بن أبي وقاص ، وكان يعلم الكتاب بالمدينة فجاء عبيد الله بن عمر وقتله أيضاً ، ولما علاه بالسيف صلب بين عينيه ثم انطلق فوجد ابنة صغيرة لأبي لؤلؤة تدعى

الاسلام فقتلها فاجتمع عليه المهاجرون والأنصار ونهوه وتوعده فازداد غضباً وعرض ببعض المهاجرين فلم يزل عمرو بن العاص به حتى أخذ منه السيف . ثم أقبل سعد بن أبي وقاص فقتلها هو وعبيد الله وتناسيا حتى حجزوا بينهما . ثم أقبل عثمان بن عفان قبل أن يبيع فتناصيا أيضاً فحجز الناس بينهما . وأظلمت الأرض على الناس ذلك اليوم . ثم يبيع عثمان بالخلافة فدعا المهاجرين والأنصار فقال : أشيروا عليّ في قتل هذا الرجل الذي فتق في الدين ما فتق . فاجتمع المهاجرون على كلمة واحدة يشايعون عثمان على قتله ، وجلّ الناس الأعظم مع عبيد الله يقولون عن الهرمزان وجفينة : أبعدهما الله ويقولون : أما كفى قتل عمر فتريدون أن تتبعوا عمر ابنه . فكثر في ذلك اللغط والاختلاف الى أن جاء عمرو ابن العاص الى عثمان فقال له : يا أمير المؤمنين ان هذا الأمر قد كان قبل أن يكون لك على الناس سلطان فأعرض عنهم فسمع عثمان كلامه ووُدّى الرجلان والجارية وأمسك عثمان عن قتل عبيد الله بن عمر وتفرق الناس وكان عثمان يقول لعبيد الله بن عمر وهو يناصيه : قاتلك الله قتلت رجلاً يصلى ^(١) وصبية صغيرة وآخر من ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما في الحق تركك ^(٢) . وقيل ان عثمان وسعداً كانا يومئذ أشد أصحاب رسول الله على عبيد الله بن عمر وما كفّ عثمان عن قتله الا بما قاله له عمرو بن العاص . وأما دفن عمر رضي الله عنه بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضي الله عنه فان عمر استأذن عائشة في ذلك فأذنت له ، ثم دعا ابنه عبد الله بن عمر فقال له : يا بُنَيَّ اني قد أرسلت الى عائشة أستأذنها أن أدفن مع أخوتي فأذنت لي وأنا أخشى أن يكون ذلك لمكان السلطان فاذا متّ فأغسلني وكفّفني ثم اجلني حتى تقف بي على باب عائشة . فتقول هذا عمر يستأذن الخ فان أذنت فادفني معهما والا فادفني بالبقيع . قال ابن عمر فلما مات أبي فحملناه حتى وقفنا به على باب عائشة فأذنت بدفنه بجانب رسول الله وبجانب أبيها وكان قد دفن أبو بكر على مساواة منكب رسول الله ﷺ فدفن عمر على مساواة حقويه . وكانت وفاة عمر عن ثلاث وستين سنة وقيل عن ٦٠ وقيل عن ٥٥ سنة

(١) يعني الهرمزان

(٢) يعني بالآخر جفينة النمراني

وقد طعنه أبو لؤلؤة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ وكانت مدة خلافته ١٠ سنوات وخمسة أشهر واحد عشر ليلة — وأبو الفداء يقول عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام — من متوفى أبي بكر رضى الله عنهما

تولى الأمر عشر سنوات فلاءً بها الأرض فتوحات ونصب للإسلام بضعة عشر ألف منبر، فباليث شعري ماذا كان تم للإسلام من الظهور لو عاش في الإمارة ٢٠ سنة أو ٣٠ سنة أو أكثر وقبل أن فاضت روح عمر بساعة قال لأبي طلحة الأنصاري : يا أبا طلحة كن في خسين من قومك من الأنصار مع هؤلاء النفر أصحاب الشورى فانهم فيما أحسب سيجمعون في بيت أحدهم فقم على ذلك الباب بأصحابك فلا تترك أحداً يدخل عليهم ولا تتركهم يمضى اليوم الثالث حتى يؤمروا أحدهم اللهم أنت خليفتي عليهم . فادفن عمر حتى عمل أبو طلحة بما أوصاه به الى أن بويع عثمان بن عفان . وغسل عمر ثلاثاً بالماء والسدر وكان أوصى بأن لا يغسلوه بمسك وصلى على عمر في مسجد الرسول بين القبر والمنبر ، وكان المصلى عليه صهيب ، قيل ان عمر أوصى بأن يصلى عليه صهيب فعملوا بوصيته . ولما صلى عليه جاء عبد الله بن سلام فقال : لئن سبقتموني بالصلاة عليه لا تسبقوني بالثناء عليه فقام عنا سريره وقال : نعم أخو الاسلام كنت يا عمر جواداً بالحق بخيلاً بالباطل ترضى حين الرضى وتغضب حين الغضب ، عفيف الطرف ، طيب الظرف ، لم تكن مدحاً ولا مقتاباً ، ثم جلس . وأورد محمد بن سعد في الطبقات حديثاً عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه ساقه من ثلاثة عشر طريقاً بأسانيد مختلفة مع اختلاف قليل في لفظ الحديث وهو : أتى عليّ وعمر مسجى فقال : ما على وجه الأرض رجل أحبّ الىّ من أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى . وقال عبد الرحمن بن غنم يوم مات عمر : اليوم أصبح الاسلام مولياً ما رجل بأرض فلاة يطلبه العدو فأتاه آت فقال له : خذ حذرَكَ بأشدّ فراراً من الاسلام اليوم . وعن زيد بن وهب : أتينا عبد الله بن مسعود فذكرنا عمر فبكى حتى ابتلّ الحصى من دموعه وقال : ان عمر كان حصناً حصيناً للإسلام يدخلون فيه ولا يخرجون منه فلما مات عمر ائتم الحصى فالتاس يخرجون من الاسلام . ومما قال ابن مسعود : لو أعلم عمر يجب مكلاً لأحييته والله انى أحسب العضاء قد وجّه فقد عمر . وبكى سعيد بن زيد يوم مات عمر

وقال : اليوم يهى أمر الاسلام . وفي رواية قال : على الاسلام أبكى ان موت عمر نل الاسلام ثلثة لا ترتق الى يوم القيامة . ولأبى عبيدة بن الجراح فى عمر بن الخطاب كلام قد صح كله قال : اذا مات عمر ررق الاسلام ما احب أن لى ما تطلع عليه الشمس أو تغرب وانى أبقى بعد عمر فقال قائل : ولم ؟ قال : سترون ما أقول ان بقيتم اما هو فانه ولى وال بعد عمر فاخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يطع له الناس بذلك ولم يحملوه وان ضعف عنهم قتالوه وعن الحسن بن على : أى أهل بيت لم يجدوا فقد عمر فهم أهل بيت سوء . وعن حذيفة : كان الاسلام فى زمن عمر كالرجل المقبل لا يزداد الا قريبا فلما قتل رجه الله كان كالرجل المدبر لا يزداد الا بعدا . وقال أنس بن مالك نقلا عن أبى طلحة وقد رأى أصحاب الشورى وما يصنعون : لأننا كنتم لأن تدافعوها أخوف منى أن تنافسوها فوالله ما من أهل بيت من المسلمين الا وقد دخل عليهم فى موت عمر نقص فى دينهم وفى دنياهم وقيل فى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذا الرثاء :

جزى الله خيرا من أمير وباركت يد الله فى ذاك الأديم الممزق
فمن يسع أو يركب جناحي نعمة ليذكر ما قدمت بالامس يسبق
قضيت أمورا ثم غادرت بعدها بوائق فى أكلها لم تفتق
ولم يعرف قائل هذه الايات . وقيل انها سمعت فى موسم الحج قبل وفاة عمر . وعلى كل حال فهى من الشعر الذى يصح أن يوصف بقوله :

وان أحسن بيت أنت قائله يت يقال اذا أنشدته صدقا

فانه قلما وجد امام أجدر بسلام الله من هذا الامام . وانه مهما جد الخلفاء والملوك العادلون فلم يدركوا شأوه . أما البوائق التى أشار اليها صاحب الايات الثلاثة فقد بدأ ظهورها فى زمن عثمان رضى الله عنه بسبب أقاربه بنى أبى معيط وتفتقت فى حرب الجبل وحرب صفين ، وغير ذلك من الفتن التى عقلت الاسلام عن التقدم فى الارض بعد أن كاد يغلب عليها .

وعمر بن الخطاب هو أول من سمي بامير المؤمنين ، وهو أول من كتب التاريخ فى شهر ربيع الاول سنة ست عشرة كتبه من هجرة النبى ﷺ من مكة الى المدينة وهو أول من جمع القرآن فى المصحف وهو أول من سن قيام شهر رمضان ، وجمع الناس على

ذلك وكتب الى الآفاق في شهر رمضان سنة أربع عشرة وجعل للناس بالمدينة قارئين قارئاً يصلي بالرجال وقارئاً يصلي بالنساء . وهو أول من ضرب في الخرم ثمانين جلدة واشتد على أهل الريب والنهم ، وأحرق بيت رويشيد الثقيف وكان حانوتاً ، وغرب ربيعة بن أمية بن خلف الى خيبر وكان صاحب شراب فلحق ربيعة بأرض الروم وارتد . وكان عمر أول من عس في عمله بالمدينة وكان له عصا اسمها الدرة يؤدب بها ولقد قيل بعده : لدره عمر أهيب من سيفكم . وهو أول من فتح الفتوح وهي الأرضون والكور التي فيها الخراج والني ففتح العرق كله السواد والجبال واذر ييجان وكور البصرة وأرضها وكور الأهواز وفارس وكور الشام ما خلا أجنادين فانها فتحت في خلافة أبي بكر الصديق ، وفتح عمر كور الجزيرة والموصل ومصر والاسكندرية وقتل رحمه الله وخيله على الرى بفارس وقد فتحوا عامتها . وهو أول من مسح السواد وأرض الجبل ووضع الخراج على الأرضين والجزية على جاجم أهل الذمة ، فوضع على الغني ٤٨ درهماً وعلى الوسط ٢٤ وعلى الفقير ١٢ درهماً وبلغ خراج السواد والجبل في عهده ١٢٠ مليوناً . وهو أول من مصر الأمصار الكوفة والبصرة والجزيرة والشام ومصر والموصل وأنزها العرب . وهو أول من استقصى القضاة في الأمصار وهو أول من دوت الديوان وكتب الناس على قبائلهم وفرض لهم الأعطية من الني وقسم القسوم في الناس وفرض لأهل بدر وفضلهم على غيرهم ، وفرض للمسلمين على أقدارهم وتقدمهم في الاسلام . وبدأ بالأقرب للأقرب لرسول الله ﷺ بنى هاشم ثم بنى تيم ثم بنى عدى . فجاء بنو عدى رهط عمر فقالوا أنت خليفة رسول الله ﷺ فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم قال : بخ بخ بنى عدى أردتم الأكل على ظهري لأن أذهب حسناتي لكم لا والله حتى تأتاكم الدعوة ولو أن تكتبوا آخر الناس والله ما أدركنا الفضل في الدنيا ولا ما نرجو من الآخرة الا بمحمد ﷺ فهو شرفنا وقومه أشرف العرب ثم الأقرب فالأقرب ، وكان القوم اذا استوا في القرابة برسول الله ﷺ قدم عمر أهل السابقة وكان أبو بكر قد سوى بين الناس في القسم فقبل لعمر في ذلك فقال لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ مكن قاتل معه . فبدأ بمن شهد بدرأ من المهاجرين والأنصار وفرض لمن كان له اسلام كاسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ، ومن شهد أحداً فرضاً واحداً وكان عمر أول من حمل الطعام في السفن من مصر الى الحجاز وكان يخاف على المسلمين

في بادئ الأمر من ركوب البحر فنهاهم عنه اشفاقا عليهم ولكنهم ركبوه فيما بعد عند اتساع الفتوحات وكان اذا بعث عاملا على مدينة كتب ماله واذا عزل عاملا قاسمه ماله وجعل ذلك القسم في بيت المال ومن هؤلاء الذين قاسمهم ما لهم سعد بن أبي وقاص وأبو هريرة. وكان يستعمل مثل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة ويدع من هو أفضل منهم مثل عثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف وذلك لاشراف عمر على أولئك وهيتهم له وقيل له : مالك لاتولى الأكابر من أصحاب رسول الله عليه السلام فقال : أكره أن ادنسهم بالعمل . واتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه يعين به المنقطع والضيف ينزل بعمر . ووضع في السبل بين مكة والمدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمل من ماء الى ماء . وزاد عمر في مسجد رسول الله ﷺ ووسعه لما كثرت الناس بالمدينة ووضع نصب عينه أن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان فأجلى اليهود منها الى الشام ، وأخرج نصارى نجران وأزلهم ناحية الكوفة وأعطاهم بدل أملاكهم في نجران . وخرج الى الشام سنة ست عشرة وقسم الغنائم للجالية وحضر فتح بيت المقدس ، وأبقى كل شيء هناك على حاله وأمتع المسيحيين واليهود بحريتهم الدينية ، وأبى أن يصلى في كنيسة القيامة عندما أدركته الصلاة مع أن البطريك دعاه لذلك بل خرج من الكنيسة وصلى في مكان آخر حتى لا يأتى المسلمون من بعده فيقولوا هنا صلى عمر فبأخذوا الكنيسة من أيدي النصارى . وحج عمر بالناس عشرين سنة . ولم يكن عمر يريد اشتغال المسلمين في الزراعة ولم يكن ذلك منه اهمالاً لهذه بل كان أول من يقدرها قدرها ولكنه لم يشأ أن يشغلهم في ذلك الوقت عن الفتوحات ، وكان يعلم أنهم لو اشتغلوا بالزراعة لأحبوا أراضيهم ففترت همهم وتخلفوا عن الجهاد وهو يعلم أنه اذا اتسعت الفتوح وضرب الاسلام بجمرانه في المشرق والمغرب أمكن المسلمين فيما بعد أن يتعاطوا الفلاحة ويحسنوها . وكان عمر يقول عن الامارة انها أمر لا يصلح الا بالشدّة التي لا تجبريّة فيها وباللين الذي لا وهن فيه . وكانت هبة عمر في صدور الناس فوق تصور العقل لما كانوا يعاصون من أنه لا يرعى في الحق خليلا . واجتمع مرة على ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وقالوا لعبد الرحمن بن عوف وكان أجراً الصحابة على عمر . يا عبد الرحمن لو كنت أمير المؤمنين فانه يأتى الرجل طالب الحاجة فتمنعه هيئته أن يكلمه في

حاجة حتى يرجع ولم يقض حاجته . فدخل عليه فكلمه فقال : يا أمير المؤمنين إن للناس فانه يقدم القادم فتمنعه هيبتك أن يكلمك في حاجته حتى يرجع ولم يكلمك قال : يا عبد الرحمن أنشدك الله أعلى وعثمان وطلحة والزبير وسعد أمروك بهذا قال اللهم نعم قال : يا عبد الرحمن والله لقد لنت لهم حتى خشيت الله في اللين ثم اشتددت عليهم حتى خشيت الله في الشدة . وكان رحمه الله من أشد خلق الله تواضعاً وأخشعهم لله قيل انه رقى المنبر ذات يوم فحمد الله ثم قال أيها الناس لقد رأيته ومالي من اكال يأكله الناس الا أن لي خالات من بنى مخزوم فكنت أستعذب لمن الماء فيقبضن لي القبضات من الزبيب . ثم نزل من على المنبر فقيل له ما أردت بهذا يا أمير المؤمنين فقال : اني وجدت بنفسى شيئا فأردت أن أطأطي منها . وكان مرة ماراً بضحيان فقال لأصحابه لا اله الا الله المعطى ماشاء من شاء كنت أرى ابل الخطاب في هذا الوادي في مدرعة صوف وكان فظاً يرعبنى اذا عملت ويضربنى اذا قصرت وقد أصبحت وليس بيني وبين الله أحد . وقال مرة أحب الناس الى من رفع الى عيوني . ورأى الهرمزان عمر نائماً في المسجد فقال هذا والله الملك الهني .

هذه نبذة من سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أكثرها متواتر أجمعت عليه الرواة وان وقع اختلاف في بعض الروايات من جهة اللفظ فلم يقع من جهة المعنى بحيث لا يخامر الانسان شك في أن سيرة عمر كانت هي هذه كما وصفها الناس بالتواتر خلفا عن سلف ، ولولم تكن هذه سيرته حقاً لما كانت هيبة الاسلام بلغت تلك الدرجة التي بلغت في أيامه ولولم يكن عمر ذلك الأمير العادل الذي لاتأخذه في الحق لومة لائم لما كان العدل العمري مثلاً سائراً بين الناس الى يوم الناس هذا . ولقد أردنا بنقل هذه الشواهد من سيرته رحمه الله تعريف حقيقة الخلافة في الاسلام واثبات أنها ليست في شيء من الملك العضوض الذي جد بعد الخلفاء الراشدين والذي عليه ملوك الأعاجم فسيرة عمر هي مثال بارز يأخذ منه القارئ صورة حقيقية عن كيفية الاسلام في زمان الخلفاء الراشدين وعن روح الامارة التي أمرهم بها الشارع ﷺ فكانوا كما تمشوا عليها أفلحوا وسادوا وكلما انحدروا عنها وهنوا وفشلوا (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

الفصل الاول من الكتاب

في اليقظة الاسلامية

فى القرن الثامن عشر كان العالم الاسلامى قد بلغ من التضعف أعظم مبلغ ، ومن التدنى والانحطاط أعمق دركة ، فارتد جوه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجا من أرجائه وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربى ، واستغرقت الأمم الاسلامية فى انبعاث الاهواء والشهوات ، وماتت الفضيلة فى الناس ، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الاسلامية الى مطايا استبداد وفوضى واغتياى ، فليس يرى فى العالم الاسلامى ذلك العهد سوى المستبدى العاشمى كسلطان تركية وأواخر ملوك المغول فى الهند ، يحكمون حكماً واهناً فاشى القوة متلاشى الصبغة ، وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التى هم فى حكمها وينشئون حكومات مستقلة ولكن مستبدة كحكومة الدولة التى خرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون اخضاع من فى حكمهم من الزعماء هنا وهناك ، فكثرت السلب والنهب ، وفقد الأمن ، وصارت السماء تمطر ظلاماً وجوراً ، وجاء فوق جمىع ذلك رجال الدين المستبدون يزدون الرعايا ارهاقاً فوق ارهاق ، فغلت الأيدى ، وقعد عن طلب الرزق ، وكاد العزم يتلاشى فى نفوس المسلمين ، وبارت التجارة بواراً شديداً ، وأهملت الزراعة بما اهمال .

وأما الدين فقد غشيتة غاشية سوداء ، فالبتت الوحداية التى علمها صاحب الرسالة الناس سجعاً من الخرافات وقشور الصوفية ، وخلت المساجد من أرباب الصلوات وكثر عديد الأدعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان الى مكان يحملون فى أعناقهم التائم والتعاويد والسبحات ، ويوممون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم فى الحج الى قبور الأولياء ، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن فصار يشرب الخمر والأفيون فى كل مكان ، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استهياء . ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرها

من سائر مدن الاسلام ؛ فصار الحج المقدس الذي فرضه النبي على من استطاعه ضرباً من المستهزآت ؛ وعلى الجلة فقد بدل المسلمون غير المسلمين وهبطوا مهبطاً بعيد القرار ؛ فلو عاد صاحب الرسالة الى الأرض في ذلك العصر ورأى ما كان يدهي الاسلام ؛ لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين ؛ كما يلعن المرتدون وعبداء الأوثان ^(١)

وفيما العالم الاسلامي مستغرق في هجعته ومدج في ظلمته ؛ اذا بصوت قد يدوى من قلب صحراء شبه الجزيرة ؛ مهد الاسلام ؛ يوقظ المؤمنين ويدعوهم الى اصلاح والرجوع الى سواء السبيل والصرط المستقيم ؛ فكان الصارخ هذا الصوت انما هو المصلح المشهور محمد بن عبد الوهاب الذي أشعل نار الوهاية فاشتعلت واتقدت ؛ واندلعت ألسنتها الى كل زاوية من زوايا العالم الاسلامي . ثم أخذ هذا الداعي يحض المسلمين على اصلاح النفوس واستعادة المجد الاسلامي القديم والعز التليد ؛ فتبدت تباشير صبح اصلاح ثم بدأت اليقظة الكبرى في عالم الاسلام .

ولد محمد بن عبد الوهاب في نجد الواقعة في قلب الصحراء العربية ؛ حوالي سنة ١٧٠٠ م وكانت نجد في ذلك العصر ، على انحطاط العالم الاسلامي وتدليه ؛ أنقى البلدان اسلاماً وأطهر الأقطار ديناً . وقد عرفنا فيما أسلفنا من الكلام كيف كانت تنتقل الخلافة من دور الشورى الى دور الاستبداد الشرقي وكيف أخذ على أثر ذلك العرب الأحرار أباة الضيم يعودون أدراجهم الى الصحراء حيث امتنعوا بحريتهم في حرز بلادهم وموطنهم ؛ وصدوا عنهم كل حامل عليهم . فلا خليفة ولا سلطان غرر بنفسه يوماً لاختراق تلك الصحارى الرملية المحرقة والتوغل في فيافيها المهلكة حيث الموت الكريه كامن على الدوام لكل طامع غريب دخيل . فالعرب هناك لم يعرفوا قط حاكماً عليهم ؛ بل دأبهم دوماً الحل والترحال وارتياك المنتجعات في مختلف الواحات في قلب الصحراء . وفي هذا الحصن المنيع

(١) لو أن غيلسوناً قهرساً من فلاسفة الاسلام ، أو مؤرخاً عبثياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية ، أراد تشخيص حالته في هذه القرون الأخيرة ما أمكنه أن يصيب الخبز وأن يطبق الفصل تطبق هذا الكاتب الأميركي ستودارد . (ش)

استطاع العرب منذ القديم الاحتفاظ بفضائلهم الدينية لا تشوبها شائبة ؛ ورابطتهم السياسية لا تنفخ في بياضها ريح . أما البدو الرحل فالزعامة فيهم لشيخوهم الذين يتولون القيام على أحكامهم وتدير شؤونهم . وأما الحضرة في الواحات فالزعامة فيهم على الغالب لشيخ الأسر العليا منزلةً ومكانةً ؛ بيد أن مبلغ ما في أيدي هؤلاء الشيوخ من السلطة المطاعة حق الطاعة إنما هي سلطة صورية واهنة ؛ لا تقوى على الدوام على الوقوف في وجه تيار العادات القومية والعرف . وجل ما استطاع الترك اخضاعه من بلاد العرب هو أنهم بسطوا شيئاً من سلطانهم على الأماكن المقدسة الحجازية وساحل البحر الأحمر . أما نجد ؛ البلاد الداخلية ؛ فقد ظلت حرة مستقلة . وما برح عرب الصحراء فيها يغالون في الاحتفاظ بما يتحدر اليهم من آباءهم وأجدادهم من فضائل الدين ووحدة السياسة وعروة الجماعة ؛ فلذلك ما انفكوا قط ينعمون على العالم الاسلامي سقوطه فيما نهت الرسالة عنه وهم يزيدون استمساكاً بالاسلام على أصله وجوهره ولبابه ؛ وذلك حقاً مما يلائم طبائعهم ويتفق مع أمزجتهم .

هكذا كانت حالة نجد لما ولد فيها ابن عبد الوهاب . واذ كان منذ أول شأنه شديد الميل الى الاطلاع والتفقه في الدين ، لسرعان ما اشتهر ذكره وذاع اسمه ، فعرف بعلم وافر قواماً على التقوى . فحج الى مكة في أوائل عمره وطلب العلم في المدينة المنورة ، وساح الى كثير من البلاد المجاورة حتى فارس ثم عاد الى نجد مشتتلاً غضباً دينياً لما رآه بأمر عينه من سوء حالة الاسلام ، فصحت عزيمته على القيام بدعوة الإصلاح . ففضى سنين عديدة راحلاً من بلاد الى بلاد في شبه الجزيرة ، فبشر بالدعوة ، موقظاً النفوس ، حتى استطاع بعد جهاد طويل أن يجعل محمداً بن السعود ، وهو أكبر أمراء نجد وأعلى زعمائها كعباً وشأناً يقبل الدعوة ويدخل فيها ، فاكسب ابن عبد الوهاب بذلك مكانة أدبية عالية ومنزلة اجتماعية رفيعة وقوة حربية لا يستهان بها ، فاستفاد من ذلك استفادة جليلة قد مكنته من بلوغ غايته وادراك غرضه . فتكونت على التوالي وحدة دينية سياسية في جميع الصحراء العربية شبيهة بتلك الوحدة التي أنشأها صاحب الرسالة ، وفي الواقع فإن المنهج الذي نهجه ابن عبد الوهاب ليشبه شياً كبيراً ذاك الذي نهجه الخلفاء الراشدون كأبي بكر وعمر . ولما مات سنة ١٧٨٧ خلفه ابن السعود فكان خير خليفة للمصلح الاسلامي الكبير ، واقتفى الوهابيون آثار خلافة الراشدين ، وعلى ما كان في يد ابن السعود من القوى الحربية

العظفمة ، فان ذلك ما كان لفسرفه عن أن فكون على الدوام نازلا على رأى الجماعة وشوراها ، فلم فمتفن حرفة أئباعه وبنى قومه ، وكانت حكومته على عنفها مكفنة عاالة فانقطع التعدى وأمن الناس السرقاا وانشر الأمن وساءا الطمانفنة والراحة . وعكف على العلم والتهذفب ، فكان فى كل واحة مدرسة ، وفى كل قففلة بءوفة عااا من المعامفن

و بعد أن أخضع ابن السعود نجداً ، وتم له الأمر فى كاملها : أخذ فساعا لفقوم بعمل أكبر ألا وهو اخضاع فففع العالم الاسلامف . ونشر الاصلاح فىه . فجعل نصب عفنه فى المقام الأول فحرفر الأماكن المقدسة الحجازفة . ففكرّ على الحجاز فى صاا القرن اناسع عشر بمقاتلته الشفجعان المشفعلفن ففرة « ففنفة » . وكان له ما أراد من الاسفلاء على الأماكن المقدسة ؛ فلم فساع قوة الوقوف فى وجة الوهاففن وهم فحملون على الترك ، والترك فى نظرهم أهل الارفنااا والجهواا ؛ ومفقصبو اخلافة اغفصابا ؛ وحقها أن فكون أبداً فى العرب . و ففنا كان ابن السعود سنة ١٨١٤ فعا العاا لففنا سورفة وهمفه ففنفة ؛ كان فففل الى العالم منه أن الوهاففن فاففومون على الشرق فاففاً ؛ وصانعون ما شاء الله من الاصلاح فى الاسلام

ففر أن ذلك ما فقاا لفقون . فلما أفقن سلطان تركفة أنه لا فساففع الفضاا على الوهاففن اسفصرخ بطلا من مشاهفر الأبطال ، وهو فمعا على ، واسفكفاا أمر الفضاا عفلفم وكان هذا المقام الاالبانى سفا مصر وأمفرها ، وواقفا حق الوقوف على فقرة أوربة وشاا باسها وففوقها ، ففاا فلف ضباطا من أهل الغرب فنظموا له ففشا قوفا ، وافر بوه فافرفباً على الطراز الغربف ، وجهزوه بمعااا الاسلحة الغربفة . وكان غالب هذا الففش مؤلفاً من المقاتلة الألبانفن الاشاء ، فسرعان ما أجاا فمعا على فاءا السلطان فأفقن فففنا أن الوهاففن على شاة ففرتهم الففنفة وفسااا لن فساففعوا باا الوقوف فى وجة البنااا والمفااا الأوروففة فطلق عفارها ففنا ففربون . وما هى الا ماة فففة ففى اسفرااا الأماكن المقدسة الحجازفة ، وراا الوهاففن على اعقابهم فانقلبوا الى الصحراء ، فاخفناا الامبراطورفة الوهاففة الولفاة للعاا اخففاء السراب ، وأرفى السفاا على اااا السفااا

(١) الوهابي.

بيد أن خاتمة هذا الدور السياسي كانت فاتحة الدور الديني ، فقد ظلت نجد يؤرة تشتعل فيها نار الغيرة الدينية ، ومنبثق نور تنبعث منه الاشعة الوهاجة الى كل ناحية من نواحي الأرض ، وما فتى الوهابيون منذ قضى على قوتهم السياسية يشنون روح الحركة الدينية في مئات الألوف من الحجاج الوافدين كل عام الى مكة والمدينة من كل قطر من أقطار العالم الاسلامي ، فيقتبس هؤلاء ناراً وهاية ثم يعودون الى أوطانهم يشعلون بها ما استطاعوا اشعاله في سبيل الاصلاح . وهكذا قد استطاع الوهابيون أن يبنروا بذوراً تلاها الاختار الشديد للثورة الدينية في كل فج اسلامي ، حتى بلغت دعوتهم الدينية أقصى المعمور فقام في شمالي الهند الزعيم الوهابي المغالي السيد احمد (٢) مستنفرأ مسلمي بنجاب وأنشأ دولة وهاية . فكان هذا الزعيم يعد عدته لفتح سائر شمالي الهند فحالت منيته بينه وبين ذلك ، واضمحلت الدولة الوهاية الهندية سنة ١٨٣٠ غير أنه لما جاء الانكليز يفتحون البلاد عانوا الأمرين من بقايا النار الوهاية الكامنة في الرماد ، وظلت هذه النار محبوة الى ما شاء الله فكانت عاملا من عوامل « الثورة الهندية » ، ثم استطار من شررها ما تناول أفغانستان وسائر القبائل الهندية عند الحدود الشمالية الغربية فأشعلها أيما اشعال . وفي تلك الغضون قام السيد محمد بن السنوسي في الجزائر وأتى مكة ورضع أفريق الوهاية فيها ، ثم أخذ يجاهد في سبيل انشاء الطريقة الدينية المعروفة باسمه تمهيداً للجامعة الاسلامية . وفي ذلك الأوان أيضا نشأت الدعوة البابية (البهائية) في بلاد فارس ، وهذه الدعوة وإن كانت بتعاليمها بعيدة عن تعاليم الوهاية ، غير أنها بلا مشاحة حاملة روحاً كروح الوهاية كمأنها منعكس لها . وخلال جيل تلا اتسعت الدعوة الوهاية بأفققها ومضطربها اتساعا كبيرا ، وتطورت تطورا عظيما حتى صارت تعرف باليقظة الاسلامية ، ثم اتسعت دعوة اليقظة الاسلامية بأفققها أيضا حتى تعددت متجهاها ومناحيها ، وأهم هذه المتجهات انما هي الدعوة الكبرى

(١) اقرأ ما يأتي في الدعوة الوهاية وحركتها :

الاسلام بالقرن التاسع عشر A Le Chatelier, l'Islam au XIXe siècle (Paris 1888)

معتقد الوهاية A. Chodzko "Le d'ésisme des Wahabis" Journal Asiatique

(٢) هو غير « السر السيد احمد » من عليكرة المسلم الهندي الحر المعدود من رجال منتصف القرن التاسع عشر

المعروفة بالجامعة الاسلامية . وانا سنفرد قسماً مخصوصاً في غير موضع من هذا الكتاب للكلام على هذه الدعوة الكبرى نبين فيه سيرها وخطورتها السياسية ، مكتفين الآن بالكلام على سائر وجهات اليقظة الاسلامية ومبلغ مكاتبتها الدينية والتهديبية ^(١)

فالدعوة الوهاية انما هي دعوة اصلاحية خالصة بحتة. غرضها اصلاح الخرق ، ونسخ الشبهات ، وابطال الأوهام ، ونقض التفاسير المختلفة والتعليق المتضاربة التي وضعها أربابها في عصور الاسلام الوسطى ، ودحض البدع وعبدادة الأولياء ، وعلى الجملة هي الرجوع الى الاسلام والأخذ به على أوله وأصله ، ولبابه وجوهره، أى انما الاستمسك بالوحدانية التي أوحى الله بها الى صاحب الرسالة ، صافية ساذجة ، والاهتداء بالاثام بالقرآن المنزل مجرداً وأما ماسوى ذلك فباطل وليس في شئ من الاسلام . ويقتضى ذلك الاعتصام كل الاعتصام بأركان الدين وفروضه وقواعد الآداب ، كالصلاة والصوم وغير ذلك ، والكون على الساذجة التامة في أحوال المعيشة ، وتحريم اتخاذ الملابس الحريرية ، والتأثق في الأطعمة ، وشرب الخمر والقهوة ، والأفيون والتبغ ، وغير ذلك مما بعضه من أسباب السرف وبعضه الآخر من المضار المفسدة لسلامة العقل ، وليس هذا جميع ما في الأمر ، بل عد الوهايون المباني الدينية المزخرقة من نواهي الاسلام . فهدموا قبة قبر الرسول في المدينة المنورة ، وخرّبوا ما آذن المساجد ، فهم على ايغالهم في الاعتصام بالفروض الدينية وقواعد الآداب ، كانوا على ضعف شديد في المدارك وبعد في التعصب . فلذلك كان من حسن حظ الاسلام أنهم باءوا بخسران سلطتهم السياسية ، فقصرّوا مساعيهم ودعوتهم على التعاليم الدينية الأدبية فحسب

وقام على أثر ذلك عدد من النقدة، اتخذوا الوهاية دليلاً لكلامهم وقالوا انما الاسلام بجوهره وطبائعه غير قابل للتكيف على حسب مقتضيات العصور وعماشة أحوال الترقى والتبدل ، وليس الفأ لتطورات الأزمنة وتغيرات الأيام ، بيد أن نقدهم هذا لفساد باطل ولا

(١) لا ينكر أن الوهاية هي نهضة في الاسلام عظيمة ممتدة في أكثر بلاد العرب وفي الهند والفاثون بها أولو تعصب شديد ، وربما أفرطوا في مبادئهم وغلوا في عقائدهم شأن جميع المذاهب التي لا يقف أتباعها عند الحد الذي وضعه أصحابها . ولكن المقرر أنها حركة اناية الى العقيدة الحق وهدى السلف الصالح واقتضاء أثر الرسول (ص) والصحابة ، ونبد الخرافات والبدع ، وحظر الاستغاثة بغير الله ، ومنع التمسح بالقبور والتصد عند مقامات الأولياء ، ولذلك يسمونها عقيدة السلف ، ويقلب الوهايون أنفسهم سلفين ، وأكثر اعتمادهم في الاجتهاد على الامام احمد بن حنبل ، والامام ابن تيمية ، وتلميذه ابن قيم الجوزية . (ش)

مسوغ له . اذ قد فاتهم أن الدور الأول لكل إصلاح ديني إنما هو الرجوع الى حالة أصل ذلك الدين المراد اصلاحه ، والاستمسك به على حاله الأولى استمسكاً لا يحتمل نقد نافذ ولا اتهام متهم . فالمصلح الديني لا يرى سبيلاً للقيام بالاصلاح وبلوغ الغاية ، الا بنسخ جميع البع والأوهام اللاصقة بالدين ، دون اعتبار صفاتها وماهيتها . ليعتبرن العاقل اللبيب أنه لما بدأ الاصلاح البروتستنتي عندنا إنما كان مبدؤه على هذه الطريقة ، فقد نبذ المتعصبة المتشددة من البروتستنت المعروفين « بالتطهرين » المصلح الكبير « أراسيموس »^(١) واتهموه بالباطل ، وشددوا عليه النكير ، متعامين قائلين ان الحركة الاصلاحية إنما هي افتراء على الدين الصحيح ، ولا شأن لها سوى ابدالها « البابا » المعصوم بالتوراة المعصومة وأخذت اليقظة الاسلامية تنتشر انتشاراً مزدهراً ومبادئ التجدد والاصلاح الحقيقي تنمو نمواً مطرداً . وكان مما لاشك فيه وأمره طبعي أن عادت الحرية العقلية الى الظهور شيئاً فشيئاً ، فلم يجهد المصلحون المسلمون في أوائل القرن التاسع عشر كثيراً حتى أدركوا المعتزلة ، فاستكشفوا دفائنهم ونفخوا فيها نسمة روحية فصارت الى الحياة . وقد سبق لنا فأتينا على وصف النزاع الذي قام مستنداً بين أرباب مذهب النقل والسنة والتقليد من جانب وأرباب مذهب العقل أعني المعتزلة من جانب آخر في أوائل عهد الاسلام ، فكانت الغلبة لاتباع المذهب الأول ، فاخفت المعتزلة واحت آثارها احماء حتى عادت فظهرت اليوم الى الوجود بظهور المصلحين الأحرار ، الذين ما فتئوا يؤيدون مذاهبهم وآراءهم الاصلاحية يبراهين أولئك الجهابذة السابقين من المعتزلة ، وبأحاديث وآيات من الكتاب . فمن ذلك استشهادهم على قبول الاصلاح في الاسلام بما هو مأثور عن صاحب الرسالة من قوله : « إنما أنا بشر ، اذا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشئ من رأيي فأنما أنا بشر » . رواه مسلم بهذا اللفظ عن رافع بن خديج . وقوله أيضاً « انكم في زمان من ترك فيه عشر مأمور به هلك ، ثم يأتي زمان من عمل منهم عشر مأمور به نجا » رواه الترمذي عن أبي هريرة . وروى أحمد في مسنده عن أبي ذر مرفوعاً : « انكم في زمان علمائوه

(١) هو سيدريوس اراسيموس (١٤٦٧ - ١٥٣٦ م) أحد الأبطال الثلاثة في الاصلاح الانكليزي على عهد آل تودور . وزميله يوحنا كوكف (١٤٦٦ - ١٥١٩ م) وتوما مور (١٤٧٨ - ١٥٣٦ م) - (المغرب)

كثير وخطباؤه قليل من ترك فيه عشر ما يعلم هوى - أو قال هلك - وسيأتى على الناس زمان يقل علماؤه ويكثر خطباؤه ، من تمسك فيه بعشر ما يعلم نجا ^(١) »

وقبل أن نشرع في الكلام على آراء هؤلاء المصلحين المسلمين وما قاموا به من الأعمال في سبيل الإصلاح ، يجدر بنا أن نبحت بحث المحص الخبير في نقود النقدة الغربيين ، القائلين ان الاسلام بطبائعه غير قابل للإصلاح ، وبماهيته غير مستعد لايلاف روح العصور المتقدمة بترقي الحضارة والعلوم ، اذ لم ينفرد الجدليون النصارى ^(٢) وحدهم في هذه النقود وما يدور حولها أخذاً ورداً بل شاركهم في ذلك غيرهم في أبناء الفرنجة كأتباع مذهب العقلية وفيهم « رينان » الفرنسي ^(٣) ونفر من أعظم الرجال الذين تقلدوا مناصب الأحكام العالية في العالم الاسلامي نظير اللورد كرومر ^(٤) واضرا به . أما هذا الأخير فقد أوجز رأيه بقوله : « الاسلام غير قابل للإصلاح ، أعنى ان الاسلام بمجدها مصلحا انما هو غيره حاضراً بل هو شئ آخر »

وعلى هذا فيجب علينا أن تدبر حق التدبر أقوال هؤلاء النقدة لوقوفهم أكثر من غيرهم على شؤون الاسلام ، ولأن منهم من عرف المسلمين في ديارهم عهداً طويلاً . على أنه بعد اقامة الوزن لهذا كله لا يتردد الباحث المقارن في تاريخ الأديان ، ولا سيما في آراء المصلحين المسلمين الخدثاء ، وما استطاعوا القيام به من الإصلاح من القرن الماضي ، أن يدحض جميع هذه التهمات ادحاضاً ، ويحجبه أربابها بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة جبهة يجب ألا يغربن عن البال أن الاسلام في يومه هذا انما يحتاز دوراً كذلك الدور الذي قد اجتازته النصرانية في أوائل عهد الإصلاح في القرن الخامس عشر . فالدوران حقاً

(١) قلنا هذه الاحاديث بنصها الحرفي كما أرشدنا اليها حضرة الاستاذ العلامة السيد محمد رشيد رضا

(٢) اقرأ كتب القس المرسل س . م . زويمر Rev. S. M. Zwemer الآتية : —

« بلاد العرب أو مهد الاسلام » Arabia, The Cadle of Islam (Edinbourg' 1900)

« مفندات الاسلام » Reproach of Islam. (London 1915) و « العالم الاسلامي اليوم »

The Mohemmedan World of To-day وهي مجموعة محاضرات وخطب تليت في مجمع المرسلين

البرتسنته المعقود في القاهرة سنة ١٩٠٦

(٣) كتاب « الاسلام والعلم » Renan, l'Islamisme et La Science (Paris 1883)

(٤) كتاب « مصر الحديثة » Cromer, Modern Egypt. Vol 2 (London 1908)

متشابهان من حيث سيادة عقيدة النقل والتقاليد على عقيدة العقل سيادة مطلقة ، ومن حيث العداء المنتشر للحرية الفكرية والعلوم الطبيعية الصحيحة ، لا ينكر أن الواقف على كتب الشريعة الاسلامية والتاريخ الاسلامى للألف الأخير ، يبدو له على الجملة أن الاسلام لم يتفق كل الاتفاق مع الحضارة الحديثة ، والتقدم العصرى ، ولكن نقول أفلم تكن النصرانية على مثل هذه الحالة عينها فى صدر القرن الخامس عشر ؟ فن يقارن بين الشريعتين الاسلامية والنصرانية من جميع وجوههما ، ير أن روح الأولى اليوم : وروح الأخرى بالأمس ، إنما هي روح واحدة . فلننظر فى شئ من هذا ، وهو تحريم الربا فى الشريعة الاسلامية تحريماً لو أيسح لكان من شأنه القضاء على التجارة والصناعة باعتبار معنيهما اليوم . وقد كان من أمر غالب هؤلاء النقدة أن يذكروا غير مرة تحريم الربا هذا دليلاً على جود فى الاسلام جودا يمسك به عن مجازاة الحضارة العصرية بيد أنه يجب ألا يند عن البال أن الشريعة النصرانية قد حرمت الربا أيضاً تحريماً لا يوصف ، وقد كانت متشددة فى ذلك ما استطاعت ، فكانت نتيجة الأمر أن اليهود انبروا للبدان وظلوا قروناً عديدة محتازين التجارة الأروبية وجناة ثمراتها ، لا يشاركون فى ذلك مشارك ولا يزاحمون مزاحم . وحدث أن « اللبردين » أقدموا حيناً على التدين بعض التدين ، فعدوا هراطقة النصرانى وكفرتهم ، واتهموا بارتكاب النواهي ، واضطهدوا واضطهاد . ولننظر فى شئ آخر يزداد الأمر تحقّقاً وانجلاء . يقول متعصب النقدة أن الاسلام يحافى الحرية الفكرية ، وينكر استكناه الحقائق العامة الطبيعية فلعمرو الحق لو شاء الاسلام أن يحتج على النصرانية ويرد اليها افتراءها ، لكان لديه حجة أدمغ وبرهان أقطع مما هو مدون فى صحف التاريخ النصرانى ان « غاليلو » المشهور قد جلد وعذب ، وأذيق الهول أشكالا ، منذ أقل من ثلثائة سنة ^(١) بحضرة المجلس « البابوى » ، ليرتد عن تعطيله وهرطقته التى جاهر بها يومئذ ان الأرض تدور حول الشمس ؟

أيليق بنا بعد جميع هذا أن نتعاضد عما قاله محمد فى شأن العلم ؟ وأن ننكر تكريمه له كل التكريم ، وهذه كلماته البليغة مازالت شاهداً على ذلك خالداً ، وهالك بعضها : —
 « اطلبوا العلم ولو فى الصين فان طلب العلم فريضة على كل مسلم » . رواه العقيلي فى

« الضعفاء » ، وابن عدى فى « الكامل » والبيهقى وابن عبد البر عن أنس رضى الله عنه
« اطلب العلم من المهد الى اللحد (١) » .

« لأن تغدو فتعلم باباً من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة (٢) » .

« يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء (٣) » .

« العلماء ورثة الأنبياء (٤) » .

« أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ، ثم قال عزّ

وجلّ : وعزّى وجلالى ما خلقت خلقاً أكرم علىّ منك ، بك آخذ ، وبك أعطى ، وبك
أثيب وبك أعاقب (٥) » .

فهذه الأحاديث وكثير غيرها إنما هى برهان على ن الأحرار من المصلحين المسلمين
يؤيدون اصلاحهم الحرّ بالنصوص الدينية المأشوية لكلّ عصر ، والصالحة لمقتضيات كل دور
ولست أعنى بهذا أن دور هذا الاصلاح فى عالم الاسلام ، بحق كونه دوراً اصلاحياً حرّاً ،
سائراً سير التقدم والترقى ، فهو لا محالة مدرك غاية الظفر وبالغ محجة النجاح التام . فالتاريخ
انما يحوى بين دفتيه كثيراً من أخبار الأمم التى فشلت بعد جهد وحبطت عقب نصب . وقد
علمنا فيما تقدم من الكلام كيف نشأت المعتزلة الحرة فى أوائل الاسلام ، وكيف ذوت فجفت
فذهبت ريحها . بيد أن الحقيقة الكبرى التى ينبثنا بها التاريخ ، وليس باستطاعة أحد
انكارها ، أنه متى ما حان ميقات اليقظة الحقيقية فى أمة ، وأنشأت العصبية الجنسية تدبّ فى
عروق أبناء تلك الأمة ديباً مستمرا ، أصلح الدين لا محالة ، ونفض عنه غبار التقليد
اللصوق به ، وحرّر من عهد رسفانه ، وجل مجلاً يلائم روح اليقظة ، وأخذ به أخذاً متفقاً
مع متجه النهضة . فهل من أمة من أمم الأرض يقظت يوماً هذه اليقظة فهبت فسارت فى
سبيل العلى ثابتة الخطى رابطة الجأش ، فكان الدين حجر عثرة أو علة فشل لها ؟ اللهم لا .
قد تبلغ تلك الأمة فترة تقف فيها مذلة صعباً من الصعاب ، أو حالة اربة من الارب ، أو

(١) أفادنا الاستاذ السيد رشيد رضا أنه لم يره حديثاً نبوياً

(٢) رواه ابن عبد البر عن حديث أنس ، وفى بعض ألفاظه « مائتا ركعة » ورواه آخرون بألفاظ أخرى

(٣) رواه ابن عبد البر عن الشيرازى عن أبى الدرداء رضى الله عنه

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم عن أبى الدرداء .

(٥) وفى رواية « ما خلقت شيئاً أحسن منك » .

مزيعة عقبة قائمة في السبيل . ثم ما تزال مستحثة ركابها ومعملة المهاميز في مطيها ، حتى تبلغ الغاية وتقطف ثمرة الجهاد يانعة . وعلى ذلك فليعلم أنه ليس من الممكن بعد أن العالم الاسلامي يوفى عزمه فيتقاعس عن السير الدراك ما دامت روحه نائرة وعزمه متقدأ ، وهو فوق ذلك كله يزداد مساساً مع الحضارة الغربية ، واقبالاً عليها وأخذاً عنها . ان العالم الاسلامي لن يستطيع بعد اليوم البقاء على عزله كما كان فيما مضى ، حتى ولو شاء هذا ، اذ جميع ما فيه اليوم انما يبرهن على انقلاب شديد وانفعال عميق وتطور من حال الى حال . يقول النقدة مثل اللورد كرمز ان الاسلام منقحاً ليس الاسلام حاضراً ، بل شيئاً آخر ، أليس هذا ترى العجب كل العجب ؟ فلماذا لا يظل الاسلام اسلاماً ؟ اذا شاء المسلمون أن يظاولوا الى ما شاء الله مسلمين ، وأن يظل دينهم دينهم ، وأن يستنبطوا أبداً بروح الرسالة المحمدية ، أنكرنا عليهم اسمهم كأنه شيء لا يجب أن لا يكون ؟ هذه النصرانية الحديثة تختلف اختلافاً بعيداً عما كانت عليه في الأجيال الوسطى ، وأكثرها اليوم يبان أ كثرها بالأس ، وهناك تناف واسع الشقة وتباين شديد بين بعض الكنائس والبعض الآخر ، ناهيك بهما من تناف وتباين بعيدى المضطرب والغور ، وعلى هذا كله لجميع الطوائف النصرانية ما برحت تدعى نصرانية ، فبالله علام هذا التعامى في حق الاسلام ؟

وقد حان لنا الآن بعد الذي تقدم أن نبسط الكلام على قادة الاصلاح من المسلمين ، مدققين النظر في ذلك بتجرد عن الهوى بحيث يجب أن تكون أحكامنا مبنية على ما قاله هؤلاء المصلحون القادة من الأقوال وما قاموا به من الأعمال ، وليس على ما هو مدون عنهم في بطون الكتب والتواريخ التي ذهب واصفوها فيها مذهب الغرض ، فقد قال أحد المصلحين المسلمين وهو جزائري ^(١) قولاً سيديداً : — « لا تقاس حضارة أمة بما في كتبها الدينية من السطور والعبارات ، بل بما تقوم به تلك الأمة من الأعمال . »

أنشأ المسلمون الأحرار المتأخرون مذهبهم الحر على الأسس التي وضعتها المعتزلة منذ ما يقرب من ألف سنة خلت . ومن تدبر تاريخ الاسلام حق التدبر ، أيقن كل الايقان أن الاسلام لم يخل يوماً في جميع ماضيه حتى في أشد عصوره حلكاً من بعض المصلحين الأحرار ذوى العقول النيرة والمدارك الثاقبة والهمم الصادقة ، الذين انما كانوا يتوالون الحقة بعد

الحقبة ، فيصرخون في المسامين صرخات الاصلاح الشديدة ، ويرفعون علما من أعلام الهدى والارشاد ، واليك مثالا من هذا ، فقد كتب الغرائي المشهور ، وهو من رجال القرن السادس عشر : « ليس بعزير على الله عز وجل أن يكشف لعباده المخلصين في المستقبل ما لم يكشف مثله لغيرهم فيما مضى من العصور ، وان ينزل من نعمه الروحانية على مستحقيها من الحكماء في كل دور ، النعم التي تفيض نورا على أبصارهم وبصائرهم فتهدبهم سواء السبيل »

فهذه الصرخات التي توالى والمصاييح التي أوقدت في فترات مختلفة طيلة جميع الأجيال التي كرت على الاسلام من بعد انحداره عن الأوج ، قد كان من شأنها أن تمهد السبيل بعض التمهيد للمصلحين المتأخرين ، اذ لم ينتصف القرن التاسع عشر ، حتى كان قد قام في كل بلد من بلدان المسلمين في الرقعة الاسلامية عدد من رواد الاصلاح ودعائه ينهبون ويوقظون ، ويحضون ويستحثون ، بيد أن هؤلاء كانوا نزرأ في بدء عهد الاصلاح الحديث فلاقوا في سبيل ذلك مثل ما لاقى غيرهم من الذين ساروا سيرهم ، اذ هب رجال الدين ^(١) وسواد السذج يرمون المصلحين بالمروق من الاسلام ، فكان من طبيعة الأمر ظهور النزاع والمشادة بين المسلمين في سبيل الاصلاح . وقد كانت الهند أول رقعة اسلامية رفعت فيها أعلام الاصلاح ، فقام فيها عصابة من المصلحين ، ذوو عزم شديد وعلى رأسهم « السر » السيد أحمد خان ، وانبروا يجاهدون في سبيل الدعوة الكبرى للاصلاح الحر ، فألفوا الجمعيات ونشروا الكتب والصحف ، وأنشأوا الكلية العلمية الاسلامية في عليكرة وأما « السر » السيد احمد خان فهو خير مثال من المصلحين الأحرار المتأخرين ، وكان مذهبه مذهب المحافظين المتمسكين بفضائل الدين ، فبكى حالة الاسلام ، وأعظم شقاء المسلمين

(١) كره صاحب الرسالة أن يعين وظائف دينية يتولى القيام بها رجال مخصوصون ، فالاسلام من حيث الأصل لم تنص كتبه الشرعية من من المسلمين يتولى القيام بالوظيفة الدينية ، علي حد ما هو الأمر في النصرانية واليهودية والبرهمية وغيرها . فأني مسلم كان يستطيع أن يقوم في المصلين اماماً ، بيد أنه على توالى الأيام نشأت طائفة من القوم العارفين بالأصول الشرعية والفقه الاسلامي ودرجت تتولى المناصب الدينية حتى عرفت بالتالى رجال الدين ، ثم نشأت طوائف أخرى كطائفة « الدراويش » وأمثالها . على أن الاسلام لم يكن يعرف شيئاً من هذا في أول عهده .

متقدماً غيرة وهائية . وكان يعتبر قدر الحضارة الغربية ، ويحضر أبناء قومه على ورود
منهها ، وأخذ الصالح منها ، فقد كتب سنة ١٨٩٧ فى هذا الشأن يقول : « يجب علينا أن
ندرس الكتب العلمية الغربية ، وان كان مؤلفوها ليسوا بمسلمين ، وكان فيها ما يخالف
القرآن الكريم ، وأن نأخذ اخذاً العرب فى أوائل عهد ملكهم ، فانهم لما شرعوا ينشئون
حضارتهم الكبرى لم يترددوا ألبتة فى دراسة كتب فيثاغورس وكتب غيره من فلاسفة
اليونان » .

ثم أخذت دعوة الإصلاح الحر تنمو نمواً سريعاً فى الهند وتزداد قوةً ورسوخاً ،
وقام فيها من القادة المشهورين عدد كبير أعزوا شأنها أعزاً كبيراً مثل مولوى شيراز على
والسيد أمير على العبقرين اللذين اشتهرا فى العالم كله بما أخرجاه للناس من الكتب
القيمة الباحثة فى شئون الاسلام وروحه ، وقد كتبها هذه الكتب ^(١) باللغة الانكليزية
الفصحى فذاغت ذيوها قل أن يعرف له مثيل ، وهذان البطلان وغيرها أمثالهما فى الهند
لقبوا نفوسهم « بالمعتزلة الجديدة » ، وشرعوا يجاهدون جهاد المصلحين العظماء فى سبيل
الإصلاح ذائدين عن حياضه ومؤيديه بكل حجة دامغة وبرهان قاطع ، ومنادين بوجوب
استقصاء الشريعة الاسلامية واستدراخ خيرها واستثمار الأوفق منها لمقتضيات العصر ، لأن لا
سبيل لتجدد الاسلام التجدد الصحيح الباقي غير هذا السبيل ، وقد كتب أحد هؤلاء
القادة العظام وهو السيد « خدا بخش » فى بعض كتبه يقول : « ما كان النبي ﷺ يبغي
شيئاً بغضه للشرائع والقوانين الجامدة التى تقيد العقل فتقوده صاغراً أعمى . ليس القرآن
الكريم الا كتاب هدى للمؤمنين . وليس عثرة فى سبيل ترقى المجتمع والآداب والشرائع
والقوانين والمدارك العقلية » . ثم جاء على كلام نعى فيه حالة الاسلام منه : « لعمرى ان هذا
الاسلام اليوم ليس هو الاسلام الذى أتى به صاحب الرسالة ، بل ان الاسلام الذى جاء به
النبي لبرى من هذه السلاسل المؤلفة من حلقات الوظائف والمناصب الدينية ^(٢) ، وعار عن

(١) لعل خير ما كتب السيد أمير على كتابه « روح الاسلام » (لندن ١٨٩١)

The spirit of Islam » (London 1891)

(٢) كنت مرة فى المدينة المنورة فشاهدت فيها شيخ الحرم النبوى (وكان يومئذ يور بك مدير
المذاهب فى الاستانة سابقاً) وبعض خدمة الحرم فى ساعة مخصوصة بعد العصر ، يدخلون الحجرة العريضة

هذا النعصب القاتل والجهل الشديد ، والأوهام والأباطيل الكفرية . ثم أنهى كلامه قائلاً : « هل الاسلام عدو للترقى والتقدم ترى ؟ انى لأعوذ بالله من قاتل نعم ؛ فتى وضع الاسلام فى البوقفة وأخرج منه ما علق به من جميع هذه الأباطيل الخداعة ، كان ذلك الدين الساذج الحلو المساغ . فالاسلام على أصله ووصفه انما هو ركنان لاثالث لهما : توحيد الله تعالى ، والايمان بأن محمداً هو رسول الله ، وما عدا ذلك فليس من الاسلام »

وفى ذلك العهد كانت دعوة الإصلاح الحرة قد طفقت تنشر فى كل من الأقطار الاسلامية ، فهب المصلحون الأحرار فى كل بلاد يبشرون بالدعوة ويجهادون فى سبيلها بجد قوى وعزم أكيد فقد ظهر الأحرار فى تركية وكانوا القابضين على أزمة الدولة خلال غالب المدة بين حرب القريم والعهد الجيدى ^(١) ، ومديرى شؤون المملكة وساسة أمورها . وقام فى أحرار اترك عظماء مثل الوزيرين رشيد باشا ^(٢) ومدحت باشا ، المجاهدين الكبارين فى سبيل تحرير الدولة العثمانية من ربة ذلها ، وقائديها نحو التجدد والترقى . وظل الدعاة الأحرار فى تركية يغالبون الأهوال مغالبة ويعانون من الاستبداد الجيدى مالم يعان مثله غيرهم ، فقتلوا تفتيلاً ، وأهبطوا جوف الأرض وقاع البوسفور ، ونفوا وعذبوا حتى كانت

لايقاد الشموع والقيام ببعض الخدمات المرسومة ، وقبل دخولهم يلبسون جيمهم وشاحاً أبيض شفافاً ، وكأهم يريدون بذلك زيادة التعظيم والتوقير ، فذكرنى ذلك بالأوشحة التى هى من النوع نفسه يلبسها بعض رجال الأديان الأخرى التى فيها ما ليس فى الاسلام من الرتب الدينية والدرجات السكسية ، وذلك عند ما يدخلون الى معابدهم ، وم لا يلامون على ذلك لأن لخدمة الدين طبقة مخصوصة عندهم بخلاف الاسلام ، وصادف أن كان هناك السيد أبو بكر خان من عطاء الهند أحد أعضاء مجلس الهند الأعلى وهو ليس بمن يحسن التركية ولا العربية ولا يعرف من اللسن الاسلامية الا الفارسية ، وجميع تحصيله كان فى انكلتره ، ولكنه كان يفهم روح الاسلام جيداً . فجاء وكاشفى بما وقع فى نفسه من انكار هذه العادة . ولكن : « لتبين سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاختلموه » حديث شريف .

(١) ١٨٥٦ الى ١٨٧٨

(٢) مصطفى رشيد باشا أعظم رجال الدولة العثمانية فى القرن الماضى ، تولى الصدارة فى زمان السلطان محمود الى زمان السلطان عبد المجيد ، ونجح له تلامذة فى السياسة لم تعرف الدولة أمثالهم منهم أمين على باشا المشهور ، وندة فؤاد باشا الذى ليس بأقل شهرة منه ، ومنهم مدحت باشا أبو القانون الاساسى وألحكم الشورى الذى يقال له عند الأتراك « مفروطيت » (ش)

ثورة سنة ١٩٠٨ فذهبت عاصفتها بصرح الاستبداد وقوضت أركانه تفويضاً ، فبرزت « تركية الفتاة » الى الوجود . وفي مصر كان لواء الاصلاح خفاقا يحمله أبطال عظماء مثل الشيخ محمد عبده ، مصلح جامعة الأزهر ، وصديق اللورد كرومر الجيم . وفي سائر بلاد المسلمين كبلاد التتر الروسية ، كانت دعوة الاصلاح تنتشر فيها انتشاراً سريعاً ، فكثير عديد الأحرار ورواد الاصلاح ودعاة التجدد (١)

على أن هؤلاء المصلحين الأحرار الذين أتينا على ذكرهم انما هم على مذهب الاعتقاد بوجوب تنشئة الاصلاح في المسلمين تنشئة متدرجة مماشية لمقتضى العصر ، وبأن الاسلام لقابل أحسن قبول لكل تحول وتطور ، ومستعد بطبائعه لا يلاف تبدلات العصور والأدوار ، والتكيف على حسب ترقى الحضارات . فهم من هذا النحو محافظون كل المحافظين ، مستمسكون جهدهم واستطاعتهم بالاسلام الصحيح ، وهو عندهم من المجتمع روحه وغذاؤه ومن العمران مادته الحيوية ومنهله العذب

وهناك فريق آخر من المسلمين الذين بلغت منهم مؤثرات الحضارة الغربية مبلغاً عظيماً ، ووغل فيهم تيارها موغلاً كبيراً ، فأقبلوا على كل شيء غربي أغنا كان أم سميناً ، وولوا ظهورهم جميع ماضيهم بحيث صاروا لا يحفلون بمفخرة من مفاخر تاريخهم ولا يبالون بذكري من ذكريات سالف أيامهم ، ففي كل من البلاد الاسلامية المتقدمة ، ولا سيما في البلاد التي ما زالت منذ عهد طويل في حكم الغرب كالأند ومصر والجزائر ، عدد من أبناء المسلمين الذين طلبوا العلوم في الغرب ونشأوا نشأة الغربيين أخلاقاً وتهذيباً ، فباتوا لا يكتثرون لشأن من شؤون الدين الذي ولدوا فيه ، ولا يهابون المصارحة بالتعطيل والاحاد ، فتلاشت في نفوسهم حرارة الاسلام وذهبت منهم عصبية الايمان ، وقد وصف اسماعيل حامد الجزائري حال مثل هؤلاء من أبناء قومه بقوله : « كان للاحاد الغربي مبلغ كبير من التأثير في جمهور ليس بالقليل من مسلمي الجزائر الذين وان كانوا ما برحوا مسلمين في الظاهر ، فهم يحفلون حد ما وصلت اليه روحهم الدينية من التلاشي . ان هؤلاء لا ينكرون الاسلام دينهم

(١) للاطلاع على حركة الاحرار في بلاد التتر الروسية اقرأ كتاب أرمنيوس فباري « التهذيب الغربي

Arminius Vambery. « Western Culture in Eastern Lands » (London 1950)

في الأقطار المشرقية »

ومعتقدهم ، غير أنهم قد أضحوا من فتور الغيرة الدينية في نفوسهم بحيث غدوا لا يبالون ألبتة بنشره في الناس وبال دعوة اليه في غير المسلمين . فالاسلام عندهم انما مقصور على من يأتي من بعدهم من الأولاد والاحفاد فحسب ، وليس يتناول أحداً سواهم من الخلق أجعين فالخلق أن الاسلام لبراء مما هم فاعلون ، وليس ذلك هو الحرية الفكرية على ما يزعمون ، بل انما هو الفتور فالتلاشي (١) »

وانه لمن الغرابة بمكان أن نرى فريقاً آخر من المسلمين يختلفون عن الفريق الذي تقدم ذكره اختلافاً بعيداً وفي ذلك من التناقض والتباين ما يقضى بالعجب الشديد ، فان أتباع هذا الفريق الآخر هم من الناشئة الاسلامية ، متشبعون آراء الغلو الغربي كالاحاد والاشتراكية والبلفشية وغيرها . وغلوهم هذا لا يقل عن مبلغ ما هم عليه من التعصب الديني الكثير ، وهم يسعون جهدهم لعقد عروة اتحاد بينهم وبين فريق الرجعيين ، حتى اذا ما عقدت هذه العروة ، وكانت محكمة موثقة ، وتألفت منها تلك القوة الكبرى ، كانت نتيجةها الهاب صدور المسلمين كرهاً ومقتاً للغرب . ولما كان هؤلاء الغلاة يعدون نفوسهم في كل بلادهم فيها ، انهم انما قادة سواد الأمة بحق ، لذلك تراهم أبدأً نهماً أشد النهم في الظهور الى عالم السياسة والقيام على شؤونها كما يتسنى لهم بلوغ الغرض من ذلك سيطرة الغرب المنتشرة في الشرق الاسلامي دكاً . فهم والحالة هذه من غلاة الوطنيين لا يألون في السعى وراء تحقيق غايتهم ، ولا سيما بأشد الوسائل الرجعية في سبيل الجامعة الاسلامية ، وقد رأينا غير مرة كيف يجد هذا الفريق الملحد في استئثار الروح الاسلامية وهياج النعرة القومية ، فقد كتب السيد بنحس يصف رجلاً من هذا الفريق بقوله : « انى أعرف سيداً مساماً ، يعرف من أين تؤكل الكتف ، موفق الحال كبير النجاح ، انما في يديه أداة يستعين بها على عمله ، ولولاها لما حاز شيئاً مما هو حائز عليه من هذا التوفيق والنجح ، وما تلك الاداة الا الدين . فهو يبالغ في الظهور في بني قومه مظهر المسلم المتمسك بشعائر الاسلام المتشدد فيها ، وكثيراً ما يقوم في الجوع خطيباً مرشداً حاضاً مستثيراً ، غير أنه على ما أعتقد في نفسى ليشتمل في

(١) كتاب اسماعيل حامد « المسلمون الفرنسيون في شمال افريقية »

نفسه على آراء في الاسلام وصاحب الرسالة مما ينبوعن سماع مثله سمع (قواتير) ولم ينطق بمثله لسان (غبن) »

واننا سنسهب الكلام فى فصلى « الجامعة المصرىة » و « العصبىة الجنسىة » من هذا الكتاب على بىان أعمال هذا الفريق ، بىدان ما ىجب الاشارة الىه فى هذا الموضع اشارة مخصوصة ، انما هو التباىن فى المنهج والوسائل لتحقیق الاصلاح العام فى العالم الاسلامى ، بىن هذا الفريق ، و بىن المصلحىن المخلصىن الصادقىن الذىن أتىنا على ذكرهم من قبل ، ناهىك به من تباىن ضار ىفسد الاصلاح . فغلاة الوطنىىن ، والضرر الذى ىنتاب الاصلاح انما ناشئ من جانبهم ، دأبهم استئارة الروح الدينىة فى قلوب سواد الأمة ، وحل هذا السواد على مقت كل شئ غربى ىرونه فى بلادهم ، وعداء الغرب فى كل أمر سوى ما ىؤول الى ترقية القوى العسكرىة الاسلامىة ، وفى هذه القطعة المقتطفة من مقال لأحد عظماء رجال « تركىة الفتاة »^(١) ىخاطب اوروبة ، مثال بىن على هذا : —

« أجل ، الدين الاسلامى لم ىبرح ولن ىبرح على عداء حضارتكم وتقدمكم . فاعلموا ىا جهابذة الغرب أن النصرانى ، سواء أرفىعاً كان أم وضيعاً دنىئاً ، فانه بمجرد كونه نصرانىاً ، لىس له عندنا منزلة ولو حقرت مهما حقرت من منازل الانسانىة . وهذه مقاتنا لكم سهلة واضحه : ان من ضل سبىله فانكر وحدانىة الله الواحد الأحد ، واتخذله من دون الله أرباباً ، فقد ضرب بالبله والخبال ، فان رما صلته كان ذلك منا احتقاراً لديننا وانكاراً لبارئ الكائنات : وعلى ذلك فالمتخذ الهاً غير الله والجاحد الوحدانىة ، لمستحق للعنة الأبدىة . ولىس ذلك جىع الأمر بل ان أقدس عمل ىقوم به المؤمن هو قتاله لهذا المنكر الجاحد ، حتى ىحمله على الدخول فى الاسلام ، أو ىستأصل شأفته من على وجه الأرض . هذا ما ىأمرنا به الهنا الواحد الذى لا اله الا هو . نحن لا نعرف فى هذا العالم سوى المؤمن أو الكفار ، أما نحن المؤمنىن ، فتصل صلات المحبة والاحسان والاخوة بعضنا بىعض ، وأما أنتم الكفار ، فانتا لكم ماقتون ومبغضون ومقاتلون . وشرکم انما الذى ىقول بوجود الله من حیث ىعتقد بولادته من البشر ، فما أشد هذا الضلال ، وما أبعد شقة الخلف بىننا و بىنكم ! ان وجود مثل هؤلاء الكفار منكم بىن ظهرانىنا لآفة فى كىانتنا ولا غرابة فعتقدكم انما هو

(١) كتبه الشىخ عبد الحق فى جرىة شرف باشا « مشروطىة » آب سنة ١٩٢١

غض من دين التوحيد ، ومعاشرتكم ليست مما تتطهر به ومعاملتكم عذاب لنفوسنا .
«وعلى هذا كله ، فالتنا ننبذكم نبذاً من حيث ندرس أنظمتكم السياسية والعسكرية ،
فكأنكم والحالة هذه تدفعون إلينا أسلحتكم لتقاتلكم بها فنشتد قوة بازائكم ونعظم
شوكة ، فوق ما تجود به علينا العناية الأزلية من العون عليكم فى عصر أشعلتم فيه نار
غيرتنا الدينية وهجتم فينا ذكرى شهدائنا وأبطالنا المسلمين الذين استشهدوا فى سبيل الدين
فنحن جميعاً على اختلاف مذاهبنا ومناهجنا متحدون على مقتكم وكرهكم ؟ وبعد هذا
كله أيقودكم الوهم الى الظن أننا صائرون نحو حضارتكم يا أبناء الفرنجة ؟ نعوذ بالله من
ذلك ومنكم !»

ولا شك فى أن مثل هذا المقال يلاقى فى جمهور المسلمين وسوادهم آذاناً صاغية
وقلوباً واعية^(١) . وفى هذا الموضع ينبغى ألا يذهب عن البال أن المصلحين الأحرار
ما برحوا الأقلين عدداً ، وأن كانت قوتهم متوالية الازدياد والاشتداد ، اذ يفوقهم السواد
الجاهل من الأمة ، السواد المجتازون اليوم دوراً من أشد أدوار التمحض والانتقال
والخروج من الظلمة الى النور ، أضف الى هذا أن من أظهر صفات السواد إعجابهم بشأن
بلادهم فيرونها خير البلدان وجنة الدنيا بلا مرأى ، ويعدون كل بلاد سواها مستحقة المقت
والازدراء ، وإن اعترف المسلمون الذين على هذا الطراز بسلطان الغرب وتفوقه على الشرق
فانما يفعلون ذلك على غل فى القلب واحتدام الحفيظة — لذا تراهم يكرهون كل شئ
جديد ، ويشتعون غيظاً وتألماً من جراء ما يشعرون به ويرونه حولهم من شدة خناق
السيطرة الغربية . وعلى الجلالة فإن هذا السواد الجاهل هم بين أيدي قادة الجامعة الاسلامية
وغلاة الوطنية ، يتصرفون بهم كيفما شاءوا تصرف الخراف فى صنع الطينة بين يديه .

فالاسلام اليوم تتجاذبه قوتان : قوة المصلحين الأحرار ، وقوة الغلاة الرجعيين . أما
الاولى فيها مناط الآمال فى الفوز بالاصلاح على ما تقضيه سنة سير العمران والترقى ، ولها
من الزمن أكبر عون ونصير ما دام العالم الاسلامى لا حيدة له عن قبول مؤثرات الحضارة
الغربية ، لا بل ما دامت هذه الحضارة ثابتة الأركان بعيدة عن الانهيار والانقراض . وعلى
كل حال فالتوقع أن الذين سيرفعون علم الظفر والغلبة بالتالى انما هم المصلحون الأحرار .

(١) فى هذا المقال غلو عظيم لا ينبغي على أحد ، ولكن الغلاة لا تخلو منهم أمة ولا أتباع طريقة (ش)

ولكن من يستطيع الرجم بالغيب والكشف عن مخبآت المستقبل لينبئنا ما لعله ناشئ* في السبيل من عقبات وما يقوم به الرجعيون الغلاة من وضع العثرات؟ وصفوة القول، فلا أدوار الإصلاح في عالم الاسلام اليوم، ولا العلاقات بين الشرق والغرب بمعزل عن الأخطار الحاملة أجنة البلايا، تلك الأخطار التي سنأتى على بيان أدلتها في الفصول التالية من هذا الكتاب.

بقى علينا أن نذكر الحقيقة الكبرى التي يجب ألا تغفل، وهي أن في كل قطر في أقطار العالم الاسلامي جمهوراً من المصلحين الأحرار يزدادون عدداً ويشدون قوة وينضم الى لوائهم رجال من سائر الأحرار الخبراء الراسخين علماء بأسرار نهضات الأمم وتقدمها، وإلى جانب هذا الفريق فريق المحافظين، وجميعهم، وقد رأوا حالة الاسلام والمسلمين، انما يعملون عضبا متحدة متماسكة الأطراف في سبيل الإصلاح العام في المعمور الاسلامي، منتهجين المناهج القويمة والسبل السديدة، شاعرين حقاً بأن الفترة لعصبة وعالمين أن الدور دور انتقال شديد وحاسين فوق جميع هذا ان جهادهم هذا الجهاد لهو من أشد الأعمال نبالة والمقاصد مفخرة والواجبات شرفاً. أما ما يتوقع من التطور في الشريعة الاسلامية وقوانينها ازاء هذا الإصلاح، فليس من شأننا البحث فيه في هذا المقام. انما التاريخ ينبئنا أنه متى اقتضت سنة النشوء اصلاحاً، وأعدت أسبابه وعمله، وإجازته دوراً اختمرت فيه عناصره، كان ذلك الإصلاح واقعاً ولا تبدل لسنة العمران البشرى.

ومما لا مرأى فيه أن روح الإصلاح، على اختلاف مظاهرها وصورها، قد تغلغت في الاسلام ودبت فيه ديباً هائلاً وفشت في كل عرق من عروقه فحركته فتحرك، فأخذ ينفعل انفعالا عظيماً. فعالم الاسلام اليوم هو غيره منذ عشرة عقود. قد استطاعت الوهاية التي ظهرت منذ أكثر من مئتي سنة أن توقف الاسلام فاستيقظ مذعوراً، فما كانت تلك العصبة الدينية الا الضرم في النار أو الغريسة نمت فجاءت بأطيب الثمار، أضف الى هذا أن روح الحرية والحركة، والمؤثرات الغربية في زائد انتشار وانبثاق في كل رقعة من الرقاع الاسلامية وان كانت المخاوف والمحنورات تقرأ في جبهة المستقبل، ففي جبهة المستقبل أيضاً تقرأ الآمال الحسان.

المبشر زويمر ومفترياته

المبشر

اشتهر زويمر هذا بعداوة الاسلام ، وحرر كتباً افترى فيها على الرسول ﷺ وعلى المسلمين ما شاء وأودع فيها من التدليس ومن التزوير ومن قلب الحقائق ومن كل ما ينفر الطباع من الاسلام ما حقه أن يكون سمة عار باقية على الدهر في جبهة التبشير بكتاب شريف كالانجيل هو أعلى من أن يتوسل المتوسل الى نشره بالكذب والافتراء . ولقد اطلعت له مؤخراً على كتاب عنوانه « الاسلام . ماضيه . حاضره . مستقبله » فيه معلومات كثيرة عن مساعي المبشرين في أقطار الاسلام كلها قطراً قطراً ، وعن درجة نجاح تلك المساعي وجوبها ، مما هو حري بالاطلاع بل بانتباه العلماء والمفكرين من أهل الاسلام لمقاومة دسائس تلك الجمعيات المنبثة في جميع تلك الأقطار ، تحت أشكال متنوعة ، منها رسالات دينية ، ومنها بعثات جغرافية ، وأكثرها مستشفيات ومصاح وملاجئ للفقراء ، وزويمر هذا من رأيه في طريقة التبشير عدم مجادلة المسلمين بالبراهين العقلية — حيث يعلم أن قلعتهم ثمة منيعة — بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب عواطفهم ، واستمالة أهوائهم ، وتمريض أجسامهم ، ومؤاسة فقرائهم ، وبالاختصار استثمار أمراضهم وعلاهم وكروهم وخصائصهم ، ولا ينكر أن هذا الرأي هو رأي مجرب خيرساح في جزيرة العرب وفي كثير من بلاد الاسلام وعلم ما يعوز الاسلام من وسائل التعليم والتمريض ، وما عليه المسلمون من اهمال هذه الجهات بالرغم من كثرة الأوقاف التي يأكلها نظارها ، والمعاهد الخيرية التي درس معظمها ، وصارت أثراً بعد عين .

وقد استوفى زويمر تاريخ التبشير وسيره في البلاد الاسلامية من مشرقها الى مغربها وحمد الله على نجاح الرسالات الدينية المسيحية في كثير من الأصقاع لا سيما في بلاد الجاوى ، حيث معدل من يتنصرون كل سنة من المسلمين هو ٥٠٠ نسمة ، وقد بلغ مجموع المتنصرين بزعمه في الجاوى نحو ١٨ ألفاً ، وزعم أن الهند أيضاً شهدت من نجاح هذه الرسالات شيئاً

كثيراً ، وأن ٢٠٠ مبشر يطوفون اليوم في شمالي الهند هم من متنصرة الاسلام . ومع كون زويمر هو برتستانياً قحاً^(١) فهو لا يفرق بين أحد من رسله ، وهو يغتبط بمساعي الرسالات الارثوذكسية الروسية بين التتر ، ومجاهيد البعثات الكاثوليكية في افريقية ، ويدعو النصرانية كلها الى توحيد العمل وشن الغارة على الاسلام من كل جهة ، ويحث على اغتنام فرصة الضعف العظيم الذي حل بالاسلام على أثر الحرب العامة ، وانهايار قوته السياسية ، لأجل جوب أقطاره ، والجوس خلال دياره ، وتأسيس مراكز التبشير في البلدان الاسلامية التي كان دخول المبشرين اليها ممنوعاً . ويقول ان أول خطوة جرت لأجل توحيد الأعمال واشراك الحركات بعضها مع بعض هي المؤتمر التبشيري الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٠٦ واجتمع فيه ٦٢ مبشراً ونحوهم من المدعوين بالنيابة عن تسع وعشرين جمعية من أوربا وأميركا ، غايتها كلها تبشير المسلمين ووضع هذا المؤتمر أوزاره عن نداء عام الى العالم المسيحي بأجه لاستجلاب نظر اهتمامه الى هذه المهمة العظمى وهي حل المسلمين على الانجيل^(٢) وعقب هذا المؤتمر مؤتمران آخران أحدهما في « لوكناو » بالهند والثاني في « اديمبورغ » بانكلترة .

ويقرع زويمر الحكومات المسيحية على تقصيرها من أجل ملاحظات سياسية في عضد رسالات التبشير ، ويعقد مناحة عظيمة على ترك انكلترة ولاية « كافرستان » (شرقي افغانستان) لعبد الرحمن خان أمير الأفغان حتى بعث اليها أحد قواده غلام حيدر حمل أهل تلك الولاية على الاسلام فاسلموا قاطبة . ويقول ان أهالي مقاطعة كيلان في بلوچستان ليسوا مسلمين الا بالاسم فالبدار البدار الى تنصيرهم قبل أن يصيروا مسلمين متعصبين . . . وفي جزيرة بورنيو من البحر المحيط لا يزال جيل اسمهم « الداياكس » على الوثنية ولكن يحيط بهم المسلمون ، فتجب المبادرة الى منع دخول الاسلام بينهم قبل فوات الفرصة لئلا تعظم النغصة .

والطامة الكبرى عند زويمر هي في أواسط افريقية ، فانه يذوب لهفاً على انتشار الاسلام في تلك الأرجاء بهذه السرعة الغريبة ، ويتأوه على كونه في السودان كله لا يوجد

(١) أصل نسبه من نورماندية بفرنسا ولما طردوا البرتستانات من فرنسا في زمان لويس الرابع عشر ارتحل سلفه الى هولانده ثم الى أميركا

(٢) مع أنهم يعتقدون بالانجيل بدون حاجة الى عناء زويمر وأمثاله

أكثر من عشرين مبشراً ، وينقل بعض شواهد من مجلة التبشير العالمي (Missionary Reiew of the World.) بتاريخ ١٩٠٦ ثم بتاريخ ١٩٠٧ معناها أنه في سنة ١٨٩٨ كان عدد المسلمين قليلاً جداً في اده (Iddah) على النيجر وأنه في سنة ١٩٠٦ كان يوجد منهم في كل مكان الى أبو (Abo) وأنه اذا بقيت الحال على ذلك المنوال فلا يرجى أن تبقى قرية وثنية على طول (النيجر) الى سنة ١٩١٠ (فما ظنك الآن ونحن في سنة ١٩٢٣ ؟) وبالأجل يقول ان نحو ٥٠ مليوناً في أواسط افريقية وأطرافها قد أسلموا بالرغم من مساعي المبشرين الذين لم يعرفوا من أين تؤكل الكتف .

ويتكلم عن مجاهيد الجمعيات التبشيرية في عدن ، والشيخ عثمان منذ سنة ١٨٨٧ . وفي بغداد والبصرة والبحرين ومسقط منذ سنة ١٨٨٩ . ولكن فيما يظهر لم تحصل الجمعيات في البلاد العربية هذه على شيء من النجاح الذي صادفته في الهند والبنجاب وبلاد الجاوى ويقول ان بعثة اسوجية احتلت بخارى وخوقند وكاشغر وياركاند ولا يوجد بعثة بروتستانية غيرها في آسية الوسطى ولكن بعثة الروس الارثوذكسية قامت بأعمال جليلة بين مسلمي الروسية .

ويقول ان الجمعيات التبشيرية لا تزال غير قائمة بواجباتها فيما يتعلق بمسلمي بلاد العرب الداخلية ، والقوقاس ، وجنوبي فارس ، وتركستان ، وأفغانستان ، وبلوجستان ، والصين وجزر الفيلين . ويشكو من الشكوى من كون بلاد الأفغان لا تزال بكراً لم تطمئنها قدم مبشر ، وأن الأفغان يمنعون المبشرين من دخول أرضهم ، الا أنه يئى نفسه بأن حكومة أفغانستان لا بد أن تسمح للمبشرين بالدخول ، ويقول ان الجمعية البرسييتيرية الأميركية قد هيأت برنامجاً لذلك وستجعل مشهد على (شمالى أفغانستان) مركزاً للحركات^(١)

ومما يروى أنه في مؤتمر « ادنبورغ » قدم أحد الأعضاء الذين جاؤوا الصين تقريراً يتضمن البرنامج اللازم لمشروع تنصير مسلمي الصين الذين هم منشثرون في ١٥ ولاية من أصل ١٨ من هذه المملكة العظيمة .

وهو يرجو أن ثمرات التبشير في السنين المقبلة ستكون أعظم منها فيما مضى ، ولا ينكر أن تنصير السود هو عقبة كأداء نظراً لبغض الزوج للجنس الأبيض الاوربى على

(١) الذى نلمه أن أفغانستان مصحة أن لا تدع بعثة دينية أجنبية تدخل أرضها .

إطلاقه ، وتضامنهم في وجهه ، ولكنه يوجب على أوروبا اجتياز هذه العقبة وعدم المبالاة بالصعوبات التي تلقاها من جانب السود ، وأن تعلم أن هذه الفرصة اذا ضاعت فلا تعود أبداً فينبغي أن تكون هزيمة الاسلام في الحرب العامة انتصاراً للكنيسة المسيحية (هكذا بالحرف) وينتقد طريقة بعض الحكومات المسيحية التي - أحياناً بدون روية - تصلح ادارة الاسلام الدينية ، وتنظم أوقاف المسلمين ، مع أن هذه الأوقاف جسيمة دارّة ، يمكن بها عمارة المساجد وتسهيل العبادة وتعزيز قوة الاسلام الدينية ، وقد شوهد كيف زادت سكة حديد الحجاز عدد زوار المدينة ، وكيف زادت خطوط الترامواي زيارة كربلا ، وصارت شركة كوك تسفر أغنياء المسلمين الى مكة . وأما من جهة التعليم فاذا اتبعت الحكومات الأوربية برنامج التعليم التي هي جارية عليه في السودان والنيجريا^(١) . وفي كلية غوردون في الخرطوم فان هذه الخطة هي مما تزيد الحواجز بين الاسلام والنصرانية . . . ثم يقول أما المدارس العليا التي تأسست لمكافأة الصادقين من المسلمين^(٢) فلعمري أكثر الأحيان لم تكن تلك الصداقة حقيقية بل هي مداواة منهم ، ولا يكون لتلك المكافآت ثمرة سوى زيادة تمسك المسلمين باسلامهم بل احتقارهم لسادتهم الاوربيين الذين يرونهم قد أصبحوا يتبصبصون لهم^(٣)

وأخيراً يقول ان الاسلام قد تلاشت قوته ، وانهارت دعائمه ، وسقطت مكائمه الأولى ومشت سكة الأجنبي في حقله ، فلا تناسب زيادة قهره واعنائه والظهور بمظهر الشماتة به لثلا يحرك ذلك من عصبية أهله ، ويشير من نخوتهم ، ويؤجج من نيران احقادهم ، فينهضوا ويشوروا للمقاومة ، بل يلزمنا أن نأخذهم بالوداعة والملاطفة وبذرف الدموع لأجل أن نستل سخائم صدورهم ، وتمكن من حرث ذلك الحقل الذي صار مباحاً أمامنا . . . على أنه لا يؤخذ من ذلك أنه يجب سلوك مسلك الضعف مع الاسلام والعدول الى التهيب ، اذ لا يعقل أنه اذا دعى الانسان الى بيت لم يبق له أبواب ولا نوافذ أن يضع وقته في احتشام أصحاب ذلك البيت ومعاملتهم برقة الأدب والكياسة . . . انه يتحتم سوق الحلة بحكمة ومهارة

(١) يظهر أن الظروف قضت عليها بالترخيص بمحنة من التعليم الديني

(٢) أي الصادقين للحكومات الاوربية

(٣) من رأى زويمر اذاً أن الحكومات الاوربية يجب أن تستخدم دماء من تلى عليهم من المسلمين وأموالهم ومجاهداتهم وتحذر من أن تراعى خواطرهم بشئ يشعرون منه أنها تقيم لهم وزناً .

ولكن يتحتم سوقها بشدة ويجب أن الكنيسة تعي جميع قواها من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب ، تحت راية مؤسسها وتشن هذه الغارة على الاسلام الى أن تصل الى غايتها الخ .

هذا مما قطفناه من كلام زويمر مع تلطيف كثير من العبارات وحذف كثير منها . ونحن نجابو المسترزويمر وأمثاله ممن فيهم من هو مقتنع بعمله مبتغ وجه الله في جهده ، انه ان كان المقصود دعوة الاسلام الى الانجيل فالمسلمون يؤمنون بالانجيل الشريف و برسالة المسيح صلوات الله عليه وسلامه وان كانت الدعوة هي الانجيل في الظاهر والسيطرة الاوربية في الباطن فهذا حلم من أحلام المبشرين ، اذ لا بد للاسلام أن يستعصى على هذه الدعوة ويقف في وجهها سداً منيعاً . وان كان مقصد هؤلاء المبشرين هو خلاص النفوس والاشفاق من هويها في النار الحاطمة ، والعياذ بالله ، فالأولى بهم أن يذهبوا الى الوثنيين الذين هم أكثر من المسلمين عدداً في الدنيا ، وأحوج الى الارشاد ، بل أن يهدوا الملايين العديدة من أنفس المسيحيين الذين نبذوا الدين ظهرياً ودانوا بالتعطيل والاحاد وأخذوا يحاربون الكنيسة . فعلى الانسان أن يدبر يته قبل أن يمد يده لتدمير بيت جاره . أما المسلمون فلا حاجة الى تبشيرهم لأنهم يعبدون الاله الحق ولا يشركون به أحداً ، ولأن شريعتهم ملاءم بالفضائل والآداب ومكارم الأخلاق واقامة ميزان العدل حتى مع العدو وتحت على العلم والانسانية والحضارة واغاثة الملهوف وحب القريب ، وعند اللزوم تذرف الدموع أيضاً على البائسين .

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبد الله

للامير شكيب

أستاذنا فريد عصره ، ووحيد مصره ، حجة الاسلام الشيخ محمد عبد الله ، أكرم الله مشواه ، تعرف اليه محرر هذه الحواشي في عهد الطلب ، أيام كان هو منفياً في بيروت على أثر الحادثة العربية وذلك سنة ١٨٨٦ ، ولا زمته وأخذت عنه واستفدت منه بقدر ما وسع فتور خاطري ، واستفقت من بحر حكمته ما أمكن أن يناله قصور عارضي ، ووجدت فيه الضالة التي كنت أنشدها ، والبغية التي كنت أبحث عنها ولا أجدها ، ورأيت في فهمه العقيدة الاسلامية الشكل الوحيد الذي يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل الى هذه الحال ، وان يقلل عشاره بعد أن ظن ضعفاء العقول أن عثرته لا تقال . وما زلت بعد أن عاد الى وطنه مصر الى أن أدركته الوفاة رحمه الله أجاذبه جبل المكاتبه ، وأقف على رأيه في أكثر الأمور جزئياً وكلياً ، وأستطلع منه طلع الأحوال ، وهو يث الى مالا يثني الى غيرى من سوانح فكره ، وذوات صدره وبينما كان بعض حساده يتهمونه بمماشاة الدولة المحتلة ومواقفة اللورد كرومر كان يكتب الى قائلاً : « الأحوال هي مما يتعاضم له الألم ، ويعجز عن وصفه القلم » فنكنت أعلم أنه ما أراد الاتخفيف الداء ، وتقريب أجل البلاء ، وتمهيد طريق الجلاء وما زال شأنه يعلو ، وحقيقته تظهر ، وجوهه ينجلي بالحك ، وعقيدته فضله تتمحص من الشك ، الى أن اتفق الناس على كونه أحد أفذاذ الشرق الذين قلما جاد بهم الدهر ، وواسطة عقد المصلحين المجددين في هذا العصر ، وظهر أن طريقته الاسلامية العصرية ستزداد مع توالي الأيام انتشاراً ، وتكون هي طريقة المستقبل ومعول الآتي

ولقد كان جامعاً بين العلم والعمل ، فلا تجد مايساوى فضله وبلاغته وثقوب أفكاره ، وقوة ملكته في الفلسفة ، سوى علوم مباديه ، وبعد همته ، وغزارة مروءته ، وطهارة أخلاقه ، وهيئات أن يأتي الزمان بمثله

ومن حسناته الكبرى ، وأيديه التي ملأ بها طباق العالم الاسلامي براءاً أخذته بيد الأستاذ العلامة السيد رشيد رضا في نشر مجلة « المنار » التي هي لسان حال ذلك المصلح العظيم وترجان أفكاره . فهي والحق يقال أحسن مجلة ظهرت في باب الإصلاح الديني وتطهير الاسلام من شوائب البدع واعادته سيرته الأولى في عهد السلف . وتأليفه مع المدنية الحاضرة . كما أن الاستاذ السيد رشيداً المشار اليه هو الأولى بأن يخلف الأستاذ الامام الشيخ محمد عبد الله في مشروعه وفقه الله وسدد خطاه .

الاستاذ الاكبر السيد محمد رشيد رضا

للمشكيب

ويطول العهد بعد الأستاذ الأكرم السيد رشيد فصح الله في أجله حتى يقوم في العالم الاسلامي من يد مسده في الاحاطة والرجاحة وسعة الفكر وسعة الرواية معاً والجمع بين المعقول والمنقول والفتيا الصحيحة الطالعة كفلق الصبح في النوازل العصرية والتطبيق بين الشرع والأوضاع المحدثه مما لا شك أن الأستاذ الأكرم فيه نسيج وحده انتهت اليه الرئاسة لا يدانيه فيه مدان مع الرسوخ العظيم في اللغة والطبع الريان من العربية والقلم السيال بالفوائد في مثل نسق الفرائد والخبرة بطبائع العمران وأحوال المجتمع الانساني ومناهج المدنية وأساليبها وأنواع الثقافات وضروبها الى المنطق السديد الذي لم يقارع به خصما مهما علا كعبه الا أغمه وألزمه ولا نازل قرنأ كان يستطيل على الأقران الا رماء بسكاته وأجله . وأجدر بمجموعة « المنار » أن تكون المعلمة الاسلامية الكبرى التي لا يستغنى مسلم في هذا العصر عن اقتنائها كما أن التفسير الذي وفقه الله به لكشف أسرار كتابه العزيز هو من آياته الباهرة التي خلدت اسمه في هذه الأمة وقرنته بكبار الأئمة وله من المواقف الشريفة في النضال الديني عن الاسلام والمراماة عن عقيدته الصافية ومن الكتب الجدلية في رد شبهات أعدائه من أبناء الملل الأخرى ومن الملحدة والمعطلة ما لا يقدر أحد في عصرنا هذا أن يدرك فيه شأوه ولا يستطيع جهبذ من جهاذة الاسلام أن يبلغ فيه مداه ولا نصيفه . انه الرجل الذي لودعا كل مسلم باطالة حياته حباً بخدمة الاسلام والمسلمين لكان بذلك جديراً . وليس في كلامنا هذا شيء من الاطراء ولا ثمة ما يدعوننا اليه وانما أمرنا بأن لا نبخس الناس أشياءهم وهو أمر الهى صريح كما أننا لسنا ممن يرى المعاصرة حجاباً عن تقدير الفضائل قدرها بل نرى أن المنصف يجب أن يزن أقدار الناس في الحياة وبعد المات بميزان واحد وان كان من ضرائب البشرية أن تقسو على الأحياء وأن تحنو على الأموات وأن لا تعطى الانسان حقه غير منقوص الا اذا فات

ولقد حرر السيد رشيد تاريخ أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله في مجلدين كبيرين يزيدان على ألفي صفحة وسيعززها بمجلد ثالث فيكون من الفضول أن نقول انه لا تاريخ للشيخ محمد عبده غير هذا التاريخ وهو الذي فيه ترجمة حاله بتفاصيلها وحياته من المهد الى اللحد مع ذكر منازعه بدقائقها وعقائده بحقائقها ومنشأته بنصوصها وأخبار الحوادث التي خاضها والمسائل التي راضها وقد دخل في هذا الكتاب تاريخ السيد جمال الدين الافغانى وسير أعلام آخرين وتلخيص الحوادث العربية في مصر وروايات كثيرة عن الخديوى السابق ووثائق تاريخية لا توجد في كتاب آخر ومباحث عقلية وشرعية وسياسية وأدبية ولغوية لا يعثر القارئ على مثلهافي غير هذا الكتاب . وللفقير اليه تعالى راقم هذه الأسطر في الجزء الأول من هذا السفر الجليل فصل عن حياة الأستاذ الامام ايام كان في بيروت وكنا متصلين به وهو نحوم من ١٤ صفحة ولهذا الفصل تمة وعد الأستاذ الرشيد بنشرها في الجزء الذي لم يظهر بعد

ولما كان الأستاذ السيد رشيد من كبار المحدثين وله في هذا الفن من الطول ما ليس خافياً عن أجنذ فقد امتزج خلق التمهيص بدمه ولجه وأصبح لا ينشرح صدره الى الخبر الى اذا وثق بأسانيده وآمن بامانة رجاله . وقد يسوق الرواية من جملة طرق الى أن يثلج بها الصدر ويطمئن لها الفكر . وهذه طريقة السلف عندنا لا يروون شيئاً لا من الأحاديث النبوية وأخبار الصحابة لحسب بل لا يروون شيئاً من الأشعار والآداب وسير البشر والحكايات الا عنعنوه مسلسلاً وربما أشاروا الى درجة رجاله فقووا وليئزوا كما لا يخفى على من طالع كتبهم وكانت له ألفة بطريقتهم . وهذه الطريقة هي اليوم طريقة الاوربيين أيضاً لا يروون خبراً ولا ينقلون جملة ولا أثراً الا وضعوا في الحاشية مأخذها والكتاب الذي أخذوها عنه مع ذكر الصفحة ومع ذكر طبعة الكتاب وتعيين المطبعة احياناً وكل ذلك توثيقاً للنقل ونصحاً بالتبليغ وتمهيداً للحكم الصحيح الذي لا يتهماً للقارئ الا بعد مقدمات صحيحة ويثبات رجيحة

ومن نفائس تأليفه السفر الذي أخرجه مؤخراً تحت عنوان « نداء الى الجنس اللطيف » فيه بيان حقوق النساء في الاسلام وتحقيق مسائل اجتماعية تدور أكثر من كل المسائل في هذا العصر مثل تعدد الزوجات والتسرى والحجاب والسفور والطلاق وما يتعلق بأزواج النبي ﷺ من الأحكام والحكم وتكريم النساء وبر الوالدين وتربية البنات وغير

ذلك قد جاء الأستاذ في هذا الكتاب بالآيات الينيات على حكمة الشرع الاسلامي وغفلة
 المعارضين عليه جهلاً أو تجاهلاً . ولا يسعني الا توصية الخلق بمطالعة هذا الكتاب اذ ذلك
 أحسن ما يمكن وصفه به . ان الجواد عينه فراره . ولكني أورد شذرة واحدة من هذا
 الكتاب من قبيل التمثيل ليقس القارئ عليه قال في باب التسري الصحيح في الاسلام :
 « كل ما كانت عليه الأمم القديمة وكل ما عليه الامم الحاضرة من التسري واتخاذ
 الأخدان فهو في شرع الاسلام من الزنا المحرم قطعاً الذي يستحق فاعله أشد العقاب وكل
 من يستبيح هذا الفجور الخفي وما هو شر منه من السفاح الجلي فهو برئ من دين الاسلام
 » وأما التسري الشرعي المباح في الاسلام فهو خاص بسبايا الحرب الشرعية اذا أمر امام
 المسلمين الأعظم خليفة الرسول ﷺ باسترقاقهن وانما يكون له أن يأمر بذلك اذا ثبت عنده
 بمشورة أهل الحل والعقد أن المصلحة فيه أرجح من المنّ عليهن بالعق ومن اقتداء أسرى
 المسلمين وسباياهم بهن ان وجد عند الأعداء سبايا وأسرى منا . فليس الاسترقاق واجبا في
 الاسلام لكنه يباح اذا كان فيه المصلحة التي لا يعارضها مفسدة راجحة . ولكل حكومة
 اسلامية أن تمنعه بل منعه من مقاصد الاسلام العامة والاسترقاق المعهود في هذا العصر للسود
 والبيض كله باطل في الاسلام فالتسري بالنساء اللاتي يخطفهن النحاسون أو يبيعهن الآباء
 والأقربون أو يغريهن التجار والقوادون كله عصيان لله ولرسوله »

فن مطالعة هذا المثال تعلم أن ما يفهمه السيد رشيد رضا من أسرار الشرع لا يفهمه
 غيره . ولو كان أحد الفقهاء الجامدين وسئل عن هذا الأمر لأجاب بلا تأمل : ان
 الاسترقاق مباح لا بل حرام منعه وان سبي نساء الكفار جائز بلا نزاع وحرام منعه وهكذا
 جاء الاسلام والأمور الشرعية لا تعلل بل يجب أن نقبلها على علاتها . فان قلت له : ان هذه
 الطرق غير مألوفة في هذا العصر وان الاستمرار عليها مضر بالامة الاسلامية وبما يجر لها
 المقت والعداوة قال لك قولاً واحداً : هذا هو ديننا ولا نعلم غير هذا . ولم يفكر فيما وراء
 هذه الأحكام بهذا العصر من الضرر بالاسلام والخطر عليه

أما الأستاذ السيد فانه يصرح لك بما يحفظ من النص ويفهم من روح الشرع بأن
 الاسترقاق مباح الا اذا عارض ذلك مفسدة راجحة وان لكل حكومة اسلامية أن تمنعه لأن
 منعه هو من مقاصد الاسلام العامة . ثم يفتيك بأن السبي في الاسلام لا يجوز الا بأذن
 السلطان وهذا الاذن من السلطان لا يصح له بمجرد رأيه بل يجب أن يؤخذ فيه رأي عقلاء
 الأمة الخ

الفصل الثانى

في

الجامعة الاسلامية

اليقظة الاسلامية شأن كل انقلاب عظيم ، نشأت نشوءاً ملتبساً فاشتبه بعض متجهاتها ببعض اشتباهاً كبيراً. ولا عجب فذلك انما هو من طبيعة كل دور من أدوار اليقظة والتنبه وأطوار الانتقال والتحول . فقد بدأت اليقظة الاسلامية بالدعوة الوهابية الدينية الإصلاحية ، ثم أخذت تحتاز أدواراً عديدة متشعبة المناحي وأحياناً متناقضة الصفات . وقد سبق لنا فبسطنا الكلام فى الفصل السابق من هذا الكتاب على متجه الاسلام اليوم ومسيره . ومنتحاه فى سبيل الإصلاح المترقى على حسب ما تقتضيه طبيعة النشوء ، وأوضحنا أن روح الإصلاح ما فتئت تدب فى كل عرق من عروق العالم الاسلامى دينياً طبيعياً هائلاً ، فتدفعه الى الأمام دفعاً متواصلاً ، ولم نغفل مبلغ ما للحضارة الغربية من التأثير فى ذلك . وقلنا فوق جميع هذا ان المصلحين الأحرار الذين تناط بهم الآمال فى احراز الفوز والغلبة ، مبرحوا الأقلين عدداً ، بينما سواد المسلمين ما انفكوا ينتفضون ممزقين حجب الجهل ، ويستيقظون من هجعتهم استيقاظ المذخور ، يقودهم قادة يختلفون كل الاختلاف عن المصلحين الأحرار قادة هم أميل الى ركوب خطط العنف والمشاكسة ، منهم الى انتهاج مناهج الرفق والمودعة . يؤثرون مجافاة الغرب والاعراض عن الأخذ عنه ، الى مقاومته وايفار الصدور عليه . بيد أن هذا التيار الذى يثيره ويوقد ناره هؤلاء القادة وأمثالهم ، وشأنه شأن كل تيار مرافق لحال الانقلاب مصاحب لدور الانتقال ، لم يستقر على قرار ، ولا عرف لأفقه حد ، ولا وضع مجراه ولا بان متجهه يباباً تاماً بعد ، وهو على اختلاف صفاته ومنقلباته لا يخرج عن وقوعه فى مضطرب « الجامعة الاسلامية » و « العصبية الجنسية » وهاتين باسطون الكلام على :

﴿ الجامعة الاسلامية ﴾

الجامعة الاسلامية بمعناها الشامل ومفهومها العام انما هى الشعور بالوحدة العامة.

والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الاسلامي . وهي قديمة بأصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة ؛ أي منذ شرع الرسول يجاهد فالتف من حوله المهاجرون والأنصار معتصمين معه بعاصمة الاسلام لقتال المشركين . وقد أدرك محمد ﷺ خطورة الجامعة وعلو منزلتها في المسلمين حق الادراك ؛ وعلم كل العلم ما لها من عظم الشأن وجلل المقام في قلوب المؤمنين ؛ فغرس غريستها بيديه في نفوسهم ؛ فتمت وتغلغل ، وامتدت جنورها وبسقت أغصانها وفروعها وينعت ثمارها . فقد كر عليها أكثر من ثلاثة عشر قرناً فما أوهن كرور هذه القرون من الجامعة الاسلامية جانباً ولا تضعع لها كيانه ؛ بل كلما تقادم عليها العهد وتناسخ المألوان ازدادت الجامعة شدة وقوة ومناعة واعتزازاً . حقاً ان الجامعة اليوم بين المسلم والمسلم لأقوى منها بين النصراني والنصراني . ولا ينكر أن المسلمين يتقاتلون بعضهم مع بعض قتالاً شديداً ؛ بيد أن هذا الجدل ليس له من الشأن أكثر مما لأحقر نزاع ينشأ بين أفراد الاسرة الواحدة ؛ المشتبكة الارحام ؛ اذ لا حقد في الاسلام فعند الشدائد تذهب الاحقاد من بين المسلمين ؛ فيصطلحون على الأمر الذي فيه يختلفون ويتألبون جوعاً مترصة متهاكة لقتال العدو المهاجم ورد الخطر الداهم . ومن أحب أن يقف حق الوقوف على ما أراده الاسلام من غرض الجامعة وغايتها فلي نظر الى حال المسلمين اليوم والى تيار هذا التعاطف والتشاكي يعلم سر الجامعة ومكاتها في نفوس المسلمين . وفي الواقع ليس من دين في الدنيا جامع لأبنائه بعضهم مع بعض موحد لشعورهم دافع بهم نحو الجامعة العامة والاستمسك بعروتها كدين الاسلام . ان المسلمين قد افتتحوا بلاداً عديدة ورقاعاً كبيرة في الأرض منتزعيها من النصرانية والبرهمية^(١) واستأصلوا شأفة المجوسية وعلى امتداد هذه الفتوحات واتساع آفاقها ؛ فلم يسمع قط أن شعباً قليلاً كان أو كثيراً اتحل الاسلام ديناً ثم ارتد عنه . قد حدث أن أجلى المسلمون عن بعض البلاد التي كانوا قد فتحوها وشيدوا فيها ملكاً ودولة كالآندلس غير أن اجلاءهم عن مثل هذه البلاد ليس بالسائع اعتبارهم جعل بعض المسلمين يرتدون عن الاسلام

(١) لم تستقر الفتوحات الاسلامية بعد أن رسخت في الهند استقرت حدودها . بل تجاوزت الهند الى جزيرتي جاوى وصومطرة العظيمتين . فمطل الاسلام دين البرهمية فيهما وجعل أهل الجزيرتين فاطبة مسلمين

ان الوحدة الاسلامية انما هي قائمة على ركنين هما أساساها ولا ثالث لهما : الحج الى بيت الله الحرام في مكة المكرمة ، والخلافة . وقد غلب على رأى الكثيرين من رجال الغرب وهم في هذا الموضوع ، فهم ما برحوا يخالون الخلافة ، لا الحج ، العامل الأكبر والأشد الذي بسببه يتشارك المسلمون ميولا وعواطف تشاركاً مؤدياً الى اعتزاز الوحدة وازدياد منعتها وامتدادها وانتشارها . على أن هذا لمن الوهم الصرف فالأمر حقا على الضد منه . ان محمداً ﷺ قد فرض الحج على من استطاعه فرضاً مقدساً ولذلك ما زالت مكة المكرمة حتى اليوم مجتمعاً يجتمع فيه كل عام أكثر من مائة ألف حاج وافدين من كل رقعة من رقاع العالم الاسلامي ، وهناك أمام السكبة المقدسة في مكة المكرمة يتعارف المسلمون على اختلاف الألسنة والأجناس ، ويتباثرون العواطف الدينية ، ويتباحثون في الشؤون الاسلامية ثم ينقلبون الى أوطانهم نائلين لقب « الحاج » ، لقباً يعرف صاحبه بالتقوى فيجمله اخوانه المسلمون ويعلمون منزلته بينهم ما دام حياً .

فالمقاصد والأغراض السياسية التي يناها المسلمون على يد الحج المهد لها السبيل انما هي معلومة لا تحتاج الى كبير ايضاح . بل يكفي أن نقول ان الحج انما هو المؤتمر الاسلامي السنوي العام ، فيه تتباحث الوفود الاسلامية والنواب المسلمون الطارئون من أقطار المعمور الاسلامي كافة في مصالح الاسلام ، وفيه يقوم هؤلاء بوضع الخطط ورسم الطرائق للدفاع عن بيضة الاسلام والذب عن حياض المسلمين ، ونشر الدعوة في سبيل الرسالة . وفي هذا المؤتمر العظيم ، كانت قلوب قادة اليقظة الاسلامية وأبطالها ، كعبد الوهاب ، ومحمد بن السنوسي ، وجمال الدين الأفغاني ، تشعر بجلالة الواجب الاسلامي المقدس ، وتتقد من خطورة المشهد وروع المحفل غيرة على الاسلام والمسلمين

أما الخلافة فقد كان لها حقاً شأن تاريخي عظيم ، ولا سيما في أوائل عهدها . وقد بسطنا الكلام في موضع سابق على ما كان ينتابها من الخطوب وما أفضت اليه في النهاية ، اذ أطفئ سراجها الوهاج فانقلبت الى صورة وهمية بعد أن نزل هول المغول ببغداد ، ثم ما برحت هكذا حتى جاء السلاطين الترك فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة ، فاعترف عالم السنة الاسلامي لهم بهذه الخلافة ^(١) الاسمية . بيد أن سلاطين الترك في القسطنطينية ، وما كانوا

(١) لم يعترف الشيعة في فارس بخليفة من خلفاء السنة . واعتاد أهل البلاد الغربية في شمال أفريقيا أن يعترفوا لسلاطينهم بالسيادة الروحانية .

ليحرزوا من المكانة الدينية في العالم الاسلامي مثل ما أحرزه من قبلهم الخلفاء الراشدون وأكابر خلفاء بني العباس في بغداد .

أضف الى هذا أن العرب ما انفكوا ينظرون الى الخلفاء الترك شزراً ويعدونهم المعتصبين للخلافة اغتصاباً^(١) وقد جهد السلطان عبد الحميد جهداً كبيراً لاجلاء عظمة الخلافة الدينية واسترداد ما كان لها من الجلالة والهيبة والخطورة في العالم الاسلامي ، فنال ما ناله ليس بسبب من أسباب الخلافة من حيث الاعتبار الديني ، بل بسبب الشعور العام الذي ظهر واشتعل في صدور المسلمين لانشاء الجامعة الاسلامية الكبرى . لهذا كان عظماء قادة الجامعة الاسلامية الحديثة على قسمين : فمنهم من اعترف بالسلطان عبد الحميد خليفة على المسلمين ، ومنهم من ناصبه العدا كالتنوسى^(٢) . هذه حقيقة غابت عن عقول كثير من ساسة أوربة حتى وجأوا من عبد الحميد لخصبوه في الاسلام كالبابا في النصرانية . وما زلنا نرى حتى اليوم

(١) ان الخلافة لم تستم شروطها الصحيحة الا في الخلفاء الراشدين ، وبعد ذلك فالخلافة لم تكن الا ملكاً عضوضاً قد يوجد فيه المستبد العادل والمستبد الفاشم ، وما اتفادت الأمة الى هذا الملك العضوض المخالف لشروط الخلافة ، سواء كان من العرب أو من الترك ، الا خشية الفتنة في الداخل والاعتداء على الحوزة من الخارج (ش)

(٢) كون التنوسى ناصب السلطان العداوة هو خبر من الأخبار تهافت على تصديقه كثير من الأوربيين من جملتهم مؤلف هذا الكتاب . والحقيقة أن سيدى محمد بن علي التنوسى وولده المهدي وجميع السادة السنوسية ، كانوا موالين للسلطان ومؤيدين للدولة العثمانية باعتبار أنها ملجأ للاسلام ، وبأن السلطان هو أكبر ملوك المسلمين . ولأبي النصر مقرب شاعر الحضرة السنوسية قصيدة يمدح بها سيدى المهدي من جملة أياتها :

ولا بد أن تأتي جيوش بيرقة فتغشى غواشيا العيون الفواشيا
قبائل من سام وحام تجمعت وما جمعت الا الأسود الضواريا
زوية أهل المجد من يأت حيم ير العز في نادى زوية باديا

زوية هي القبيلة التي تقطن واحة الكفرة وهي بمثابة الحرس الخاص للسادة السنوسية ، ثم يقول :

وكم بدوى في الفلا خلف نوقه يبول على الأعقاب أشعت حافيا
تلاقاه في وادى الضلالة هاوياً فأصبح نجماً في الهداية عاليا

ثم يقول :

ولو لا انتظار الأذن من سيد الورى وسلطاننا الفازي لأصبح غازيا
أى لا يمنع من أن يغزو ضعف في المنة ولا تنور في العزيمة وإنما هو انتظار الأذن من السلطان الأعظم

أكثر ساسة الغرب يهيمون في ذلك فيخالون الجامعة الاسلامية انما كان مستقرها ومنبعها الخلافة ، و نرى أيضاً غالب جملة الأعلام يفيضون في الكلام فيما اذا استبقيت الخلافة في السلطان التركي على ظلمه ، أو نقلت الى شريف مكة ، أو قضى عليها القضاء الأخير ، وأى هذه الوسائل تكون خيراً لحيض جناحى الجامعة الاسلامية ، ان هذا وأيم الحق لغاية ما يرتكب من الخطل . لا ينكر أن الخلافة ما برحت رفيعة المكانة في عيون المسلمين بلا ريب ، غير أن قادة الجامعة الاسلامية الحديثة ، ذوى العقول الثاقبة والذكاء المتوقد ، ما فتئوا منذ عهد بعيد يجحدون في سبيل الجامعة الاسلامية في نطاق أوسع وأفنى أبعد ، وقد أيقنوا كل الايقان أن القوة الكبرى التى تستمدّها الجامعة الاسلامية اليوم ليست من مركز الخلافة ، ولكن من بيت الله الحرام ، حيث الحجيج اذ يأترون كل عام مؤتمراً عظيماً ، ومن انشاء الطرق الدينية المؤدية الى الجامعة الاسلامية كالطريقة التى أنشأها السنوسى ، ونحن شارعون في الكلام عليها ^(١) في موضع قريب .

من شأننا الآن أن نتتبع الأدوار المختلفة التى اجتازتها « الجامعة الاسلامية » الحديثة مبتدئين في الكلام على الدور الأول الذى ظهرت فيه للعالم ظهوراً بيناً ، وهو دور الدعوة الوهابية . أنشأ عبد الوهاب حكومته على أساس الشورى كتلك الشورى التى اشتهرت في عهد الخلفاء الراشدين . ولما تم لسعود خليفة عبد الوهاب الاستيلاء على الأماكن المقدسة في الحجاز ، خال استيلاءه هذا الخطوة الأولى في سبيل فتح العالم الاسلامي قاطبة ، فتحاً اصلاحياً دينياً تتلوه الوحدة السياسية العامة بين جميع الممالك الاسلامية . لكن لما سقطت الوهابية دون مبتغائها العظيم ، أخذ الاضطراب السياسى على أثر ذلك يشتد في العالم الاسلامي اشتداداً واسع المضطرب . وقد سبق لنا فتكلمنا على ما حدث في شمالى الهند وأفغانستان ،

(١) اقرأ البر و . موير — « كتابه نشوء الخلافة وتداعيا وسقوطها » ايدينبرغ ١٩١٥

Sir W. Muir, "The Califate " Its Rise, Decline and Fall."

وهو خير ما كتب في شأن الخلافة

والسر مارك سايكس — كتابه : « تراث الخليفة » لندن ١٩١٥

Sir Mark Sykes, "The Caliph's Last Heritage" (London 1915)

و « وفد الخلافة الهندي » وهو رسالة نشرت ملحقاً لمجلة « الشؤون الاجنبية »

"The Indian Khilafat Deligation.", "Foreign affairs"

Special supplement

كما كان في الواقع منبعثاً عن الروح الوهابية ، ويعد باعتبار الحقيقة والغاية نعيماً على الممالك الإسلامية انحطاطها السياسي ، وعلى الحكام والأمراء المسلمين فقدانهم الهيبة والسلطان . فلهذا لم يكن الوجع من الغرب أو العداء له الباعث كل الباعث على انتشار الاضطراب الإسلامي في أول عهده ، لأن أوربة لم تكن حتى ذلك العهد قد حاولت فتحاً كبيراً في العالم الإسلامي ، سوى استخلاصها بعض الأصقاع من تركية الأوربية وجزائر الهند ، وأما هول الفتوح العظمى فلم يكن قد ظهر بعد ، غير أن أشباحه كانت تقترب شيئاً فشيئاً . وما كاد ينتصف القرن التاسع عشر حتى تبدلت الحال تبدلاً تاماً ، ففتح الفرنسيون الجزائر واستولت روسية على عبر القوقاس ، وبسطت انكشار نفوذها على الهند من أقصاها إلى أقصاها ، جيع هذا مما جعل قادة المسلمين الحكماء في كل صقع يوقنون كل الايقان أن الإسلام إنما يحقق به خطر عظيم ، وبلاء شامل ، من جراء انتشار سيطرة الغرب عليه ، وفي هذه الغضون أخذت الجامعة الإسلامية تسير في تيار غايته مقاومة الغرب وصدّه وعداؤه ، وهي ما برحت تسير هذا المسير حتى اليوم . وقد كانت المقاومة في بادئ الأمر في موضع موضع ، وغير منظمة تنظيمياً مرتبط بالوسائل كل الارتباط ، فهب أبطال من المسلمين مثل عبيد القادر في الجزائر وشامل في القوقاس وغيرهما ، يقاتلون الفاتحين الغربيين قتالاً شديداً فكان ذلك القتال على استمراره أشبه بمضغ يزيد العالم الإسلامي جروحاً فيزداد تألماً وصراخاً ، بيد أن قتالاً مثل هذا ما كانت الغلبة فيه لابطال المسلمين ، وذلك لو هن قواهم بعد جهاد كبير طويل العهد ، ولعدم تناولهم مدداً ونصراً يستعينون بهما على المضى في القتال

وما انفكت روح العداء للغرب تهيج وتشتد ، حتى بات العالم الإسلامي قاطبة يغلي غليان المرجل على النار ، فشبّت في الجزائر الثورة المعروفة بثورة « الكايل » سنة ١٨٧١ وهب رجال الدين المعروفون بالأولياء في كل بلاد من بلاد افريقية الشمالية يستثيرون المسلمين ويستنفرونهم للحرب والجهاد ، ومن هذا النوع كانت ثورة المهدي في السودان المصري ، وهي الثورة التي دامت طويلاً وفتت في عضد الانكليز فتناً كبيراً ، وأنزلت بهم خسائر فادحة ، وما خمدت نارها حتى قبض « لكشنر » الاستيلاء على الخرطوم ، وذلك قبيل ختام القرن التاسع عشر . وانفجر في أفغانستان بركان حقّد وعداء للغرب عظيم ،

فتناولت جمه مسلمي الهند فألهمت صدورهم الهاباً ، فهبوا يشقون عصا الطاعة على الانكليز الذين ما استطاعوا تسكين العاصفة الا بعد شق الأنفس وركوب الهول . وحدث مثل هذا في أواسط آسية حيث ظهرت « الطريقة النقشبندية الدينية » فأخذت تمتد وتنتشر شرقاً حتى بلغت الأقطار الصينية فنار مسامو الصين ثورتهم الكبرى في « تركستان الصينية » و « ينان (١) » واشتعلت في جزائر الهند الشرقية الهولندية نار الثورات المتوالية ، وأشهرها ما عرف « بالحرب الاتشية » التي ما برح بعضها متقدماً حتى اليوم .

جميع هذه الثورات التي كانت تشب معاً في هذا الدور في مواضع مختلفة، عداء للغرب وسعياً وراء غاية واحدة ، انما كان ينقصها التنظيم والتمشية على خطط مقرر ، وربط حلقاتها المفردة المبعثرة سلسلة واحدة ، وفوق جميع هذا كانت تعوزها القوة المركزية النابتة للقيام بتدبير الأمور وانشاء الوسائل الدائمة .

وقد كانت الثورة المهدية من البواعث على شبوب هذه الثورات ، والمهدية هذه لم تكن معروفة في صدر الاسلام ، وما ورد لها ذكر في القرآن ، غير أنه جاء في الأثر أن الرسول أنبأ أن رجلا يدعى المهدي سيظهر للناس ليعلاء الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً (٢) ومنذ عهد بعيد كان ينتظر ظهور هذا المهدي لينصر الاسلام ، ويقتل الكفار ، وينيل المسامين السعادة خالدين فيها . على أن المتدبر المستقصي ليعلم أنه قد كان لهذه العقيدة تأثير ظاهر في تاريخ الاسلام فقد قام كثيرون في عصور مختلفة يدعون المهدية فتبعهم عدد كبير ، فلهذا أمر المهدية في الاسلام يشبه أمر « مسيا » في اليهودية ، وقد كان من طبيعة الحال أن المسلمين ، وقد شدد على أعناقهم خناق السيطرة الغربية ، باتوا يعللون نفوسهم بظهور المهدي ، فلما ظهر المهدي ، لم يأت ظهوره بالنتيجة التي تنيل المسلمين السعادة المنتظرة ، فكان مثل المهدي مثل النار هبت في الهشيم وسرعان ما خمدت .

ولما وصلت الحال في العالم الاسلامي الى هذا الحد ، أدرك قادة الجامعة الاسلامية

(١) سيأتي ذكر هذه الثورات في بحث الاسلام في الصين (ش)

(٢) أحسن خلاصة لحديث المهدي وما ذا قيل فيه ما تراه في فصل خاص بذلك من مقدمة ابن خلدون

الحكام جميع هذا وابتوا يوقنون أن الثورات المحدودة المضطرب تشب في موضع تقوم بها أمة من المسلمين دون الأخرى في قطر من الأقطار لا يمكن أن توهن شيئاً من قوة الغرب تلك القوة الحربية المنظمة على أحدث الأصول والفنون ، وأدركوا حق الإدراك أنه إذا رام العالم الإسلامي حقاً تحرير نفسه من اليزر الغربي ، وتحطيم هذه السلاسل الثقيلة التي يرسف فيها منذ عهد بعيد ، ودك هذه السيطرة المذلة دكاً ، وجب عليه أن يعمل عملاً منظماً شاملاً ، ويسعى سعيًا أكيداً ثابتاً ، جامعاً للوحدة العامة والرابطة الكبرى . وأيقن هؤلاء أيضاً أنه لا بد للعالم الإسلامي إذا شاء هذا ، من دراسة علوم الغرب ، واكتناه عظمته وقوته وتقديره ، ونهج مناهجه ، وسلوك سبله في جميع ما يؤدي إلى النهضة الصحيحة القائمة على أسس العلم وأركانه ، فانما هذا هو السبيل الذي لا سبيل الا هو للافلات من ربة استعمار الغرب والتحرر من حكم الفرنجة . وفوق جميع هذا أيقن قادة الجامعة الإسلامية أن استقلال العالم الإسلامي عن الغرب النصراني الاستقلال السياسي ، يجب على كل حال أن يسبقه التجدد الروحي العقلي العلمي الأدبي ، والتربية النفسانية الصحيحة ، وانه متى صلحت نفوس المسلمين وزكت وطابت واعتزت وباتت تعاف الذل وتأنى الضيم ، سهل اذ ذاك كل عمل في سبيل التحرر والاستقلال .

وعند هذه النقطة من الدائرة ، التقت غاية دعاة الجامعة الإسلامية ، وغاية الأحرار ، اذ أدرك الفريقان كلاهما استفحال الخطب الجلل والشقاء الاكبر في العالم الإسلامي ، وما يعانيه المسلمون من الذل والهوان ، فابتغيا تجدد الروحاني واصلاحه النفساني ، غير أنه نشأ الخلاف بينهم في وسائل هذا التجدد والاصلاح وكيفيتهما ، فقال الاحرار ان المسلمين لا مندوحة لهم عن الأخذ عن الغرب ، واقتباس الأفكار منه ، واتباع طريقته في جميع ما هو لازم وضروري لبلوغ الغاية العليا . وقال أرباب الجامعة الإسلامية ان الاسلام بذاته لصالح كل الصلاحية لكي يستمد منه جميع ما هو لازم لذلك ، فلهذا ينبغي أن يقصر أمر الأخذ عن الغرب على محاكاته في انتهاج مناهجه العملية ، والاستعانة بوسائله المادية

خسب

وكان مبدأ سير الجامعة الإسلامية السير المنظم على الخطط المقررة ، حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، اذ كان للجامعة أسنان قامت عليهما ، هما الطرق الدينية الحديثة

النظام كالتريفة السنوسية ، والدعوة التى قامت بها فرقة من جلة العظماء وأكابر المفكرين الحكماء ، يرأسها السيد جال الدين الأفغانى ، وانا بنسط الكلام على هذين الأسين ، بادئين بالأول منهما :

ان الطرق الدينية فى الأقطار الاسلامية هى بنت قرون . وجميعها على نوع واحد من حيث انشاء « الزوايا » على رأس كل منها وازع يعرف « بالمقدم » ، ذى سلطة كبيرة على سائر اخوان الزاوية ، وقد كانت هذه الطرق فى عهدها الأول ، قبل انشاء نظام الطرق الحديثة ، منصرفة عن شؤون الدنيا ، الى شؤون الدين والانقطاع للعبادة ، فكان لكل حلقة من الاخوان رئيس يعرف « بالبرويش » . فلذلك لم يكن لهذه الطرق فى دورها الأول شأن سياسى ، ولما كان التبغض والتعادى منتشرأ بين كل طريقة وأختها ، فقد بات العمل المشترك لغاية واحدة متعذراً ، حتى ان طرقاً هذه صفاتها ما برحت حتى اليوم كثيرة ، ولكن ليس لها ولن يكون لها شأن سياسى يذ كر مادامت على نظامها القديم .

أما النظام الحديث للطرق الدينية فقد أنشئ حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، وأهم الطرق الحديثة هى الطريقة السنوسية بلا مشاحة ، تلك التى أنشأها محمد بن السنوسى ولد السيد محمد فى محل بالقرب من « مستغانم » حوالى سنة ١٨٠٠ فى بيت عريق فى المجد الاسلامى والشرف العربى ، وحسبه محمداً أنه متحدر من السلالة النبوية الطاهرة . وقد عرف السيد محمد منذ حداثة بشغفه بالعلم وسلوكه مسلك التقوى ، فدرس العلوم الدينية فى جامعة فاس ^(١) ، ثم أخذ يسير فى أقطار شمالى افريقية ، داعياً الناس الى الاصلاح الدينى ، وبعد ذلك حج بيت الله الحرام فى مكة المكرمة حيث قضى مدة يأخذ عن الأسانذة الوهابيين ، فزاد بذلك علمه فأتقنت روح الاصلاح فيه . فلم يزايل مكة حتى وضع خطة ورسم طريقة للقيام بالاصلاح الذى نواه واستعان الله عليه ، ثم عاد الى شمالى افريقية سنة ١٨٤٣ فأقام بطرابلس الغرب ، وابتنى له زاوية على جبل بالقرب من « درنا » عرفت « بالزاوية البيضاء » . وقد كان السيد محمد رجلاً شديد الهيبة ، بعيد الهمة ، عظيم الاقدار على التنظيم والاصلاح ، فقصده الناس أفواجا من كل صقع من الأصقاع الافريقية

(١) يريد جامع القرويين الذى هو فى العالم الاسلامى ثاقى الازهر (ش)

الشمالية ، بيد أنه لم يمض غير اليسير من الزمن ، حتى باتت الحكومة التركية في طرابلس تخشى أمره وتقوم وتقعده لشأنه ، فساءت العلاقات والشؤون بينه وبينها ، فنقل مقامه الى واحة « جغبوب » الواقعة للجنوب من صحراء ليبيا ، وجعل مقره هناك . ولما توفى سنة ١٨٥٩ كانت الطريقة التي أنشأها قد انتشرت انتشاراً عاماً في معظم الرقعة الافريقية الشمالية .

وخلف « سنوسي المهدي » أباه السيد محمد السنوسي ، فأخذ يجاهد في سبيل اعزاز الرابطة وتقوية الاصلاح . وخير مثال تدرك به الروح السنوسية وتتجلى تجلياً بيناً في كيفية صيرورة سنوسي المهدي خليفة لأبيه . فقد كان للسيد محمد ولدان ، المهدي أصغرهما ولما كانا لم يزالا غلامين أراد والدهما بلاءهما وعجم عودهما ليرى أيهما أوثق إيماناً وأشدّ اقداماً ، فدعاهما اليه ذات يوم بحضور جميع أهل الزاوية ، ثم أمرهما بأن يتسلقا نخلة باسقة . فلما بلغا عاليها استحلفهما بالله ورسوله الكريم أن يهويا للحال بنفسيهما الى الأرض ، فهوى المهدي بنفسه فأدرك الأرض سالماً ، ولبت الأخرى في على النخلة فقال السيد محمد لجميع من كان حوله : « الخلافة من بعدى انما هي لولدى هذا المهدي الذي لم يتردد في تسليم نفسه لمشيئة الله عز وجل » ، واقتفى السنوسي المهدي آثار والده جميع حياته فكان حاكماً عادلاً تقياً ، وعاملاً كبيراً في سبيل الطريقة الدينية السنوسية ، وفي أواخر حياته نقل مقره الى واحة « الجوف » للجنوب من « جغبوب » في صحراء « ليبيا » وتوفى سنة ١٩٠٢ خلفه ابن أخيه أحمد الشريف ، وهو سيد الطريقة ورأسها الحالي وهو ذو اقتدار وكفاية .

وقد انقضت مدة أكثر من ثمانين سنة والطريقة السنوسية تزداد انتشاراً وثاقفة ، وما برح الجهاد في سبيلها على غير انقطاع ، حتى غدت اليوم عاملاً كبيراً في تيار الحركة الاسلامية وبات لها أتباع في كل قطر من أقطار العالم الاسلامي ، فالسنوسيون في بلاد العرب كثير عددهم ، وليس هذا جميع ما في الأمر بل ان الطريقة السنوسية قد كانت عاملاً شديد التأثير في الحياة الدينية في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وما زالت أقطار شمالي افريقية من أقصاها الى أقصاها مستقر السنوسية ومضطربها ، فنمرا كش حتى الصومال ترى البلاد مرصعة « بالزوايا » ، وهذه « الزوايا » تستمد قوتها من الزاوية المركزيه الكبرى

حيث مقام السيد السنوسى فى « الجوف (١) » الواقعة فى قلب صحراء « لبيبة » . ولم يستطع أحد من الغربيين الوصول الى هذا المكان (٢) سوى رجل واحد (٣) . وتحيط بالجوف الصحراء ، وعلى بعد عدة فراسخ من الجوف آبار الماء ، وأما طرق الصحراء المؤدية الى مقر السنوسى تلك الطرق المضلة ، فلا يستطيع السير فيها الاكل خريت خير من رجال السنوسى ، أمير البلاد وسيدها المطاع

فسلطان السنوسى حقاً سلطان كبير . والسبب فى ذلك أن هذه « الزوايا » عظيمة وشأنها أكبر مما يبدو للقارئ عند أول وهلة . فعلى رأس كل زاوية « مقدم » وفوق المقدم « وكيل » ووظيفته كوظيفة الحاكم المدينى ، وكلا « المقدم » و « الوكيل » ذو سلطة كبيرة على أهل الزاوية جميعاً والقبيلة كافة (٤) . فالامر الذى يصدره أحدهما مقر ونا باسم السيد

(١) يريد بها زاوية التاج فى واحة الكفرة التى فى قلب الصحراء الكبرى (ش)

(٢) قامت الرحلة الانكليزية روزيتا فوربس Rosita Forbes برحلة كبيرة الى صحراء لبيبة سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠ وكان رفيقها السيد أحمد محمد بك حسنين الرحالة المصري المشهور الذى قام هو لوحدهم برحلة عظيمة هذه السنة (١٩٢٣) الى صحراء لبيبة . ووضعت الرحالة فوربس كتاباً بالانكليزية وصفت فيه رحلتها مؤيدة بالبرهان ومشاهدة العيان أن القوة السنوسية فى افريقية تقوم لها وتعد كل دولة مستعمرة هناك ووسمت كتابها هذا ب « أسرار الصحراء » The Secret of the Sahara وقد وضع أحمد محمد بك حسنين كتاباً قىما لرحلته هذه . « المترجم »

(٣) هو المستكشف نختيغال Dr. Nechtigal

(٤) الزاوية فيها مقدم هو القيم عليها ، وهو الذى يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات بينها ، ويبلغ الأوامر الصادرة من السيد السنوسى . وإليه وكيل الدخل والخرج وإليه النظر فى زراعة الأراضى وجميع الأمور الاقتصادية . ومن عاداتهم أن على كل فرد من أفراد القبيلة أن يتبرع بحراثة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم فى أرض الزاوية ، فلذلك يسهل عمران الزاوية بدون نفقة كبيرة ، ثم هناك الشيخ الذى يقيم الصلاة فى مسجد الزاوية ويعلم أحداث القبيلة القراءة والكتابة ، ويفقد فى القبيلة عقود النكاح ويصل على الجنائز الخ . والزوايا السنوسية هى الملاجئ الوحيدة فى الصحراء للمسافرين والتائهين والواردين والشاردين ولا يوجد هناك مساكن مبنية بالحجر غيرها . وقد سرنا - فى طريقنا الى جهاد طرابلس - نحو شهر من ظاهر اسكندرية عند منتهى الخط الحديدى حيث زاوية سيدى هرون القناشى الى موطن الحرب بسهل الفيض أمام مدينة بنغازى ، فكنا بعد كل مرحلة ثلاث ساعات أو أكثر نجد زاوية سنوسية ، هذا عدا زوايا كثيرة ليست مصافة للطريق السلطاني . فان لكل قبيلة زاوية هى مرجعها فى الدين والدنيا ، واذا تعددت فروع القبيلة كالعبيدات مثلاً ، فلكل فخذ منها زاوية ، فلعائلة منصور زاوية ،

السوسى ، انما هو أمر واجب الطاعة على الجميع . وفي الواقع ان وراء الحكومات الغربية الاستعمارية فى شمالى أفريقيا ، من انكليزية وفرنسية وإيطالية ، حكومة سنوسية شديدة المراس قوية الشكيمة ، وهى من عزة الجانب بحيث لا تجسر احدى هذه الحكومات الاستعمارية المذكورة على مس جانبها فى أمر من الأمور . أو اخراجها فى شأن من الشؤون . فلذلك سياسة الحذر واللين متبعة ازاءها على الدوام

والحكومة السنوسية أيضا على حذر من الاصطدام باحدى الدول الغربية ، على أن هذه السياسة سياسة التروى الشديد والاحتراز لتتقضى بالعجب العجاب فابرحت الطريقة السنوسية منذ نصف قرن تقوى وتعظم ، وتمتد وتنتشر ، غير أنها ماركت يوماً مركباً خشناً ، أو سلكت مسلكاً وعراً فيه شئ من الخطر على كيانها السياسى ، وفى جميع الثورات التى هبت فى أقطار شمالى افريقية العديدة ، كان السنوسيون المقيمون بنواحي البلاد يشتركون فى القتال ويشدون أزر الثائرين ، كما حدث فى الحرب الايطالية فى طرابلس الغرب وفى الحرب العالمية الكبرى ، ولكن الطريقة السنوسية نفسها كانت تجتنب الحرب جهدها ، اجتناباً رسمياً على أتم قدر .

بيد أن موقف السنوسية هذا الموقف من الاحتراز والاجتناب ، ليس متخذاً تجاه الدول النصرانية وحدها ، بل تجاه الدول الاسلامية أيضاً ، اذ ما انفك السنوسيون طيلة عهد الطريقة يذودون عن حريتهم التامة ، التى هى عندهم أعز شئ لديهم ، فيبذلون جميع ما يستطيع بذله فى سبيل صيانتها وحماية سياجها . وعلى ذلك لم تكن العلاقات بين السنوسيين والدولة العثمانية جارية بحرى الود والاخلاص ، بل كثيراً ما جهد السلطان عبد الحميد ، وهو

ولعائلة مريم زاوية ، ولعائلة جازية زاوية ، وللبناين زاوية ، وللعوا كله زاوية وهلم جرا ، وان الغريب أو السابل أو الفقير المعترلينزل بزاوية من هذه الزوايا فيقيم ما يشاء ويتضيف ما يشاء ولا يسأله أحد عن شئ . وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجل البقاع وأخصب الأرضين ، وفيها الآبار التى لا تنزح من كثرة ماؤها وفى الجبل الأخضر هي بجانب عيون جارية وأنهر صافية ، كراوية ماره وزاوية مرطوبه وزاوية أم أرزم بقرب درنه وزاوية شحات فى مدينة سيرنا القديمة الخ ، وأينما حل السنوسية عمروا وثمروا ، ووجدت الأرض اهترت وربت وأبنت من كل زوج بهيج ، وقل ان مررت بزاوية ليس لها بستان أو بساتين فيها من كل أنواع القواكه والثمار ، وأصناف البقول والحضرة يزيد قيمتها مصادفة الانسان لها فى تلك البقاع الفاصية عن العمران المحفوفة بالفلوات ، وقد قيدت فى دفتر عندى يحتوى معلومات كثيرة على برقة اسماء نحو ١٢٠ زاوية سنوسية فى تلك الديار وما جاورها الى السودان وليس ذلك العدد هو كل ما عندهم من الزوايا . (ش)

فى ابان مجده وسطوته ، والبطل الاكبر المجاهد فى سبيل الجامعة الاسلامية ، لاستمالة السنوسى اليه وارضائه ، فاستطاع الى ذلك سبيلا ، بل جميع ماأجابه السنوسى على ذلك هو بعض عبارات تدل على شدة الدهاء . وقد يؤثر عن السنوسى قوله : « الترك والنصارى انى أقاتلهم معا وأضر بنهم ضربة واحدة^(١) » . ولما قام محمد أحمد زعيم المهديّة ، يناهض الانكليز فى السودان المصرى وينتصر عليهم . أنفذر رسولا الى السنوسى يطلب منه نصراً فى الحرب ، فرفض السنوسى ذلك وأجاب مستهزئاً : « من هو هذا الفقير المسكين من « دنقلة » (يعنى محمد أحمد) ألاستطيع ان أكون المهدي اذاشتت ذلك^(٢) » ،

فجميع هذا انما يبرهن على أن السنوسى لاينفخ فى غير ضرر ، بل انه البرهان الذى لا يرد على أن السنوسى جاد جدا غير منقطع فى اعداد ما يستطيعه من الوسائل والذرائع الكفية للاصلاح الدينى والتهذيب النفسانى والخلقى لخطئه التى ينوى القيام بها بعد اكتمال العدة التى يجاهد فى سبيلها الآن ، انما هى افتتاح جميع البلاد الافريقية ، ثم سائر الاقطار الاسلامية ، ثم جعل العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه مملكة واحدة ، على رأسها خليفة واحد . وهذه المملكة العظمى يرتبط بعضها ببعض بالجامعة الاسلامية الكبرى ، على أن السنوسى لموقن حق الايقان أن تحرر المسامين التحرر السياسى من ربة السيطرة الغربية النصرانية ، يجب أن يسبقه انتشار التجدد الروحانى والدعوة الاخلاقية فى المسلمين ، فلهذا هو لايفتا يجاهد نحو ادراك هذه الغاية بتهذيب اخلاق رعيته وترقيتها ، وايتناء نفوسها التريبة الصحيحة ، وتنشئتها على الفضائل الاسلامية العليا ، وهو لم يقصر الأمر على هذا فحسب ، بل يجتهد ايضا جادا اقتصاديا فى سبيل تحسين أسباب المعاش وتوفير وسائل الكسب فكثرت فلاحه الواحات الحصنة ، ونمت الزراعة ، واحتفرت الآبار الحديشة وابتليت الأزال على طريق القوافل ، وشرع فى انشاء وسائل التجارة على نطاق رحب .

جميع هذا يوضح لنا أن الطريقة السنوسية قد بلغت مبلغا من الاعتزاز والمناعة لم يسبق له مثيل من قبل . وهذا هو السبب الذى اقتضى أن تسير السنوسية سير الانتاد ، مزودة القوة مشددة البأس ، محترزة على الدوام المجازفة بشئ من قوتها الحربية قبل اكتمال العدة اللازمة

(١) هذه الرواية ترجع أنها مدخولة (ش)

(٢) السنوسى أعلن تكذيب المهدي السودانى (ش)

وحينوة الأجل المرتقب . وبينما تسير السنوسية على هذا الجدد الشديد ، تراها تنشر المدارس وتقيم المآوى والأكنان في جميع البلاد الإفريقية الشمالية . وتعلم الناس طاعة « الوكلاء » و « المقدمين » وفوق جميع هذا . فانها قد اتجهت وتغلغلّت جنوباً في القارة الإفريقية . مبشرة بالرسالة المحمدية . حيث هناك الملايين من الزنج الوثنيين طفقوا يقبلون أيما اقبال على الدخول في الاسلام أفواجاً (١)

ولا شيء أدل على هذه النهضة الاسلامية الحديثة الكبرى ، من هذه اليقظة الروحانية الدينية التبشيرية ، الناشئة والمنتشرة خلال مئة السنة الاخيرة ولاغربة في ذلك فقد كان الاسلام على الدوام دين هداية الناس واخراجهم من ظلمات الشرك الى نور التوحيد هذا التاريخ شاهد حق على ما قام به المبشرون المسلمون في أول عهد الاسلام من الأعمال الجليلة التي لم يقم بمثلها غيرهم من المبشرين . ولا ننسى أن روح التبشير ونشر الدعوة في سبيل الرسالة لم تبرح حية على الدوام ، على انحطاط الممالك الاسلامية وتدهورها . فلذلك ما انفك الاسلام طيلة القرون الوسطى ينتشر في الهند والصين (٢) ، وبينما كانت الرسالة المحمدية تنتشر في نائي تلك الأصقاع ، كان الترك ينشرونها ويرفعون أعلامها في شبه جزيرة البلقان.

(١) اقرأ الكتب الآتية في شأن السنوسية وغيرها من الطرق الدينية : —

« الطريقة الدينية الاسلامية لسيدى محمد بن على السنوسى » — باريس ١٨٨٤

“ La Confrérie Musulmane de Sidi Mohammed Ben Es-Sénoussi ”
H. Duveyrier, (Paris 1884)

و « الطرق الدينية الاسلامية » في الحجاز « باريس ١٨٨٧

“ Les Confréries Musulmanes du Hedjaz, A. Le Chatelier, (Paris 1887)

و « العصبية القومية الاسلامية » قسنطينة الجزائر ١٩١٣ „ Le Nationlisme Musulman „

و « السنوسية » (وهو مقال بقلم أحمد عبد الله وهو من أشياع السنوسية) . مجلة ذا فورم

مايو ١٩١٤ “ The Sennussiyeh ” (The Forum) May 1914

و « السنوسى وجهاده المهدي » — مجلة « القرن التاسع عشر » عدد مارس « آذار » ١٩٠٠

T. R. Threlfall, “ Senussi and His Threatened Holy War, (Marsh 1900)

و « الخطر الإسلامى » — مجلة « القرن التاسع عشر وما بعد » سبتمبر « ايلول » ١٩٠٧

H. A. Wilson, “ The Moslem Menace „

(٢) اقرأ الفصل الوارد في هذا الكتاب على الاسلام في الصين — « العرب »

وبين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، كان المبشرون المسلمون يفتحون بلاد غربي أفريقيا^(١)، وجزائر الهند الهولندية، وجزائر الفيلين، فتحاً دينياً مبنياً. غير أنه في القرن الثامن عشر، أمسى العالم الاسلامي مرتدياً رداء الجلول، ففترت وبردت حرارت المبشرين المسلمين، وسكنت تلك الروح النائرة الجوابة.

ولبت الاسلام هكذا، حتى تبشير اليقظة الحديثة، فعادت تلك الشرارات الكامنة في الرماد تستطير، وما هي الا فترة يسيرة حتى اشتعلت نار التبشير ثانياً، فأخذ الاسلام يحوز حدوده وينبث في كل صقع من أصقاع العالم الاسلامي ماعدا أوروبا. وعند اعتبار شأن انتشار الاسلام هذا الانتشار، يجب أن نعلم العلم اليقين أن كل مسلم هو بغريزته وفطرته مبشر بدينه، ناشر له بين الشعوب غير المسلمة ما استطاع الى ذلك سبيلاً، وعلى ذلك ان نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم ولا قصر الأمر عليهم دون سواهم، هكذا، بل شاركهم فيه جماعات، عديد من السياح والتجار والحجاج، على اختلاف الأجناس. ولا يؤخذ من هذا انه لم يقم في المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الحام في سبيل الدعوة الاسلامية، فعدد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير، وذلك ظاهر بين في أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج الى برهان، بل أي دليل أقطع من المبشرين السنوسيين، الحس الغير، الذين خرجتهم زوايا الصحراء وهم يعدون بالالوف المؤلفة، وما انفكوا يحجوبون كل بلاد وثنية مبشرين بالوحدانية، داعين الى الاسلام. وهذه الاعمال التي قام بها المبشرون المسلمون في غربي افريقية وأوسطها خلال القرن التاسع عشر الى اليوم لعجيبة من العجائب الكبرى، وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر، فقد قال أحد الانكليز في هذا الصدد منذ عشرين سنة: «ان الاسلام ليفوز في أواسط افريقية فوزاً عظيماً، حيث الوثنية تختفي من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات». وقال مبشر پروتستنتي فرنسي: «ما برح الاسلام يسير اليقدمية منذ نشوئه حتى اليوم، فلم يعثر في سبيله الا القليل، وما زال يسير في جهات الأرض حتى بلغ قلب افريقية مذلاً أشق المصاعب ومجتازاً أشد الصعاب، غير واهن العزم فالاسلام

(١) اقرأ الفصل الوارد في هذا الكتاب على الاسلام في افريقية - «المرب»

حقاً لا يرهب في سبيله شيئاً ، وهو لا ينظر الى النصرانية ، منازعته الشديدة ، نظرة المقت والازدراء ، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر ، اذ بينما كان النصارى يحملون بفتح افريقية في نومهم ، فتح المسلمون جميع بقاع القارة في يقظتهم ^(١) »

واما السبيل الذي يسير فيه الاسلام جنوباً في افريقية فهو من الرائع الغريب . منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الانكليزية ، على غير متوقع ، على أن المبشرين المسلمين محترقون « نياسلندة » دعاة الى الرسالة المحمدية ، و بعد البحث والاستقصاء واذكاء العيون ، وجدت تلك الحكومة أن المبشرين انما هم من عرب زنجبار ، قد بدأوا عملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠ ، وأنه بعد مضي عقد من السنين على شروعهم في جهاد التبشير ، كانت كل قرية في جنوب « نياسلندة » قد أسلمت وفيها مسجد ومدرسة اسلامية ومعلمون مسلمون . ومع أن هذه الدعوة كانت ، كما هو ظاهر من أمرها ، وسيلة شديدة لتضعف سلطة المستعمرين وسيطرتهم ، فلم تجسر الحكومة الانكليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها في الاقطار الأخرى . ويقول بعض المفكرين الغربيين في هذا العصر ، انه لن تمضي مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الإسلام قد اجتاز « زمبازي » وانتشر في جنوب افريقية انتشاراً عاماً ، فيطبق القارة بأسرها .

وليس ظفر الاسلام في افريقية مقصوراً على الوثنية فحسب ، بل على النصرانية الافريقية كذلك ، اذ ترى الآن الذين تنصروا في غرب افريقية على يد المبشرين الفرنجة يتناقصون عدداً تناقصاً فاحشاً ، وذلك لارتداد غالبهم عن النصرانية ودخولهم في الاسلام . زد على ذلك أن النصرانية في الحبشة ، انما باتت في خطر شديد من جراء سيول الاسلام الطامية ، من بعد ما كانت فيما مضى سداً منيعاً في وجه الاسلام . والغريب في هذا كل الغرابية أن الأحباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون في الاسلام أفواجا متلاحقة ، لاعلى يد فتوح برية بل فتوح سلمية دينية . وقد قال أحد الثقات الغربيين حديثاً : « منذ خمسين سنة خلت كنت ترى قبائل الأحباش العديدة ، لا يكاد يرى فيها مسلم واحد ، أما اليوم فغالب هذه القبائل هم مسلمون مؤمنون بالرسالة المحمدية . »

(١) للاطلاع على مجاهد التبشير الاسلامي في افريقية اقرأ كتاب : —

ج . بونه موري — « الاسلام والنصرانية في افريقية » (باريس ١٩٠٦)

G. Bonet Maury. " L' Islamisme et le christianisme en Afrique. »

وربما كان ظفر الاسلام فى افريقية اليوم أعظم ظفر لاقاد المبشرون المسلمون حديثاً، بيد أن هذا ليس جميع الظفر الاسلامى بل هناك غيره مثله فى سائر أنحاء العالم . وقد أتينا فى الفصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الاحرار السياسية فى بلاد التتر الروسية، بحيث بقى علينا الكلام على النهضة الدينية العجيبة التى رافقت تلك اليقظة التترية . كان التتر ما برحوا منذ عهد بعيد فى الحكم الروسى ، وقد جهدت الكنيسة الارثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتنصيرهم ، فأدركت فى بعض المواضع بعض النجاح الذى لا يذكر ، غير أنه لما انتشرت اليقظة الاسلامية العامة ، ووصل ما وصل منها الى بلاد التتر فى أوائل القرن التاسع عشر ، هب التتر للحال يستردون اخوانهم المنتصرين الى الاسلام ، فلم يعض غير اليسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فانتحلوا دين الرسالة ، على جميع ما بذلته الكنيسة الارثوذكسية من العناء الاشق ، ولجأت اليه من مختلف الذرائع والوسائل ، لتحول دون ذلك ، فلم تلق شيئاً من النجاح ، بالرغم مما اتخذته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب ، ووسائل القهر والاكرام^(١) . على أن المبشرين المسلمين التتر لم يقصروا أمرهم على هذا ، بل شرعوا فى نشر الاسلام فى القبائل التركية الفنلندية الأمية ، المقيمة فى الشمال من بلاد التتر ، غير مباينين بمقاومة حكام الروس لهم ولولا قوا من وراء ذلك من الهول مالا قوا .

وكانت النهضة الاسلامية فى الصين عجيبة لامثيل لها ، فيقتضى الحال أن نبسط كلمة فى شأنها . كان بلوغ الاسلام الصين منذ عهد بعيد ، على يد التجار العرب وكتائب جنود عربية مرتزقة . فصار على توالى الايام يختلط العرب الغرباء بالصينيين تزواجاً وتعاوناً فى أمر المعاش وغير ذلك ، بيد أنه على جميع هذه القرون التى كرت حتى اليوم ، لم يرح المسلمون الصينيون يتميزون عن سواهم تميزاً حافظاً لأنسابهم العربية التى يختلفون بها ميولاً و اخلاقاً عن عامة الصينيين اختلافاً بعيداً ، وهم أبداً يدعون لنفوسهم ميزة الشرف والعلو على غيرهم من السكان ، أما موطنهم فى مقاطعات « ينان » الجنوبية وما يليها من المقاطعات الداخلية ، وهناك بلاد مسلمة فى الصين غير هذه ، هى بلاد تركستان الشرقية التى فتحتها الصين فى القرن الثامن عشر ، وأهلها مسلمون متسلسلون نسباً من العروق التركية القديمة . وقد ظل المسلمون الصينيون جميعاً على اختلاف أجناسهم يعاملون معاملة الخسنى والرفق .

(١) اقرأ الفصل الوارد فى آ هذا الكتاب على المسلمين فى بلاد الروسية فى عهد البلاشفة — « العرب »

حتى العهد الأخير ، اذ طفقوا يشمخون بأنوفهم غرأ وكبرياء ، فأقلق ذلك الحكومة الصينية ، فانقلبت عن الاحسان الى الاساءة اليهم واضطهادهم . لكن لما أخذت اليقظة الاسلامية العامة تجوب آفاق العالم الاسلامي بانتشارها المطبق في القرن التاسع عشر ، فبلغت الصين كما بلغت غيرها ، هب المسلمون الصينيون هبة الذعر فهاجت فيهم النعرة الدينية الاسلامية ، فأخذوا يوقدون الثورة تلو الاخرى ، حتى كانت الثورة الكبرى المشبوبة نارها سنة ١٨٧٠ في «ينان» وتركستان الشرقية ، فأظهر هؤلاء المسلمون من شدة الاستبسال والمغامرة في القتال ما لم يسمع بمثله من قبل . وقام في تركستان زعيم كبير ، وقائد مجرب ، هو يعقوب بك فاستطاع هذا الزعيم المقدم أن يجعل تركستان و «ينان» بلاداً مستقلة استقلالاً محمياً السياج عدة سنوات ، فكان يخيّل الى الكثير من رجال الذهن في الغرب عهدئذ ، ان الثوار لتحدون جميعاً اتحاداً منيعاً وثيقاً ، ومنشئون دولة اسلامية ثابتة الازكان في الصين الغربية ، ثم شارعون يفتحون المملكة الصينية رقعة رقعة . وقد اشتهر يعقوب بك اشتهاراً بعيداً ، فداع اسمه وذكره في جميع العالم الاسلامي . وقد أعجب به السلطان العثماني وعظم بأسه وحسنه ، فأنعم عليه بلقب «أمير المؤمنين» في تلك الديار . وبعد أن طال القتال شديداً عدة سنوات وكثر وقوع المذابح الهائلة ، استطاعت الحكومة الصينية أن تخمد شوكة الثائرين ، ولكن بعد أن جلت خسائر المسلمين في النفوس ، اذ ما برحوا حتى اليوم في قوتهم دون ما كانوا عليه من قبل . وأما من حيث حالتهم الروحانية والأدبية فما زالوا يشتملون في نفوسهم على صفات ومزاي من اباء الضيم وغياف الذل ، فلما اشتمل على مثلها سواهم . وأما عددهم اليوم فيصلح أكثر من ١٠،٠٠٠،٠٠٠ . وعلى هذا يجب ألا يندب عن البال ان المسلمين في الصين بالغون من الشأن في عالم اسلام الغد مبلغاً عظيماً وصارون الى شأن كبير .

ولو شئنا لتوسع في الكلام على النهضة الاسلامية العامة حتى يتناول جميع فروعها في القرن الماضي ، لاستغرق ذلك الأسفار الضخام ، ففي الهند ما برح الاسلام ينتشر انتشاراً متوالياً ، وكذلك في جزائر الهند الهولندية . أما الدول الغربية الاستعمارية فانها لا تستطيع غير أن تدع هذا الانتشار الاسلامي وشأنه ، دون أن تحاول الوقوف في وجهه أو صد تياره ، والسبب في ذلك أن المسلم اليوم قد ألق الاتفاع من المستحذات الغربية كالقطن الحديدية والبرد والمطابع في سبيل نشر الدعوة الاسلامية ، وفي ذلك من المنافع الاقتصادية التي تجتنيها

هذه الدول مما لا يخفى على أحد .

واذ بلغنا الى هذا الموضع في الكلام على الأس الأول للجامعة الاسلامية ، ننتقل للكلام على الأس الآخر ، وهو الدعوة الكبرى التي قام بها جلال الدين الأفغاني وقد عرفت به من بعده .

ولد السيد جلال الدين الأفغاني في مطلع القرن التاسع عشر في « أسد آباد » بالقرب من همدان في بلاد فارس . وهو أفغاني الأرومة لا فارسي ، يتحدر نسباً ، كما يدل لقب سيادته على هذا ، من العترة النبوية الطاهرة ، ويجري في عروقه الدم العربي البحت الكريم .

كان جلال الدين سيد النابغين الحكماء ، وأمير الخطباء البلغاء ، وداهية من أعظم الدهاة ، دامغ الحجة قاطع البرهان ، ثبت الجنان ، متوقد العزم ، شديد المهابة ، كأن في ناسوته أسرار المغنطيسية . فلماذا كان المنهاج الذي نهجه عظيماً . وكانت سيرته كبيرة ، فبلغ من علو المنزلة في المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواه . وكان سائحاً جوّاباً طاف العالم الاسلامي قطراً قطراً ، وجال غربي أوربة بلداً بلداً ، فاكْتَسَب من هذه السياحات الكبرى ، ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع في سير العالم والأمم ، علماً راسخاً ، واكتنه أسراراً خفية ، واستبطن غوامض كثيرة ، فأعانه ذلك عوناً كبيراً على القيام بمجلائل الأعمال التي قام بها . وكان جلال الدين بعامل سجيته وطبعه وخلقه ، داعياً مسلماً كبيراً فكأنه على وفور استعدادده ومواهبه انما خلقه الله في المسلمين لنشر الدعوة فحسب ، فانقادت له نفوسهم ، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم ، فليس هناك من قطر من الأقطار الاسلامية وطئت أرضه قدما جلال الدين الا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية ، لا تخبو نارها ولا يتبدد أوارها . وكان يختلف عن السنوسي منهاجاً ، فبال انكسار على السياسة وشؤونها ، وذلك على علوم الدين وترقيتها . غير أن السيد جلال الدين الأفغاني كان أول مسلم أيقن بخطور السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الاسلامي ، وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدها وامتدت حياتها ، ورسخت في ترربة الشرق ، وأدرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائية الكبرى ، اذا لبث الشرق الاسلامي على حال مثل حاله التي كان عليها . فهب جلال يضحي نفسه ويفنى حياته في سبيل ايقاظ العالم الاسلامي ، وانذاره

بسوء العقبى ، ويدعوه الى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير ، فلما اشتهر شأن جال خشيت الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له ألف حساب ، فنفته بحجة أنه هائج المسلمين ، ولم تحف دولة جالا وتضطهده مثل ما خافته واضطهده الدولة البريطانية ، فسجنته في الهند مدة ، ثم أطلقت سراحه فجاء الى مصر حوالى سنة ١٨٨٠ وكانت له يد في الثورة العراقية التي أوقدت نارها في وجه الغربيين ، فلما احتل الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ نفوا جالاً للحال ، فزایل مصر وأنشأ يسيع في مختلف البلدان حتى وصل الى القسطنطينية ، فتلقاء عبد الحميد بطل الجامعة الاسلامية بالبرّة والكرامة ، وقربه منه ورفع منزلته ، فسحر جال السلطان الداهية بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة فقلده السلطان رياسة العمل في سبيل الدعوة للجامعة الاسلامية . ويغلب أن ما ناله السلطان عبد الحميد من النجاح في سياسته في سبيل الجامعة الاسلامية ، إنما كان على يد جال الدين المتوقد الهمة المشتعل العزم ، والتحقيق جال الدين بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخاً وعاملاً كبيراً في سبيل النهضة الاسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه .

وهاك ملخص تعاليم جال الدين : —

« العالم النصراني ، على اختلاف أئمة وشعوبه عرقاً وجنسية ، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص . فجميع الدول النصرانية متحدة معا على ذلك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

« الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى ككون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت في قلب بطرس الباسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها ، متغلغلا في أحشائها ، و متمشياً في كل عرق من عروقها ، وهي أبداً ناظرة الى الاسلام نظرة العدا ، والحق ، والتعصب الديني الممقوت ^(١) . وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان في كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى ، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الاسلامية مستوية مع الأمم النصرانية .

(١) اقرأ التمليق الخطير الشأن ، الوارد في هذا الكتاب رداً على مقالة « الاسلام والجنود السوداء »

لكتابها روجر لوبون في (مجلة باريز) عدد ابريل ١٩٢٣ — (المغرب)

« تنتحل الدول النصرانية أعذاراً لها في كرها وهجومها وعدوانها على الممالك الاسلامية واذ لالها واكرهاها ، بقولها ان الممالك الاسلامية هذه انما هي من الانحطاط والتدلى بحيث لاتستطيع أن تكون قوامة على شؤون نفسها بنفسها . وفوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية ، وتذرع بألوف الذرائع من نواح أخرى ، حتى بالحرب والحديد والنار ، للقضاء على كل حركة حاو لها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة

« جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداة الاسلام ، وروح هذا العداة متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً لاسحق الاسلام سحقاً .

« تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم وآماله ورغباته التي تجول في صدره ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء . فان ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق تعصباً مذموماً محرماً ، هو عندهم في بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة والقومية المقدسة ، والوطنية المعبودة ، وان ما يدعونه عندهم في الغرب اباءة النفس ، والشمم ، والشرف الوطنى ، والعزة القومية ، يعدونه في الشرق غلواً مكروهاً ، وافراطاً في حب الوطن ضاراً ، ومقتاً وشناة للاجنبى الغربى .^(١) »

« جميع هذا يوضح أن العالم الاسلامى يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً ، مستمسك الاطراف وثيق العرى ، ليستطيع بذلك الزياد عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل ، وللوصول الى هذه الغاية الكبرى انما يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته^(٢) »

هذه دعوة جمال الدين على الايجاز ، التي أفنى حياته في سبيل نشرها بالبلاغة الساحرة

(١) منقول من مقال بتوقيع « x » موسوم ب (الجامعة الاسلامية والجامعة التركية) نشر في مجلة العالم الاسلامى (مارس ١٩١٣) ويقول كاتبه انه قد استفاد من مسلم ثقة كبير المنزلة والثأان .
 “Le Pan - Islamisme et la pan - Turquisme” - Revue du Monde musulman.
 ومن أراد التوسع في الاطلاع على أعمال جمال الدين فليقف على كتاب (العصبية الجنسية الاسلامية) لسرفيه .

(٢) اقرأ التعليق الوارد في هذا الكتاب على السيد جمال الدين الافغانى حكيم الشرق (العرب)

والحجج الدامغة ، فكانت كالغيث الجود أصاب التربة الجذباء . ولا عجب أن يكون جلال الدين ذلك الرجل الموقظ الكبير ، وتكون كل نسمة نفخها في المسلمين عاصفة زرعها ، وقد بات اعتداء الدول الفرنجية وعدوانها وبغيها منتشراً في كل قطر من أقطار العالم الإسلامي ، فتفاقم الخطب واشتد البلاء . على أن جلالاً ما كان يقوم بجميع هذا وحده ، بل كان غيره أيضاً من قادة المسلمين لم يرحوا منذ منتصف القرن التاسع عشر يشنون الدعوة في سبيل الجامعة الإسلامية ، وأحد هؤلاء الدعاة العظماء هو عالي باشا التركي الكبير ، الذي يؤثر عنه قوله : « ما يحتاج اليه المسلمون الاحتياج الأشد انما هو ازدياد النعمة الدينية فيهم ، لاتنقصها فاضمحلالها » . وقد أثر هذا القول عنه ارمينيوس فاميري ، المستشرق الهنغاري الكبير ، والعلامة المشهور ، وذلك بعيد حرب القرم ، وكان هو قد شهد بنفسه مجلساً من مجالس الجامعة الإسلامية في منزل عالي باشا ، حضره رسل ووفود ونواب من جميع أقطار العالم الإسلامي .

على مثل هذه الأسس بنى السلطان عبد الحميد بناء الجامعة الإسلامية وشيد أركانها وأضاف إليها كل مطعم بعيد وغاية جلية . فعبد الحميد في الواقع داهية من أعظم دهاة العصر الحديث ، وسياسي في منتهى الحصافة ، غير أنه على كل هذا كان ذا أطوار خلقية عجيبة تفضي به وساوسه أحياناً الى حد الألم

فقد اختط الخطط الكبرى لتحقيق مشروعاته العظمى ، ثم طفق يسي وراء ذلك بمتنوع الوسائل سعياً وان كان قائماً معظمه على شدة الخنق والدهاء فإنه لم يخل في بعض المواضع من ضروب العبث وكان سلطاناً مستبداً طبعاً وسجية ، ظنين بالسوء بعماله ، مولعاً بأن تكون صفائر الشؤون وعظائمها معلقة على ارادته النافذة . وفوق جميع هذا ، فقد كثر من حوله الوشاة والمداهنون الذين وقفوا على سريرته وعرفوا مشربه ، فجعلوا يحسنون له أهواءه ويجارونه مع محض رغباته

وكان ارتقاؤه الى العرش سنة ١٨٧٦ في ان شديد عصب ، فقد كانت الدولة على أبواب الحرب العثمانية الروسية ، وكانت الحكومة في أيدي عصابة من الساسة يسعون سعي المصلحين في تجديدها على الطراز الحديث ، والنهج بها على المناهج السياسية الدستورية الغربية . فلما أخذ عبد الحميد بأزمة الأمور نقض جميع ذلك نقضاً ، واهتبل ساحة تضعع الدولة عند

الخروج من الحرب الروسية ، فألقى مجلس النواب وجعل نفسه السلطان المطلق لا تعالو يدّه يد ، له الأمر والنهي وحده . ولما استوثق له الأمر ، شرع يقوم بسياسته الخاصة التي نحا بها منذ أول الأمر منحى الجامعة الاسلامية .^(١) فعقد عزمه على أمر لم يعقد عزمه على مثله أحد من أسلافه الأقربين ، وهو التذرع بالخلافة لبلوغ أغراض سياسية عظيمة ، واذ أبان للآلاف كافة ، أنه فوق كونه سلطان الدولة العثمانية ورئيسها السياسي الوحيد ، فهو الخليفة الديني للمسلمين أجمعين ، أخذ يستصرخ الأمم الاسلامية في كل رقعة من رفاق العالم الاسلامي لتمديد العون اليه ، وتشد أزره بالالتفاف من حوله ، قاصداً بذلك قذف الرعب في روع الدول الغربية التي خالها ربما كانت تأتمر فيما بينها وتتشاور ، وتتخذ الوسائل وتقوم بالتدبيرات ، للانقضاء على المملكة العثمانية . وكان منذ عهد بعيد يدبر أمر نشر الدعوة للجامعة الاسلامية تديراً نائياً المضطرب واسع النطاق ، غلبه بالوسائل الخفية الهائلة . فعدت القسطنطينية مكة ثانية ، يلوذ بها جميع ذادة الاسلام المشتهرين بأعمال المقاومة للدول الغربية مثل جال الدين وأنداده^(٢) ، ومن القسطنطينية صارت توفد الوفود وتنفيذ الرسل وجاءت دراكا الى جميع الأقطار الاسلامية ، حاملة رسالة الخليفة ، ألا وهي رسالة الامل المحقق في النجاة من خطر حكم الفرنجة الكافرين .

(١) كان الكاتب الفرنسي المشهور غبريال شارم أول من استشف سياسة عبد الحميد وغايته ومقصده في الدعوة للجامعة الاسلامية ، فجعل ينشر الفصول المتعة في هذا العدد منذ سنة ١٨٨١ . وفي سنة ١٨٨٣ وضع كتابه (مستقبل تركيا والجامعة الاسلامية) أودع فيه جميع مارجم بالغيب .

Gabriel Charmes " L'avenir de la Turquie - Le Pan Islamisme . "

(٢) جمع السلطان اليه كثيرين من مقدمى العرب وزعمائهم ، ومشايخ الطرق فيهم ، من الحجاز ، والشام ، والعراق ، ونجد ، واليمن ، ومصر ، وطرابلس ، وتونس ، والمغرب ؛ وآخرين من زعماء الأكراد وآخرين من زعماء الارناووط ؛ لا لزوم لتسميتهم ، وأقرم في الاستانة ؛ وأجرى عليهم الأرزاق كما هو معروف . قال لى أثناء الحرب كبير أولاده الأمير محمد سليم افندى : « كان الأارناووط في يد والدى يهدد بهم أوستريا وجميع دول البلقان . كما أنه كان يهدد بخيالة الأكراد الروسية بعظمها كلها ؛ فتحسب للآليات الحميدية حساباً . وكان يهدد بالعرب الدول الغربية بأسرها ؛ فظن هذه الدول أنه بالعرب يخفق لها مشكلات لا تنتهى . فلا كن أصبحنا ؛ والارناووط قد خرجوا من السلطنة بعد قتال شديد معنا . والاكرد بدل أن يجاهدوا أمام الدولة في الروس ؛ صار يلزمنا أن نسوق العساكر لتطويعهم حينئذ عساكرنا هي في ملحمة كبرى مع الروس . وأما العرب فبعد أن كانوا عدتنا وسلاحنا لمقاومة الدول الغربية ، انقلبوا عوناً للدول الغربية علينا . » انتهى . ومراده بذلك انتقاد سياسة تركيا في الستين الاخيرة . (ش)

وظلت دعوة عبد الحميد للجامعة الاسلامية تسير سيراً متوالياً مدة تقرب من ثلاثين سنة . غير أنه لمن الصعب الشديد أن يستطاع تحديد المفعول الذي كان لهذه الدعوة الكبرى تحديداً يبنياً ، والسبب الأكبر في ذلك هو أنه لما حدثت ثورة « تركية الفتاة » سنة ١٩٠٨ ، وخلع عبد الحميد توقف مجرى الدعوة للجامعة الاسلامية وفتري سيرها في المتجه الذي كانت تسير فيه . زد على ذلك أن تركية على عهد عبد الحميد لم تخض غمار حرب بينها وبين دولة غربية من الدول الكبرى ، لهذا يتعذر الوقوف وقوفاً صحيحاً على مبلغ ما كانت عليه الأمم الاسلامية من الاستعداد والأهبة لاجابة نفي الجهاد . على أن عبد الحميد قد أفلح حقاً في حمل أمراء المسلمين وقادتهم على الاعتراف بسلطته الروحانية ، فولوا وجوههم شطره وحسبوه قبلة آمال العالم الاسلامي ، وفدسوا مقامه تقديساً ، وغدا العظماء والكبراء يتقاطرون الى فروق من كل فج من أجاج العالم الاسلامي لمبايعة الخليفة الأعظم أمير المؤمنين وحامي بيضة الاسلام ، الذي مملكته مملكة حصن الاسلام والمسلمين . ولم يستطع عبد الحميد مع كل هذا أن يستميل اليه قائداً كبيراً من قادة العالم الاسلامي أعنى به السيد السنوسي ، الذي كان يخامر قلبه الريب في مقاصد السلطان وأغراضه البعيدة ، وكذلك كان الأحرار في كل مكان يعرضون عن نصرة السلطان لاستبداده الشديد . وعلى الجملة فانه ليس باليسير أن يثيقن هل كانت الأمم الاسلامية متأهبة لتلبية دعوة السلطان عبد الحميد للقيام بالجهاد الاسلامي المقدس ، فيما لو كان دعاها يوماً الى ذلك .

وفوق جميع هذا فقد استطاع عبد الحميد أن ينشر الدعوة في سبيل الجامعة الاسلامية الكبرى في أوسع آفاقها ، ويخفي الشعور بالوحدة العامة والنضامن المستمسك بعضه ببعض ، في جميع الأمم الاسلامية ، احياء نشيطاً . ولم يكن يساعده على ذلك كونه خليفة الاسلام لحسب ، بل ما كان ييسطه ويبينه من جميع مآسكه وتظهره الدول الغربية من أنواع العداء ، والمقت للمسلمين والتحامل عليهم . هذا هو السبب الأكبر في أن الدعوة التي أنشأها ودبرها عبد الحميد في سبيل الجامعة الاسلامية كان لها من التأثير الشديد في نفوس المسلمين ما برح يزداد وينمو .

فلما حدثت ثورة تركية الفتاة سنة ١٩٠٨ تبدلت الحال تبديلاً كبيراً في العالم الاسلامي ، فتلقت الثورة التركية ثورة ايران ، ثم أخذت شرارات الثورات تبدو في عقبها الانفجار

فى كثير من الأقطار الشرقية ، وعلى أثر ذلك شرع يقبى فى وقت قريب فى كل قطر اسلامى تيار جديد هائل ، وظواهر اجتماعية لم تعهد من قبل ، كطلب الحكومات النيابية ، واحياء روح الجنسية والقومية وما أشبه ذلك ، مما رافقه تطور اجتماعى كبير — تطور كانت عناصره منذ أمد بعيد تزداد اختاراً فى العالم الاسلامى حتى حان أجل ظهوره فظهر رائعاً . وانا سنفصل الكلام على هذا التطور بأنواعه فى الفصول التالية من هذا الكتاب ، غير أن ما يجب تدبره مجلأ فى هذا المقام هو ما كان لهذا التطور الكبير من التأثير فى مجرى حركة الجامعة الاسلامية ، فونيت فى سيرها بعض الونى مدة كان فيها الاضطراب السياسى والقلق الاجتماعى ينتشران انتشاراً عاماً فى جميع بقاع العالم الاسلامى .

ولم تسكن هذه الفترة طويلاً . وفى سنة ١٩١٢ عادت الجامعة الاسلامية تستأف سيرها ومجرها ، وكان الباعث على ذلك هو اشتداد اعتداء الدول الغربية . وفى سنة ١٩١١ أغارت ايطاليا معتدية على طرابلس الغرب الافريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ماعلة سوى الاستعمار . وفى سنة ١٩١٢ تألبت الدول البلقانية النصرانية وأوقدت نار الحرب على تركيا ، غسرت تركيا فى هذه الحرب جميع أملا كها الأوربية ، فلم يبق من جميع ما كان لها فى أوروبة غير القسطنطينية معرضة لخطر الغارات عليها ، ومهددة شر تهديد^(١) . وفى تلك الغضون اتفقت امكثرة وروسية على خنق الثورة الفارسية ، وكانت فرنسا على أثر معضلة « أغادير » تحرق الارم ، فعضت على مرا كس بالنواجد وأنفقت فيها المحال ، وهكذا فى خلال سنتين توالى الحملات الأوروية تترى على العالم الاسلامى ، جلالت العدوان والاعتداء المحض ، فزقت ما كان باقياً منه حتى ذلك العهد سليماً شرمزق .

فنز ذلك على الأمم الاسلامية قاطبة نزول الصاعقة يصم الآذان دويها . فأخذ العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتتلاً غضباً وحنقاً . فعادت الجامعة الاسلامية الى سابق حالها تجرى مجرى سريعاً . وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان يبنى به على غير انقطاع دعاة الجامعة الاسلامية منذ خمسين سنة — الحرب الصليبية الجديدة لدك الممالك الاسلامية دكاً . وصدق جميع ما كان يذيعه جال الدين الأفغانى ، الحكيم العظيم .

(١) عند ما أعلنت الدول البلقانية الأربع الحرب على تركيا ، نشرت بلاغا لم يشك قارئه أنه بلاغ ملوك الصليبيين فى القرون الوسطى . . . أى اعلان حرب دينية ولم نجد من الاروبيين من أنكر هذا الامر. (ش)

وأخذت تتأجج الجامعة الاسلامية تنبدي ، ففي طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب يقانلون جنباً الى جنب بروح عجيبة تبغثها فيهم دعوة الجامعة الاسلامية ، من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال من الازورار والتنافر شديدة فاقى المعتدون الطليان أمامهم مقاتلة مستبسلين ملء صدورهم ضرم من التعصب لا يطفأ ، ضرم يزيده العالم الاسلامي وقيداً^(١) مما حل ساسة الغرب على الجزع والارتباك شديداً ، فأخذوا يتساءلون في الخطب الكبير ، وفي الذي عساه أن ينفجر انفجاراً عاماً في مشرق العالم الاسلامي ومغربيه . فقال « غبريال هانوتو » وهو وزير فرنسي من وزراء الخارجية السابقين : « بالله لماذا وجدت ايطاليا طرابلس غير المحصنة كوكر الزناوير الساعة ؟ أفليس لأنها لا تحارب تركية وحدها بل العالم الاسلامي أجمع . فايطالية جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها » ولم يكن خنق انكلترة وروسية لثورة ايران ، ومحق فرنسا لاستقلال مرا كاش بأقل استنارة للعالم الاسلامي من حرب طرابلس ، فزادات نار الغضب احتداما .

غير أنه لما نشبت الحرب البلقانية ، طفح الكيل وبلغت الروح التراقي . فبات المسلمون من الصين حتى الكونغو ، يرتقبون أنباء الحرب ونتيجتها ، وقلوبهم على أحر من جمر الغضا ، فلما طير البرق نبأ الكارثة التركية في البلقان أجفل العالم الاسلامي للخطب أيما اجفال ، وبلغت صرخاته عنان السماء . فقال أحد مسلمي الهند في نداء وجهه الى بني قومه : « يوقد ملك اليونان نار حرب صليبية جديدة ، ويستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الاسلام ، ويأتمر وزراء الروسية في بطرسبرج لرفع الصليب وشككه على قبة مسجد « آجيا صوفيا » فالיום هم يأترون ويتشاورون في هذا الخطب ، وغداً يفعلون مثل ذلك للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب - المسجد الأقصى في بيت المقدس . » أيها المؤمنون الاخوة ! اتحدوا وكونوا كالبنين المرصوص يشد بعضه بعضا . فان

(١) عند ما كنا في معسكر أنور بعين منصور بأعلي درنه ، كنا نهد مجاهدين لا من برقة ، ولا من طرابلس فحسب ، بل من تونس ؟ والجزائر ؟ والمغرب الأقصى ؟ ومن السودان ، ومن مصر ، ومن الشام ، ومن بلاد الترك ؟ وقدم علينا ٥٠ مجاهداً من بلاد الافغان وذكر السنور جيولتي في خاطراته التي نشرها مؤخراً ؟ وكان أيام الحرب الايطالية رئيس نظار ايطالية ، أن انكلترة ألحت عليه بالاتفاق كيفما كان مع تركية ، أنهاء لهذه الحرب التي أثارت جميع العالم الاسلامي ، حتى وردت على انكلترة الاختناجات ليس من الهند فقط ، بل من كل بقاع العالم الاسلامي حتي الصين : (ش) .

الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم الى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين ، ويجاهد في سبيل النود عن حياض الاسلام والمسلمين .

وقال أحد زعماء المسلمين في الهند مخاطباً الدولة البريطانية : « اننا ننادي الحكومة البريطانية بعمل أفواها أن تقمع عن سياستها العدائية لتركيا ، اتقاء لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين ، انفجاراً يجر البلاء عظيماً »

وأعجب ما بدا ، أن أخذ المسلمون يوجهون النداء تلو النداء لغير المسلمين من شعوب آسية ، يدعونها الى التآزر والائحاد ازاء الغرب المعتدى ، فكان هذا الأمر وإيم الحق غريباً في بابه لم يسبق له مثيل منذ نشوء الاسلام . فان محمداً ، وقد جاء بالقرآن مصدقاً للتوراة والانجيل ، وقال انه هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، بعث الله من قبله موسى وعيسى ؛ أمر المرسلين باحترام النصارى واليهود وسماهم « أهل الكتاب » ، تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان . وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير ، فما كانوا قط يوماً مبغضين للنصارى بفضهم للوثنيين من البراهمة والبوذيين والكشفوشوسيين أهل الشرق الاقصى (١) .

(١) ان الاسلام ، هو كما هو معلوم من القرآن الكريم ، يرى النصارى أقرب الناس مودة الى الذين آمنوا ، وان القرآن جاء مؤيداً ، للانجيل والتوراة ، وكان ضلع المسلمين في صدر الاسلام هو مع النصارى بالتخصيص ، بدليل انه لما وقت الحرب بين الروم والفرس وتقلب الفرس على الروم ، حزن الصحابة يومئذ حزناً شديداً ، فنزلت الآية الكريمة « غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين » فلما صدق قوله تعالى بتقلب الروم على الفرس بعد بضع سنين ، فرح الصحابة فرحاً شديداً ولم يكن ذلك لكون الروم أقرب اليهم جنساً من الفرس ، بل الروم والفرس بالنسبة الى العرب على السواء ، بل لكون الروم أهل كتاب والفرس يومئذ عبدة نار لم يكن الله شرح صدرهم للاسلام . ولما غزا العرب الشام ، أوصى الخليفة أبو بكر الصديق بالنصارى ورهبانهم خيراً في خطبة مشهورة . ولما حضر الخليفة عمر بن الخطاب الى بيت المقدس كان من حسن معاملته للنصارى ما هو مشهور أيضاً في التواريخ . وروى المؤرخون ان الامام عمر زار كنيسة القيامة وبينما هو فيها أدركته الصلاة فأراد أن يخرج من الكنيسة صلى فدعاه بطريرك صغونيوس الى محل داخل الكنيسة صلى فيه ، فأبى فألج عليه بالرجاء فأجابه : كلا . يأتي المسلمون بمدى فيقولون هنا صلى عمر فيجطلون هناك مسجداً في وسط كنيتكم . وهكذا كان الخليفة الأول والثاني يريعات حرمت النصارى ، ومنسوب الى سيدنا عمر عهد عهده الى النصارى فيه من البر بهم ما ليس فوقه مزيد . ولكن سياسة أوربا من أيام الصليبيين الى هذه الساعة ، تد كدبرت هذا الصفاء ، وما زالت تكدره حتى بلغ من حق المسلمين اليوم أن صاروا البواحدة مع البراهمة في الهند ، والبوذيين في الصين ، لابل الفتيشين في أواسط افريقية على الأوربيين . (ش)

بيد أن هذه الحال شرعت تنقلب وتتحول منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ ، اذ ظفرت اليابان ، الدولة الشرقية الوثنية « الكافرة » ، على دولة غربية نصرانية ، ودقت عنقها بقاءً ، فهب غالب المسلمين يتهجون لانتصار اليابان هذا ، ابتهاجاً ملؤه الفخر الشرق والحجاسة الاسلامية ، وتمنى كثير من رجال الجامعة الاسلامية ودعاتها لو ينتحل أبطال اليابان الاسلام^(١) وشرع في تحقيق هذا الأمر العظيم ، واتمست وسائل التقرب من اليابان ، ثم أنشئت العلاقات معها ، وأنشئت الصحف العديدة لنشر الدعوة ، واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الاسلامى الكبير ، فأوفد السلطان وفداً الى اليابان على بارجة حرية ، وأخذ العالم الاسلامى بسبب ذلك يلهج بحديث اسلام اليابان ، ويتناقل الأنباء في هذا الصدد ، ويتباحث فيه ويحجذه أشد التحجيز . قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦ : « ان بريطانيا العظمى ، وفي حكمها ستون مليوناً من المسلمين ، لتخشى كل خشية أمر اسلام اليابان ، الأمر العظيم الذى اذا كان ، تغير على الأمر مجرى السياسة الاسلامية العامة تغيراً كلياً هائلاً . » وقال شيخ من شيوخ مسلمى الصين : « اذا شئت اليابان أن تدرك منزلة لم تدرك مثلها دولة فيما مضى ، وأرادت أن ترفع شأن آسية على شأن سائر القارات ، فلا يتم لها ذلك بته الا باتحالفها الاسلام ديناً . »

فاستقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالا جليلاً ، وأحلتهم محل الرعاية والاكرام ، بيد أنها لم تكشف عن رغبة في الدخول في دين الرسالة . وكانت النتيجة أن وضع أساس للعلاقات الودية الحبية بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة في آسية . ومما زاد في ذلك التقرب ، فأخذت عرى الولاء تتوثق ، الحرب البلقانية وما تجلى فيها ومن حولها من المطامع الاستعمارية الهائلة . ويمكن العلم بحالة شعور المسلمين ومبلغ ما آلت اليه من الاضطراب

(١) جاء أحد أمراء الأسرة المالكة في اليابان ، في أيام السلطان عبد الحميد الى الاستانة ، فيينا هو في الحديث مع السلطان ، اذ جاء ذكر الأديان فقال له السلطان : « بلغني أنكم تبحثون عن دين ، فان كان الخبر صحيحاً ، فأنا أوصيكم بالاسلام . » فقال له الأمير اليابانى : « ليس الخبر كما بلغ جلالكم ، بل نحن متمسكون بديننا . » قد سمعت ذلك من فم العلامة المرحوم منيف باشا ، ناظر المعارف الشهير ، في أيام عبد الحميد ، وكان صدوقاً حراً ، ثقة في كل ما يرويه ، ومع ما كان عليه من شرف الطبع ، لم يكن متظاهراً بالتدين . فليسع ذلك من يزعمون أن اليابان لم تترك في المدينة الا بعد ان خلعت الدين ، ونبذته ظهرياً . (ش)

والاهتياج يومئذ ، بالوقوف على الصرخات الندائية المتوالية التى أخذ المسلمون بوجهونها نحو الهندويين (الهندوس) . مثال من ذلك نداء عظيم الخطر والشأن ، موسوم بـ : « رسالة الشرق » جاء فيه ما يأتى : —

« يا روح الشرق !! ألا هبى من مرقدك وادفعى عن الشرق هذا الطوفان الغربى ، طوفان عدوان الفرنجة وبغيهم واعتدائهم !! »

« ايه ابناء هندستان !! كونوا لنا عوناً ونصراً بحكمتمكم ، شدوا أزرنا بحضارتكم ، وتهذيبكم ، كونوا لنا نصراء بخالد قوتكم ، قوة الهندويين آبائكم وأجدادكم . دعوا قوة الأرواح الكامنة فى قمم جبال حملايا تنبثق فقد حان لها ، وحق من أوجدناها ، الانبثاق ، املاؤا الجرى بصلواتكم الى اله الحرب لينصر الحق على القوة الغاشمة ، ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ، وارفعوا أصوات دعواتكم فى هياكل ربوات آلهتكم أن تهلك جيوش الأعداء المعتدين »

فمن تدبر هذا المآل الذى آلت اليه حالة المسلمين ، ولا سيما تقربهم من « الكفرة » ، وتوثيق عرى الولاء بينهم وبينهم ، لا يسعه الا تكبير هذا الأمر وتعظيمه ، والتعجب والاستغراب ، ولم يكن هذا التبدل الهائل مقصوراً على مسلمى الهند وحدهم ، بل شمل أيضاً مسلمى الصين . فقد قالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان الصينية ، تدعو الى اتحاد الصينيين قاطبة اتحاداً وطنياً منيعاً للوقوف فى وجه الغرب المعتدى ، ما يأتى : « ان أوروبا قد بلغت من الطغيان والجور مبلغاً لا حد له ، فهى لا تنفك تنازعنا على حريتنا التى هى أقدس شئ لدينا ، وأوروبا ثم أوروبا ضاربتنا الضربة الفاضية اذالم يستنصر بعضنا بعضاً ، ونهبَ معاً فى يوم آت هبة المدافعين عن الأوطان دفاع الابطال » . وفى الدور الأول من الثورة الصينية ، نفّض مسلمو الصين عنهم رداء العزلة ، واصطفوا الى جانب أبناء بلادهم البوذيين والكنفوشوسيين يقاثلون معهم مستبسلين ، فى سبيل الوطن ، وقد أثنى الدكتور « صن - بات - سن » الزعيم الجمهورى الكبير على مسلمى الصين بقوله : « ان الصينيين لن ينسوا أبداً نصر اخوانهم المسلمين لهم فى سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحريتها (١) »

(١) كان المسلمون فى حرب البوكسريداً واحدة ، وظهرة واحدة مع أبناء وطنهم البوذيين وكان لهم عمل كبير فى تلك الحرب ، حتى التمسّت الدول من السلطان عبد الحميد ارسال وفد من قبله يتنصّح مسلمى الصين باسم الخلافة أن يجنحوا الى السلم . (ش)

فلما نشبت الحرب الكونية العظمى ، كان العالم الاسلامي أجمع مضطرباً اضطراباً عميقاً ، ومحتدماً حنقاً على الغرب المعتدى ، وشاعراً بضرورة اتحاده اتحاداً مكيناً ، وساعياً جد السعي لعقد المحالفات بينه وبين غيره من الدول الآسية ، ليتسنى له بذلك القيام بجهاده المنشود في سبيل التحرر من رقة الغرب

وربما يرى بعضهم من دواعي الاستغراب ، أنه لما دخلت تركيا في معمعان الحرب العامة في أواخر سنة ١٩١٤ ، وأعلن السلطان دعوته للجهاد لم يهب على أثر ذلك العالم الاسلامي هبته الكبرى المتوقعة . فلا يجب أن يؤخذ من ذلك أن دعوة السلطان هذه للجهاد المقدس انما كانت صرخة في واد ، أو نفخة في رماد ، كما حلت أنباء الحلفاء الغرب على هذا الاعتقاد في ذلك الحين ، فالأمر في الواقع كان على الضد مما شاع ، فقد كان الاضطراب هائجاً شديداً يما شدة في كل بلاد اسلامية في حكم الحلفاء ، ونحن ذاكرون بعضاً من هذه البلاد . فصر باتت تغلي فيها عوامل الثورة غليان المرجل على النار ، وصارت على مقربة من الزوبعة الهائلة^(١) ، فلوم تملأ بريطانيا بلاد النيل أجناداً لأعداد لها ، لحدثت في مصر الأهوال . وطرابلس ثارت ثورة عمياء ردت بها الطليان على أعقابهم حتى ساحل البحر ، وإيران كانت على وشك الاتحاد مع تركيا لولم يحل دون ذلك تدخل روسية وبريطانية وهيهنهما جناحها ، والهند الشمالية الغربية غدت ميدان قتال عنيف لم تقف رجاها حتى سافت بريطانيا اليه مثنين وخسين الفاً من الجنود البريطانية الهندية . وقد اعترفت الحكومة البريطانية اعترافاً رسمياً بأن جميع البلاد في حكم الحلفاء في آسية وافريقية ، كانت خلال سنة ١٩١٥ قد وقفت من الثورة العامة والبركان الهائل على قيد خطوة .

حقاً لو نطق قادة المسلمين في سائر الاقطار الاسلامية بالكلمة الاخيرة ، لكان بركان العالم الاسلامي قد انفجر وملاً الجو حمماً . بيد أن تلك الكلمة لم ينطق بها ، وقام عدد عديد من زعماء المسلمين خارج البلاد العثمانية يستهجنون دخول تركيا في الحرب كل الاستهجان ، ويعتدونه خرقاً في السياسة الرشيدة ، ويبسلون غاية مافي طوقهم لتسكين النفوس النائرة والخواطر الهاشجة . وقد دل عمل هؤلاء القادة والزعماء على حصافة في الرأي كبيرة . فانهم أيقنوا

(١) ثورة دارفور التي قتل فيها علي بن دينار سلطان دارفور كانت من أثر اعلان الجهاد وثورة الصومال ايضاً . (ش)

أن هذه الآونة ليست بالتي توقد فيها نار الحرب العامة في العالم الاسلامي ، ولا بالسانحة التي نفتنم للدعاء حتى على الجهاد الاكبر لتقويض سيطرة الغرب على الشرق . والسبب في ذلك أن الامم الاسلامية لم تكن قد استوفت جميع الأهب المادية اللازمة لها بعد . ولم تحكم عرى التفاهم التام بعضها مع بعض من ناحية ، ولا بينها وبين حليفاتها من الأمم الكبرى غير المسلمة من ناحية أخرى . وكانت الصلات المعنوية الادبية في الامم الاسلامية على حال غير مستوفاة الشروط . زد على جميع هذا أن قادة المسلمين أنفسهم أدركوا حق الادراك أن تركية باتت صنعة طيبة بين يدي ألمانية تنزل على أمرها اقبالا وادباراً ، وأن « تركية الفتاة » غدت تدير دفة سفينتها عصبه من الجحدة الغربيين ، غالبهم ليس من المسلمين ، أو ليسوا مسلمين الا اسماً ، بل هم من زنادقة اليهود^(١) وعلى ذلك لم يكن من رأى عقلاء المسلمين الاصطلاء بنار ألمانية ، ولا الموافقة على مارسمته من الخطط وأبدته من المطامح البعيدة للاستيلاء على العالم ، اذلاطائل للمسلمين في ذلك سوى ابدال أنيار بأنيار ، بل عولوا أن يترك الغرب وشأنه ، يقاتل بعضه بعضا فيضعض كيانه وتسلب منته ، ويهن عظمه ، وتجلجلى محبآت مقاصده ومكنوناته نحو المستقبل . بينما يهتبل العالم الاسلامي فرصة نزاع الغرب هذا النزاع الشديد ، فيستجمع من قواه ما كان مبعثراً ، ويشدد من بأسه وحوله وقوته ، ويعد العدة حتى اذا ما حانت الساعة المرتقبة ، وثب وثبة الأسد الهصور ، فانتصف له من عدو عنيد .

وكان مؤتمر « فرساي » كاشفاً عن مقاصد الدول الغربية ، تلك المقاصد التي كان يتوقع ظهورها دعاة الجامعة الاسلامية . فلما ظهرت واضحة طفقوا يجدون في سبيل اعداد برنامج العمل اعداداً تاماً لا عيب فيه ، وتوثيق الروابط المعنوية ، واحكام الوحدة الأدبية بين الأمم الاسلامية ، وفي مؤتمر « فرساي » حسرت الدول الغربية الظافرة اللثام عن جبينها ، وبينت غاية التبيين أنها لا تنزل عن مطمع من مطامعها الاستعمارية ، ولا تروم الرفق ولو أقله بالأمم الشرقية ، ولا التقليل من وطأة السيطرة الشديدة الضاربة في الشرقيين

(١) في سلايك طائفة يقال لها « الدونغ » اى العائدون النيبون ، أصلهم يهود من مهاجري اسبانية ، الذين خرجوا منها مع عرب الأندلس . وقد أسلموا منذ نحو اربعمئة سنة ، ولكن اسلاما مشوباً ببعض عقائد اأصلية . ولما كانوا المثل البعيد في الحصافة والذكاء ، والقيام على الأمور المالية بنوع خاص ، كان الدور الذي يمثلونه في الهيئة الاجتماعية التركية ، أعظم جداً مما يستحقه عددهم . وكان أثرهم في حركة الانقلاب الدستوري مهماً . فكان منهم أناس يعدون أركاناً في جمعية الاتحاد والترقي . (ش)

الأدنى والأوسط . فقد قامت هذه الدول المنصورة واقتسمت بعضها مع بعض المملكة العثمانية ، على مقتضى طائفة من المعاهدات السرية التي كانت قد أبرمتها فيما بينها خلال الحرب العامة ، وكانت تلك المعاهدات السرية في الواقع أساساً بنى عليه الصلح الذي عقد في مؤتمر فرساي . زد على جميع ذلك ، فقد كانت بريطانيا قد أعلنت في أوائل الحرب أن مصر صارت من البلاد البريطانية المحمية ، وقبيل انفضاض مؤتمر فرساي ، ظهرت بغتة معاهدة جديدة بين بريطانيا والعجم ، من مقتضاها أن هذه البلاد الأخيرة باتت في باطن الامر على الأقل ، ان لم يكن في باطنه وظاهره معاً ، معدودة من البلاد البريطانية المحمية أيضاً فكان مؤدى هذه النتائج جميعها أن دول الحلفاء قد غلت الشرقيين الأدنى والأوسط بأغلال من السيطرة السياسية الثقيلة غير مسبوقه المثل .

غير أن للأمر وجهاً آخر نقيضاً لما تقدم . ذلك أن قام ساسة الحلفاء خلال الحرب مئات المرات ينشرون التصريحات الرسمية ، ان الغاية الكبرى الوحيدة في هذه الحرب الدموية المخوفة الغار ، انما هو انشاء نظام عالمي حديث ، قائم البنيان على مكارم الأخلاق ، والأسس الصحيحة والقواعد الشريفة . كراية حقوق الأمم المستضعفة ، واطلاق الحرية لجميع الشعوب والأمم في اختيار حكمها ، وتقرير مصيرها ، وامتلاك مذكراتها . فذاعت هذه التصريحات في الشرق أيما ذبوع ، واختزتها الأمم الشرقية لا بل حفظتها عن ظهر قلبها وأخذت ترتلها ترتيلاً . فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبن على شيء من تلك القواعد والأسس الصحيحة ، ولا على مقتضى مئات التصريحات المحفوظة ، بل على المعاهدات المقطوعة بين الدول بعضها مع بعض سراً وخفاء معاهدات الجشع الاستعماري والحكم والفتح ، لحدثان ما احتدم غضباً ، يكبر نوازل الجور والبغي ، ويعظم سوم هذا الخسف والذل ، فأخذت مراحل العداء تشد غلياناً في كل صقع من أصقاع الشرق ، فاكفهر الجو وقصفت الرعود مننرة بأهول الصواعق . ولم يكن هذا بالحادث المستغرب ، اذ قد سبق للكثير من الخبراء العقلاء الغربيين ، الراسخين علماء بالأمور الشرقية ، فأذروا الدول الغربية المرة تلو المرة قبل انفضاض مؤتمر « فرساي » بسوء العقبى الواقعة في الشرق ، وبانفجار عظيم لا بد منه ، من هؤلاء المنذرين « ليون كايتاني دوق سربونيته » وهو ثقة من ثقات الطليان في شؤون العالم الاسلامي ، فقد قال في ربيع سنة ١٩١٩ في مجلة حديث له

ذكر فيه نتيجة الحرب العامة فى الشرق : « ان الحرب الكونية العظمى ، قد هزت شجرة الحضارة الشرقية فاهتزت اهتزازاً بلغ أقصى الجذور فى التربة ، وبعثت فيها روحاً عجيبة . ان الشرق أجمع ، من الصين حتى أقصى سواحل البحر المتوسط ليميد ميداناً غنياً فى كل رقعة و بلاد ترى نار العداء للغرب مشبوبة فى مرا كس الفتنة ، وفى الجزائر الثورة ، وفى طرابلس الغرب عواصف الاضطراب والهباج ، وفى مصر و بلاد العرب وليبية وسائر الأقطار الاسلامية الحركات الوطنية القومية الكبرى ، جميعها متماثلة الصفة العامة ، وموحدة الغاية : تماسك العالم الشرقى الاسلامى بعضه ببعض ، ومناهضته للحضارة الغربية ما استطاع الى ذلك سبيلا . »

فكانت هذه الكلمات كأنها رؤيا صادقة ، فاخذت تتحقق فى العالم الاسلامى . غير أنه لما كانت الوقائع الأخيرة التى تقوم بها الأمم الاسلامية انما تغلب عليها صفات القومية الوطنية فاننا سنسبط الكلام عليها فى فصل (العصبية الجنسية) من هذا الكتاب . وما يجب رعايته حق الرعاية فى هذا المقام هو أن العصبيات الجنسية الاسلامية والجامعة الاسلامية ، ولو كان ما كان بين بعض وجوهها والبعض الآخر من الاختلافات ، فانها بحملتها متحدة متجهة نحو غرض عام واحد : هو القيام فى وجه السيطرة الغربية المرهقة ، وتبديدها وتمزيقها ، وتحرير الأمم الاسلامية من قيود السلطة الأوروبية السياسية . واذ وعينا هذه الحقائق وتدبرناها ، فاننا نأتى للكلام على حاضر الجامعة الاسلامية وواقعها المشهور :

قد هاج تيار الجامعة الاسلامية هياجاً هائلاً ، ونار ثوراناً عجيبة ، فى هذه الآونة الأخيرة والباعث على هذا انما هو الارهاق الغربى ، المتوالى الشدة والزيادة منذ الزمن البعيد . ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الاسلامية ما لم يستتر من قبل ، ثم ولى الصلح الحرب ، وهو الصلح الذى سبق لنا فأبنا قواعده وأركانها الفاسدة وما دهى العالم الاسلامى بسببه من النوازل والفواجع ، ولا يغربن عن البال أن الجامعة الاسلامية على مختلف حالاتها وتطوراتها ، يجب ألا تعتبر أنها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب رداً لاعتدائه ودفعاً لجوره خصب ، بل ان منشأها الأسمى هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة ، فى المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة التى قلنا فيها

قبلا انها بين المسلم والمسلم لأقوى منها حقاً بين النصراني والنصراني . فان عرى هذه الجامعة ليست دينية فقط ، بل انها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعية خلقية تهذيبية . وان القوانين والقواعد التي تتألف منها وتقوم عليها حياة الاسرة الاسلامية ، على مختلف العادات والأقاليم لا تتغير في موضع عنها في موضع آخر في جميع المعمور الاسلامي . قال (السر موريسون) : - « ان الحق الذي لا يمارى فيه أن الاسلام أكثر من معتقد ودين . انما هو نظام اجتماعي تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها . وقد انقضى ما انقضى من العهد الذي ما برح فيه الاسلام والنصرانية على نضال ونزاع ، فاعرى وهن جانباً من جوانب الاسلام قط ، بل ما انفك على الدوام يشتد بعضه مع بعض متماسكا متعاضداً ، حتى صار وحدة جامعة ، نامية نمو الجسم العضوي ، سائراً سيره بفعل نظامه الذاتي المستقر فيه . »

فالمسلمون تربط بعضهم ببعض روابط هذه الحضارة رباطاً وثيقاً لا انفصام له . وباعتبار هذا المعنى ، فانها الجامعة الاسلامية انما هي عامة ، قائمة البناء في جميع العالم الاسلامي ، حتى ان المسلمين الاحرار ، على ما يحبذون من الآراء الغريبة التي يردون شرعتها ، من حيث لا يرتاحون الى دعوة الجامعة الاسلامية السياسية لتمشيها على الطرق الرجوعية ، يعتقدون كل الاعتقاد في وجوب الوحدة الاسلامية الشاملة المبنية على أصول الحرية وقواعدها . قال امام حر من أئمة زعماء المسلمين في الهند ، وهو أغا خان ، ما يأتي : (ان هناك جامعة اسلامية حققة صريحة ، ينضم الى لوائها الحركل مسلم مؤمن مخلص ، أعني بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الاسلامية . فهذه الوحدة ، الاسلامية الروحانية التهذيبية ، يجب أن تتعهد فتتنامو أبدأ ، لانها عند أتباع النبي أس الحياة وجوهر النفس .)

فاذا كان هذا شعور المسلمين الاحرار الواقفين حق الوقوف على حضارة الغرب ، وتقدمه ، ورقيه ، وعمراته ، والقائلين بوجوب الاقتباس منه والأخذ عنه ، فما أشد شعور سواد المسلمين ، وهم الجاهلون الرجوعيون المتعصبون ؟ أضف الى هذا ما هو معروف في عامة المسلمين من الشنأة لاعتداء الغرب وحضارته ، الشنأة التي ليس منشأها في كل موضع سيطرة الغرب السياسية ، بل لمجرد الافراط والغلو في التعصب . وقد كان للحوادث السياسية

في العالم الاسلامي خلال العقد الأخير تأثير كبير في هذا الافراط والغلو، فالتعب والتعبس والتهايب بالغوا الحد تدفعه دوافع سياسية خلقية دينية وتجمعه صفة واحدة متماثلة متمكنة في نفس كل مسلم، فبات السلم العامة في العمور الانساني مهددة من ناحية العالم لاسلامى. هذا هو الواقع، الذى يجب علينا أن نعترف به، وألا نخضع نفوسنا فنستصغر شأن هذه الحالة العسيرة اليوم وما يحتمل أن ينجم عنها من المخاطر الكبرى في الغد القريب.

وعلى ذلك ليس من اصابة الحقيقة في شئ أن يقال ان تركية قد سبق لها فدعت المسلمين واستصرختهم الى حرب عامة، وحاولت جهدها اقتداح زند الجهاد المقدس سنة ١٩١٤، نزولا على أمر المانية، فلم يكن هناك الاىراء المراد فذهب الاقتداح باطلا، بل كان دليلا على أن الجهاد الحقيقي في العالم الاسلامي بات ضرباً من المحال. ان من حله الوهم على هذا فهو على خطل شديد. اذ ان الجهاد لممكن أبداً كل الامكان. قال ضابط الماني كان من أركان الحرب في الجيش التركي خلال الحرب العامة قولاً صريحاً وهو: « ان الجهاد الذى أعلنته تركية قد حبط حيوياً لانه في الواقع لم يكن جهاداً بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين ». وقد سبق لنا فأبنا كيف هب قادة المسلمين خارج تركية فأخذوا يستهجنون دخولها في الحرب. وبسطنا ماذهب اليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال.

فلسلسلة الاعتداءات الغربية الآخذ بعضها برقاب بعض منذ القديم حتى انتهاء الحرب العامة، وتقرير الصلح على الاسس والاركان التي ذكرنا صفاتها الفاسدة، تقريراً كان من شأنه أن بات العالم الاسلامي أجمع خاضعاً خضوع الذل والخنوع للسيطرة الغربية. جميع هذا أشعل قلوب المسلمين، فهبوا هبوب العاصفة تقتلع كل شئ في سبيلها. أضف الى ما تقدم ان الاله المادية ما برحت تزداد وتستوى. وقد سبق للمستشرق الكبير العلامة ارمينوس فمبارى الخبير حق الخبرة بشؤون العالم الاسلامي، فأندى الغرب انذاراً منذ أكثر من عشرين سنة، قال فيه ان السياسة الاستعمارية النهمه انما هي السبب في نشوء المخاطر العظمى في الشرق، واليك بعض ملجاء في مقاله الذى نشره سنة ١٨٩٨ « ان الخطر الباعث على حرب كونية عامة يزداد في الشرق ازدياداً عظيماً على توالى الأيام. ولا يغيب عن البال أن روح العداء والمقاومة قد اشتدت، والصودر وغرت، والحفاظ اتقدت، أعنى بذلك ان الشعور بالوحدة العامة والجامعة الرابطة قد صار شعوراً عاماً، نامياً،

منتشراً في جميع الشعوب الإسلامية ، وقد كان من المساعد على ذلك الوسائل الحديثة للنقل والتواصل ، فباتت الحالة اليوم غيرها منذ عشر سنين الى عشرين سنة .

« وليس من المستغرب أن نقدم على تنبيه الصليبيين في أواخر القرن التاسع عشر الى المنزلة العالية التي أدركتها الصحافة الإسلامية اليوم من الخطورة والشأن ، والى عام انتشارها في آسية وافريقية ، وما لعظاتها البليغات وانذاراتها الموقظات من التأثير الشديد في نفوس قارئها المسلمين . فالصحف الوطنية ، السيارة والدورية ، في تركيا والهند وفارس وأواسط آسية وجاوة ومصر والجزائر مفعول عظيم ، اذ كل ماتفتكر فيه أورة وتقرره وتقوم على انفاذه على ماينافي المصلحة الإسلامية ، تنتشر انباؤه في جميع هذه الاقطار بسرعة البرق ، وتحمل القوافل هذه الانباء الى كل جهة شاسعة وصوب سحيق في الرقاع الإسلامية ، حتى الى قلب الصين وخط الاستواء ، حيث يهب المسلمون لتلقي مثل هذه الانباء معظمين مكبرين . فالشرارة التي تستطير من مجمع من مجامعنا ، أو ناد من انديتنا ، أو وليمة من ولائمنا ، فما تزال في مستطارها ومسبحها في الفضاء ، حتى تجوب أفاصى العالم الاسلامي فتقع وقوع الرعد القاصف . وما تنشره صحيفة «ترجان» في القريم مثلاً ، تردده صحيفة «اقدام» في القسطنطينية ، ويرن صدها عظيماً في صحيفة «الحوادث الإسلامية» في كالكتا في الهند

« فالجامعة الإسلامية اليوم مسترخية العرى بعض الاسترخاء ، غير ان اعتداء الغرب على غير انقطاع ، وعسفه المتوالى الذي يزداد اشتداداً على الدوام ، سيحملان على استجماع هذه العرى بعضها الى بعض فتتأسك وترتبط ، فتصير الجامعة الإسلامية كالبنيان المرصوص منيع الاركان ، فيتوقع حينئذ من وراء ذلك حرب عالمية مشبوبة في انحاء المعمور لاتبقي ولا نذر . »

منذ نشر فامباري انذاره هذا حتى اليوم ، ما برح الأمر يتفاقم والنصرة الإسلامية تثور في وجه السيطرة الغربية ، وقد زاد في هذا زيادة كبيرة النهضات القومية ، والحركات الوطنية الإسلامية التي كانت تكاد لاتعرف في القرن الماضي ، وهي قد أصبحت اليوم على أتم ما يكون من النظام ، والكفاية من أسباب الذيوع والدعاية . ولنا مثال على هذا وهو صحف الدعوة للجامعة الإسلامية وهي التي أشار اليها فامباري ، فقد تعاضمت تعاضماً غير مسبوق المثل . ففي سنة ١٩٠٠ لم يكن في العالم الاسلامي أكثر من مئتي صحيفة دعوية ، فبلغ هذا

العدد سنة ١٩٠٦ حد الخمسة صحيفة ، وأربى سنة ١٩١٤ على الألف صحيفة ، فالمسلمون يرحبون في بلادهم بأسباب النقل والتواصل مثل البرد والبرق والقطر الحديدية ، وغير ذلك مما يساعد على تطير الانباء ونقل الاخبار . وكل بلاد من بلاد المسلمين هي على اتصال دائم مع سائر البلدان الاسلامية ، اما توأ على يد الرسل ، والسعاة ، والحجيج ، والسياح ، والتجار والبرد ، واما على يد الصحف الاسلامية والكتب والنشرات والمجلات . ففي القاهرة ترى صحف بغداد و طهران و بشاور ، وفي البصرة و بومباى ترى صحف القسطنطينية ، وفي المحمرة و كركلاء و بورت سعيد ترى صحف كالكتا . واما الوسائل الكبرى للدعاية في سبيل الجامعة الاسلامية فهي الطرق الدينية التي سبق لنا الكلام عليها وهي حقا كالسيل الطامى فانها ما أدركت أمة مسلحة الاستولت على مشاعرها وقلوبها ، وسيرتها سهلة الانقياد الى تعاليمها . وترى دعاة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة ، فهم يجوبون الأقطار بألوف الأزياء المتسكرة تجاراً ووعاظاً ومرشدين وعلماء وطلبة واطباء وعلمة ومتسولين وفقراء ومساكين ، حتى ومشعوذين ودجالين ، وحيثما وصلوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على الرحب والسعة ، واخفوهم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية . »

زد على جميع هذا أن ساد اليوم في العالم الاسلامى سيادة عامة ، الاعتقاد الذى يؤيده الأحرار والغلاة والمحافظون وسائر الأحزاب معاً ، أن المسلمين اليوم هم في دور النهضة ، والانتقال ، والتجدد ، يستردون مجدهم الاسلامى الفاتى ويستعيدون عزهم التليد . قال السرنيودر موريسون : « ليس من مسلم يعتقد ان الحضارة الاسلامية فانية أو غير متجددة متروكة ، انما يعتقد ان قد عرتها قهقري قصيرة خسب فقصر المسلمون أمرهم على التطوح في الشهادة بمجد الحدود ، ونعصبوا في ذلك وغالوا شديداً ، ولكن أمرهم هذا ما كان ليختلف في صفته عن الحال التي كانت سائدة في أوربة خلال القرون الوسطى ، يوم كان ديجور الجهل مطبقا جميع البلاد النصرانية يعتقد المسلم اليوم أن العالم الاسلامى سائر في طريق استئناف الارتقاء ، يأخذ عن الغرب ما يزيد في استحشائه ويبعث فيه عزماً واقداماً ، ونشاطاً ، فتطورت الحياة تطوراً تبنت دلائله في كل قطر اسلامى . » (١)

(١) ذكر المؤلف في هذا الموضع كلاماً مقتبساً من كتاب (يقظة الشعوب الاسلامية في القرن الرابع عشر للهجرة) لمؤلفة يحيى صديق ، اضربنا عن ترجمته — (المترجم)

فاذا كان دعاة الجامعة الاسلامية يجهرون بمثل هذه الآراء ويصرخون تلك الصرخات في مفتتح هذا القرن ، وقد جاءت الحرب العامة مصداقاً لما جهروا به السنين الطوال ، فلا جرم ان قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتدت قوة واندفاعاً . أضف الى هذا ان الغرب قد انقلب بعد الحرب العظمى ضعيف المنة ، واهن القوة المادية وهناً كبيراً ، ثم جاء الصلح مبنياً على أركانه الباطلة ، وطفق الخلاف ينشب بين الغالبين بعضهم مع بعض نشوباً قوض مكانهم تقويضاً وقضى القضاء الأخير على منزلتهم في عيون الشرقيين . وقد كان من شأن النزاع والمشادة بين كل من بريطانية وفرنسة وإيطالية في الشرق ، ان ساعد المسلمين مساعدة جليلة على زيادة تساندهم وتماسك بعضهم مع بعض ، فاشتد ايقانهم بادراك المبتغى ثم ان هذا التعادى الذي قام به الحلفاء في الشرق قد سبب اضطراباً سياسياً عظيماً في الغرب فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف . قال أحد كتاب الفرنسيين في الآونة الحديثة ينذر أوروبا انذاراً شديداً : « ان العالم الاسلامي بات لايعترف بحدود أملاكنا الاستعمارية ، والعافل الذي يريد اعتبار الحقيقة لايعجب من ذلك أقل عجب مادامت الدعوة الكبرى التي نشرها ورفع علمها جال الدين في المسلمين تسير سيراً دراكاً . »

وأى شيء أدل على هياج الاسلام ، وغليان مراحل حقه من ذلك الثوران الهائل الذي يقوم به السبعون مليوناً من المسلمين في الهند ، احتجاجاً على تجزئة المملكة العثمانية ؟ والأمر الأخطر ان هذا الثوران الاسلامي ليس مقصوراً على الهند فحسب ، بل انه شامل المعمور الاسلامي ، وعلى ذلك فلم يغال السريثودر موريسون بانذاره : « لقد حان وأيم الحق للامة البريطانية أن تعتبر وتندبر خطورة ما هو جار في الشرق ، فان العالم الاسلامي أجمع ليعج غضباً ، ويحتدم حنقا ، من جراء تجزئة تركية . وما هذه اللوامع النارية التي تبدو في كابل والقاهرة الا البرق الذي تتلوه الرعود القواصف فالصواعق المزلزلة . اني قد أقيمت في الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت في خلالها المسلمين حق المعرفة ، وأرى من الواجب على الآن أن أنذر أمتي البريطانية بشرعقي هذا الثوران الاسلامي الناشئ عن تجزئة تركية التجزئة المنوية . فان ساسة مؤتمر فرساي قد خالوا تركية في الأناضول منقطعة عن سائر العالم الاسلامي ، فليس من شعب يغضب لها ، ولا من أمة تغار عليها . فما أسوأ هذا الخيال الباطل والوهم القاتل ! ! فمن شاء البرهان فلينظر الى هذه الوفود الاسلامية

العديدة ، الحالة بين ظهرانينا فى لندن كأنها الذهب لا يصطفى به . فالمسلمون قاطبة فى الهند ، من « بشاور » حتى « أركوت » قائمون قاعدون لما يرونه قد حل بساحة تركية والمسلمين حتى بانت النساء المسلمات يعولن اعوالاً شديداً ، ويكيين حالة الاسلام بكاء الأمهات أطفالهن ، وترى التجار وهم أبعد طبقات الأمة من مزاوله الشؤون السياسية يفرون من حوانيتهم ومتاجرهم خفافاً الى حيث ينظمون رفائع الاحتجاج ويطيرونها بالبرق الى أنحاء العالم ، وترى الطوائف العديدة من رجال الدين المتقشفين ، المتشدين ، المضروب بهم المثل فى شدة انقطاعهم عن جارى الحوادث فى العالم ، يخرجون من المساجد مواكب مواكب ليشتركوا فى القيام بالتظاهرات والاحتجاجات .

وأغرب ما فى الحالة ان الأحرار قد أخذوا ينظمون أكثر فأكثر فى عداد رجال الجامعة الاسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوة والحول ، على اعتقادهم بوجوب الأخذ عن الغرب واقتباس الآراء والأفكار منه ، وذهابهم مذهباً مخالفاً لغلاة الجامعة الاسلامية وأرباب الطرق الرجوعية ، والحامل كل الحامل لهم على ذلك هو اشتداد الضغط والعنف الاوروبى ، فهم ازاء هذا الخطب الكبير يسعون فى رده بموالاته الأحزاب الأخرى والتحالف معها ، ولو الى حين ، مع علمهم ان الأحزاب الوطنية المغالية وأحزاب الجامعة الاسلامية اذا أثارت حرباً عامة باسم الجهاد ، فن شأن هذه الحرب أن تفجج غوراً بعيد المهوى بين الشرق والغرب ، وتقضى على تلك العوامل والمؤثرات السارية من هذا الى ذاك ، وهى التى ترى اليوم دابة فى كل عرق من عروق العالم الاسلامى باعثة فيه القوة والعزم ، ومع علمهم أيضاً أن حرباً كهذه تشعل نار التعصب الرجوعية فى المعمور الاسلامى ذلك التعصب الذى اذا عاد فانتقد أو هن حركة الاصلاح الحديث فى الاسلام ايهاً شديداً فأخرها مدة مديدة .

ولعل الذى عرف حتى اليوم من ثوران الاسلام لا يعد أكثر من مقدمة لما سيحدث فى السنين المقبلة . ولنا دليل على هذا ظهور الدعوتين العظيمتين للاصلاح الدينى فى الاسلام اصلاحاً ضارباً الى التعصب ، أما الأولى فهى دعوة « الاخوان » التى نشأت منذ نحو عشر سنين فى نجد قلب بلاد العرب ، وهى الوهابية عينها التى كانت نشأت منذ مئتين سنة خلت ، وهذه الوهابية الحديثة ما برحت تنتشر انتشاراً سريعاً حتى طبقت كل نجد ، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير أعنى به ابن السعود ، خليفة سعود الذى كان رأس الدعوة

الوهابية منذ مئة سنة . وأما « الاخوان » الجدد فعلى تعصب شديد منقطع النظير ، وخطتهم هي حلم الوهابية القديم من الاصلاح الديني العام في العالم الاسلامي . وأما الأخرى فهي الدعوة « السلفية » التي نشأت في الهند منشأ يشابه دعوة « الاخوان » في نجد ، غير انها قد انتشرت في هذه السنين الأخيرة انتشاراً عم كل رقعة اسلامية . وغرضها كغرض الوهابية من حيث الاصلاح المزيج بروح التعصب . وغالب اتباعها من حلقات « الدراويش » هذه هي الحالة التي مع ما تنطوي عليه من مختلف العوامل المبسطة الذكر تنخر نخرًا متغلغلا في سلم الشرق .

واذ قد بلغنا في الكلام على الجامعة الاسلامية من وجهتيها الدينية والسياسية الى هذا الحد ، يجدر بنا أن نقول كلمة في الجامعة من حيث وجهتيها التجارية والصناعية ، وذلك ما يعرف بالجامعة الاسلامية الاقتصادية :

ان السبب في انتشار الجامعة الاسلامية الاقتصادية ، هو عوامل الاستنزاف ، واحتياز موارد الثروة في الشرق . فمن قبل خمسين سنة خلت كان العالم الاسلامي يتسكع في « اجياله الوسطى » ، فكانت الشريعة الاسلامية ، وما فيها من تحريم الربا ، مرعية حق الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الحالي ميسورة ، وما كان هناك من بعض التجارة والصناعة انما كان غالبه في أيدي النصارى واليهود من أهل البلاد . زد على هذا ان التزام الغربى جاء فانتشر فزلزل الحياة الاقتصادية الشرقية زلزالا هائلا ، اذ ان فتح أوروبا للعالم الاسلامي الفتح السياسي كان يماشيه الفتح الاقتصادي جنبا الى جنب ، وربما كان هذا الاخير اتم نظاما وأكمل عدة ، فبات كل صقع شرقي في طوف من البضاعات والحاج البخسة الأثمان ، المنقولة من أوروبا ، ووراء ذلك رؤوس الأموال الغربية متدفقة لاحتصى ، تسرب في البلاد وتنتشر بأخدع الصور وأملق الأساليب ، كالقروض ، والامتيازات التي من شأنها متى ماعقدت أن تكون تمهيدا لاستقرار السيطرة السياسية الغربية .

فنصر أوروبا الذي نالته في فتحها هذا الفتح السياسي الاقتصادي التام كان باعنا للشرقيين على العدا والمقاومة ، فاستيقظ العالم الاسلامي غضبان فهاله ما رآه في دياره من الأسباب والأدوات الغربية المأثى بها لاستنزافه واستنفاد خيراته الطبيعية ، فقدر حوله ازاء حول الغرب الجبار العاني فأدرك شقة البعد ، فطفق للحال يجد في سبيل التحرر الاقتصادي

جده فى سبيل التحرر السياسى من ربق الذل والاستعباد . ثم أنشأ حكماء المسلمين ، وأرباب الدراية فيهم والرأى السديد . يلتمسون الأسباب الغربية الفضلى ، التى من شأنها أن ترقى بالعالم الاسلامى رقىا اقتصاديا جليلا ، فنسخت الأساليب والمناهج الغربية ، ونسج على منوالها ، وما كانت تحريمات الشريعة لتقف سداً فى وجه النهضة ولا لتحول دون مجراها .

فنتج عن ذلك تطور عظيم فى الحياة الاقتصادية أخذ ينمو ويزداد ، ناهجا منهاجا اقتصاديا غربيا . ولكنه حتى اليوم مابرح يجتاز الدور الأول من أدواره ، وهو أظهر وأبين فى البلاد التى هى أشد صلة ومساسا بالسيطرة الغربية كالمند ومصر والجزائر . أما متجهه فواحد فى كل قطر اسلامى ، وسنفصل الكلام على هذا فى فصل التطور الاقتصادى . فما يجب اعتباره فى هذا المقام هو تدبر شأن هذا التطور من حيث صلته بالجامعة الاسلامية ومنزلته فيها . وهذا الشأن هو عظيم جداً . لأن أوثق وحدة ، وأمتن صلة ، ظهرت فى المسلمين حتى اليوم انما هى الوحدة الاقتصادية بلا مرء . ولا يعزب عن البال ان الروابط الدينية والصلات الخلقية التهذيبية التى تجمع بين المسلم والمسلم ، ما انفكت تزيد فى توائق المسلمين وتآزرهم ، وتعاطفهم وتضامنهم ، كأنهم فى المعمور الاسلامى أمة واحدة بعضها يغار على بعض وجانب يساند آخر . دع ما هو هناك من الأسباب الغربية للنقل والتواصل ، المسهلة على المسلمين القيام بالأسفار الى كل جهة أرادوا ، فازداد بذلك تعارفهم واستمسكت أواصرهم ، فنشأ فيهم نشء جديد ، ابناء ووه مقادير ، بعداء الهمة ، أشداء العزم ، فيهم التجار وأرباب السفن البحرية والأعمال التجارية ، والصيارفة ، والسامسة حتى وأرباب المصانع والمعامل ، ممن لم ير أمثالهم فى المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا . وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التفاهم والتوائق . تربط بعضهم ببعض الروابط الاسلامية ، ويحملهم التزامهم الغربى المنتشر فى بلادهم على شدة التضامن ، فلم فى الواقع من سعة المجال للعمل المنظم والاتحاد الوثيق ما ليس مثله للساسة المسلمين ، اذ فى الأفق الاقتصادى يتلاقى الأحرار ودعاة الجامعة الاسلامية والغلاة وسائر الأحزاب الوطنية على أتم وثام . فلا خلاف بينهم فى هذا الميدان يفضى بهم الى الانقسام لعدة اتباع احدى السياسات ، كسياسة الثورة أو الجهاد ، انقساماً يحملهم على تهديد أوروبا المسلحة ، أو يؤدى بهم الى المجازفة بالنفوس والدماء والأموال ، بل هم جميعاً فى نطاق الجامعة الاقتصادية سواء ، متحدو

الكلمة ، يجدّون في سبيل الحياة الاقتصادية الإسلامية ، متوخين في ذلك الطرق والأساليب التجارية التي لا يجرؤ الغرب أن يحول دونهم ودونها ولا يقف في وجهها .

فما هي غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية ترى ؟ إنما هي : ثروة المسلمين للمسلمين ، وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي هي لهم يتنعمون بها وليست لنصارى الغرب يستنزفونها . وهي نفص اليد من رؤوس المال الغربية والاستعاضة عنها برؤوس مال إسلامية . وفوق جميع هذا ، هي تحطيم نواجذ أوروبة تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين ، وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجارك ، العقود التي مادامت خارجة من أيدي العالم الإسلامي فهو يظل عالة على الغرب .

هذه هي أغراض الجامعة الإسلامية الاقتصادية ، وجيئها حديث المنشأ ، وسببه السيطرة الغربية الشديدة في العالم الإسلامي - السيطرة التي تتكلم عليها في الفصل التالي من هذا الكتاب .

الدول المستعمرة والاسلام

للأمير شكيب

من الغريب أن فارس عرضت على انكلترة المحالفة ، والدخول الى جانب الحلفاء في الحرب العامة ، فأبت انكلترة مساعدة فارس هذه . وهذا أمر صرحت به جريدة الطان ، لسان حال فرنسا أثناء مؤتمر الصلح بباريز . وأن مصر عرضت نفسها أثناء الحرب العامة أن تقاتل في جانب الحلفاء بشرط الجلاء الانكليزي عن مصر بعد الحرب ، فأبت انكلترة أيضاً ذلك . وان الشريف حسيناً بن علي ، ملك الحجاز اليوم ، كان عرض نفسه لمحالفة انكلترة منذ بدأت الحرب العامة ، فأبت انكلترة محالفته يومئذ كما أبت محالفة مصر والعجم . وأغرب منه أن تركية نفسها بينما هي في أول الحرب العامة تتردد في الميل الى أي الفريقين المتصارعين ، ويتجاذبها عاملان أحدهما الى الحلفاء ، والآخر الى الألمان ، صرحت لسفراء الحلفاء في الاستانة انها تخشى اذا اعتزلت الحرب من أن يتفق الفريقان عليها ، ويعقدوا الصلح على ظهرها . فقالت لهم لا بد لنا من محالفة . وعرضت على الحلفاء أن تكون معهم ، بشرط أن تأمن شرورهم في المستقبل . فأبى الحلفاء قبول محالفة تركيا لهم ، وكل ما طلبوه منها كان التزام الحياد التام ، وبمقابلة ذلك تتعهد الروسية بأن لا تهاجم تركية مدة ثلاثين سنة (تأمل) وتنال تركية بعض مساعدات أخرى ليس لها كبير طائل . وبدهى أن رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الاسلامي مبنى على أساس واحد ، وهو أن الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الاسلامية أثناء الحرب العامة ، لما كان لائقاً أن يقسموا فيما بعد الحرب بلاد الاسلام الباقية الاقسام الأخير ، كما كانوا ينوون أثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحرب . فلورضوا بدخول تركية معهم في الحلف وقبلوا عضدها لهم في ذلك الموقف ، لما كان يجوز بعد الحرب انفاذ برنامج التقسيم الذي كان مقررأ بين انكلترة وفرنسا منذ ١٩١٢ . ومن جلته قسمة سورية وفلسطين . ولورضوا بدخول العجم في الحلف وقبلوا معاوتها ، لما كان يحل أن يجهزوا عليها الاجهاز الأخير بعد الحرب كما

كانت النية ، بل كان ديناً عليهم اخلاء العجم ، وهذا ما لا يريدونه . ولو قبلوا اقتراح مصر في الدخول في الحرب الى جانبهم ، لتعين عليهم الجلاء عن مصر بعد الحرب على وجه المكافأة ، مع أن المراد بعد الظفر الأخير هو استلحاق مصر تماماً لا اعطاؤها حريتها . وكانوا يرون أنهم قادرون أن يستخدموا رجال مصر ويرتفقوا بأموال مصر بالغوة والفسر ، بدون أدنى منة لأهل مصر ، وبدون تعهد بالجلاء عن مصر على حد ما قال أبو الطيب :

من أطاق اغتنام شيء غلاباً واغتصاباً لم يفتنمه سؤالا

ولقائل أن يقول : لكن ينقض نظريتك هذه ، أن الحلفاء حالفوا سنة ١٩١٥ الشريف حسيناً ، وهذا ملك من ملوك الاسلام . والجواب أنهم ما قبلوا التحالف معه باديء ذي بدء لظنهم أنهم يستغنون عنه ، ولا يتقيدون معه بعهد يمنعهم بعد الظفر من أخذ بلاد العرب . فلما طالت الحرب ، وظهر من تركية ما ظهر من القوة التي لم تخطر لهم على بال ، ورأوا الحرب ستدوم أعواماً ، وتأتى على الحرث والنسل وان العالم الاسلامي كله في هيجان عليهم ، عادوا الى قبول مخالفة الشريف حسين أملاً بفصل العرب عن الترك ، وباستئالة جانب من المسلمين ، وتخفيف حمة كان الحلفاء بدأوا يشعرون بثقلها ، ومع هذا كله فقد ملأوا عهودهم للشريف ابهاماً وغموضاً ، حتى يتفصوا منها في المستقبل ، فها وضعت الحرب أوزارها حتى ظهر للشريف ولسائر العرب ، أنه مع ككون قسم من العرب حالت الحلفاء مخالفة فتت في عضد الأتراك ، وكانت من جملة أسباب انكسارهم لأسباب عديدة ، فقد عومل العرب بعد الحرب معاملة الأعداء ، وتقسمت بلادهم غنائم ، والذي هو باق منها بدون احتلال فعلاً ، فانية وضع اليد عليه عند أول فرصة . وربما كابر بعض الناس في ككون الشريف عرض التحالف من أول الحرب ولم يقبلوا ذلك منه ولا مجال هنا للكبرة فالصحيح أنهم لم يقبلوا التحالف معه حتى احتاجوا عضد العرب وطالت الحرب فأرسلوا اليه بعض معتمدين لمفاوضته فيه من جلتهم الجنرال حداد باشا ، وان حداد باشا صرح لنا بهذه الحقيقة التاريخية أمام جماعة كثيرين من أعيان السوريين والفلسطينيين وربما كابر آخرون في ككون الحلفاء أبوا مخالفة تركية وطلبوا منها الحياد لا غير في الحرب العامة ، والجواب هذا شيء يشهد به المستر مورغاتسو سفير اميركا في تركية لأول

نشوب الحرب . ذكره في خاطراته وقال ان أقصى ما طالب الحلفاء به تركية هو لزوم الحياد
خسب والحاصل أن الحلفاء طلبوا اثناء الحرب العامة العون من كل دولة ، وعرضوا
التحالف مع كل حكومة ، حتى أصغر حكومات أميركا ، ولم يكونوا يقبلوا التحالف مع دولة
من الدول الاسلامية علما بما ينوونه للاسلام وجميع حكوماته في المستقبل وفراراً من مكافاة
دولة اسلامية بالابقاء عليها ، فهذا من الحقائق الكلية التي ينبغي أن يتفطن لها المسلمون ولا
يفيئوها عن نظرهم ، وليعلموا ان الدول المستعمرة لا تقبل من الاسلام حتى ولا الصداقة ،
وانها لا ترضى من المسلمين في جانبهم بذل الأرواح والأموال الا مجانا .

أثر روسيا في الشرق قديماً وحديثاً

للامير شكيب

حرر مؤخراً العالم الاجتماعي الكبير ، غويفليامو فيرو (Guglielmo Ferrero) مقالة
في جريدة «الايلاوستراسيون» عنوانها «أوربة وآسية» بين فيها ان الحرب العامة أحدثت
انقلابات متناقضة ، فباعدت وقربت بين القارات وانه من العادة اذا خرجت سلطنة عظيمة
ظافرة من حرب من الحروب ازدادت هيبتها وانبسط سلطانها ، عن ذي قبل . والحال انه
بعد ان خرجت انكلترة ظافرة من أكبر حرب في الدنيا ، ثارت في وجهها افغانستان ، والهند ،
ثم مصر وبعدها ان كانت تركية اضمحلت سنة ١٩١٨ ، عادت فنهضت وردت انكلترة وحليفاتها
على أعقابهن . وكذلك الصين بالرغم من الثورة التي تمزق احشاءها ، تطلب استرداد البلاد
التي احتلت منها وعدم مس شيء من استقلالها . فآسية تقوم على أوربة على حين هي آخذة
بمبادئ أوروبة ، وليست تأخذ من أوربا وأميركة أسلحة خسب ، بل مبائ وأفكاراً تقاثلها
بها . قال : « ومسبب ذلك هو انهيار الدولة الروسية ، فان أوربا كانت عام ١٩١٤ كتلة
متحدة ، متينة ، متباسكة ، بالرغم من جميع المناظرات والمناهضات التي كانت فيما بين أجزائها .
فقد كانت السلطنة الروسية والسلطنة الانكليزية متناظرين في آسية ، ولكن من جهة أخرى ،
كنت ترى كل واحدة منهما شادة أزر الاخرى . وكانت أوربة بأجمعها تستفيد من الرعب

الذى تلقىه الروسية في قلب آسية، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدأ خلاص آسية» وقد أشارت جريدة الطان بتاريخ ٨ حزيران سنة ١٩٢٣ الى مقالة فريرو هذه وأيدت رأيه من جهة كون انهيار الروسية هو الذى كان مبدأ تحرير آسية، وهذا عين ماورد في مقالة روجرلابون التى ترجمناها عن «مجلة باريز». وكان أحدالروس اقترح علينا سنة ١٩١٩ نشر مقالة في جريدة روسية تصدر في برلين فخررنا في ذلك الوقت له مقالة نبين بها الأسباب الداعية الى الاتحاد بين الروس والشرقيين، ونلوم سياسة الروسية الماضية التى كانت عبارة عن قهرالشرق وملاشاة الدولة العثمانية، لفائدة الدول الغربية، فكان جل الخسائر بالمال والرجال على الروسية، ومعظم الفوائد لانكلترة وفرنسا، لأنه من المحقق لولا نفل جل الروسية على ظهر العثمانيين وكونهم أصبحوا من عداوة الروس بحالة لا يملكون معها قبضاً ولا بسطاً، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر، ولا على تونس، ولا ايطالية دخول طرابلس، ولا انكلترة احتلال مصر والسودان بل كانت الدولة العثمانية بأمنها ناحية الروسية تقدر على حاية هذه البلدان، لاسيما في بداية الأمر فالروسية هى التى كانت سبب سقوط الشرق واسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية، وتحول الحكومة القيصرية الى البلشفة هو الذى مكن اليوم الشرق من أن يتنفس. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض. فهذا المعنى كنت أوضحت قبل أن ابدأ الكتاب الأوربيون ينهبون اليه.

ثم ان هناك جملة وردت في كلام العلامة فريرو فيها معنى كبير ينبغى أن ينعم النظر فيه جميع الشرقيين ألاهى قوله: «ان الروسية وانكلترة مع تناظرهما وتنافسهما في الشرق كانت كل منهما شادة أزر الأخرى». ومعنى ذلك أن الروسية كانت تقلم أظفار الأتراك، والفرس، والصينيين، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لايقدررون على اغائة الهنود، والافغان، والمصريين والعرب الذين مدت يدها اليهم انكلترة بالبطش والغصب. وكذلك انكلترة باستيلائها على هؤلاء قدعطلت منهم كل قوة حربية، فأصبحوا لايقدررون أن يؤيدوا الدولة العثمانية، ولا الدولة الفارسية، ولا تركستان، ولا الصين بشئ، فكانت كل من الروسية وانكلترة قدشدت احدهما أزر الأخرى بطبيعة الحال، وكان بينهما تضامن، وان لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهو جار بالفعل. ومن الأمور التى تؤيد هذاوقوع هذا التضامن بدون تواطؤ. ليس بين أوربا والروسية القيصرية فحسب، بل بين أوربا والروسية البولشفيكية

نفسها ، مع شدة العداوة التي بين الفريقين .
فان الدول الغربية أثارت على البولشفيك الاميرال كولتشاق ، والجنرال دينيكن ،
والجنرال يودينيش ، والجنرال فرانجل ، والمملكة البولونية ، وحاولت اثاره الأرمن ، والكرج
وكل قوم ترجو فيهم النهضة ، لقتال الحكومة البولشفية ، التي ترى فيها الخطر الأعظم على
كيان الهيئة الاجتماعية الاوربية . وقد بذت انكلترة وفرنسا في تسليح هذه الأقوام ،
وسوقهم على الروسية مئات الملايين ، ولا تزالان الى هذه الساعة تترصدان الفرص وتتربصان
بالبولشفيك الدوائر .

لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر ، من أن تحرك على البولشفيك قوة
اسلامية . فعرض بعضهم الرأي بالاتفاق مع تركية وتسليحها وسوقها على الروسية من جهة
الفوقاس ، حيث ينضم الى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والترك فلم يقبل الحلفاء هذا
الرأي أصلاً . ولا راق لهم تسليح العجم ، ولا الافغان ، ولا بخارى ، ولا خيوة ، ولا فرغانة ،
ولا غيرها من تركستان . ولا رمى البولشفيك بهذه القوات كلها وماذا كان الا لانهم يرون الخطر
الاسلامى أعظم من الخطر البولشفي . مهما كان الخطر البولشفي عظيماً . ومن الادلة البارزة على
ذلك انه لما نقر المرحوم أنور من البولشفيكين ورحل موسكو سنة ١٩٢١ الى باطوم ، ومنها
انسل الى بخارى وأثار ثورة تركستان الهائلة التي حشد البولشفيكون فيالق جرارة لقمعها
لم يفكر أحد باوربا في امداد أنور على البولشفيك ، بل عند ماسقط أنور شهيداً في أوائل
أغسطس سنة ١٩٢٢ فرح بمقتله الحلفاء ، ولم تخف الجرائد الانكليزية سرورها . وفي هذا
مقنع لمن يبقى عنده شيء من الريب في شدة تضامن أوربا بازاء الشرق .

الفتوحات الاسلامية في الهند

التقسيمات الجغرافية وعدد مسلمي كل ايلة

لنيل كيش

افتتح العرب المسلمون السند وجانباً من الهند في صدر الاسلام ، ثم أكمل الفتح محمود بن سبكتكين الغازي الشهير ، ورسخت قدم الاسلام في الهند من بعده . ثم استولى الاسلام على كل الهند بدون استثناء ، ودانت له جميع ملوك الهندوس ، يقال لم يبق خارجاً عن طاعة الاسلام في الهند سوى مملكة يقال لها (اودبور) لها ملك يقال له (مهرا نا) وهو لقب أكبر من مهراجا . وسبب تفرده بهذا اللقب أنه هو الوحيد من ملوك الهند قاطبة الذي لم يخضع لسلطة الاسلام ، ولذلك هو الى يومنا هذا يتقدم في الاحتفالات الرسمية جميع نظرائه .

وقد بلغ عدد المسلمين في الهند في تاريخ تجديد الطبع لهذا الكتاب ٧٨ مليوناً وعددهم الى الأمام لا الى الوراء

وبمناسبة الهند هذه نذكر ملخص تقسيمات تلك البلاد العظيمة ليكون للقارئ تصور

عام بها :

فهى ثلاثة أقسام : القسم الأول هو المستقل تماماً ، وهو عبارة عن مملكتين في الشمال (نيبال) و (بوتان) ، وأهل نيبال خمسة ملايين كلهم هندوس ، وأهل بوتان مليون واحد هندوس أيضاً فيهم قليل من المسلمين ، وكلهم أمة محاربة مشهورة بالشجاعة ، وأشهر عساكر الهند الانكليزية هم من أبناء هاتين المملكتين ، يتطوعون في الجندية نظراً لفقر بلادهم ، ووغورة أراضيهم . وللانكليز هناك وكيل مقيم لا يكاد يكون له نفوذ

ثم القسم الثانى وهو الذى تحت حماية انكلترة ، وهو يدفع خراجاً سنوياً لها ، وملوكه وأمراؤه مضطرون أن يحضروا حفلة تنويج ملك انكلترة امبراطوراً على الهند ،

وعدد هذا القسم ٧٠ مليوناً ، أى سكانه مع سكان القسم المستقل لا يزيدون على ربع الامبراطورية الهندية

وبقية الهند تديرها الحكومة الانكليزية مباشرة كسائر أملاكها فالامارات التي هي تحت الحماية هي ما يأتي : (حيدر آباد الدكن) ، أهلها ١٣ مليوناً أكثرهم من الهندوس ولكن عاصمة البلاد أكثرها مسلمون وسلطانها مسلم يقال له (النظام) ، وفيها وزير مقيم من قبل الانكليز لكن نفوذه على المملكة محدود . وهناك جيش عدده ٣٠ ألفاً أكثره عرب من (حضرموت) . ولحيدر آباد نوعان من الجند : الأول يستقل به سلطان البلاد ، والثاني مرصد للاشتراك في حامية المملكة الهندية كلها وهذا قواده من الانكليز . والخراج الذي تدفعه حيدر آباد لانكلترا زهيد ، واستقلالها الداخلي يكاد يكون تاماً

وقد حدث بين نظام حيدر آباد وانكلترا خلاف في السنين الأخيرة من أجل ولاية كبيرة يدعى النظام أنها تابعة لمملكته ، ويزعم الانكليز أنها مما ينبغي أن يلوه هم رأساً . ولا نعلم كيف انتهى الأمر بينهما ولكننا نعلم أن انكلترا لاتزال مصرة على الاستئثار بتلك الولاية

ونظام حيدر آباد أوسع ملوك الاسلام ثروةً ومن أغنى ملوك العالم ، وقد كانت له اليد البيضاء على آل عثمان والخليفة عبد المجيد بن السلطان الخليفة عبد العزيز الذي طرده الأتراك الكاليون وأجأوه الى أوربة لا يملك شروى نقيز تقريباً فأقام أولاً بمونترو من سويسرة ثم انتقل الى نيس من ساحل فرنسة على البحر المتوسط (والعرب تقول نيقة) وبلغ نظام حيدر آباد أن الخليفة قد يصل من الاحتياج الى حد يمس بكرامة الاسلام ورأى أنه لا يليق بالمسلمين أن يصير السلطان الذي كان خليفتهم بالأمس الى حالة كهذه من البؤس والهوان فرتب له ثلاثمائة جنيه في الشهر وحفظ شرفه من أن يذل وكان له بذلك اليد المحمودة عند الجميع لا سيما أن الخليفة عبد المجيد هو من يستحقون كل خير وانه من خيار الملوك في طهارة أخلاقه واستقامة مبادئه وسعه عقله ومعارفه و إخلاصه للإسلام والمسلمين

ثم انه في أوائل هذه السنة ١٩٣٢ افرنجية ازدادت العلاقة بين الخليفة عبد المجيد ونظام حيدر آباد بزفاف كريمة الخليفة على نجل النظام ، ولم يحسن وقع هذه المصاهرة في

انقرة لأن الكهاليين خافوا من أن يتوكل الخليفة على ثروة النظام في بث الدعاية في تركيا لا عادة الحكم الملكي إليها ، وكذلك لم يحسن وقع هذه المصاهرة في انكلترا لأن الانكليز خشوا ، ان يجعل عبد المجيد مركزه في حيدر آباد فتجتمع مسلمو الهند من حوله وتخلق هذه المسئلة لهم مشكلاً جديداً ، والحقيقة ان خوف الفريقين بغير محله فلا نظام حيدر آباد مستعد للبذل في سبيل الدعاية الملكية في تركيا ولا الخليفة سيكون مركزه في الهند . ولن يقع انقلاب في تركيا الا بحوادث غير عادية تحصل في داخل تركيا . وما يرجح في العقل أن انقلاباً كهذا لا يقع الا بعد وفاة مصطفى كمال

ثم (ميسور) وهي أرقى مملكة في الهند وأهلها مختلطون مسلمون وهندوس ، والملك - ويقال له مهراجا - هندوسى وفيها مجلس ندوة

ثم (كشمير) وعدد أهلها بحسب الاحصاء الأخير أربعة ملايين منهم ثلاثة ملايين ونصف مسلمون ونصف مليون هنداك . ولكن المهراجا هندكى . وهي في شمالى الهند كما أن ميسور في الجنوب . وقد حصلت في كشمير فتنة شديدة بين المسلمين والهنداك في العام الفائت سببها أن الحكومة التي هي في يد الهنداك أهانت بعض المسلمين وجرحت شعورهم الدينى وذلك بما قيل انه بعض الشرطة أجبرت أناساً من المسلمين بالسجود للاصنام قهراً لهم فهاج المسلمون في شمالى الهند وزحفت منهم عصائب على كشمير وأقامتها وقعدتها ولم تسكن الفتنة الا بدخول جيش انكليزى تمكن من اعادة الراحة بينهما الحكومة أخذت تفحص عن شكاوى المسلمين . ولا يزال هؤلاء يطالبون بعزل المهراجا الهندكى وأن يتولى كشمير أمير مسلم بناء على كون أ كثرية كشمير من المسلمين . ولكن ان لزم العمل بهذه القاعدة كان لا بد من فقد المسلمين لعرش حيدر آباد التي فيها المسلمون نحو من مليونين والهنداك ١١ مليوناً

ثم (ترافنكور) وأهلها أربعة ملايين أ كثرهم هندوس ومعهم مسلمون ، ولهم مجلس ندوة ، وعليهم مهراجا هندوسى

ثم (بروده) عدد أهلها مليونان هندوس ، ولها مهراجا هندوسى وهي مملكة راقية غنية وفيها مسلمون

ثم (غواليار) وأهلها مسلمون وهندوس ولكن المهراجا هندوسى ، وعدد أهلها مليونان ونصف مليون ، ومكانها في وسط الهند ، وهي معدودة من البلاد الراقية ، وعندها جيش منظم

ثم (ايندور) وهى فى قلب الهند أيضاً ، وأهلها مليونان هندوس ، وملكهم منهم
ثم (أودبور) التى مر ذكر سلطانها أنه يتقدم جميع ملوك الهندوس وهى فى وسط
الهند أيضاً .

ثم (رامبور) وهى امارة اسلامية ، عدد أهلها نصف مليون أو يزيدون ، عليهم
ملك مسلم يقال له النواب

ثم (جهور) وهى نصف مليون أيضاً ، وأهلها مسلمون لهم نواب
ثم بهوبال وأكثر أهلها هنداك ، ولكن الأمير مسلم ، وكان لهم ملكة يقال لها
(بيكم) ويقال لها الرئيسة كانت متزوجة بالعلامة المجتهد الشهير ذى التصانيف العديدة الممتعة
باللغة العربية السيد صديق حسن خان بهادر ، وقد كان فى مبدأ أمره كاتباً عندها ، وقيل
أن الانكليز كانوا نعموا على السيد صديق خان كتابات له تثير الهند عليهم فأرادوا قتله
فخارت هذه الملكة بهم وذكرت لهم مواقفها فى ثورة الهند الكبرى وانقاذها عدداً كبيراً
من الانكليز كان الهنود على وشك الفتك بهم وما زالت بهم حتى أفكتهم عن قتل صديق
حسن خان ، وأثبتت ما كان عندها من قوة ارادة

وقد خلفت « البيكم » المذكورة (بيكم) أخرى ، ثم ماتت هذه من سنتين وتولى
الحكم ابنها الأمير الحالى وهو رجل عاقل محمود السيرة وطنى الأزعة ، ولقد كان فى العام
الماضى بلندن فى المؤتمر الهندى المسمى بالمائدة المستديرة وقد عرفنا من رجاله الأمير أحمد
خان ناظر حرية بهوبال وهو من أمائل من عرفنا من رجال الهند

ثم (بها وليور) فى شمالى الهند ، عدد أهلها مليون وهم مسلمون ولهم نواب مسلم
أيضاً ثم (جبور وجود بور وآلور وبيكانير وجسملار وكوتا) ، وكلها امارات هندوسية ،
وتونك وأهلها مسلمون ، وريفا وبانيالا وناها وجبن وكولابور وسكانها مختلطون
مسلمون وهندوس

وأما القسم الثالث الذى تليه انكلترة مباشرة فعدد سكانه ٣٣٠ مليوناً وأهم بلاده
(البنغال) و (البنجاب) و (اغرا) وولايات (مدراس) و (بمباى)

ولقد آثرنا ذكر تقاسيم الهند هذه - ولو بصورة مجملة - لأن القارئ قلما يجدها فى
الكتب العربية . ثم لأننا أحييناً أن نذكر نسبة عدد مسلمى الهند الى عدد الهندوس .
وأن نبين أما كنهم من الهند

الاسلام في جاوى وماجاورها

للمؤلف

١ — المستشرق هورغرونيه وسياسته نحو الاسلام

٢ — مسألة الحضارة في جاوى

ولما كان المؤلف أشار في حاشية كتابه الى تسرب الاسلام من الهند الى جزائر الأوقيانوس واستيلائه على جزيرتي جاوى وسومطره العظيمتين رأينا من الضروري أن نقول كلمة في هذا الموضوع وهي :

ان الاسلام بدأ ينتشر في هاتيك الجزائر في أواسط القرن الثامن للهجرة أو القرن الرابع عشر للميلاد وفي بلدة (غريزيك) من بلاد سورابايا من الجاوى قبر مولانا ملك ابراهيم أحد كبار المجاهدين الذين سبقوا الى نشر الدعوة الاسلامية في تلك الجزر القاصية ، ووفاته وقعت في ١٢ ربيع الأول سنة ٨٢٢ الموافق ٩ ابريل سنة ١٤١٩ ، وكذلك في بلدة « بازه » قبر (الأمير محمد بن عبد القادر) من ذرية (الخليفة المستنصر العباسي) توفي في ٢٣ رجب سنة ٨٢٢ الموافق ١٥ أغسطس سنة ١٤١٩ . وما زال الاسلام يتغلب في هاتيك الأقطار حتى بلغ عدد المسلمين فيها ٣٥ مليوناً أى نحو نصف عدد مسلمي الهند وهم في الفقه على مذهب الامام الشافعي رضى الله عنه

وهذا الاحصاء هو الاحصاء الرسمي الهولاندى منذ نحو ١٥ سنة ، فلا بد أن يكون عدد المسلمين ازداد اليوم على ما كان في ذلك التاريخ ، ولقد نشرت (مجلة العالم الاسلامي) الفرنسية في سنة ١٩١١ أربع محاضرات على سياسة هولاندة الاسلامية للعلامة المستشرق الهولاندى (سنوك هورغرونيه) مستشار نظارة المستعمرات الهولاندية في المسائل الاسلامية والعربية وهو من الافذاذ الذين وقفوا على أحوال الاسلام عموماً وبلاد الجاوى خصوصاً وأقام بتلك الديار ١٧ سنة قتل فيها أمورها علماً ، ويقال انه دخل مكة والمدينة

في موسم الحج متكرراً فهو الذي يحقق في تلك المحاضرات أن عدد المسلمين الخاضعين في جزائر الاوقيانوس ، لسلطة هولانده هو ٣٥ مليون نسمة وقد ازداد هذا العدد كثيراً حتى بلغ الاحصاء الاخير خمسين مليوناً أي في سنة ١٩٣٢ بلغ مسلمو المستعمرات الهولندية هذا العدد ، وكانوا من ١٢ سنة ٤٥ مليوناً ، فتسكون زيادتهم في هذه الاثنتي عشرة سنة خمسة ملايين نسمة ، فأنت ترى أن عدد ٣٥ مليوناً هو قديم العهد قد يكون بموجب احصاء مضى عليه ثلاثون سنة بالاقل

وفي السنة الماضية نشر « جورنال دوجنيف » رسالة لمكاتب له كان في بلاد الجاوى واطلع على أحوالها اسمه المسيو « بول بورداري » Paul Bourdarye زعم فيها أن الاحصاء الذي أجرته الحكومة الهولندية سنة ١٩٣٠ أثبت أن عدد المسلمين في مستعمراتها تزايد جداً وأنه بلغ الآن ٦٤ مليون نفس وعليه خطأ محض احصاء بعضهم مسلمي تلك الجزائر بعشرين مليوناً كما رأيت مرة في إحدى المجلات العربية المطبوعة بمصر وكان هؤلاء المسلمين هناك سلاطين وأمرء مستقلون فإزالت هولاندة تتغلب على واحد بعد واحد منهم حتى أخضعتهم لسلطانها تماماً ، وكان استصفاؤها بقية استقلالهم في اخضاع توانغ كو محمد دافوت سلطان آتشه الذي دخل تحت حاية هولاندة سنة ١٩٠٣

ولقد كان انتشار الاسلام في تلك الديار - بحسب تحقيقات العلامة هورغرونيه - بواسطة تجار مسلمين طرأوا عليها من الهند مقتفين آثار تجار الهندوس الذين كانوا يترددون الى تلك البلاد ويطبعون أهلها بطابع مدينتهم البرهمية ، فجاء الاسلام واستألم اليه وما زال يتقدم فيهم حتى غلب على جميعهم تقريباً ، كل ذلك بطرق سلمية ، وبدون أدنى قهر ولا عنف منها الا ما حصل من أهالي شرقي جاوى الذين غلبوا بعض مجاوريههم بالقوة فن جاوى امتد الاسلام الى سومطره والى قسم من بورنيو وسيليب والجزر التي الى الشرق . وابن بطوطة الرحالة الشهير امتدح ملك سومطره في القرن الرابع عشر بأنه جاهد في الكفار .

ولم يزل الاسلام ينتشر في البقايا الباقية على الوثنية حتى احتج كثير من الهولانديين على تساهل الحكومة الهولندية في ذلك وكيف انها تسمح للاسلام باكتساب هذه البقايا . وأكثر من صخب لذلك هي جمعيات التبشير المعهودة ، ولكن المستشرق هورغرونيه يفصل هذه المسئلة بالكلام الآتي مترجماً عن محاضراته السابق ذكرها :

« يجب على الحكومة أن تحذر من وضع كثير من المأمورين الوطنيين الذين يدينون بالاسلام في البلدان التي أهلها وثنيون لئلا تكون قد ساعدت على نشر الاسلام بدون قصد منها . وهذا المحذور قد وقع فيه الألمان أنفسهم في المستعمرات الألمانية بشرقي افريقية . ولكن الخطر عندنا أعظم لأن المأمورين الوطنيين من أهل الجاوى هم في الغالب من المتعلمين والمطلعين على أصولنا الادارية ، وليس عندهم تعصب مفرط في الدين ، فلا يسهل الاستغناء عنهم ، وقد تميل الحكومة الى استخدامهم ، فلا ينكر أنه مع تهادى الزمن يؤثر وجود هؤلاء المأمورين المسلمين في مسألة نشر عقيدتهم بين الوثنيين كما يؤثر جولان التجار المسلمين فيما بينهم . ولعمري لا يمكن منع هؤلاء التجار أن يجولوا في تلك الديار بحجة أنهم يدعون الى الاسلام اذ يكون ذلك عملاً مخالفاً للعدل ، ولكن يجب تدبر الأمر واستعمال الحكمة فيه بحيث لا نكون نحن قد ساعدنا بأنفسنا على اسلام غير المسلمين »

فأنت ترى أيها القارئ أن العلامة هورغرونيه - الذي هو معدود في الأقلين تعصبا ، والذي من أول محاضراته الى آخرها ينبه حكومته الى خطر الانقياد الى طلب جمعيات التبشير المسيحية من جهة الضغط على حرية الاسلام الدينية - هو نفسه يحذر نفس تلك الحكومة من استكفاء المأمورين المسلمين مدة طويلة في بلاد الوثنيين ، ولولم يكن عندهم تعصب مفرط ، لئلا يؤثر ذلك في عقائد الوثنيين فيشرح الله صدورهم للاسلام . وبعبارة أخرى ان مصلحة هولانده - وأوربا كلها - تقضى بترجيح بقاء الأهالي وثنيين على أن يصيروا مسلمين . هذا ظاهر لا يقبل أدنى جدال . فهل ياترى يجهل الأوروبي أن نقل الانسان من عبادة الضم الى عبادة الواحد الأحد هو أولى بالانسانية وأجدر بأن يكون هدف مساعي الأمم المتقدمة ؟ كلا . لا يجهل الأوروبي ذلك ولكنه يعلم جيداً لاسيما المستشرق العظيم الذي هو مثل هورغرونيه أن الاسلام لا يجتمع مع الذل في قلب واحد ، كما جاء في العروة الوثقى بقلم جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وأن الشريعة القرآنية قد ضمنت لمتبعها كل شروط الحرية وانتظمت له جميع أسباب الاستقلال ، بحيث لا يقدر أن يحكم في رقبته أجنبياً الا اذا مرق من أحكام تلك الشريعة . فلذلك لا يجتمع حب الاستعمار الأوروبي والميل الى الاسلام في قلب واحد لأن المستعمرين يعلمون ما وراء الأكمة ولذلك أهم شيء

تناسبه الدول المستعمرة الحرب هو نشر الدعوة الدينية وحفظ الشريعة الاسلامية والأخذ بعزائم الاسلام . وان كان بعض عقلائهم مثل هورغرونييه ينصح باعطاء الحرية الدينية وينهى عن التعرض للمسلمين في عقائدهم فذلك انما هو من خوفهم الثورة والانتفاض . ووقوع الدول المستعمرة في المقيم المقعد من جراء هذا الأمر ، فترى مثل هذا النفر ينصحون بالاعتدال وعدم مصادمة المسلمين في عقائدهم من باب اختيار أخف الضررين لا غير ومع ذلك فلا يطلقون هذه الحرية على أرسلها بل يجعلون الحذر لها رقيباً والاحتياط رائداً ، وبالجملة فيجتهدون بأن تكون مقاومتهم للاسلام في الأمور السياسية علنية لاضراء فيها ، وأما في الأمور الدينية فيجعلونها خفية لا مجاهرة فيها بحيث لا تدعوا الى الاضطراب ولا تبعث على الانتفاض

هذه هي سياسة العقلاء من المستعمرين ، فأما سياسة المتهورين فهي معلومة لاجابة الى الكلام عليها لا تعرف لمسلم حقاً ولا حرية وقد اعترف العلامة هورغرونييه بأن حزباً في هولانده ممالئا لجمعية التبشير بحث الحكومة أن تحصل مسلمي الجاوى على النصرانية فيبين الخطر العظيم من مملأة جمعيات التبشير على مساعيها هذه في تنصير المسلمين وطعن في مزاعم بعض النواب في الندوة الهولاندية كون اسلام أكثر أهل الجاوى والجزائر النيرلاندية لا يزال اسماً فلا بأس بمعاملتهم بغير ما يعامل به المسلمون وقال : ان هذا القول هو في منتهى الحماقة وانه يجب على كل وطنى هولاندى يهيمه مستقبل وطنه أن يرده بتاتا ويحذر الحكومة من سوء عواقبه . وهو ينبه الى كون الضغط يورث الانفجار . وأن حكومة هولانده كما أنها متهمة عند جمعيات التنصير بالتسامح مع المسلمين فهي متهمة لدى المسلمين باضطهاد الاسلام فلا يجوز أن تؤيد بعملها حجة من يرمونها بذلك .

ومن رأى هذا العلامة أن الحكومة الهولاندية تخطيء اذا أقامت عقبات في طريق الحج لاسيما أن مسلمي الجاوى وسومطره هم أشد المسلمين محافظة على هذا الركن من أركان الدين وأن تصعب الحج عليهم لا يأتى هولانده بغير اثاره الخواطر وقلق الأفكار وهو يرد على بعض النواب الهولانديين الذين يسترسلون الى الخيالات من أمر الحج ويظنون أنفسهم قد أحسنوا صنعا في حل الحكومة على منع الحج أو تصعب سبيله . ويقول : ان على الحكومة الهولاندية أن تنسلك سبيلا وسطا فلا تحت على فريضة اسلامية

ولا تنهى عنها . وأنها قد أحسنت صنعا في الطريقة التي اتبعتها في فريضة الزكاة فقد أعلنت أنها تعتبرها من قبيل الصدقة الاختيارية فلا تحمل عليها أحداً بالقوة ولا تمنعها بالقوة .

وأما من جهة القضاء فهو يذهب الى عدم سن قوانين مأخوذة من الشريعة الاسلامية كما خطر ببال بعضهم بل ينبغي حل المسلمين على القانون الهولاندى الا ما تعلق بالأحوال الشخصية كالنكاح والطلاق والميراث فهذه يجوز أن تفصل بحسب شريعتهم . وغرضه من ذلك عدم تقوية هذه الشريعة التي يحول تطبيقها بأسرها دون الصبغة الأوربية التي ينبغي أن تكون مجاهد هولانده مصروفة الى نشرها تدريجاً . فان هورغونيه يقول : ان سلامة المستعمرات الهولاندية متوقفة على نشر المدنية الغربية والثقافة الهولاندية في مسلمي تلك الجزائر الى أن يصيروا في هذا الباب كالهولانديين أنفسهم فيكون هولانديون في الشرق كما يكون هولانديون في الغرب ولا يرى ذلك مستحيلا ولا يجد الاتحاد في الدين شرطاً في اتحاد الوطنية بل يقول : انه كما لم يمنع اختلاف الهولانديين البروتستانت مع الهولانديين الكاثوليك والهولانديين اليهود ثم مع الملاحدة والمعطلة من الهولانديين أن يكونوا جميعاً أمة هولاندية فلا يمنع اختلافهم في الدين مع مسلمي الجاوى وسومطره أن يكون هؤلاء في يوم من الأيام وطنيين هولانديين وذلك بحمل هؤلاء المسلمين على الثقافة الهولاندية التي تتغلب في نفوسهم على أثر الدين . وهو يتمشى في جميع آرائه على هذه النظرية ، وكأنه يعلم أن مهاجرة المسلمين من جهة العقيدة رأساً أمر عقيم لا يأتي بأدنى فائدة ، ولا يعود على هولانده الا بالضرر ، فلا يألو جهداً في تحذير قومه من سلوك ذلك المسلك الصعب ، ويشير الى صبغ الأمة الجاوية بالصبغة الهولاندية من طريق العلم والتربية .

أما حيث تجد هورغونيه متشدداً الى الدرجة القصوى فهو في السياسة السولية فانه ينه جهاراً بدون أدنى محاباة الى قطع كل علاقة سياسية بين الجاويين وسائر الحكومات الاسلامية ، لأنه يقول ان الخلافة ليست عبارة عن بابوية لا شأن لها في السياسة بل هي رئاسة سياسية من أراد الاعتصام بها من المسلمين لم تمكنه طاعة حكومة مسيحية .

وهو يتأسف من كون مسلمي تلك الجزائر مقلدين في ديانتهم وعاداتهم وآدابهم مسلمي مصر وحضر موت وجزيرة العرب ، عاكفين على مطالعة التأليف التي تحرر في البلاد العربية ،

وأنة الى اليوم لم يوجد عاطفة جاوية قومية تناهض هذه النزعة الدينية العربية يظهر من هنا اتفاق الاوربيين على بث روح القومية بين أمم الاسلام أملا بتشظية عصا الجامعة الاسلامية . فاننا قد رأينا أثر هذه السياسة في مواضع كثيرة من بلاد الاسلام فكأن الاوربيين يرون خطر القومية أخف جدا من خطر تلك الجامعة — ولذلك هو يرى أن لاهوادة مع المسلمين الجاويين فيها لو أرادوا أن يتضامنوا في السياسة مع سائر مسلمي المعمور وأنه يجب منع فواصل تركيا الذين يتمثلون هناك بصفة وكلاء دولة الخلافة من أية مداخله كانت مع الاهالي . وأغرب من هذا أنه ينصح بمنع الاشتراك في الاعانات لسكة حديد الحجاز وعدم اباحة أية اعانة كانت لجرحى العساكر العثمانية أو لأرامل جنود الاتراك وأيتامهم — يقيم التكبير على ذلك بكل تصريح وينسى ما في ذلك من مخالفة مبادئ الانسانية — ويحث حكومته على منع ذكر السلطان العثماني في خطبة الجمعة وعلى مراقبة التعليم الديني حتى لا يقع فيه شيء من الدعوة الى اتحاد الاسلام — وكأنه يريد أن ينحصر في المواعظ وأحكام الصلاة وذكر نواقض الوضوء مثلا — ويطلب حذف باب الجهاد من الشريعة وبالاختصار فهو مع ما انصف به من الاعتدال يريد أن يمحو أثر كل تضامن اسلامي مع المسلمين التابعين لهولانده ، وأن ينسخ من التعليم الاسلامي كل ما فيه رائحة الدفاع عن الامة ، وفي هاتين النقطتين لا يرى في المنام خيلا ...

ثم ان هناك مشكلة مهمة يقال لها مشكلة الحضارمة ، وهذه تكرث الحكومة الهولاندية اكثر من كل مشكلة سواها في الجاوى لأنه معلوم كون اهل حضرموت من أقدم اهل الارض على الاسفار ، وان فقر بلادهم مع مضاعفة عزيمتهم بحملاتهم على جوب الآفاق ، واكثر ما ينتشرون في جزائر الجاوى والبحر المحيط ، فكانت الحكومة الهولاندية تحسب لهم حساباً كبيراً ولئلا ما يضيق صدرها بهجرتهم الى تلك البلاد خشية أن ينشروا الدعوة الاسلامية أو ينهبوا الاهالي السذج الى الامور التي لولا الحضارمة ربما لا ينتبهون اليها ، فما زالت تضع الحواجز امام نزولهم في تلك الديار وتراقب حركاتهم وسكناتهم ، وهي تحتج لذلك بكونهم في الاكثر أفاكين لا يأتون الى الجاوى بشيء من رؤوس الاموال وانهم هم يمنعون غير المسلمين من دخول بلادهم حضرموت فلا يحق لهم اذاً ان يطالبوا بدخول بلاد هولانده — لأن جزائر الجاوى وسومطره وبورنيو وملحقاتها هي ملك هولانده وهي أولى من الاهالي ببلادهم ...

— وبناء على ذلك فقد ضيق الحضارمة وغيرهم من العرب في قضية المهاجرة الى المستعمرات الهولندية أو النيرلاندية كما يقولون ولكن لم تخل الحال من كون كثيرين من الحضارمة تمكنوا من الدخول وأوطنوا تلك الديار وصاروا من اهلها ، فترتب على ذلك ان الحكومة الهولندية التي هي من الاصل غير مرتاحة الى وجودهم بين مسلمي الجاوى لكيلا تسطو حصافتهم على سذاجة هؤلاء ويوقظوهم من غفلتهم التي هي درة الحلب الاستعماري قد جعلت تضيق عليهم في غدااتهم وروحاتهم وتنغص عليهم عيشهم وتفعل ما شاءت انحملهم على ترك تلك الديار

فلاستاذ هور غرونيه يتكلم على هذه المسئلة بما يلي ترجمته :

« ان عدم قبولنا للحضارمة من الاصل لم يكن مخالفاً للعدل وكانت له اسباب يمكن أن يبني عليها ، فلم تنتبه له الحكومة ، وسمحت هؤلاء بالدخول على شروط يسهل عليهم القيام بها . لكنها بعد ان سمحت لهم بالاقامة جعلت تراقب حركاتهم بصورة لا تطاق ، وربما كان لسياسة المأمورين الذين تختلف انظار بعضهم عن بعض في الشدة وعدمها مدخل في تشديد هذا الخناق على الحضارمة بحيث أصبح العربي هناك لا يملك شيئاً من الأمان على حاله واستقباله . فاضطر بعض ذوي الشأن من هؤلاء العرب الى رفع امرهم الى الخلافة (تركيا) وملاًوا الجرائد الاسلامية بشكاويهم حتى يتمكنوا من تنفيس الخناق الذي هم فيه ويتعاطوا تجارتهم ومرفقهم بدون تلك القيود الثقيلة التي هي حجر عثرة في سبيلها ، ولكن مما لا ريب فيه ان تلك الشكايات فيها مبالغة كبيرة »

ومن شاء التوسع في هذا الموضوع ومعرفة ماهي عليه حالة اسلام الجاوى وماهي سياسة هولانده هناك وكيفية نظرها الى مستقبل تلك المستعمرات ، اذ كانت كل دولة مستعمرة لايهمها شيء مثل الاستيثاق من مستعمراتها والأمان الأبدى عليها ، فعليه بمطالعة مجموع المحاضرات التي القاها هذا الاستاذ والتي تجد في آخرها جملة لأبأس بنقلها وهي :

« ان الاسلام والنصرانية يمكنهما الاجتماع واحتمال احدهما الاخرى في ممارسة الحياة الوطنية على شرط أن يمكن رفع فكرة الاتحاد الاسلامي . ولقد رأينا مقدار مساعدة الأحوال لنا في تحقيق مشروع ادخال المسلمين الجاويين في الامة الهولندية بدون اثاره المسئلة الدينية .

ولعمري ان كثيرين منا يمكنهم أن يأخذوا دروساً من التساهل الديني عن أولئك الاهالى «
وكفى بهذا شهادة

وقد اعتنى علماء هولاندة جد الاعتناء بتمحيض تاريخ الجاوى وجغرافيتها نظراً
لكونها من أبدع وأغنى بلاد الله ولكونها من هولاندة بمكان الهند من انكثرة فألفت
على تلك الجزر مئات من الكتب والرسائل ونحن لا نتقل هنا سوى ما تعلق بدخول
الاسلام فيها وأحوال المسلمين على وجه الاجال .

قالوا ان الذين أدخلوا الاسلام الى تلك الجزر هم العرب وذلك بواسطة التجارة
والملاحة فانهم نزلوا أولاً بالثغور البحرية وبالمراسى الشهيرة وأخذوا ينتشرون منها شيئاً
فشيئاً الى الداخل وكانوا لا يلبون على شئ سوى الأخذ والعطاء ولم يظهر أصلاً انهم قصدوا
بأدى ذى بدء تأسيس ملك ولا فتح بلدان ولكن عند ما صارت الأمة الماليزية تناظرهم
وتسدد عليهم طريقهم التجأ هؤلاء العرب الملاحون المرباحون الى القوة المسلحة حفظاً
لحريتهم ووقاية لرفقهم فكانت مملكة دماك Demak وهى أول فتح عربى فى الجاوى .

وكان جغرافيو العرب قد عرفوا من زمن قديم بلاد ماليزيه وثبت انه فى القرن
العاشر والحادى عشر والثانى عشر طاف كثير من سياح العرب فى سواحل الهند والصين
والجزر الماليزية . قال المسيو بيارغونو Pierre Gonnaud صاحب كتاب « الاستعمار
الهولاندى للجاوى » ان المدينة الاسلامية فى القرن العاشر كانت تلمع بأسطع أشعتها
وكان الخليفة يتولى سلطنة قوية سعيدة وكانت من جميع الجوانب تمتد طرق التجارة
فيتلاقى فى وسط مملكة الخليفة الشرق والغرب وقد أحصيت تلك الطرق بين الغرب والشرق
فكانت خسا الاولى من البحر الاحمر الى الحجاز وجدة الى السند والهند الى الصين والثانية
من انطاكية الى بغداد الى الابله الى الهند والثالثة من جهة بحر الخزر الى الشرق والرابعة
كانت تبدأ من طنجة فى الغرب فتخترق أفريقية الشمالية الى مصر الى الشام الى بغداد
فالبصرة فالاهواز ففارس فكرمان الى السند فالهند فالصين والخامسة كانت شمالية تبدأ من
ألمانية فتمر بالروسية الى بلاد ماوراء النهر الى الصين . وكان انتشار قوة الاسلام اقتضى
توسع المعلومات الجغرافية فوجه زعماء الاسلام عنايتهم الى جوب جميع البلدان التى

دخلت في حوزتهم وانعد أصاب الميسورينو Reinaud في قوله : « ان فتوحات الاسلام الأولى تأتت بدون برنامج معين وعلى طريق الاتفاق ولكن كان المسلمون كلما فتحوا قطراً حددوا حدوده وخططوا مسالكه واجتهدوا في معرفة موارد حياته .

ثم قال ان المسعودى قد عرف الجاوى وذكر استيلاء الهند على الجانب الغربى منها وأشار الى وفرة الجبال النارية فيها . ومما قاله : انه لا يمكن معرفة حدود سلطنة مهراج الزيج أو الجاوى وجيوشه لا تحصى وينبغى للانسان مسير سنتين حتى يأتى على جميع ممالكه . وفي بلاده جميع أنواع الأفاويه والعطور مما لا يوجد عند ملك غيره ويصدر منها الكافور والطيب والقرنفل والصندل الخ وممالك المهراج يحدها بحراً لا آخره يتصل ببلاد الصين . انتهى فكانت الجاوى يومئذ معدودة في ممالك الهند وفي القرن الحادى عشر والثانى عشر

ازدادت الفتوحات وازدادت معارف المسلمين الجغرافية وأصبح الارخبيل الماليزى معروفاً ومنذ أوائل القرن الحادى عشر ظهرت روح الدعاية الدينية بشدة عظيمة في الحروب الصليبية واشتدت المصارعة بين جنود الخليفة والبارونية الافرنج . الى أن قال : انه في القرنين التالين صارت الدولة ملوك طوائف وانفصلت بعضها عن بعض وتغيرت الطرق التى كانت بين المشرق والمغرب وسافت هذه الأحوال مهاجرى العرب الى بحر الهند . وفي القرن الحادى عشر زار أبو الريحان محمد الهند وكتب عنها . وفي العصر الذى يتلوه كان الادريسي في بلاط روجر صاحب صقلية وكان يأخذ عن تجار العرب الذين يترددون على بلرم وهو أول من سمى باسم الماليز أحد الشعوب الساكنة في الجاوى . وذكر ما بين هذه الجزيرة وجزيرة ماداغسكار من العلاقات ووحدة الجنس . ولكن اسوء الطالع كانت معلوماته في الاطلس الجغرافى لا تزال على ما كانت عليه معلومات بطليموس فكان يجعل قارة افريقية ممتدة جداً الى الشرق . على أن هذا الأطلس نفسه الذى أنبأنا عنه الميسورينو يدل على التبسط العظيم الذى تبسطه العرب في جميع أصقاع الاقيانوس الهندى ونقل ابن سعيد (أبو الحسن نور الدين على) المولود سنة ١٢٧٤ أخباراً كثيرة عن رجل اسمه ابن فاطمة ساح في سواحل افريقية الغربية حتى بلغ الرأس الأبيض وطاف في السواحل الشرقية حتى بلغ سوفاله . ونحن نعلم أن السواحل الشرقية هذه كانت دائماً محط رحال العرب وانه كان في أواخر القرن الخامس عشر في ساحل موزامبيق جالية اسلامية جليلة عا كفة عن أشغال البحر

بصيرة جيداً بمهاب الرياح ومجارى الأبحر المجاورة وبين أيديها خرط بحرية وآلات متنوعة متعلقة بصنعة الملاحة . وأحسن من وصف بلاد الجاوى من هؤلاء الجغرافيين أبو الفدا فمع كون معلوماته ليست فى نهاية التمهيص فلم يكن أحد يقدر على ما يقدر عليه فى وقته من الاطلاع والتنقيب فقد حج الى مكة ثلاث مرات وعرف الشام والعراق وكان كثير الاختلاط بصاحب الديار المصرية فاطلع على أحوال الجاوى والجزر المجاورة لها ونشر كل ما عنده من العلم فى عصره عن هذه الجزر العجيبة فقال ان الجاوى لها عدة أسماء . وذكر ابن سعيد ان جزائر الرانج اشتهرت بما روى عنها التجار والسياح . وأكبرها جزيرة السريرة التى طولها أربع مائة ميل من الشمال الى الجنوب وعرضها مائة وستون ميلاً الخ . ثم يقول أبو الفدا : فى جنوبى الاقليم الأول جزيرة كبيرة فى البحر الأخضر ذكر ابن سعيد أن سلطانها لا يوجد له نظير فى ملوك الهند فى كثرة السكنوز والذهب والأفيال وقاعدة ملكه فى الجزيرة الكبرى وقال المهلبى ان جزيرة السريرة معدودة من الصين الخ .

وبالاختصار فالى عهد استيلاء الأورو بين على هذه الديار كان العرب لهم معرفة تامة بها وبخيراتها وبمسالكها وبالبراكين التى فيها وكانوا يعلمون أن فيها ممالك عظيمة مثل مملكة المهرج يصفها ابن خرداذبة وأبو الفدا بسعة الملك والحوال والطول . ولما وصل العرب الى تلك الجزائر لم يفكروا فى فتحها بالسيف كما فتحو آسية الصغرى وأفريقية وأسبانية لأنه لم تكن بأيديهم قوة كافية بإزاء هائيك الممالك وانما كانوا تجاراً ومرزقين منتشرين هنا وهناك ولكن كما قال فان در برغ van der Berg صاحب كتاب « حضرموت والمستعمرات العربية فى الارخبيل الهندى » : لما كانوا أعلى درجة فى المدنية من أهل تلك الأقطار جعلوا لأنفسهم مقاماً ممتازاً حفظوه الى يومنا هذا فى وسط الشعوب الآسيوية التى انتجعوا بلادها . وهذا المقام العالى الخاص بهم الذى له أسباب خلقية وطبيعة انضمت اليها عوامل أخرى تجارية ومزايا كسبتهم اياها الاغتراب وطول السفار هى التى كانت الأصل الاصيل فى نجاح العرب وفلاحهم وتبسطهم من السواحل الى الداخل ونشر عاداتهم وعقائدهم حيث نشروا تجارتهم . اهـ .

قال المؤرخون الأوربيون : لم تكن العلاقات التجارية مهما كثرت وانتشرت لتكفى فى نيل العرب هذه السيادة الاجتماعية والأدبية على جزائر عظيمة كهذه فياضة الخيرات

زاخرة العمران بل كانت معهم قوة أعظم من هذه وهي قوة العقيدة المحمدية التي هي من الجلاء والبساطة بحيث يفهمها الخاص والعام وما لا يشك فيه أنها متضمنة فضائل لم تكن في دين من الأديان المعروفة في الجاوى فقد كانت البراهمية والبوذية هما الديانتين السائدتين هنالك وهما عبارة عن تمجيد متصل لقوى الكون ومجادلة دائمة بين مصدرى الخير والشر فكان في ذلك من التعقيد وصعوبة التفهيم ما فيه لأن هذه العقائد تسلم بوجود الهين متساويين في القوة بأيديهما ادارة المخلوقات أحدهما للنفع والآخر للضرر فكانت تضل الافكار وتقسم قوى النفس البشرية وتساعد على تعدد النحل وتدفع بعضهم الى ناحية براهما والآخرين الى ناحية سيفا أو فشنو وتحمل المعتقدين على اختيار الآلام وحب العذاب وعدا ذلك فإن في هذه الديانات من تفاوت الطبقات ووضع بعض الناس في أعلى عليين وبعضهم في أسفل سافلين ما يحرم المعتقدين من كل مساواة حتى في الحضرة الالهية . فالدين الاسلامي أتى أهالى الجاوى بما كانوا يشعرون بالحاجة اليه من المساواة التامة فضلا عن كون عقيدته صافية واضحة مختصرة سهلة الشعائر تنحصر في الإيمان بالله واحد أوحى شريعته الى الخلق بواسطة واحد من رسله . فخلص الناس بذلك من هذه الثنائية التي تجعل قوتين خالقتين في صراع دائم وتحير الأفكار وتقلق الخواطر . فالاله الاسلامي واحد لا شريك له مهيمن على الخلق وجميع الناس أمامه سواء ولديه صلاة الصلوة والصلوة كصلة الملك فلا درجات ولا طبقات ولا فواصل غير قابلة للوصل بين العباد . وهو أكثر ملاءمة لوجود حكومات متحدة قوية ذات مركز واحد مما كان يحن اليه أهالى الجاوى من زمن طويل وحسبك أن الاسلام كله ينحصر في كتاب واحد هو القرآن فإذا كان البراهمي يعيش بين الأمم الغريبة منفرداً لاهم له في التأثير فيهم ولا في جملهم على مشاطرته تلك السعادة التي يرى نفسه متمتعاً بها وكان البوذي لا يرى تحقيق نعيمه الا في التأمل والتبتل والرهابية فإن السائح المسلم في أى بلد وجد وقرأته يمينه يمكنه أن يعلم من اختلط بهم ديانة سهلة الفهم سهلة الدخول في العقل من شأنها بث الدعوة ومن فضائلها النشاط والعمل والاختلاط مع سائر البشر وزد على ذلك أن المدينة الاسلامية كانت أرقى جدا من مدينة أهل الجاوى وإن العرب لما وطئوا هاتيك الشواطىء جاءوا بمعلومات قيمة كانت مجهولة عند الجاويين وأهل الشرق الأقصى مثل علم الهيئة والتقويم والجغرافية والعروض والأطوال

لتحديد الأقاليم وكان فن الملاحة بالغاً عند العرب الدرجة العليا من الاتقان وكانوا قوامين على الاسفار خيرين بأحوال الأمم ويقال انهم كانوا عرفوا ابرة المغنطيس وكانوا ينشئون الجوارى كالأعلام ويقطعون البحار بمزيد الجرأة والاقدام وكانت لهم خبرة زائدة بالطرق البحرية والمراسى ونقاط الخط والاقلاع حتى كان السياح الاوربيون لأول عهد دخولهم الى آسية مفتقرين اليهم^(١) وقد خلق العربي تاجراً بفطرته خيراً بالعمليات المالية والحسابية وبأساليب الأخذ والعطاء فتعلم الماليزيون من العرب أصول التجارة وطرق البيع والمساومة وطريقة تحديد أثمان الحبوب والبضائع وتأسيس المستودعات التي هي الوساطة بين الزارع والصانع وبين التاجر والمشتري وطريقة السفنجة أو الحوالة التي كانت عند العرب كما هي عند الاوربيين اليوم .

فلهذه الأسباب انتشرت في الجاوى عقيدة الاسلام وحضارته ومع شدة تأثيرها كان سيرها بطيئاً في البداية وما عمت الجزيرة كلها حتى وحتى . كذلك لم يكن نجاحها متساوياً في جميع آفاق الجزيرة فيوجد فرق بين غربي الجاوى وشرقيها كما قال الدكتور شريبر Schreiber لأن الاسلام كان أسرع تقدماً في الجهة الغربية بين الجنس المسمى بالسونداني منه بين الجنس الجاواني والى هذا اليوم تجد السوندانيين أشد تمسكاً بدينهم وأعرف به من الجاوانيين الذين في الغالب لا يعرفون القرآن وكذلك ترى النصرانية لم تجد من سهولة الانتشار بين السوندانيين ما وجدته بين الجاوانيين الا أن هذا الفرق نفسه قد بدأ يضمحل اليوم برسوخ الاسلام في شرقي الجاوى كما هو في غربيها .

ولم تتوفر عناية العرب في الجاوى على تشييد المباني الدينية الضخمة كما كان شأن البراهمة والبوذيين بل كان معظم همهم في الفتوحات الروحية فليس في الجاوى ما في سائر البلاد الاسلامية من المساجد التي تبهر الأنظار ببديع الصنعة وخفامة البناء ولكن الجوامع كثيرة العدد ولا يخلو منها بلد وعدد الذين يحجون بيت الله الحرام كل سنة كثير جداً ولقب « حاجي » هو في نهاية الاعتبار .

يقدر المؤرخون تاريخ دخول الاسلام في الجاوى بخمسة قرون تبتدى من القرن الثاني عشر الى أن تنتهى باحتلال الهولانديين لبنتايا في القرن السابع عشر . وقد حقق

(١) مثل ابن ماجد الذي كان دليلاً لبرهال

المؤرخ فت Vei ان المسلمين لم يقتصروا على فتح الجاوى الأدنى بل نشروا المدنية الجاوانية الى أقصى جزر الارخبيل .

وكانت أعظم سلطنة هناك مملكة « ماجاباهيت » كانت تنضوى تحتها امارات عديدة فلما جاءت الدعوة الاسلامية أخذ أولئك الامراء والمهراجات يولون وجوههم شطر الاسلام فكان كلما كسب بلداً انتقل الى الذى بجانبه فاستصفي مملكة ماجاباهيت ودخل الى المالانغ ثم الى بلاد السوند وأخذ يزداد عدد المسلمين يوماً فيوماً وكانت ثروتهم تنمو بنمو عددهم وهم دائماً فى علاقات مع تجار العرب الذين كانوا أول ما ينزلون فى سواحل الجاوى الشمالية وما زالوا يتكاثرون هناك حتى أسسوا سلطنة دماك .

وكانت ماجاباهيت هذه أول سلطنة هندية سقطت بعلو الاسلام فى تلك الديار وكانت واسعة الأطراف تشتمل على الأقسام الجنوبية والشرقية من الجاوى يحدها من الغرب بلاد جانقاله وغريس ومن الشرق بلاد تنغرو ولكن نفوذها كان يمتد الى بلاد « ماتارام » والى حدود مملكة « باجاجاران » وكانت فيها حواضر عظام مثل مدينة ماجاباهيت ومدينتا « برانبانان » و « مندويت » ولكن الاسلام تمكن منها بسهولة واشتهر فى نشره هناك حسين الدين حليف سلطان دماك فى سنة ١٤١٨ من التاريخ الجاوانى الموافق ١٤٨٨ من التاريخ المسيحى دخلت سلطنة ماجاباهيت فى خبر كان . وأعظم سلطنة تأسست للإسلام فى الجاوى كانت فى قطر ماتارام وقد بقيت فى شوكتها الى القرن الثامن عشر فبدأت تتساقط تحت هجمات الهولانديين .

فالعرب لم يؤسسوا فى الحقيقة سلطنة اسلامية جامعة فى بلاد الجاوى لأنه كان يحول دون اتحاد السلطنة هناك حوائل كثيرة وانما أسسوا هيئة اجتماعية اسلامية مانعة يمكنها أن تبقى ثابتة من فوق الممالك المتداعية الى السقوط فالآن يوجد امة ماليزية محمدية قد وحد الاسلام بين اجزائها واورثها قوة جعلتها تقف فى وجه الغرباء الذين حاولوا فك أوصالها ومكنتها تمكيناً فى تلك الأرض فليس فى الجاوى قوة سواها (عن ييار غونو ملخصاً) .

أما جزيرة الجاوى فهى معدودة من ارخبيل السوند تنفصل شمالاً عن جزيرة بورنيو ببحر الجاوى وغرباً عن سومطرة بيوغاز السوند وشرقاً عن بالى بيوغاز بالى وامامها من الجنوب الاوقيانوس الهندى وموقعها بين ٥٢ ر ٥ و ٤٦ ر ٨ من العرض الجنوبي و ١٢٠ ر ٤٠

١١٢٠ من الطول الشرقى طولها الف كيلومتر من الغرب الى الشرق وعرضها من ١٠٠ الى ١٥٠ كيلو متراً من الشمال الى الجنوب ومساحتها مع « مادوره » مئة وواحد وثلثون الفا وخمسمائة كيلومتر . وفيها جبال كثيرة وبراكين متأججة وجبالها مغطاة بالأشجار وفيها معادن غير مستخرجة وسهولها خصيبة تروىها المياه السائلة من الجبال وهواؤها حار رطب وأهلها خمسة وعشرون مليوناً و ٦٧ الف نسمة منهم ٢٤ مليوناً و ٧٥ الف نسمة جاويون و ٥٠ الفا اوريون و ٢٥ الفا صينيون و ١٥ الفاعرب وجميع الأهالى الجاويين مسلمون ، وتجارة الجاوى تقدر بأكثر من ٥٠٠ مليون وفيها ١٨٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية . وهى مركز المستعمرات النييرلاندية وعاصمتها باتافيا وبها يقيم الحاكم العام من قبل هولاندة ومن ملئها بويتن زورغ وهى كرسى الحكومة الصيغى ثم سامارانغ وسرايه وسراكارته .

ومن جزر الارخبيل الماليزى بورنيو وهى اكبر جزائره لابل اكبر جزيرة فى الارض بعد غينية الجديدة . مساحتها سبعمائة وستة وأربعون الف كيلومتر مربع وهى من بلاد خط الاستواء والاشجار تغطى جبالها الى أعلى القآن ومن رؤوس جبالها ما ارتفاعه ٤١٧٥ مترأ وهو فى المحل المسمى « كينابالو » فى شمالى الجزيرة ومنها فى وسط الجزيرة « غونونغ ربا » علوه ٢٢٧٨ مترأ . وتكثر الامطار فى هذه الجزيرة فتنسيل فيها أنهار كبيرة منها نهر الكابواس والسامباس مما عرضه ١٥٠٠ متر فى بعض الأماكن ومنها أنهر أخرى مثل الكاهاجان والبارتيو فى الجنوب والمهاكام والكاجان فى الشرق والبارام والباتانغ رجانغ والباتانغ لوبار فى الشمال وجداول وأنهار صغار لاتحصى . وفى هذه الجزيرة معادن كثيرة وجواهر كريمة ويستخرج منها زيت البترول بكثرة .

والجزيرة منقسمة بين انكلترا وهولاندة فمنها مساحة ٥٥٣٣٠٠ كيلومتر مربع فى الشرق والجنوب والغرب هولاندة . ومنها ١٩٧٥٠٠ كيلومتر مربع فى الشمال لانكلترة . فأما القسم الهولاندى فينقسم الى قسمين : جهة غربى البورنيو وقاعدته « بونتيانك » وجهة الجنوب الشرقى من البورنيو وقاعدته « بانجر ماسين » وأما القسم الانكليزى فهو عبارة عن اماره « سرافاك » وأراضى الشركة الانكليزية فى شمالى بورنيو وجزيرة لا بوان ومدينة برونائى .

فأما البلاد التى تحت سلطة هولانده ففيها ممالك « سنامباس » و « مانباوه »

و « بونتيانك » و « كوبو » و « سيمبانغ » و « ماتان » و « لاندك » و « تاجان مليو » و « سانغو » و « سيكادو » و « سنيانغ » و « سيلات » و « سوهيد » و « سالينبو » و « بياسه » و « جونغ كونغ » و « بونوت » وكل مملكة من هذه عليها رئيس يسمى سلطانا أو بانماهان أو بانجران وهم باجمعهم تابعون لهولاندة وعند كل منهم مجلس مؤلف من امراء الاسرة المالكة وأشرف البلاد .

وكان لبورنيو علاقات بالصين من جهة الشمال وبالهند وكثير من ملوك بورنيو هم من أصل هندي وفيها هياكل كثيرة للعبادات الهندية . ولم يدخل الاسلام الى بورنيو الا في أواسط القرن السادس عشر انتشر من البانباغ الى السوكادانه والماتان . وفي سنة ١٥٩٠ صعد أول سلطان مسلم وهو « غيرى كوزوما » على عرش سوكادانه وفي أيامه بدأ الأوربيون يتطالون الى هاتيك الاقطار .

وحفظت ممالك بورنيو استقلالها مدة طويلة فتأخر استيلاء الاجانب عليها عن جميع جزائر الارخبيل الماليزي فلبث الاوربيون ثلاثة قرون من برتغاليين واسبانيول وهولانديين وانكليز يجوبون في تلك الديار متجرين ومعاوضين ولا يتعرضون للسياسة . وأول مملكة فقدت استقلالها هي بانجارماسين فان الهولانديين اعتدوا عليها في أواسط القرن الثامن عشر . أما سوكادانه فبقيت مدة تابعة لمملكة بانتام من الجاوى ثم انفصلت عنها سنة ١٧٢٥ بمعاونة اهالى جزيرة « سيلاب » وهم جنس يقال لهم البوغينيزيون انتشروا في السواحل الغربية من بورنيو وملك منهم عدة امراء في هذه الجزيرة . وبقيت سوكادانه مستقلة تمام الاستقلال الى سنة ١٧٨٦ اذ أسقطها الهولانديون بالاشتراك مع سلطان بونتيانك ولم يبق لها سوى بلاد الماتان . أما سلطنة بونتيانك فاصلها اماره رجل عربى اسمه الشريف عبدالرحمن بن الشريف حسين بن احمد القادري الذى فبره يزار في بلدة منبواه فيقال انه بدأ حياته بالغارات وغصب السفن الى أن غضب عليه أبوه الذى كان صالحا ورعاً فرحل من منبواه وجاء بعصابته الى جهة لاندك وكابواس ولباقته ونشاطه أسس مركزاً تجارياً لم يزل ينمو ويتقدم حتى صار مدينته هي مدينة بونتيانك الحاضرة . وسنة ١٧٧٩ نودي به سلطانا واعترفت بسلطنته الشركة الهولاندية للهند الشرقية وعاهدته ولم يزل الملك في أعقابه الى هذا اليوم ولكن هولاندة أخنت على أيديهم ولم تبقى لهم من الملك سوى الاسم .

وأما سلطنة سانباس التي قاعدتها سانباس فقد أسسها ماليزيو جوهور . وسنة ١٦٠٩ عقدت معاهدة مع الشركة الهولندية للهند الشرقية . وفي النصف الأول من القرن السابع عشر غلب رادين سليمان بن الراجا تنغا أمير « برونای » على ملك سانباس وطرده وكانت امه من بيت ملك سوكدانه مقيمة بسانباس . وملك رادين سليمان تحت اسم السلطان محمد صني الدين وهو أول ملوك الاسرة المالكة الى زمننا هذا .

وأما أمارة سرافاك التي قاعدتها كوتنينغ فأصلها أن بحريا انكليزيا اسمه جيمس بروك وصل بسفينة تحميه الى بلدة برونای فوجد الحالة فيها لاتطاق من الظلم والعسف وفقد الامن وتبليس الناس من أموالهم . وكان هناك أمير يقال له مودا حسن فاعتمد على الربان جيمس الانكليزي وفوض اليه الأمور فأصلح الأحوال ووطد الأمن وفي سنة اعترف سلطان برونای هذا للضابط الانكليزي جيمس بالامارة على سرافاك فصار جيمس أميراً واستخدم الوثنيين في مقاومة المسلمين (١٨٤٢) وأمدته الحكومة الانكليزية ببعض النجديات في وقائعه مع العرب والماليزيين ولم يدخل في حكومته الا عدداً قليلا من الاوربيين وسوى في المعاملة بين الاوربيين والوطنيين ^(١) فسعت أهالى تلك الامارة واتسعت حدودها وعظم شأنها . وسنة ١٨٦٣ مات جيمس خلفه ابن أخيه كارلس بروك وقد ورث ملكا عريضا يمتد الى حدود نهر لينبانغ ودخلت هذه المملكة تحت حاية بريطانية العظمى .

وأما سلطنة « كوتاي » على الساحل الشرقى من بورنيو فقاعدتها « تنغارون » وميناؤها « سامارينده » فقد كانت تابعة سلطنة موجوبا هيت الجاوية ثم صارت الى تبعية مملكة بنجارماسين . وفي أثناء القرن التاسع عشر اضطر سلاطين كوتاي الى الاتفاق مع هولاندة على شروط تخل باستقلالهم وتجعل لها هي السيطرة .

أما احصاء نفوس بورنيو فيبلغ مليوناً وسبعائة ألف نسمة من هذا العدد نحو ستين ألف صيني وبضعة آلاف عربى ونحو أثنى أوربى فهى قليلة السكان بالقياس الى مساحتها اذ لا يصيب الكيلو متر المربع فيها أكثر من واحد الى ثلاثة من السكان . وهم من جنس يقال له الداياك يسكنون فى الداخل ومن الماليزيين المسلمين الذين يسكنون فى الساحل .

(١) ياليت حكومته وسائر الحكومات الأوربية تقتدى به فى هذه الحطة

والدايك هم من أصل ماليزى ولكنهم منحطون في المدنية منقطعون في البرارى والجبال والسيادة دائماً للمسلمين عليهم . ومتى أسلم واحد من الدايك صار معدوداً من الماليزين . وأما السواحل فهي مأهولة بالمسلمين الماليزين بعضهم من السلالة الماليزية الخالصة وبعضهم مختلطون بالامة البوغينزية . ومن جهة أرض كابواس يوجد ماليزيون كثيرون ممتدون الى الداخل وهم هناك يتزوجون من الدايك والغالب على هؤلاء الماليزين حب التجارة وصيد البحر وقصص الوحوش وليس عندهم ميل الى الزراعة والصناعة ولكن تشكيلاتهم السياسية بسبب وحدة العقيدة الاسلامية هي أمتن وأقوى من غيرها فقد سادوا بها على سائر سكان بورنيو فتجدهم هم الماسكين بافواه الانهر التي هي طرق المواصلات قابضين على زمام التجارة من كل جهة . ومنهم من يتغلغلون في أحشاء الجزيرة في طلب محصولات الأراضي الحرجية مثل الكاوتشوك وغيره فيصلون الى أقصى مساكن الدايك السابق الذكر ويطبعونهم بطابع الاسلام . وأما السواحل الجنوبية من بورنيو فيسكنها جيل يقال لهم البانجاريزيون وهم ماليزيون مختلطون بدم جافانى لهم في بلاد بنجارماسين هيئة اجتماعية جديرة بالذكر وهم أهل ذكاء واقدام . كذلك على السواحل الشرقية يكثر الجبل المسمى بالبوغينيزى وهم من أقوم الأقوام على التجارة والسعى وفيهم نشاط وهمة فائقة ولهم مكانة عظيمة سياسية واقتصادية في هاتيك الأرجاء

وفي الأرخبيل الماليزى جزيرة يقال لها سيلاب Célèbes هي الجزيرة الثالثة في العظمة والبسطة مساحتها ٣٢٢٨ كيلومتر مربع وفيها جبال عالية جداً ارتفاع قممها يبلغ ٣٤٥٠ متراً وأرضها كلها جبلية تقل فيها السهول وتكثر فيها البراكين وفيها بحيرات متعددة . وسيلاب تابعة لدولة هولاندة باجمعها وانما ادارتها مقسومة الى قسمين أحدهما ولاية « منادو » ويتبعها النصف الشمالى من الجزيرة مع شبه الجزيرة الشرقى والثانى مانقى من الجزيرة . ولا يزال فى أشباه الجزر الشمالية والجنوبية امارات وطنية مثل « غوفا » و « بونه » و « لوفو » طرد أمراؤها سنة ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ولم يتصر لهم أحد من الأهالى . و امارات أخرى مثل « تانيت » و « سوبنغ » و « سيد نغرنغ » لاتزال مستقلة فى داخلها الى اليوم

وكانت جزيرة سيلاب مجهولة أكثر من سائر جزر هذا الأرخبيل نزل بها الماليزيون سنة

١٥١٢ والبرتقاليون سنة ١٥٣٢ وفي القرن السادس عشر تغلب ملوك الما كاسار أصحاب دولتي « غوفا » و « تلو » على جنوبي سيلاب وقسم من أوساطها وعلى الجزر الصغيرة من أرخبيل الصوند . وفي زمان الملك « تونيجالو » الذي تولى الأمر من سنة ١٥٦٥ الى سنة ١٥٩٠ تقرب « باب الله » ملك « ترنات » وكان مسلماً الى مملكة غوفا وعقد معاهدة مع تونيجالو وأراد أن يحمله على الاسلام ولكن لم يوفق حينئذ الى ما أراد . فلما آل الأمر الى ابن تونيجالو شرح الله صدره للاسلام على يد رجل ماليزي اسمه « داتوري باندانغ » من بلدة يقال لها « منانغ كابو » من جزيرة سومطرة فاسلم (سنة ١٦٠٣) وتلقب بالسلطان علاء الدين وأسلم معه وزيره « كارانغ ماتوفيا » وتبعهما سائر الأهالي وانتشر الاسلام بين جميع الشعوب العديدة المسماة بالما كاسار والبوغينز لا سيما أن مملكة غوفا في ذلك الوقت كانت قد وسعت حدودها وزادت بسطة عزها .

وكان الهولانديون والانكليز والدانمركيون منذ سنة ١٦٠٥ بدأوا يناظرون البرتغاليين في التجارة ويزاحونهم على محاصيل البهارات والفلفل في عاصمة الما كاسار . وقد عقد الهولانديون معاهدات تجارية مع أمراء تلك النواحي تضمن لهم امتيازات خاصة بهم ثم لم ينحل الأمر من وقوع بعض الخلل بهذه المعاهدات فاتخذت هولاندة هذا الخلل ذريعة لمناجزة تلك الحكومات الوطنية القتال وبالاتفاق مع مملكتي بون وترنات زحفت العساكر الهولاندية في سنة ١٦٦٧ ثم في سنة ١٦٦٩ وفتحت أوساط مملكة الما كاسار وأجبرت أمراءها على امضاء معاهدة « بانغاجا » التي حلت على امضائها فيما بعد جميع ملوك القطر الجنوبي من جزيرة سيلاب وبموجبها أطاعوا دولة هولاندة . وكانت بلاد « ميناهازه » من هذه الجزيرة ذات علاقات كثيرة مع الاسبانيول وكان هؤلاء عندهم مرا كز أسسوها منذ القرن السادس عشر فاستعان الميناهازيون بالشركة الهولاندية على الاسبانيول وأخرجوهم .

أما عدد أهالي سيلاب فيبلغ مليونين وهم من العائلة الماليزية البولينيزية وذهب بعضهم الى وجود جنس آخر في داخل الجزيرة اسمه « توالا » وأصني جنس من هؤلاء السكان هم « التوراجا » وهم جيل وثنيون في داخل الجزيرة ومنهم أقوام في شبه الجزيرة الغربي اختلطوا بالماليزيين فتكون منهم الما كاسار والبوغينز . أما جنس الميناهازه

فيستدل من أشكالهم ولغتهم على كونهم ذوى قرى مع الماليزيين أهل الفيليبين وفورموز واليابان . وأشهر المدن التجارية الماكاسار فيها ١٠٥٩ أوربياً و ١٤١ عربياً و ٤٦٧٢ صينياً و ٢٠١٧٨ من الأهالى أكثرهم بوغينيزيون . ثم منادو وفيها ٥٠٠ عربى و ٥٧٦ أوربياً و ٢٧٨٤ صينياً و ٦٦٩٩ من الأهالى . ثم غوروتتالو وفيها ٣٢٧ عربياً و ١٤٥ أوربياً و ٦٠٦ صينيون و ٥٢٤٧ من الأهالى . ثم سينجه وأهلها ٣٥٧٨ وفيها ٥١ أوربياً و ٢٣ عربياً و ١٠٨ صينيون . ثم بوتتان وفيها ١٥٥ أوربياً و ١٩٧ صينياً و ٦٥٤٤ من الأهالى و ٣ عرب وهلم جرا . وجنس التوراجا زراع ومنهم قناصون ويسكنون في قرى محصنة لكثرة ما يقع بينهم من الحروب .

وفي البلاد التى تصاقب البلاد الساحلية حيث يكثر البوغينيزيون دخل التوراجا هؤلاء في الاسلام اما النصرانية فتتمو في الجهة الشمالية .

والشعبان التوأمان المسلمان في جزيرة سيلاب هما الماكاسار والبوغينيز . كانا يسكنان في الأرجاء الجنوبية ولكنهما انتشرا أخيراً في جميع سواحل سيلاب وفي أكثر جزر الارخبيل من الشرق الى الغرب وذلك بكون أبناء هذين الشعبين هم من اجراء الناس على البحر ومن اقدرهم على التجارة والماكاسار هم اصحاب الناحية الغربية من شبه الجزيرة الجنوبية داخلية في ذلك مملكة غوفا Gouva واما البوغينيز فانهم اصحاب الجانب الشرقى من شبه الجزيرة . ولما كاسار عداغوفا مملكة تانيت Tanette وارخبيل ساليار Saleyer الجنوبي . وللبوغينيزيين Buginais ممالك بون Bone وفاجو Vadjo ولوفو Louvu وسوبنغ Sopeng وماعدا هذه الممالك فيوجد حكومات صغار تابعة للحكومات التى هي اكبر منها . وعلى رأس كل من هذه الممالك ملك أو أمير أو ملكة أو أميرة يتقلد أو تتقلد الملك بالارث ولكل من الملك أو الملكة وزير ثم مجلس مؤلف من اعضاء بيت الملك . وامراء البلاد والأهالى قسماً منهم الاحرار ومنهم الأرقاء . وللاهلأى عادات ومنازع لايزالون متمسكين بها بالرغم من انتشار الاسلام بينهم فالتوارت بحسب الشريعة الاسلامية غير جار الا في المدن . والزواج يجرى وفقاً للشرع المسمى لكن حفلات الافراح وثنية تقريباً . وأما المرأة المتزوجة فلها مقام ممتاز . وقد امتاز الماكاسار والبوغينيز بالنشاط والعمل وحب الكسب فتراهم ارقى امم تلك الجزر في الأمور الاقتصادية وهم يتقنون التجارة والزراعة وتربية المواشى وعندهم صناعات

يدوية من النساجة والحدادة وبناء السفن يبلغون بها حد المهارة وكذلك لا يباريهم أحد في حرفة الملاحة وصيد السمك . ومعدل كثافة السكان من هذين الجبلين بالنسبة الى مساحة الأرض هو ٢٧ شخصا في كل كيلو متر مربع كما في غوفا وفي تانت و ٢٠ شخصا في بون . وأما في الاماكن التي تديرها هولاندة رأسا فهو ٥١ شخصا في كل كيلو متر مربع . ولهذين الشعبين كتابة وحروف هجائية من أصل هندي . وعندهم كتب وتآليف وآداب لغوية غزيرة ونظم ونثر . ومن جملة الكتب المعروفة عندهم مجموع أحكام حقوقية اسمه «رابانغ» بلغة الماكاسار و «لاتوفا» بلغة البوغينيز . ويوجد مراكز تجارية عظيمة للبوغينيز في جميع الارخبيل كالسواحل الشرقية والغربية من بورنيو وفي ارخبيل ريوف Riouv والجزر الصغار من أرخبيل الصوند وفي شرقي جزيرة لوبوك وشمالى سومطرة .

أما الميناهازيون فانهم اليوم نصارى وقد انتشر العلم والتمدن بينهم بواسطة المبشرين ونمت ثروتهم وصارت كثافة السكان منهم بالنسبة الى مساحة الارض بمعدل ٣٨ شخصا في الكيلومتر المربع ويوجد ناحية حول بحيرة توندانو كثافتهم فيها بمعدل ٨٣ في الكيلو متر . وأما جزيرة سومطرة فانها من الجزر الماليزية أيضاً وتعد من أعظمها بل من أعظم جزر العالم يفصلها عن بلاد الهند الصينية بوغاز ملقا وعن الجاوى بوغاز الصوند وهى بين ٩٢ ر ٥٢ و ١٠٣ ر ٤٣ من الطول الشرقى و ٥ ر ٣٨ من العرض الشمالى و ٥ ر ٥٨ من العرض الجنوبى وطولها ١٧٦٠ كيلو متراً . يختلف من ١٦٠ الى ٤٠٠ كيلو متر ومساحتها ٤٣٠٠٠ كيلو متر مربع وفيها سلسلة جبال عالية ارتفاع قممها ٣٧٠٠ متر و ٣٤٠٠ متر . وفيها أنهار كبيرة تسير فيها السفن وهواؤها حار رطب وفيها معادن الذهب والحديد والنحاس مثل جزيرة بورنيو . وفيها زراعة الارز والحبوب وتكثر فيها الحيوانات كالخيل والبقر والجواميس وعدد أهلها ثلاثة ملايين وخمسمائة وسبعون ألفاً منهم من اجناس هندية كالبناء والآلا والكوبو ومنهم ماليزيون ومنهم ماليزيون مختلطون يقال لهم آتشينيون والماليزيون والآتشينيون هم مسلمون وهم أكثر أهالى الجزيرة . وسومطرة تابعة هولاندة منها مايليه الهولانديون رأساً ومنها امارات تحت الحماية ومنها امارات مستقلة . وأعظم مدنها بالانباغ وآتشين وبادانغ ومدان الخ .

والمسلمون في الجاوى وسومطرة و بورنيو وسيلاب وسائر المستعمرات الهولاندية هم ٣٥ مليوناً وبعضهم يقول ٤٠ مليوناً .

مسلمو الفيلبين

المقدمة

ونتهى القول بجزائر الفيلبين وهي أرخبيل من الاوقيانوس المالايزى بين ٢١٤ و ٣٠ من العرض الشمالى و ١١٤ ر ٣٠ و ١٢٤ ر ١٥ من الطول الشرقى بين بحر الصين غربا والاقيانوس الباسيفيكي شرقا وبحر سيلاب وبحر جولو جنوبا . وهذا الارخبيل يحتوى ١٢٠٠ جزيرة أشهرها لوسون Luçon فى الشمال وجزر بابوان Babuyanes وجزر بيسايا Bissayas فى الوسط وجزر كالاميان Calamianes وبالاوان Palaouanes فى الغرب وجزيرة مينداناو Mindanaw فى الجنوب . وهذه الجزر جبلية بركانية كثيرة الزلازل وهواؤها رطب حار وزراعتها الأرز وقصب السكر والبن والقنب وفيها مواش كثيرة كالخيل والبقر والجلوس ومعادنها غير قليلة كالذهب والنحاس والقصدير وصادراتها تعدل بنحو ١٥٠ مليوناً والداخل اليها بنحو ١٢٠ مليوناً وفيها نحو ٢٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية ومساحتها ١٨٢ ر ٢٩٦ كيلو متر مربع . وعدد سكانها سبعة ملايين منهم المالايزيون الكاثولائيكيون ويقال لهم التاغال والمالايزيون المسلمون ويقال لهم المورو والهواينيزيون وهم وثنيون وفيها زنوج وفيها نصف مليون من الصينيين ومثتا الف اوربى . وأعظم حواضرها مانيلا ثم ليبا ثم بانانغ ثم باتانغا الخ وقد سميت هذه الجزر بالفيلبين نسبة الى فيليب الثانى ملك اسبانية الذى فى أيامه جرى اكتشافها ودان أكثر أهلها بالانصرانية وذلك سنة ١٥٦٨ وبعد ان بقيت هذه الجزر ماثت من السنين تحت حكم اسبانية ثارت عليها فعضدت الجمهورية الاميركية الكبرى جركتهم فتملصوا من حكم اسبانية ولكنهم وقعوا تحت سلطة الولايات المتحدة فعادوا يشورون على هذه وأحوالهم لاتزال غير مستقرة .

ويظهر أن الأمريكين أرادوا استمالة المسلمين من أهل الفيلبين ليتقوا بهم على الكاثوليك فجاء منهم وال سابق للفيلبين الى الاستانة منذ ٢٠ سنة والتمس من الحكومة العثمانية ارسال مرشدين يهذبون مسلمي الفيلبين وينورون أفكارهم نظرا لما هم عليه من

الجهل والعبادة ولما كانت الدولة العثمانية وقتئذ تعنى بأمور المسلمين بقدر إمكانها أرسلت المشيخة الإسلامية أحد مأموريها وهو الفاضل المرحوم وجيه أفندي زيد الكيلاني النابلسي وجعلته أشبه بشيخ إسلام في الفيليين فذهب إلى هناك واستقبله المسلمون بفرح يفوق الوصف وبدأ بمهمته وعاونه الأمير كيون عليها إلا أنه مرض مرضاً قسّ عليه بالعودة إلى الأستانة فلما جاء قطعت المشيخة راتبه وأبت أن تعنى بهذا الأمر بعد ذلك فاضطر إلى السفر ثانية على نفقته الخاصة وكان يتأوه كثيراً على حالة الإسلام في الفيليين ويذكر ما هم عليه من التحمس في محبة أبناء ملتهم لو أتيح لهم حظ من التعليم وأخيراً جاءنا نعيه بسبب العلة التي كانت تمكنت منه مع تغير الهواء عليه فذهب في شرح شبابه شهيد حيته وعلمه وكن صديقاً حياً إلى فسائته رحمه الله عن أحوال المسلمين في تلك الجزائر النائية فأخبرني بأن عددهم هو من مليون إلى مليونين وأن السواد الأعظم منهم في جهالة عمياء لا يعرفون من الإسلام سوى كونهم مسلمين ولا يكاد يعرف الصلاة منهم إلا أفذاذ قلائل ممن حجوا بيت الله الحرام فعسى أن يقيض الله من المسلمين جعية تحنو حنو الأفرنج في التهذيب والارشاد فترسل إلى تلك الديار من يكمل مهمة وجيه أفندي الكيلاني التي لم تكند تبدأ حتى انتهت . لا نقطع الأمل بذلك ومن يقنط من رحمة ربه الأضالون

والفيليين هي أرخبيل أو مجموع جزائر في الأوقيانوس الكبير تتألف من نحو ألف ومائتي جزيرة صغرى وكبرى . وهذه الجزر هي القسم الشمالي من ماليزيا اكتشفها ما جلالان الملاح البرتغالي ودعيت باسم فيليب الثاني ملك إسبانيا وهي ممتدة على ١٥٠٠ كيلو متر من الشمال الشرقي من بورنيو بين بحر الصين والمحيط الباسيفيكي وتبلغ مساحتها السطحية ٢٩٦٠٠٠ كيلو متر مربع وأهم محاصيلها البن والأبازير « البهارات » وقصب السكر والأرز والتبغ والقنب ومن بحرها وأنهارها يستخرج عرق اللؤلؤ والدر بكثرة ومناخها شديد ولذلك كان أهلها وعددهم زهاء سبعة ملايين نسمة أشداء أقوياء . وقد اضمحل سكانها الأصليون إلا قليلاً بما دامهم من بأس الفاتحين من الماليزيين وأكثر سكانها تمدناً اليوم هم التاغال وعددهم مليون ونصف والفيزيا وعددهم مليونان ونصف والفيكول وعددهم أربع مائة ألف والمورو أي المغاربة وهم المسلمون وعددهم كثير في الجزائر الجنوبية وهم اخلاط من الماليزيين والصينيين والهنديين والعرب والجاحين من

الأوربيين ويعد في جلة المسلمين قوم من الجوزاماتادو يقدمون أرواحهم فدية لله ويتقربون اليه بقتل الكافرين وهم متعصبون على الجملة على ما وصفهم أكثر من كتبوا عنهم

ولقد استولت اسبانيا على هذه الجزر زمناً ولكنها لم تعمرها وغاية ما صرفت وكدها اليه تنصير السكان ليدنوا بالكنيسة فأصبح المتظاهرون بها والمنتحلون لها تسعين في المئة من السكان ولما لقي التاغال والميتيون مائقوا من سيطرة رجال الدين وسوء الادارة قاموا يريدون تخفيف ما نالهم وأن يعاملوا بالمساواة مع البيض فنشبت ثورة سنة ١٨٩٦ ولم تنطفيئ شعلتها الا بوعد زعيم الثائرين أن تقوم اسبانيا بالاصلاح المنشود ولما لم تقم هذه الحكومة بوعدا عاد ذاك الزعيم يبدى نواجد الشر في السنة التالية بمعاونة الولايات المتحدة وبعد ان حاربت الحكومة الاميركية اسبانيا من أجل هذه الجزائر استولت على الفيلبين وكوبا وبورتوريكو ونكست اعلام اسبانيا وراح الأمير كان يستعمرونها فيحسنون استعمارها

ولما مد السلام رواقه على هذا الارخبيل وانهى دور الكتاب والحسام جاء الدور للكتب والأقلام وأخذت المجامع العلمية تبث برسلها للبحث والتنقيب لتنظر في تاريخ الفيلبين واجتماعها وعمرانها فانتشر منذ سنة نحو عشرين مصنفاً في الكلام على هذه الجزائر ومن جلتها كتاب تاريخ المورو أي مسلمي الفيلبين لوطينا الفاضل الدكتور نجيب صليبي

ولقد اطلعنا على مبحث في مجلة العالم الاسلامي الفرنسية اقتطفته من مصادر كثيرة ومنها كتاب جزائر الفيلبين الذي ظهر مؤخراً بالانكليزية من قلم جون فورمان فآثرنا تحصيله للقراء ليقفوا على أحوال أولئك القوم ويعرفوا مبلغ عناية الغربيين بكل فرع من فروع العلم والاجتماع قالت المجلة الباريزية :

شغل المؤلف جزءاً عظيماً من كتابه بالكلام على المسلمين بعد أن اطلال عشرتهم وخالط زعماء الثورة ورجال الحكومة منهم خفاء من ذلك يبيان رأده الانصاف وسداه ولجته التحقيق وقد أبان في كتابه علاقة مسلمي الفيلبين مع الاسبانين سابقا ومع الأميركيين لاحقاً الى أواسط سنة ١٩٠٥

المسلمون اليوم هم عبارة عن ثمانية أو تسعة أعشار جزيرة مينداناو الكبرى وجميع

ارخبيل سولو مع جنوبي بالوان وكانوا منتشرين في الشمال من تلك البلاد على عهد الفتح الأسباني ولما نزلت الحملة الاسبانية الأولى في جزيرة لوسون سنة ١٥٠٧ اختلطت لأول أمرها مع الراجا (حاكم توندو) وابن أخته الراجا سليمان في مانिला حاضرة الفلبين اليوم وكان قائد الجيش الاسباني العام اذ ذاك يرى سكان توندو ومانिला مسلمين ويطلق عليهم في مكاتباته الرسمية لفظ المورو (اى المغاربة) ولم يكن لأحد من الاسبانيين شك في ذلك لأن المغاربة لم يُطردوا الطرد الأخير من اسبانيا الا سنة ١٤٩٢

ولقد اختلفت الاقوال في دخول الاسلام الى تلك الجزر والمرجح أن الجزر الجنوبية مثل ميداناو وسولو انتشر فيها الاسلام لقربها من مسلمي شمالي بورنيو فاستولى المسلمون على سلطنة برنيو عقيب أن خربوا مملكة الماجاباهيت من بلاد جاوى سنة ١٤٧٣ ولم يتحارب الاسبانيون مع سلاطين المسلمين الا في سنة ١٥٧٧ وقد تقدم السلطان عبد القهار عدة ملوك مسلمين ومنه بدأ تاريخ الفتن بين المسلمين والاسبانيين . وبالجملة فان الاسلام انتشر في ميداناو وبورنيو بمساعي دعاة من العرب على أنه لم ينتشر حقيقة في جنوبي الفلبين إبان الفتح الاسباني ولم تنتحل سولو الاسلام الا بعد أن جاءها دايكس من بورنيو وتزوج أحد زعمائهم المدعو اندازولان - وكان استولى أولاً على جزيرة بازيلان ثم على سولو - من ابنة زعيم من أعيان المسلمين في ميداناو وانتحل الاسلام وأسس سلطنة سولو ثم قويت شوكرته باتحاده مع بورنيو وميداناو

وعادت الاحقاد القديمة فتجددت بين الاسبانيين والمسلمين وحل الاسبانيون على هؤلاء مدفوعين بعامل السخط الشديد وفي سنة ١٥٧٦ ثار لا كاندولا والراجا سليمان في جزيرة لوسون ولكن قوة الاسبانيين اذ ذاك حالت دون انتشار الكلمة الاسلامية وان بقيت اليوم بقية من ذرية لا كاندولا في بعض القرى فقد انحط مقامهم وأصبحوا نكرة لا تعرف حتى ان أحدهم كان خادما في مطعم فرنسوى في مانिला سنة ١٨٨٥

وقد بعثت اسبانيا سنة ١٥٩٦ حملة على ميداناو فقتل قائدها عند نزوله الى البر وأغار الى سولو بنفسه سنة ١٦٣٨ فاحتل بعض المراكز في شاطيء ميداناو حيث لقب الراجا سيويجي سنة ١٦٤٠ بقلب السلطنة . ولم تكن هذه السلطنة وذاك الاحتلال الاسمياً لا حقيقة لهما اذ بقيت الفتن قائمة قاعدة بين المسلمين الأصليين والمسيحيين الفاتحين ولا سيما في القرصنة . فدامت الغزوات البحرية بين الفريقين بلا انقطاع مدة ثلاثة قرون

فريق يعتقد أنه يجاهد جهاداً مقدساً وهم المسلمون وفريق يدعى أنه يحارب باسم الصليب وهم المستعمرون الاسبانيون

وفي أواسط القرن الثامن عشر حدثت بين المسلمين والاسبانيين فترة غريبة ذلك بأن المفاوضات بينهم انتهت بأن يكاتب ملك اسبانيا سلطان سولو الذي قاوم أحد اخوته مكانه فجاءه مانيل يطلب مساعدة حاكمها . ورأى السلطان محمد عليم الدين أن ينتصر فتعمد ولحقت به أسرته وبدأت تتعلم في مانيل التعليم الاسباني المسيحي وبعد سنتين رُخص له بأن يذهب من مانيل الى سولو وزامبوانكا في موكب له فاضطر أولاً أن يكتب الى السلطان محمد أمير الدين في ميندانا وينصح له بلسان شديد اللهجة أن ينضم الى الاسبانيين . وبعد سفره بقليل تبين للحاكم الاسباني أن العبارة العربية كانت مخالفة للعبارة الاسبانية التي كتبها بنفسه ووقع عليها ولذلك أمر بسجنه في زامبوانكا ثم أعيد الى مانيل ولم يسع والي الاسباني الا أن يعود الى تنصير ذاك الحاكم المسلم ولو صورة

ولما احتل الانكليز مانيل سنة ١٧٦٣ وجدوا السلطان مسجوناً فأطلقوا سراحه فراح الى سولو وأقام على استئصال شائقة الاسبانيين في ميندانا وأصاب الانكليز أيضاً شئاً من شره وان أحسنوا معاملته . وقد بعث الانكليز الى سولو بعثة وخمسين رجلاً لتوطيد قدمهم فيها فدعاهم أحد زعماء المسلمين الى مأدبة وذبح منهم ١٤٤

وبعد أن انجلت انكلترا عن قاعدة تلك البلاد عدل الاسبانيون من معاملتهم للمسلمين فاعترفوا سنة ١٨٣٦ باستقلال سلطانهم هناك حتى اذا كان عام ١٨٨٤ سيروا عليه حملة واستولوا على حاضرة بلاده فراح السلطان وخاصة رجاله يحتفظون بالثأبهم فأدبرت حكومة اسبانيا عليهم رواب ومشاهرات الا أن المسلمين لم يبرحوا يلجأون الى الغارة والنهب في السواحل حتى قيل ان غارات المسلمين قويت شوكتها سنة ١٨٧٦ فلم يعد حكم اسبانيا في سولو الا اسمياً

وهكذا جرت حوادث بين الحكام الاسبانيين والسلطين المسلمين يخضع هؤلاء تارة وينتفضون أخرى مثل سلاطين باكات وبوهاين وكودارنكان المتحالفين مع داتواتوتو ولما ضاقت اسبانيا ذرعاً ببعض القبائل المسلمة وانتفاضها الحين بعد الآخر عزم غداة ثورة سنة ١٨٩٦ أن تطرد المسلمين من عقردارهم وتسكن فيها جماعة من المسيحيين الوطنيين ثم خضع بعض اولئك الأمراء للاسبانيين خضوع حب لان منهم من كان يقدر

المدنية الغربية قدرها ولذلك ظلوا على موالة الأميركانين أيضاً بعد ان استولوا على هذه الجزائر .

ويؤخذ مما كتبه فورمان أن الاحقاد القديمة بين الاسبانيين والمسلمين دامت على أشدها مدة ثلاثة قرون وظل المسلمون هناك يذكرون مآويع لاخوانهم مسلمي اسبانيا . وما كانت تجرى الشروط عليه بين والى مانيلا الاسباني وحاكم سولو المسلم أن لا تمس شعائر المسلمين . وعلى ما حاولته اسبانيا من تنصير المسلمين فقد خرجت من الجزائر كيوم دخلتها ولم تفلح فيما قصدت اليه . ولا شك أن جمهورية الفيلبين تحسن معاملة المسلمين كالاسبانيين وكذلك المسلمون لم يكونوا أقل عداء لسكان البلاد المسيحيين من معاداتهم للبيض .

ولما استولى الاميركيون على الجزائر لم يمضوا المعتقدات الاسلامية ولا عملوا على نقض شرع أهل الاسلام وان كانوا ينكرون عليهم ترتيباتهم في حكومتهم وهي حكومة أعيان « ارستوقراطية » وقد انتقد أحدهم على حكومة الولايات المتحدة أن وطدت نفسها على انتظار ادخال تعديل في حال المسلمين هناك وتعليقها الأمل بأن نشر التعليم العام بينهم سيؤدي بعدئ الى نتيجة حسنة . على ان الاميركان كانوا يوجسون خيفة من نظام الاقطاعات الشائع بين المسلمين هناك . وقد نادى حكومة أميركابأن يظل أهل ولاية المسلمين يحكمون انفسهم بانفسهم ولم تتداخل الا بعض الشيء في حكومتهم وادارة بلادهم وتمتاز حكومة أميركا عن اسبانيا بان طريقتها في حكم تلك الجزيرة والمسلمين من أهلها خاصة هو بتدريب الاهلين على المبادئ الديمقراطية اما اسبانيا فقد أرادت أن تحمل على الاسلام نفسه لتخلص من المسلمين . ولو اقترب بعض الزعماء المسلمين من الاميركان سياسياً مع احتفاظهم بأخلاقهم من الوجهة الاجتماعية لما طال على البلاد عهد السلام

وقد عيّنت الحكومة الاميركية بتنظيم شؤون المسلمين وتأسيس بلديات لهم في الجزر تقيم مع المجالس الوطنية وتعمل بالعادات الوطنية ما امكن وهي العادات التي لاتنافي عادات الشعوب المتقدمة ولا اخلاقها وقد بلغ عدد جيش الاحتلال الاميركي النازل في جزيرة سولو وحدها ٤٨٣٩ رجلاً ٢٩٤ ضابطاً على ان الحاربين من أهلها لا يتجاوزون العشرين الف رجل . وفي تلك الولاية ٤١ مدرسة فيها ٢١١٤ تلميذاً و ١٥ معلماً اميركياً و ٥٠ معلماً مسيحياً وطنياً و ٩ معلمين مسلمين والمدارس غاصة بالتلاميذ والمتعلمين حتى ان ٢٤٠ طفلاً من المسلمين حرموا من الدرس الآن فباتوا ينتظرون لان المدارس ملئت بالتلاميذ والطلاب من المسلمين

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية

محاضرة السيد اسماعيل العطاس

قد أهدانا نسخة من هذه المحاضرة الادبية حضرة الفاضل السيد اسماعيل العطاس من السادة الحضارم المقيمين بجاوى وكان القاها فى نادى الشبان المسلمين بالقاهرة فى ٦ يناير سنة ١٩٢٩ فاحببنا ضمها الى هذا الكتاب لأنها من افضل الخلاصات عن بلاد الجاوى وهذا نصها : —

قبل العهد التاريخى

ان اكتشاف بعض الأدوات الحديدية فى الزمن الأخير فى جاوى وبحث علماء الآثار فيها دلا على أن هذه الفؤوس ورؤوس الرماح هى من أدوات العهد الحديدى السابق للتاريخ خلاف ذلك اكتشف بعض أجزاء من هيكل المخلوق المسمى Pithecanthropus Erectus وهو من نوع الانسان القردى Human Monkey أو الانسان القوسيلى Fossil-man الذى يظن بعض العلماء انه من الحلقة المفقودة The missing link هذه البقايا من العظام هى من العهد الفليوسينى phiocine period وانه من المحتمل أن هؤلاء الاناس القوسيليين هم أصل السكان القدماء فى تلك البلاد

ويظن بعض العلماء الدارسين فى تاريخ جاوى أن من هؤلاء القوم توالد الشعب الذى سكن جزيرة جاوى قديما والمعروف باسم كالافريج Kalang والمسمى عند غزاة الهند بالرشاكا Rashaka وكانوا يتعيشون من صيد السمك والحيوانات ولا يعرفون الزراعة ولا تربية المواشى وينتقلون من مكان الى مكان ويعيشون فى جماعات قليلة بين العشرة والأربعين وكانوا على أكثر الاحتمال من عباد الشمس مثل الشعوب الأقدمين فى بابلونيا

العهد الهندو

لم يذكر فى كتب الهندو المعروفة بالفيدا Veda's شئ عن أول قدوم الهندو الى جاوى أما الكتب الجاوية المسماة بالبناباد Babad's فقد ذكرت أن — الهندو «أنى كا كا» aji Caka

زار جاوى فى حاشية عظيمة ويقال انه كان أميراً هندياً أو وزيراً أول لأمير هندو وزيارته هذه تعد أول مبدأ عهد الهندو وأول سنتهم يوافق سنة ٧٥ أو سنة ٧٨ ميلادية وهو أول من أسس أول دولة هندية فى جاوى واليه ينسب ادخال أول حكومة منظمة وانشاء أول دولة هندوية فى جاوى الوسطى المسماة ماتارام Mataram ولا يعرف من تاريخ العهد الهندو الا القليل ولكن آثارهم ومعابدهم القديمة تدل على أنه وجدت دول هندوية قوية فى جاوى أشهرها ثلاث

١ — دولة Mataram (ماتارام) المذكورة فى جاوى الوسطى

٢ — Padjadjaran (باجاجاران) فى غرب جاوى

٣ — Madjapahit (ماجابهيت) فى شرق جاوى

وكانوا يستعملون اللغة السنسكريتية كاللغة الرسمية والى الآن نجد هنالك كثيراً من

كلمات الملايو المستعملة من أصل سنسكريتى

وقد بلغت دولة المتارام Mataram الذروة القصوى فى القرن التاسع الميلادى ومنها تخرج العمال الماهرون والبنائون الذين بهروا العالم ببناء المعابد الفخمة مثل بورو بودور Boro-Budur ومندوت Mendoet وشندى سيو Tjandi Sewoe والتي تعد الى الآن من عجائب الدنيا وفيها برع العمال فى الصناعة القصديرية وفى طريقة رى الحقول الأرزية التى لم تزل مستعملة الى الآن

وفى عهد دولة باجاجاران Padjadjaran أسلم أول أمير هندو واسمه حاجى بورا

Hadji Paera وذلك فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى

وفى عهد مملكة ماجاهيت Madjapahit نشر مولانا ابراهيم الديانة الاسلامية فى

قرية ليران Leran القريبة من بلدة جريس Gresik وبعده أتى مبشرون اسلاميون آخرون فأسلم على أيديهم بعض الامراء من دولة ماجابهيت Madajapahit وفى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى وجد ثمانية أمراء مسلمون من الأهالى بألقاب ال « سوسوهونان » Susuhunan (سلطان). وقد دارت رحى الحرب بين دولة ماجاهيت Madjapahit وبين الثمانية الأمراء المسلمين تحت رئاسة رادين فلتاه (الذى كان أميراً من دولة ماجاهيت Madjapahit واعتنق الاسلام) وبعد حرب دارت أربع سنوات انكسرت جيوش المسلمين ولكنهم لموا شعنهم مرة أخرى وأخذوا ثأرهم فى موقعة

دارت خمسة أيام فيها انكسرت جيوش دولة ماجافاهيت Madjapahiti شر كسرة ولم تقم
لهم بعدها قائمة فكانت الضربة القاضية وذلك في سنة ١٤٧٥ ميلادية وبسقوط دولة
الماجافاهيت الهندوية (البوذية) تدهورت الديانة البوذية رويداً رويداً وهكذا انتشر
الاسلام بدخول الأهالي والأمراء فيه جاءت ووجدنا

العهد الاسلامي

ان تاريخ الجزائر الهندية الشرقية في مدة الستمائة سنة الأخيرة هو من أحسن
الفصول في تاريخ انتشار الاسلام بالدعوة والارشاد

اجتهد أنصار قليلون في نشر الاسلام والتوحيد والدعوة الى سبيل الله بالحكمة
والموعظة الحسنة دون مساعدة في ابتداء الأمر من أمراء البلاد وفي بعض الأحيان امام
عداوة مسلحة وهم لا سلاح لهم الا القلوب المطمئنة بالايمان والاخلاص والمجادلة بالتي
هي أحسن

أما تاريخ دخول الاسلام في الجزائر الهندية الشرقية فغير معروف بالتمام ومن المحتمل
أن الاسلام دخل بدخول تجار العرب الى هذه البلاد في أوائل القرون الهجرية . وهذه
النظرية تقوى بما هو معروف من أن العرب كانوا حاملين لواء التجارة بالشرق في الزمن
القديم . ففي ابتداء القرن السابع الميلادي زادت التجارة مع الصين على طريق سيلان
Ceylon حتى انه وجد تجار عديدون من العرب في Canton كنتون بالصين في منتصف
القرن الثامن الميلادي . وفيما بين القرن العاشر والقرن الخامس عشر الى حضور البرتغال
Portugese لم يكن للعرب منازع في الرأس - التجارية الشرقية . لذلك يتقوى الاحتمال
أن العرب قد ذهبوا بتجارهم الى بعض الجزائر الهندية الشرقية في ابتداء القرون الاولى
من الهجرة كما فعلوا في أما كن أقرب وأخرى أبعد منها بينا بعض هذه الجزائر مثل
سومطرا Sumatra واقعة بينهما .

انه وان لم يذ كر جغرافيو العرب هذه الجزائر في كتبهم - قبل القرن التاسع الميلادي
الا انه في كتب التقويم الصينية مذكور أن في سنة ٦٧٤ ميلادية كانت جالية عربية في
الشاطئ الغربي - من سومطرا

ويستنتج بعض العلماء من اتخاذ الاهالى الشافعية مذهباً لهم ومن انتشار المذهب الشافعى فى شواطئ الكوروماندل Coromandel وشواطئ الملابار Malabar الآن كما كان سابقاً فى منتصف القرن الرابع عشر - حين زيارة ابن بطوطة لهذه الجهات أن الاسلام دخل الى هذه الجزائر الهندية الشرقية من جنوب الهند ومن شواطئ الملابار

وذلك لأن مذهب البلاد الاخرى المجاورة حنفى ولان موانى الملابار يؤمها التجار قديماً من جاوى ومن الصين ومن اليمن ومن بلاد فارس ومن بلاد الهند أو من فارس دخلت الشيعة الموجود بعض بقاياها الآن فى جاوى وسومترا

ومن ابن بطوطة نعلم أن سلطان سومطرا Sumatra المسلم قد حسن العلاقات مع ملك دهلى Delhi وان من العلماء الدينين المقربين الى السلطان السومطرى اثنين من بلاد فارس أحدهما من شيراز والآخر من أصفهان وقبل ذلك بمدة كان قد كثرت تجار الدكّ كن Dacca الذين احتكروا التجارة بين الممالك الاسلامية الهندية وبين الجزائر الهندية الشرقية - فى موانى هذه الجزائر وفيها زرعوا حبوب هذه الديانة الاسلامية السمحاء

فالى هؤلاء التجار المبشرين النازحين من بلاد العرب والهند يرجع الفضل فى تأسيس أول الجاليات الاسلامية من الأهالى وفى تحويلهم من عبادة الأصنام الى عبادة الله الواحد الرحمن فهم لم يدخلوا محاربين ولم يعلقوا السيوف فوق الرقاب لا كراه الناس فى الدين بل استخدموا اللطف والفكر والمعرفة فى سبيل نشر الدين الاسلامى أكثر من استخدامهم اياها لطلب السعة فى الرزق والغنى فى المال

إذا كان دخول العرب الى هذه الجزائر غير معروف بالتمام فانه معروف أنهم دخلوها قبل البرتغاليين فقد قال ماركو فولو Marco Polo الذى صرف خمسة أشهر فى الشاطئ الشمالى من سومطرا سنة ١٢٩٢ م ان كل السكان كانوا مجوساً وعباد أصنام عدا سكان البلدان فى مملكة بارلك Parlak الصغيرة الموجودة فى الشمال الشرقى من سومطرا لأنهم اعتنقوا الاسلام بواسطة تجار العرب

ولما دخل ابن بطوطة سومطرا سنة ١٣٤٥ وجد هنالك ملكا مسلما اسمه الملك الزاهر وتمتد سلطنته على الشاطىء مسافة ايام سفراً وقد كان محبا للباحثة مع علماء الدين وكان فى حاشيته شعراء وعلماء

وقد تحصل العرب عموماً على احترام عظيم من الاهالى ونفوذ كبير فيهم سيما السادة والأشراف سلالة الحسن والحسين سبطى المصطفى ﷺ فقد تنبأهى أمراء الأهالى ومالوكهم المسلمون بالتقرب اليهم بمصاهرتهم وتزويج بناتهم منهم ويتفاخرون اذا ولدن منهم سادة وأشرافاً . وقد صار البعض منهم سلاطين ولم يزل منهم أحياء يرزقون مثل سلطان وأمراء فونتياناك Pontianak من جزيرة بورنيو Borneo

منذ القرن السابع عشر كان أكثر مهاجرى العرب الى هذه الجزائر حضارم وكانوا يتعيشون من التجارة وبعده أضافوا حرقه أخرى هى الملاحة فكانت مراكبهم الشراعية تمخر البحار كالأعلام وكان قبطانهم ونائب القبطان والادارى من العرب أما التجار فكانوا من الاهالى وبما لاذع فيه ان هذه المراكب كانت سببا فى ازدياد عدد المهاجرين الحضرميين الى هذه البلاد وفى زيادة ثروتهم . وقد بلغوا ذروة المجد فى الملاحة بين سنة ١٨٤٥ وسنة ١٨٥٥ حين احتكرت مراكب الحضارم ملاحة الموانى ومنذ ذلك الحين ابتدأت مراكبهم الشراعية فى الانحطاط بسبب منافسة المراكب البخارية الاوروبية والآن لم يبق عندهم من المراكب شئ*

عدد العرب

كان عدد العرب قبل ادخال الاحصاء غير معروف أما بعد الاحصاء فكان عددهم

كما يأتى : —

سنة	فى جاوى (ومدورا)	فى خلافتها	المجموع
١٨٥٩	٤٩٩٢	—	—
١٨٧٠	٧٤٩٥	—	—
١٨٨٥	١٠٨٨٨	—	—
١٩٠٥	١٩١٤٨	١٠٤٤٥	٢٩٥٠٠
١٩٢٠	٢٧٨٠٦	١٧١١٥	٤٤٩٢١

عدد المسلمين الآن

في الجزائر الهندية الشرقية الهولندية فقط خمسون مليون مسلم وكثيرون من
الاهالي الذين يعرفون الكتابة يتكاتبون بلغة الملايو بخروف عربية وفي لغة الملايو
نفسها ما يزيد على ٢٥٪ من كلماتها مأخوذة من العربية

دخول الاوروبيين

الحصول على البهارات والذهب والاحجار الكريمة وخلافها رأسا من منابعها
الشرقية بحث البرتغاليون في أواخر القرن الخامس عشر عن الاراضى والبلاد التي
تخرج منها هذه الأشياء الثمينة وفي سنة ١٤٩٦ سافر فسكوداجاما Vasco da Gama ووصل
الى مكان كلكتا Calcutta الحالية على طريق رأس الرجاء الصالح . ونجاحهم هذا وما يليه
شجعهم على زيادة البحث والاسفار ففي سنة ١٥١١ وصل البرتغالي انتونيو دى ابرو
Antonio de Abreu الى جاوى وامبون و Banda Java. Amboun & Banda . وفي سنة ١٥٢٢
ارسل البرتغالي de Lerne الى Bantan (من جزيرة جاوى) التي كانت لم تزل حينذاك
هندوية بوذية . وحيث ان حاكم Bantan البوذي كان محاربا لأمير شربون المسلم Cherihon
استجار الامير البوذي لما أحس بضغفه بالبرتغاليين ووعدهم بمكان لبناء معمل Factory
وبحريّة التجارة وبهدية سنوية قدرها الف كيس من الفلفل مقابل قلعة يبنها البرتغاليون
للدفاع عن الميناء ومساعدتهم اياه في حربه ضد أمير شربون المسلم . وبالرغم من اتفاقهم
على ذلك فقد سافر البرتغاليون واعدين بالرجوع بقوة أكثر . ولكنهم لما رجعوا وجدوا أن
سلطان شربون Cherihon قد انتصر واستولى على Bantan باتان

وهذه البعثة كانت سببا في تاسيس التجارة بين البرتغال والجزائر الهندية الشرقية
التي احتكروها لأنفسهم فيما بعد وقد بلغت تجارتهم اقصاها بين سنة ١٥٩٠ وسنة ١٦١٠
وبلغ عدد مراكبهم ١٥٠ الى ٢٥٠ في الارسالية الواحدة . وفي أواخر القرن السادس
عشر كانت Lissabon لشبونة أغنى ميناء في اوروبا . وبينما كانت لشبونة مركز
التجارة كانت الموانئ الهولندية اما كن التوزيع لشمال اوروبا وفي سنة ١٥٧٧ مر «دريك»
Drake الانجليزى في طوافه حول الأرض بجزائر الملوك Bantan & Moluccas

وفي سنة ١٥٩٤ منع البرتغاليون دخول المراكب الهولندية ميناء لشبونه فسد باب التجارة امام الهولنديين الذين كانوا وسطاء بين البرتغال وشمال اوروبا . لذلك اجتهد الهولنديون في الحصول على المعلومات اللازمة لمعرفة الطريق التجارى الذى يوصل الى الجزائر الهندية الشرقية . وقد تمكنوا من ذلك بواسطة Cornelis Houtman هولتمان الهولندى الذى سكن البرتغال وعرف السر . وقد أسس تجار امستردام شركة للتجارة مع الهند الشرقية وسافرت اربعة مراكب هولندية ، وموريس Maurits , Holandia محمول الواحد ٤٠٠ طن وامستردام Amsterdam ٢٠٠ طن و Duyfje ٥٠ طناً تحت قيادة هوتمان المذكور فى ٣ ابريل سنة ١٥٩٥ ووصلوا بآتم Bantam بجاوى فى ٢٣ يونيو سنة ١٥٩٦ ثم أرسل الهولنديون سنة ١٥٩٨ ارسالية أخرى تحت قيادة فان نك Jan Cornelis van Neck واخرى بعدها. ولما رأى البرتغاليون نجاح الهولنديين أرسلوا ٣٠ مركباً حربياً لمحاربة المراكب الهولندية الذاهبة الى الشرق الأقصى ولكن الهولنديين كسروا البرتغاليين وبذلك ماتت تجارتهم وأخيراً أخرجهم الهولنديون من الجزائر الهندية الشرقية وفى سنة ١٦١٧ عين جان بيترس كون Jan Pietersz Coen حاكماً عاماً هولندياً وفى ١٢ مارس سنة ١٦١٩ سميت القلعة بتافيا وفى ٣٠ مارس سنة ١٦١٩ تكونت البلدة بتافيا التى لم تزل الى الآن عاصمة للجزائر الهندية الهولندية

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية فى الوقت الحاضر

الموقع الجغرافى والسكان

تمتد الجزائر الهندية الشرقية الهولندية من آسيا الى استراليا بين درجة ٩٥ ودرجة ١٤١ من خط الطول شرقاً وبين الدرجة ٦ شمالاً من خط الاستواء و ١١ جنوباً منه وأطول خط من الغرب الى الشرق خمسة آلاف كيلو متر حيث تمر فيها السفينة البخارية فى ١٤ يوماً فى وقتنا هذا ومسافة الخمسة آلاف كيلو متر هذه تعادل تقريباً المسافة بين الشاطئ الغربى لأرلندا فى الاطلانطيق وبين الشاطئ الشرقى للبحر الاسود فى آسيا وأبعد مسافة من الشمال الى الجنوب ٢٠٠٠ كيلو متر وتعادل المسافة بين البحر الأبيض الشمالى وروما

ليمكننا أن تصور مساحة بعض هذه الجزائر يجب أن نعرف الحقائق من المقارنة الآتية:
جاوى و (مدورا) مساحتها ١٣١٥٠٨ كيلو مترات أو ٥٠٧٦٢ ميلا مربعا وتعادل
مساحة انجلترا بدون اسكتلندا وويلز واراندا
سومطرا ٤٢٠٠٠٠ كيلو متر او ١٦٢٠٠٠ ميل مربع أى أكبر من مساحة بريطانيا
العظمى .

بورنيو الهولندية فقط ٥٥٣٠٠٠ كيلو متر أو ٢١٣٠٠٠ ميل مربع تعادل فرنسا
سيليبس ١٨٥٠٠٠ كيلو متر أو ٧١٠٠٠ ميل مربع أكبر من ولاية واشنطن
وتعادل مساحة نيوزيلند وسيلان معاً
نيوجينيا الهولندية فقط ٣٩٧٠٠٠ كيلو متر أو ١٥٣٠٠٠ ميل مربع مثل اليابان
(دون ملحقاتها)

ومجموع مساحة الجزائر المذكورة وغيرها من الجزائر الهندية الشرقية الهولندية
مليون وتسعمائة ألف كيلو متر مربع أو ٧٣٣٠٠٠ ميل مربع ويعادل مجموع مساحة
الدول الآتية — بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وهولندا وسويسرا
والدينمارك والسويد أو نصف مساحة أوروبا تقريباً بدون روسيا

ومجموع طول شواطئ هذه الجزائر يعادل طول دائرة الأرض circumference of earth

عدد السكان حسب احصاء سنة ١٩٢٠

جاوى (ومدورا) ٣٦٦٤٠٠٠٠٠٠

سومطرا ٦٢٢١٨٦٠٠٠

بورنيو الهولندية ١٦٧٥٧٦٠٠٠

سيليبس ٣٦٣١٤٦٠٠٠

الباقى ٣٦٣١٩٦٠٠٠

فالمجموع هو ٥١٠٠٠٠٠٠٠٠

الطقس

تبلغ درجة الحرارة على الشواطئ في النهار عادة ٥ ر ٢٦ سنتجراد (يساوى ٨٠

فهرنيت) وبالليل ٢١ س (٧٠ ف) ويختلف الجو اختلافا عظيما بسبب الجبال الكثيرة العالية المكسوة بالخضر وبسبب الاودية فكما زاد العلو قلت الحرارة وزادت البرودة عادة بنسبة نصف درجة س في كل ٣٠٠ قدم أو درجة واحدة ف كل ٣٣٠ قدما . فينما نشعر بالحر على الشواطىء نحس باعتدال الربيع فى الاماكن المتوسطة العلو وبالشئاء فى الاماكن الجبلية العالية وتارة لا فارق بين الصيف والربيع والشئاء الا ساعات قليلة

الحكومة

ان الجزائر الهندية الشرقية الهولندية تكون جزءاً من المملكة الهولندية سياسيا والقوانين الهولندية هى أعلى القوانين ولكنها عادة لا تتدخل الا فى القوانين التى تؤثر فى الأحوال الاقتصادية وخلاف ذلك فان الجزائر الهندية الشرقية مستقلة استقلالاً اداريا فى التشريع والنفوذ الأعلى للملكة التى تحكم بموجب قوانين الحكومة . وناظر المستعمرات ينوب عن الملكة فهو الذى يشرف على الحكومة الهندية الشرقية الهولندية ويحكم الحاكم العام كذلك باسم الملكة ويساعده فى التشريع والادارة مجلس الهند الادارات وهى ادارة العدلية والمالية والداخلية والمعارف والزراعة والصناعة والتجارة والأشغال العمومية والأشغال الحكومية Gouvernment bedryven Industries والحرية والبحرية ثم السكرتارية العمومية

ومنذ سنة ١٩١٨ أنشئ مجلس الأمة Volksraad ونصف أعضائه منتخبون والنصف يعينه الحاكم العام وهذا المجلس استشارى ويمكن للحاكم العام أن يستشير فى كل الامور ولكنه مضطر الى استشارته فى الميزانية Budget وسلف المستعمرة

الزراعة

لا توجد أرض فى البلاد الحارة تزرع فيها مختلف المزروعات مثل الجزائر الهندية الشرقية الهولندية ولا سيما جاوى والزراعة هى أهم أسباب التقدم الاقتصادى فيها وأكثر الاراضى فى جاوى مرتفعة الى علو ١٥٠٠ متر أو ما يزيد على ٤٥٠٠ قدم مزروعة فى هذه الاماكن العالية يزرع الدخان والشاى والقهوة . وفى الأماكن

المتوسطة والتلوية يزرع الارز والذرة والفول والتمباك والدخان والبطاطس والكاوتشوك
بينما في الاراضي الوادية يزرع قصب السكر والجوز الهندى والكافور Kapok ويمكن تقسيم
الزراعة الى قسمين :—

(١) الزراعة التى فى أيدى الاوروبيين

(٢) الزراعة التى فى أيدى الاهالى

والاولى للصادرات والثانية أكثرها للاستعمال فى البلاد وكذلك للصادرات وأهم
زراعة الاهالى الارز ثم ال Cassava البطاطس والجدول الآتى يبين مساحة الارض المزروعة
باليكتار والهيكتار يساوى ٤٧١ و ٢ فدان انجليزى وحاصلها بالطن ton الميتركى

الارز المائى	٢٥٩١٠٠٠٠	هيكتار حاصلها	٦٥٠٥٧٠٠٠	طن ton
الارز غير المائى	٣٨٥٦٠٠٠	»	٤٣٥٦٠٠	»
الذرة	١٦٥٩٨٦٠٠٠	»	١٦٥٦٤٦٢٠٠	»
البطاطس	١٤٨٥٠٠٠	»	١٧٠٦٥٠٠	»

اما أراضي الزراعة التابعة للاوروبيين فتبلغ مساحتها ٩٧٥٠ ر ٢٦١٠ هكتار منها
٩٠٧٦٥٦ هكتارا مزروعة ومن الأخيرة هذه ٢٢٦ ر ٥٧٥ هكتاراً فى جاوى أى ٦٣ ٪
ومن الجدول الآتى نعرف أهميتها

قصب السكر يزرع شرقى جاوى وبموجب احصاء ١٩٢٥ كانت فى تلك السنة ١٧٩
فأبريقه اخرجت ٢٥٣٠٠٠٠ متر ك تن Metric ton سكر من ٢٦٧ ر ١٧٦ هكتار أرض
مزروعة بالقصب وكان متوسط محصول الهكتار الواحد ١٢٧٨٠ كيلوجرام المطاط أو الكاوتشوك
أو Rubber فى اوائل سنة ١٩٢٦ بلغ عدد العزب Estates ٨٧٥ منها ٤٨٤ فى جاوى ومجموع
المساحة المزروعة ٥٠٤٨٠٧ هكتاراً منها ٤١٤٩٤٨ هكتاراً مزروعة بال Hevea ومن المساحة
الأخيرة ١٨٠٤٧٨ هكتاراً فى جاوى

القهوة

بلغ مجموع العزب estates فى سنة ١٩٢٦ — ٣٦٠ منها ٢٧٠ فى جاوى ومجموع المساحة
١١٦٥٣٠ هكتاراً منها ٩٥٢٨٦٠ هكتاراً ذات محصول من ذلك ٩٥٣٥٧ هكتاراً فى جاوى
منها ٨٠٧٤٦ هكتاراً ذات محصول والمحصول فى سنة ١٩٢٥ — ٦١١٥٣ طناً منها ٥٧٦٩٣ أو
٩٤ ٪ من النوع المسمى روبستا Robusta Coffee

النشأ

أكثر النشأ مزروع فى غرب جاوى من ٢٨٥ estates ٢٦٠ فى جاوى و ٢٥ فى سومطرا ومجموع المساحة المزروعة فى سنة ١٩٢٦ هـ ٩٧٠٦٣١ هكتاراً

التبأك

المساحة المزروعة فى سنة ١٩٢٦ - ٤٥١١٥ هكتاراً منها ١٨٠٦٨٨ فى سومطرا والباقي فى جاوى *cinchona* ٩٠ ٪ من محصول الدنيا تخرج من جاوى ومجموع مساحة الأرض المزروعة ١٩١٥٧ هكتار

بعض صادرات المحصولات الزراعية سنة ١٩٢٥ وأثمانها

٥٦٦ مليون روبية	١٩٠٠٠٠ طن ثمنه	الكاوتشوك
» ٣٦٧	» » ٢٦٠٠٠٠٠٠٠	السكر
» ١١٠	» » ٩٢٠٠٠٠	تبأك
» ١٠٢	» » ٣٥٠٠٠٠٠	الزجيل الناشف
» ٦٨	» » ٦٩٠٧٣٥	القهوة
» ٧٤	» » ٥٠٠٠٠٠	النشأ
» ١٩	» » ٢٦٠٥٠٠	الفلفل

أما مجموع أثمان الصادرات كلها فهو :

١٦٧٨٤٠٧٩٨٠٠٠ روبية أى ما يزيد على ١٤٨٠٠٠٠٠٠٠ جنيه انكليزى

المواصلات

نصف السفن التجارية التى تأتى وتخرج من هذه الجزائر هولندية وتليها السفن البريطانية واليابانية ثم الأمريكية أما السكك الحديدية فتوجد فى جاوى ٥٣٩٤ كيلو مترا وفى سومطرا ١٦٧٣ وأكثر هذه السكك الحديدية تابعة للحكومة ومجموع ايراد السكك الحديدية فى سنة ١٩٢٥ — ١١٩٠٩٢٢٠٠٠ روبية منها ٦٤٠٥٢٥٠٠٠ روبية للحكومة

نسبة بعض الحاصلات الى حاصلات العالم

تنباك	٩٠٪ من حاصل الدنيا	القصدير	٢٢٪ من حاصل الدنيا
كافور	٨٤٪ »	النشأ	١١٪ »
الفلفل	٨٠٪ »	السكر	٩٪ »
الكاو تشوك	٤٦٪ »	البن	٧٪ »

واذا نسبنا مجموع الصادرات الذي هو ١٥٧٨٤٥٧٩٨٥٠٠٠ الى مائة فتكون نسبة
أثمان الصادرات هكذا :

الكاو تشوك ٣٢٨٦٪ والسكر ٢٠٧٠٪ وزيت البترول ٩٦٩٪ والتمباك
٦١٩٪ والزجيل الناشف ٥٧٤٪ والقصدير ٤٣٦٪ والنشأ ٤١٧٪ والقهوة
٣٨٢٪ والفلفل ١٣٥٪ والكافور ١٢١٪
فيكون المجموع هو ٨٧٪ وباقي الصادرات ٩٠٤٪ فالمجموع ١٠٠٪

يساوى ١٥٧٨٤٥٧٩٨٥٠٠٠ روية

ونسبة توزيع الصادرات هكذا :

سنغافور	٢٦٦٨٪	هولندا	١٥٤٦٪
الولايات المتحدة	١٤٠٩٪	الهند الانجليزية	٠٨٠٤٪
بريطانيا العظمى	٦٨٤٪	هونج كونج والصين	٥٦٦٪
اليابان كوريا ومورموزا	٥٥٠٪	فرنسا	٣١٢٪
ألمانيا	٢١٢٪	استراليا	١٩٤٪
باقي الدنيا	١٠٥٤٪		

الصادرات	الواردات	زيادة الصادرات
في سنة ١٩٢٢	٨٠٠	٤٠٠ مليون روية
في سنة ١٩٢٣	٧٠٠	» » ٧٠٠
في سنة ١٩٢٤	٧٥٠	» » ٧٥٠
في سنة ١٩٢٥	٨٨٠	» » ٩٠٠

خاضع العالم الاسلامي

تأليف لوثروب ستودارد الامريكى

Lothrop Stoddard

نقله الى العربية

الأستاذ عجمان نويهض

وفيه فصول وتعليقات وخواش مستفيضة
عن دقائق أحوال الأمم الاسلامية وتطورها الحديث

بقلم امير البيان والمجاهد الكبير

الامير شكيب ارسلان

المجلد الأول

الجزء الاول

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

فهرست

المجلد الاول

من كتاب حاضر العالم الاسلامي

مقدمة المؤلف في نشوء الاسلام وارتقائه وانحطاطه من صفحة ١ — ٢٣

الفتح العربي للامير شكيب ارسلان من صفحة ٢٤ — ٣٠

البعثة المحمدية وأقوال جبهة من العلماء والفلاسفة والمؤرخين الاوربيين في النبي ﷺ

المنصف منهم والمغرض للامير شكيب ارسلان من صفحة ٣١ — ٤٢

السيرة النبوية وكتاب « حياة محمد » لأميل درمنغهم وتعليقات للامير شكيب ارسلان

من صفحة ٤٣ — ١٠٤

تعليق المؤرخين الاوربيين لسقوط مملكة فارس والمملكة الرومانية بيد العرب صفحة ١٠٥

الحضارة الاسلامية وورق العرب الفكرى في القرون الوسطى للامير شكيب ارسلان

من صفحة ١٠٦ — ١١٧

لماذا الاسلام راق بذاته والشعوب الاسلامية غير راقية وأقوال البرنس جوفاني لايطالى

والفيلسوف كوندوسه الفرنسى في المقارنة بين نظام الاسلام والكتلكة من صفحة

١١٧ — ١٢٧

مدنية الاسلام من صفحة ١١٨ — ١١٩

الرد على حساد المدنية الاسلامية المكابرين من صفحة ١٢٠ — ١٢١ للامير شكيب

اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها من » ١٢٢ — ١٢٤ »

سبب تأخر أوربة الماضى ونهضتها الحاضرة من » ١٢٥ — ١٢٧ »

المدنية العربية وخدمة العرب لعلم الطب للامير شكيب ارسلان من صفحة ١٢٨ — ١٣٦

الحركة العلمية في الحضارة العربية كما يصفها الفيلسوفان ولز الانكليزى ودابر الأميركى

من صفحة ١٣٧ — ١٥٥ للامير شكيب

العصبة الفارسية والاسلام - مهيار الديلمي و بديع الزمان الهمداني - للامير شكيب ارسلان
صفحة ١٥٦

نظرية « القومية العثمانية الاسلامية » و « القومية التركية الطورانية » للامير شكيب
ارسلان من صفحة ١٥٧ - ١٦٠

اسلام الفرس ومبدأ التشيع للامير شكيب ارسلان من صفحة ١٦١ - ١٩٣
المتاوله والشيعه للامير شكيب من صفحة ١٩٣ - ١٩٨

التشيع أيهما فيه أقدم الشام أم العجم للامير شكيب من صفحة ١٩٩ - ٢٠٤
ترجمة القرآن الى غير العربية للامير شكيب من صفحة ٢٠٥ - ٢١٣

محاضرات العرب للقسطنطينية للامير شكيب من صفحة ٢١٤ - ٢١٨

فتح الترك للقسطنطينية وخلاصة خططها للامير شكيب من صفحة ٢١٨ - ٢٣٧

التسامح والتعصب بين الاسلام وأوروبا للامير شكيب من صفحة ٢٣٨ - ٢٣٩

الفرق بين الخلافة والمملكه - هدى الخلفاء الراشدين - سيرة عمر بن الخطاب للامير شكيب
من صفحة ٢٤٠ - ٢٥٨

الفصل الأول من الكتاب في اليقظة الاسلامية من صفحة ٢٥٩ - ٢٧٧

المبشر زويمر ومفترياته للامير شكيب من صفحة ٢٧٨ - ٢٨٢

الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده للامير شكيب من صفحة ٢٨٣

الاستاذ الأكبر السيد محمد رشيد رضا للامير شكيب من صفحة ٢٨٤ - ٢٨٦

الفصل الثاني من الكتاب في الجامعة الاسلامية من صفحة ٢٨٧ - ٣٢٨

الدول المستعمرة والاسلام للامير شكيب من صفحة ٣٢٩ - ٣٣١

أثر الروسيا في الشرق قديماً وحديثاً للامير شكيب من صفحة ٣٣١ - ٣٣٣

الفتوحات الاسلامية في الهند والتقسيمات الجغرافية وعدد مساهمى كل ايلة للامير شكيب
من صفحة ٣٣٤ - ٣٣٧

الاسلام في جاوى - المستشرق هورغرونيه وسياسته نحو الاسلام - مسألة الحضارة

للامير شكيب من صفحة ٣٣٨ - ٣٥٧

مسلمو الفيلبين للامير شكيب من صفحة ٣٥٨ - ٣٦٣

الجزائر الهندية الشرقية الهولندية - محاضرة السيد اسماعيل العطاس من صفحة ٣٦٤ - ٣٧٥